نظرة في العلاقة بين اليهودية والمسيحية

سلوم سركيس

لعل أدهى آفات هذا العصر ما يسمونه « الاعلام » نظراً الى ما يعتري غالباً نقل الخبر من تشويه وما يحدث من بلبلة • واذا بالرقي الذي كان من المفروض أن يزيد الدنيا وعياً هو نفسه تولى مهمة التضليل • واذا بالمفاهيم جميعاً تغمض يعبث بها المذيع ومن وراءه كيفما شاؤوا لأن بث الكلمة في سلطان من يود لو يصدقه السامعون لا في يد العارفين •

الذين في هذا القرن ما زالوا يحتفظون بحد أدنى من الوعي يعرفون أن في هذا القرن أحداثاً ثلاثة شوهها الاعلام وهي تنغص على المفكر عيشه لأنها أبرزت البهيمية في صور لا يقرب منها شيء : المأساة الفلسطينية والمجازر النازية وخزي هيروشيما ونجازاكي • والذين يفكرون يعرفون أن هذه الثلاثة مرجعها واحد : أصالة الهمجية • والذين يفكرون لا يستغربون الأحداث بقدر ما تقلقهم بلادة الناس حيالها • والذين يعرفون يهمهم أكثر ما يهمهم أن يعملوا على ايقاظ الضمير لدى الناس ما أمكن حتى يعلو الانسان على البهيمة ما أمكن •

الجريمة في فلسطين ما زالت فصولها تتوالى سلسلة لا تنقطع من بدائع توحش المتمدنين • ولأن الفكر تتقلص مواقعه يوماً بعد يوم قلما تجد من يبرز في المأساة الفلسطينية مغزاها الديني (وهو أهم أبعادها) بأنها الدليل القاطع على انهيار الدين الأخلاقي • وما دام هذا الموضوع من صميم اهتمامنا أخذنا على عاتقنا أن نمهد له قدر المستطاع • وما دام كثير من الشعوب التي تسمى « مسيحية » مسؤوليتها في الفاجعة الفلسطينية أو ردة الفعل تجاهها كانت مخزية رأينا أن ننظر في العلاقة بين اليهودية والمسيحية عموماً دفعاً للخلط وتبيناً لواقع الأمور •

هنالك من رأى أن اليهودية أشبه بجذع نشأ عنه فرعان : المسيحية والاسلام(١) • وهو ما يعنون عموماً كلما تكلموا عن الديانات « التوحيدية » أو « السماوية » • وليس الغرض هنا تمحيص هذه المفاهيم المتخمة التي لا تعرف من تاريخ الله والناس سوى قرون معدودة فهي حسيرة ولا ترى من تاريخ الله والناس في حقبة ضيقة سوى ما انطلق من الشرق الأدنى • جهل واستعلاء وتمويه أفسدت المفاهيم كلها فأنكرت على الله حضوره في تاريخ الناس جميعاً وأنكرت على سواد الناس علاقتهم المباشرة بالله •

.. نطق مونتسكيو وسواء كان اليهودية والمسيحية والاسلام ثلاثة مفاهيم تعريف كل منها واحد واضح • فوجب أول ما وجب لفت النظر الى لزوم التمييز •



اذا عرّف الاسلام بأنه الحنفية أو الدين مطلقاً(٢) فليس فرعاً من جذع اليهودية وانما علا على كل دين وطائفة فكان منذ أن كان الانسان يتألف من الذين وحدوا الله فعلا لاقولا بأن استقاموا عملا لا يفرقون بين الناس ولا همّ لهم سوى الاحسان الى عيال الله جميعاً • أما اذا عرّف الاسلام بأنه المذهب الذي نشأ في القرن السابع وفي الجزيرة العربية فالقول انه فرع من فرعي اليهودية قول غامض ليس من موضوعنا أن نخوض فيه •

أراد النبي أن يكون تاج الرسل فدعا مسيحيي الجزيرة ويهودها الى الاعتراف به وأقر ما لديهم من كتاب ولما أبوا انقلب عليهم واتهمهم بتحريف الكتاب فلم يجد المسلمون حرجاً في الاستغناء عن التوراة والانجيل • وكذلك المسيح أراد أن يكون بادىء ذي بدء نبي اليهود(٣) ليردهم الى دين الأنبياء ثم يرتفع بهم الى كمال التوحيد(٣) • ولما أبوا انقلب عليهم وتوجه شطر الأمم ولكنه لم يتنكر للكتاب فعلم قولا وعملا ولم يأت بكتاب لأن دين المسيح بدقيق القول دين روح لا دين اشتراع ، وكانت سيرة المسيح هي القاعدة لا حرف المخطوطات ولا تأويل المؤولين • ويبدو أن المسيحيين لم يفطنوا الى كتابة شيء الا بعد غياب المسيح واستجابة لظروف مختلفة فكان تصنيف الانجيل وما يسمى بالعهد الجديد وأصبحت كلها مراجع ثانوية ليست الأساس في شيء الا بقدر ما تعكس مثال يسوع •

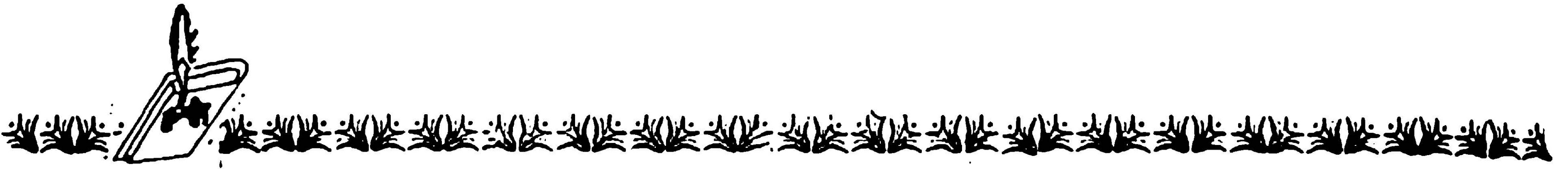
هنا تبدأ المشكلة • وهي على ثلاثة وجوه •أولها أن الرسل والمسيحيين الأولين كانوا بالأصل يهوداً على غرار معلمهم وعلى غرار معلمهم تمسكوا بالتوراة والأنبياء ثم اذ أبى اليهود الاعتراف بأن يسوع هو المسيح توجه الرسل شطر الأمم فخرجت المسيحية عن اليهودية واحتفظت بالتوراة والأنبياء فكان بين الطائفتين تراث مشترك وكان بينهما نظرياً وعملياً خلاف جوهري • ــ مما يعني (وهذه مشكلة ثانية) أن المسيحيين لا يحق أن يسموا بالتدقيق أهل كتاب الا بقدر ما يعترفون بأن التوراة والأنبياء ما تزال قائمة لأنها من الأصل أنشئت تمهيداً لمجيء المسيح • ولا يستقيم للتوراة والأنبياء فهم وتأويل الا بأن يسوع هو غاية التوراة والأنبياء • فكأن المسيحيين بعد أن تسلموا من اليهود كتب التوراة والأنبياء يدّعون أنهم أولى بتأويلها وكان ذلك في نظر اليهود ادعاء كبيراً • فكانت المنازعة كما سنرى • ــ وعليه (وهو الوجه الثالث) فالمسيحية لم تنفصل عن اليهودية الا اضطراراً وكان نشوء الواحدة على حساب الأخرى فكانت العلاقات دوماً مضطربة ذات وجهين طوال تسعة عشر قرناً حتى استفحل تحكم اليهود في الاقتصاد الأوربي فاشتد العداء وأحدث الصهيونية وتبناها على حساب الاسلام •

وعليه نقسم بحثنا أربعة أقسام :

١ ــ مشكلة الفصال المسيحي •
٢ ــ الانعزال اليهودي ومناهضة اليهودية •
٤ ــ ظاهرة العطف على اليهود •
٤ ــ الضياع المسيحي تجاه التحول الصهيوني •

١ ــ مشكلة الفصال المسيحي :

بدأ يسوع بالقول ، لم آت الا الى الخراف الضالة من آل اسرائيل ، وانتهى بالقول ، هو ذا ملكوت الله ينزع منكم ويعطى أمة تؤاتي ثماره ٠٠٠٠ان العشارين والزواني سيسبقونكم الى ملكوت الله ٠٠ سيأتون من المشارق والمغارب والشمال والجنوب ويتكئون في ملكوت الله وأما بنو الملكوت فيلقون خارجاً ، فكانت رسالة التلاميذ آخر الأمر أن يبشروا بالانجيل الخليقة كلها(٥) • هذا تحول لا لبس فيه يكشف بوضوح كيف أن اليهود جعلوا من التوحيد ديناً قومياً شكلياً مغلقاً فعجز الأنبياء جميعاً عن فتحه حتى يصبح روحياً انسانياً • وكانت معجزة المسيح في أنه فتح باب التوحيد لجميع الناس بأنه هدم حاجز العداوة والتمييز بين الناس وازدرى الشكليات وكسر طوق الشعائر والعقائد حتى جعل من الرحمة والمحبة جوهر التوحيد فكان التوحيد دين الحرية المطلقة •



الا أن عجينة النـاس أضعف من أن تحمـل المسيحية كما أرادها المسيح لأنها أضعف من أن تحمل الحرية ٠ فما لبث الرسل أنفسهم بعد غياب معلمهم أن تحيروا واختلفوا في مدى الفرق بين اليهوديـة والمسيحية ٠ ذلك أن كثيراً من اليهود المرتدين لـم يفهموا أن روحانية المسيحية لا تتماشى والتشريعات الموسوية فلم ينفكوا يجارون اليهود في شعائرهم بل حاولوا أن يفرضـوا تلـك الشعائر على الـذين اعتنقوا النصرانية وهـم من أصل غير يهـودي ٠وليس أدل عـلى عمـق ذلك الصراع النفسـاني وخطورة تلك المرحلة (مرحلة الفصال المسيحي)من الأسلوب الذي به حاول الرسول بولس جمـع الأضداد وتورية المتناقضات في رسالته الى الرومانيين ٠ وليس أدل على غموض الحلول التي جاء بها مما أتاحته من استغلال في المجمع الفاتيكاني الأخير حيث عجز الغربيـون عن اسـتيعاب أبعاد المأسـاة الفلسطينية (وهي في جوهرها دينية) فلم يطغ على اهتمامهم سوى التودد لليهود لدواع « انسانية » ٠ بادرة أخـرى من بوادر الضمائر المريضـة نقف لديها جلاءً للمفاهيم الأساسية في هذا الموضوع ٠

« ان لي غما شديداً ووجعاً في قلبي لا ينقطع ٠ولقد وددت لو أكون أنا نفسي مبسلا عن المسيـح من أجل اخوتي ذوي قرابتي بحسب الجسد الذين هم اسرائيليـون ولهـم التبني والمجـد والمواثيـق والاشتراع والعبادة والمواعيد والآباء ومنهم المسيح بحسب الجسد »(٦) ٠ تلـك هي المأسـاة وذلك هو أصل الخلط ٠ تحول المسيح عن شعبه ليغمر الدنيا فاذ سعى رؤساء شعبه ليصلب سأل الله أن يغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون(٧) ثم أنبهـم استفانوس على كفرهم فرجمـوه فقال وهو يسـلم الروح : يا رب لا تقم عليهم هذه الخطيئة(٨) ٠ وهذا بولس أثـاره استعلاء المرتديـن الى النصرانية من غـير اليهود على اليهود فذكّرهم أن الايمان نعمة مـن الله يمن بها على من يشـاء فلا يفخرن أحد عـلى أحد ولا يأس من خـلاص أحد لأن « مواهـب الله ودعوته لا ندم عليها » وراح يستشهد التوراة على ذلك ففهم المؤولون أن بولس يتنبأ عن ارتداد اليهود جملة الى الانجيل ٠ ومعلوم أن المسيحيين الأولين كانوا يتوهمون أن عودة المسيح قريبة ٠ فان يكون بولس توهـم أن الأمـم قريبـاً ستدخل جملـة في النصرانية فيقتنع الشعب اليهودي ويدخل بدوره فعذر بولس واضح ٠ أما أن يعللنا المؤولون بذلك في القرن العشرين لمرض في نفوسهم والمفاهيم كلها تغيرت ونحن نرى ما نرى فذلك هرج كبير ٠ تجري الأيام فتزيد الفرقة بين المسيحيين ويزيد الانحلال في المسـيحية ٠ وكذلك اليهوديـة غمضت بين ديـن وعنصرية وصهيونية ودولة فأيها ترتد والى أي مسيحيـة ؟

أساساً يجب التنبه الى أن اليهودية في جوهرها عصبية قبلية وأن المسيحية في جوهرها فردية : «من أحب أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني ومن أحب ابناً أو بنتاً أكثر مني فلا يستحقني ٠٠٠ وكانـت جموع كثيرة تتبعه فالتفت وقال لهم : ان أتى الي أحد وهـو لا يبغض أباه وأمـه وامرأتـه وأولاده واخوته وأخواته بل ذاته أيضاً فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً »(٩) « سيشاقّ الأب الابن والابن الأب والأم البنت والبنت الأم والحماة كنّتها والكنـة حماتها فأعداء الانسان أهل بيته »(١٠) ٠ فان يكون بولس وغيره من الرسل نقلوا الى المسيحية مفهوم الشعب المختار فتصوروا الشعب المسيحي وكأنـه وارث المواعيد الموسوية واعتبروا أنهم محظوظون فتمنوا أن ينعم بنو قومهم بما نعموا به ذلك يمكن فهمـه لأن العصبيـة أمر طبيعي ٠ أمـا أن يلوك اللاهوتيون مثل ذلك اليوم ليبرئوا ذمة الغربيين من عار تاريخهم فالأمر ذو دلالة ينبغي فهمها ٠

يروي بولس نفسه في رسالتـه الى أهل غلاطيـة (١١/٢ ـ ١٤) كيف جابـه بطرس اذ رآه يتحاشى مسايرة المرتدين الى النصرانية من غـير اليهود خوفاً من المرتدين الى النصرانية من أصـل يهودي ٠ ذلك أن بولس هو الذي سعى وأفلح أكثر من سائر الرسل في تحرير المسيحيين الأولين من عقدة اليهودية ٠ وفي الرسالة الى أهل روما ذاتها يميز بين اسرائيل الجسدي واسرائيل الروحي : « ليس جميع الذين من اسرائيل اسرائيليون ولا لكونهـم من نسل ابرهيم هم جميعاً أبناء ٠٠٠ ليس أبنـاء الجسد هم أبناء الله »(١١) ٠ ولكنـه ما أن ينطـق بلسان العقل والواقع حتى تعـود اليه العصبيـة والعاطفة فيتذكر نبوءات غامضة كانوا يؤولونهـا بأن اسرائيل سيقلس بمجيء المسيح ٠ فـاذ يرى



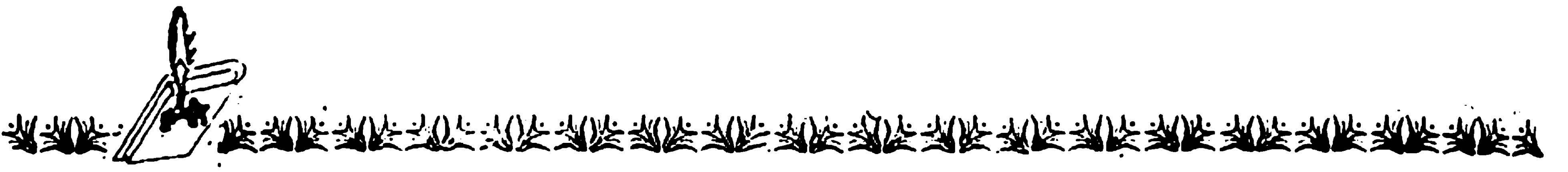
بولس أن المسيح جاء وتخلف معظم اسرائيل يعدنفسه ويعد المسيحيين الذين من أصل غير يهودي أن « جميع اسرائيل سيخلص » متى دخلت جميع الأمم في الكنيسة (١٢) ٠

نلح بأمر هذه النصوص لأنها هي نفسها استغلها الأساقفة الغربيون في مجمع الفاتيكان أملا في حل عقدهم تجاه اليهود كما قلنا على أساس « لاهوتي » ٠ وهنا تجدر الملاحظة أن الانجيل اذ يبرز عقوق المسؤولين في ملة اليهود ومعاندتهم جميع الأنبياء حتى يسوع وحكم يسوع عليهم بالعقم الروحي انما يروي الانجيل ذلك بلا تردد ولا اشكال ٠ أما بولس فتجده يتخبط في « المشكلة » فيكد في كدس الحجج واستنباط المخارج حتى يبين أن المسيح ثنى التاريخ في اتجاه جديد وأن شعب الله لم يعد عشيرة محصورة في بقعة ضيقة ولا شتاتاً قليلا مبعثراً في جميع الأنحاء وسط أمم كثيرة ، انما شعب الله هم الذين من كل ملة تحت السماء فيهم جوع وعطش الى العدل لأن لهم طاقة بالحب ٠ ثم اذ يرى الناس من كل أمة يدخلون في دين الله ويرى معظم أبناء شعبه خارج الملكوت بعد أن كانوا على ما يعتقدون شعب الله الخاص ينقبض قلبه وتضيق به الدنيا فيعزي نفسه بالأوهام ٠

هذا الوضع النفساني الخاص لم يجد اللاهوتيون الغربيون غيره أساساً لعشرين سنة خلت حتى يدّعوا أن اهتمامهم بمصير اليهود انما هو انساني ديني لا سياسي ٠ فحق التساؤل عن تسعة عشر قرناً من السنين الخوالي كيف أغفل المسيحيون ذلك « اللاهوت » فحقروا اليهود الذين ما فتئوا يعزلون أنفسهم وحقروهم رداً على حقرهم الناس وحقروهم لأنهم حقروا المسيح ٠

لا شك في أن المسيحيين في كل ذلك ومن وجهة دينهم أخطاؤهم أكثر من أن تحصى وأكبر من أن تغفر ٠ ولا شك في أن تصميم مجمع الفاتيكان الثاني في التودد الى اليهود كان تصنعاً مغفوراً لو لم يتناسى الفرق بين اليهودية ودولة اسرائيل ٠ أما أن تصلح مخارج بولس حججاً « لاهوتية » في هذا الموضوع ذلك منكر لأن شمول الاعلام في هذا القرن (أعني انفتاح الناس أجمعين بعضهم على بعض) قلب العلاقة بين الدين والطائفة رأساً على عقب ٠ صحيح أن العلاقة الدينية منذ ألفي سنة أصبح مقرها الأساسي والجوهري في ضمير الفرد : « اذا صليت فادخل مخدعك وأغلق بابك وصلّ الى أبيك الذي يرى في الخفية وأبوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك (١٣) ٠ الا أن انغلاق الناس بعضهم عن بعض بالمسافات والموانع الطبيعية لم يكن يتيح للشخصية الا أطراً وآفاقاً ضيقة محصورة في بيئة معينة فلم يكن للشخصية من قاعدة أولى الا الانتماء ٠ فاذ رأينا الرسل بعد كل ما علّم يسوع وما عانى يترددون على هيكل سليمان حيث تقدم الذبائح الدموية المادية ، واذا رأينا بولس نفسه يأبى أن يدير ظهره تماماً لما مضى فلا ينظر الا الى المحراث الذي بين يديه ، واذا رأينا الكنيسة لا تقطع علاقاتها بالشعائر الموسوية ويوم السبت الا في القرن الرابع ، واذا رأينا الأغلبية الساحقة من المسيحيين لا يتقززون مما يملأ الفروض الكنسية من عبارات العهد القديم التي تتنافى أصلا وعبادة « الروح والحق » (١٤) أدركنا سهولة الانتماء بأنه مادي وعسر الدين بأنه روحي ٠ أما وقد فتحت المواصلات والاعلام الناس بعضهم على بعض فترى الروابط التقليدية كلها تنحل دفعة واحدة فلا يبقى منها الا الظاهر الذي لا طائل فيه وترى الفرد يتحير باكراً أمام طرق عدة فيتبعثر حتى لا يبقى للشخصية فيه من امكان أو باكراً يرسخ في الشخصية فلا يجد حرجاً في الخروج عن التقاليد جميعاً ٠ كهنة شرقيون رأيتهم منذ اعتداء الغربيين واليهود على فلسطين يعمدون الى كتب الصلاة الرسمية فلا يتورعون من أن يحذفوا منها كل ما يلمح من قريب أو بعيد الى صهيون واسرائيل وان ملأ ذلك التوراة !

أن يشفق بولس على اليهود بأن « منهم المسيح بحسب الجسد » وأن يتظاهر الغربيون بالعطف على اليهود لأن يسوع وأمه السيدة العذراء يهوديان ذلك لا يهم اللاهوت في شيء لأن بولس أصلا يهودي ومن مصلحة الغربيين أن يطووا صفحات الماضي ما أمكن ٠ فليست عاطفة بولس ولا سياسة الغربيين لاهوتاً ٠ أما اللاهوت فيقول ان المسيح اذ جحده رؤساء اليهود قال لهم : « هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً » ٠ وكان قد قال : « أمي واخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها » ٠ هذا هو اللاهوت وليس لنا



من انتماء أو عقدة تعمينا حتى نحرفه أو نتناساه ٠وكذلك مثل التطعيم على الزيتونة يمكن أن يكون له معنى في اطار الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحيةفي البدء فأعفوا من بعض ما التزمه اليهود الذين اعتنقوا المسيحية ٠ أما اليوم فلا يمكن أن يعنيشيئاً لأن مسيحيي اليوم عموماً لا علاقة لهم لا باليهودية ولا بالوثنية ٠ انما علاقة المسيحيين اليوم بأجدادهم وبجميع الناس على حد سواء ٠ جمع الناس في فئتي اليهود والأمم كان يعني شيئاً منذعشرين قرناً ولم يعد له من معنى ٠ وقد يهم اليهودي أن تجادله في أن يسوع هو مسيح التوراة والأنبياءأم لا ٠ ولكن المسيحي اليوم اذا كان على شيء من الثقافة واذا اهتم لايمانه فتساءل عن جدوىالمسيحية في هذا العصر فلن يفطن الى استفتاء التوراة ولا الأنبياء واذا استفتاهم فلن يشفوا فيهغليلا ٠ جدوى المسيحية اليوم بالنسبة الى العاملين لا تقوم في أن يكون يسوع ابن دواد أم لا ٠ انماتقوم في أن يجد الناس اليوم في تعليم يسوع ومثله حياة لهم ٠ وأن يدخل اليهود أخيراً في المسيحيةأم لا ذلك من عالم الغيب يهتم له أو يجتهد فيه من وجد في الأمر متعة ولا يزيد في المسيحية أو ينقص منها شيئاً ٠ مواهب الله ودعوته حتماً بلا ندامة ٠ أما أن يعني ذلك أن اليهود أخيراً سيرتدون الىالمسيحية فذلك أقرب الى التنجيم ٠

٢ ـ الانعزال اليهودي ومناهضة اليهودية :

أ ـ التصميم في الانعزال اليهودي ٠

غداة دفن المسيح يروي الانجيل أن كبار كهنةاليهود والفريسيين اجتمعوا الى الوالي الروماني قائلين : « يا سيد ، تذكّرنا أن ذلك المضل قال وهوحي « اني بعد ثلاثة أيام أقوم » فمر أن يحرس القبر حتى اليوم الثالث فلا يسرقه تلاميذه ثميقولوا للشعب انه بعث من بين الأموات فتكون الضلالة الأخيرة شراً من الأولى ٠ وجاراهم الوالي فضبطوا القبر ٠ ولم يجدهم ذلك شيئاً لأن المسيح بعث وتلاميذه شهدوا والعالم آمن بشهادتهمفانصرف زعماء اليهود الى اضطهاد المسيحيين املا في أن يخنقوا الدين الجديد قبل أن يستفحل أمره ٠وكان من ذلك على ما تروي أعمال الرسل أن سجنوا الرسل ثم قتلوا استفانوس (حول عام ٣٧) وسعواضد بولس في تسالونيكي (عام ٥١) وفي كورنثوس (عام ٥٢) وقبضوا عليه في الهيكل (عام ٥٨)ولكانوا قتلوه لولا تدخل السلطات الرومانية التي انتهت بارساله الى روما على أساس تمتعهبحق المواطنة الرومانية ٠ ومن بعد ذلك قتلوا يعقوب أخا الرب (عام ٦٢) وحرموا المسيحيينبأنهم خوارج (عام ٨٠) في جبنة[١٥] واضطهدوهم في القدس بين (عام ١٣٢ و ١٣٥) لأن المسيحيين رفضوا مشاركتهم في تمردهم على الرومانيين[١٦] ٠

بعد خراب أورشليم النهائي (عام ١٣٥) أمعناليهود في الافتراء على المسيحيين ولا سيما في مدارسهم الكبرى من مثل مدرسة طبريا ومدرسةبابل ٠ والمعلوم أن المشنا (وهي الجزء الأول من التلمود) يعود تأليفها الى تلك الفترة[١٧] ٠ وفيهذا الشأن نذكر شهادة الأخوين ليمان (وكلاهما كاهنان كاثوليكيان ارتدا عن اليهودية) في كتابنشر في فرنسا (عام ١٩١٢) يصفان التلمودية بأنها « مؤسسة شيطانية » و « سور من الأكاذيبوالأخطاء المكدوسة » بل « اسمنت جهنمي خلطوا فيه اسم ابرهيم وموسى والأنبياء بأسخف الأساطير وأغرب تحريف للنبوءات والأم الافتراءات على المسيحية »[١٨] ٠

صحيح أن المؤرخ الروماني تاكيتوس (٥٥ ـ ١٢٠) لفت النظر الى ما يميز اليهود من أنهم « يبغضون ويعادون جميع من سواهم » بقدر ما يؤلهون ذواتهم بأنهم الأقلية الأمينة[١٩] ٠ الا أن كتاباً غاية في البذاءة انتشر في أوائل القرون الوسطى تحت عنوان « توليدوت يشوع » (حياة يسوع) ما زال يتداوله يهود بولونيا واوكرينيا وحق القول فيه انه « حتى أواسط القرن التاسع عشر ساد وأفسد النفس اليهودية بأن غذى فيها العداءوالبغضاء »[٢٠] عداء وبغضاء يمكن من ود الاطلاع على بعض مظاهرها أن يقرأ كتاباً صدر باللغةالفرنسية عام ١٩٤٦ بعنوان « الظلمات البرانية » في الصفحات ٤٨ ـ ٥١[٢١] ٠ وفي أوائل القرونالوسطى أيضاً كان الحميريون في اليمن ينتمون الى



الكاثوليكية · الا أن سيطرة اليهود في الجزيرة العربية أدت الى حكم ذو نواس (ذو النون) فاضطهد المسيحيين (شهداء نجران) حتى غلبه ملك الحبشة(٢٢) ·

ويشهد الأخوان ليمان أن اضطهاد المسيحيين كان قائماً عند اليهود حتى أوائل هذا القرن : « في امبراطورية النمسا بلغ اليهود (في اضطهاد المسيحية) كل مبلغ · ان قدراتهم لا حد لها · وقد تعاونوا والماسونية فاستعملوا الذهب والصحافة ليبيدوا المؤسسات الكاثوليكية في تلك البلاد ويهدموا ايمان الناس · ولقد باح لنا أحد الأساقفة (الكاثوليك) الألمان أن « اليهود استقلوا (في ما مضى) عن الكاثوليك · أما الآن فالكاثوليك بهم حاجة الى أن يستقلوا عن اليهود · لقد تسبب لنا اليهود في شرور كثيرة · ولا أنكر ما لديهم من العبقرية الفذة · الا أن عبقريتهم حتى الآن لم ينجم عنها الا الخراب »(٢٣) ·

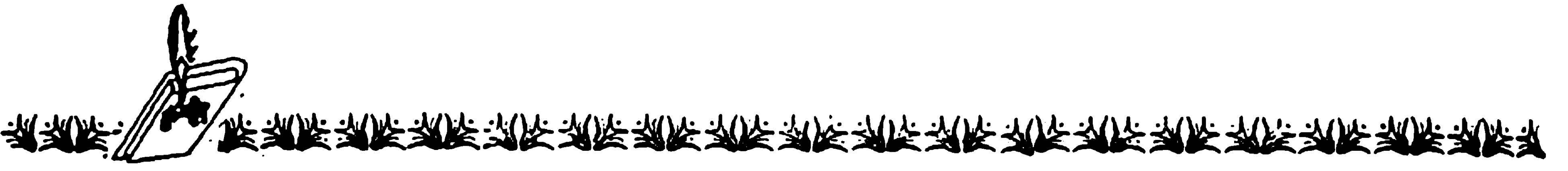
بيد أن وضع اليهود عموماً في أوربا حتى القرن التاسع عشر يعرف في التاريخ الحديث بكلمة جيتو وهي مفظة ايطالية ربما كانت من أصل عبري يعني كتاب الطلاق ولكنها تعني في الايطالية سكب المعادن ويبدو أن اليهود في البندقية كانوا في أوائل القرن السادس عشر يقطنون معاً في جوار مركز تلك الصناعة فامتد معنى اللفظة ليعني الحي بأجمعه ثم اتخذ طابع الازدراء فأطلق على كل المجمعات المعزولة وان كانت أحياناً حسنة البناء ·

الجيتو اذن حصيلة نفسية معينة أكثر منه حصيلة تاريخ معين · اليهود في الشتات ومنذ البدء(٢٤) كانوا يعزلون أنفسهم تميزاً وخوفاً · يقول الأخوان ليمان في هذا الشأن : في القرون الوسطى ، حرص اليهود وسط القوميات المسيحية على التمسك بسننهم فاختاروا العزلة حتى لا يختلطوا · وكان من ذلك الجيتو أو « اليهوديات » أرادها اليهود وأرادها المسيحيون فكان لكل « يهودية » نظام متشنج محوره الحاخام »(٢٥) · ولا ريب في أن طبيعة التشريع الموسوي الذي يتناول فروضاً كثيرة معقدة وما زاد عليها علماء الناموس من اجتهادات هي التي أساساً أوجدت الجيتو وكأنه ضرورة(٢٦) · الحاخامات حاولوا طمس قضية المسيح بمختلف التحريمات وبأن أنابوا درس التلمود مناب التوراة · والتلمود في جملته اثنا عشر مجلداً بقياس الصحيفة تحتوي اجتهادات الحاخامات وهي اجتهادات ناشفة تحوم حول أمور تافهة من مثل المأكولات والنجاسات والسبت والتوقيت الديني مما جعل يهودياً معاصراً (أوائل هذا القرن) يعتقد أن التلمود « هذا الكتاب الثقيل ثقل الرصاص والذي تربو فروضه في ضيقها مئة ضعف على فروض موسى ، منذ أن أخذ يثقل كاهل اسرائيل لم يعد لليهود تاريخ(٢٧) ·

هذه العزلة أرادها اليهود وأرادها المسيحيون طبعاً لأسباب مختلفة · واذ كانت نتائجها خطيرة بالنسبة الى موضوعنا نتساءل عما لها من ميزات ·

معروف أن في الجماعات البدائية القديمة ميلا الى التقريب بين مفهوم الغريب ومفهوم العدو · وأسباب ذلك أيضاً معروفة نظراً الى صعوبة المحافظة على الملكية وضيق موارد العيش وحصر مقومات الشخصية في الانتماء العشائري وتحجيم مفهوم الألوهة نفسها حتى تنحصر اهتماماتها بشؤون القبيلة من الدفاع وخفر الحدود وخصب الماشية وتأمين المواسم وحراسة البيوت · ولأن ذلك كان هو المألوف فالقبائل التي ساد بين ظهرانيها حرمة الضيف واكرامه لم يذع صيتها فحسب بل كانت تتباهى بذلك الصيت بأنه دليل انسانية · وعلى أن الامبراطوريات الشاسعة وديانات التوحيد وحركة النقل والنشاط التجاري فتحت القوميات بعضها على بعض وخلطتها بأن سهلت الهجرة بل التجنيس نرى حتى أيامنا هذه الجاليات كثيراً ماتتجمع في المهجر في أحياء معلومة متلاصقة فما الفرق بينها وبين الجيتو ؟

ان كانت ظاهرة الجيتو فريدة من نوعها فمرجع ذلك على ما يبدو الى مفهوم الهوية اليهودية · وما دامت حدود موضوعنا لا تسمح بطرق هذا الباب نكتفي بالتلميح الى الفرق في أن تقول هذا



مسيحي وهذا يهودي · فاذا قلت عن فلان انه مسيحي فهم السامع أنك تصنفه في ديانة توحيدية لعل أتباعها رسمياً يناهز عددهم المليار وهي اذانقسمت الى شيع مختلفة فقد اجتمعت على اسم شخصية تاريخية ظهرت لما يقرب من ألفي سنةكتابها الانجيل وعبادتها مفتوحة كثيراً مايمكنك أن تسمعها أو تشهدها في الاذاعة في مناسبات معينة · ـ المسيحي هذا قد يمكنه غداً أن يتخلى عن ايمانه فيمسي بلا انتماء ديني معين أو ينضم الى جماعة دينية أخرى فلا يغير ذلك في انتمائه الوطني أو السياسي شيئاً ولا يحدث ذلك في نفسه أو وضعه عقدة · ـ أما اذا قلت عن فلان انه يهودي مال السامع العادي الى الاعتقاد لا أن فلاناً ينتمي الى الأقلية الدينية التي ما زال كتابها التوراة فحسب بل انه قد يكون من سلالة شعب التوراة وانه مختون يحمل في جسده شرط انتمائه فاذا فقد ايمانه بالتوراة بقي مع ذلك يهودياً واذا ارتد من اليهودية الى المسيحية مثلا أمكنه القول انه يهودي وانه مسيحي في آن فأنكر عليه اليهود انتماءه اليهم ووجد بين المسيحيين « لاهوتيين » يؤكدون له أنه بانتقاله الى طائفتهم انما ارتقى الى كمال اليهودية !

هذا اللغو ما زال قائماً منذ ألفي سنة بل ازداد منذ مئة عام بتأثير الأحداث السياسية واستغلال وسائل الاعلام · لقد زال الجيتو رسمياً في أوربا ما بين الثورة الفرنسية وعهد البابا بيوس التاسع ولم يمنع ذلك تواتر الأزمات والمجازر حتى الحرب الأخيرة ومأساة فلسطين واذا بالحلول التي حلموا بها تؤول كلها الى أسوأ من الجيتو فكأن الجيتو كان أهون الشرور وكان الانعزال اليهودي مراجعه أعمق من أن يتناولها المحللون فارتأى بعضهم أن هناك لغزاً يهودياً سموه بلغة اللاهوت المسيحي « السر اليهودي » راحوا به يتنبأون فما زال بعضهم يستخرج من الكتب البرهان أن « شعب الله المختار » لعنة الله استقرت عليه منذ عشرين قرناً فلا تغرنا مناورات الأمم ولا عنفصة اسرائيل انها سبل الانتحار · فيما يؤول آخرون بأن القديس بولس تنبأ عن خلاص اليهود في آخر الزمان بأن يدخلوا في دين المسيح فصبراً !

أن يكون هناك لغز أو سر فهو أحد الغاز وأسرار هذا الكون التي لا حصر لها ولا حد فلا يهمنا في شيء · المهم أن هنالك وقائع يمكن أن نتبصرها لا تنبؤاً بما سيحصل بل قراءة لما يجري ·

الجيتو اليهودي أراده اليهود وأراده المسيحيون لأسباب سنتطرق اليها · الا أن أساسه ليس ارادة(٢٨) · أساسه مفهوم الشعب المختار الذي أخفق فلجأ الى العزلة خوفاً من أن يبيد معللا نفسه بمواعيد آخر الزمان ·

تجمع الجاليات أو الأقليات في أحياء معروفة من المدن الكبرى حتى يومنا هذا أمر طبيعي لا يستغربه أحد لأن الطيور على أشكالها تقع ولا سيما في الغربة حيث يفتقد المهاجر عموماً أكثر ما يفتقد من يفقه لسانه وتربطه واياه روابط الذكر من منشأ وأذواق وحاجات وتمنيات · ولا يمنعه ذلك من انشاء روابط جديدة مع أهل الوطن المضيف لأن الجاليات مفتوحة وان تجمعت · أما الجيتو فمنغلق حتى ان البلاد أو الحالات أو الحقب التي لم يتميز فيها وضع اليهود عن وضع الجاليات العادية في كل مكان ـ تلك البلاد أو الحالات أو الحقب مشهورة في التاريخ · ان كانت عداوة الأخوة أشرس العداوات فاليهود في الدول و المدن المسيحية كانوا يعتقدون أن أقليتهم هي الدين الحنيف وأن المسيحيين لا فرق بينهم وبين الأمم الوثنية · بل كان اليهود في وسط الأمم المسيحية الشامخة ينكرون على يسوع رسالته وينتظرون « المسيح » اليهودي الذي سيجعل من الأقلية اليهودية النخبة الطاهرة التي سوف ترث وتحكم الجميع ! أما بالنسبة الى أهل البلاد المسيحيين فالأقلية اليهودية هي بقية ذلك الشعب العقوق الذي ما فتىء أنبياؤه عبر التاريخ يقرعونه بأنه خان الله فحق عليه الانتقام · ـ كان اليهود يتجنبون مخالطة غير اليهود خوفاً من أن يندمجوا فيذوبوا وكانت البلاد المضيفة تعزلهم لتمسكهم بتقاليد وسنن فقدت معناها بتحول الزمان والمكان · ـ وانك لتجد لدى المسيحيين والمسلمين ما لا يختلف الا قليلا عن مفهوم الشعب المختار من « كهنوت



ملوكي » و « أمة مقدسة » و « خير أمة » . الا أن المسيحيين والمسلمين اذ كانوا يتباهون بذلك لم يكن التباهي من باب التعزية لأنهم كانوا ينظرون الى عددهم فيؤولون دخول الناس في دينهم أفواجاً بأنه دليل حق . أما اليهود فلم يكن لهم من تعزية بعد أن فقدوا السلطان وأمسوا قلة مبعثرة سوى أن يقنعوا ذواتهم بأن النخبة لا تكون نخبة ما لم تكن قلة(٢٩) .

تلك العقدة النفسية عقدة الشعب المختار التي هي أساساً مرجع الجيتو ميزتها اذن في أنها تستدعي الازدراء والضغينة بقدر ما تقوم على الترفع وليس بين الناس هوة أعمق من هذه الهوة ولا من طرق تغذي العداوة أنجع من هذه الطرق .

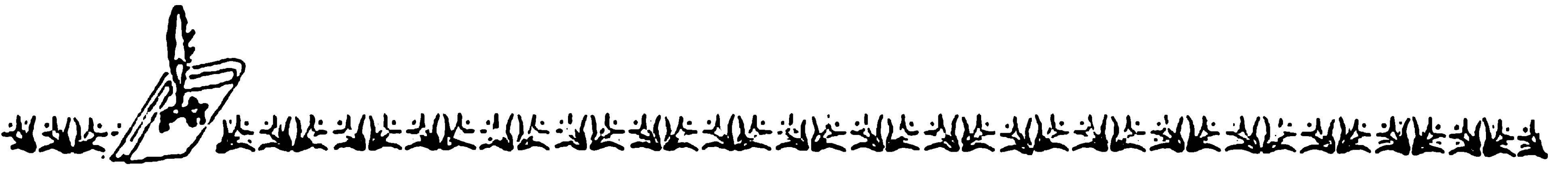
وكان التاريخ لم يأبه كثيراً ولا قليلا ليزيل أو يضعف وطأة العقدة تلك بل زاد في خطورتها بأن سمح اليهود لأنفسهم بما كان محرماً لدى المسيحية والمسلمين في القرون الوسطى أعني الربى . ولعلهم فعلوا أملا في أن يتبوؤوا مكانة في المجتمع الغربي بعد أن سدت الأبواب في وجوههم . وقد أفلحوا في الغنى ولم يفلحوا في تبييض صفحتهم اذ كانت سمعة اليهودي بأنه عنصر غريب فساءت بأنه طفيلي مراب(٣٠) أي ان التنكر العنصري تفاقم بالذريعة الأخلاقية . وأغرب ما في الأمر أن اليهود لم يكونوا ليبرروا وجودهم ويدعوا أن لهم فضلا على التاريخ الا بأنهم تفردوا في حمل رسالة التوحيد وما تفرضه من مقاييس أخلاقية(٣١) . واذا بالمفكرين الغربيين يعيرون اليهودي بأن لا اله لديه سوى المال(٣٢) . أما حصيلة ذلك كله فمعروفة بقدر ما هي حزينة اذ علا شأن المال اليهودي في اقتصاد كثير من الدول الغربية فنال اليهود شيئاً من الحرية ابتداء من الثورة الفرنسية . ثم هيمن المال اليهودي على الاقتصاد الأوربي خلال القرن التاسع عشر أعني في الوقت الذي ترعرعت فيه القوميات فتحول الازدراء هلعاً وبغضاً ومجازر . أعني أن اليهودي توهم أن ماله يفتديه بأن أخرجه من الجيتو وسها عن أن عقدته أعصى من أن تحل بالمال ما دام الناس يمجون من يشتريهم ويستغلهم فلا يقدرون الا من عاملهم بالحسنى . وكان من سهوهم مفهوم الصهيونية التي توهمت أن المعضلة اليهودية معضلة الشتات فلم تتصور حلا الا بالتجمع كأن عزلة الأقلية تزول مشكلاتها بأن ينعزل القطيع بأكمله وكأن هناك مصاعب بشرية لا مخرج منها الا الهرب في حين أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

ب ـ مناهضة اليهودية في الغرب :

من بلاهة « الاعلام » أنه عود الغربيين ومن يتلقف عنهم أن يسمي كل مناهضة لليهود «لاسامية» علماً بأن التاريخ لا يعرف شيئاً بهذا الاسم وبأن اليهودي اضطهد أصلا بأنه يهودي لا بأنه سامي واليهود جملة منذ الأصل وحتى اليوم لا يشكلون بين الساميين الا أقلية . ولا أدري أهم اليهود أوهموا الغربيين أنهم عصارة السامية أم أن العنصرية الآرية لم يخترعها هتلر وانما هي أصيلة في الغرب فظهرت في اللغة قبل أن تظهر في العقيدة أم ان لفظة « يهودي » أغلظ على أسماعهم من لفظة « سامي » ـ يبقى أن الحقيقة لا ينبغي أن يستحيي منها أحد .

مراسل صحيفة لوموند الفرنسية اذ ينقل خبر التصويت على الفقرة المتعلقة باليهود لا يترك سباباً الا ويورده تشفياً من آباء المجمع الفاتيكاني الثاني الذين لفتوا النظر الى ضرورة التروي في الأمر . ولا ريب في أنه باقتحامه الهيجا قصد الظهور بمظهر الفارس الذي يعرف الحق وينصره ناسياً أنه ينقل وقائع سلوك ديني لا وقائع جلسة سياسية . أعني أنه أراد أن يوهم قارئيه أنه من الفقهاء فكان من المهرجين لأن الحياة الدينية أبعد ما تكون عن الحياة السياسية فلا يمكن أن يحكم فيها بالحق والباطل على أساس الأكثرية والأقلية .

وعلى ذلك أعرب السطرين الأخيرين من تعليقه حول هذا الموضوع لألفت النظر الى عبارات معينة: « هذا التصويت ستكون له في الدنيا أصداء سيكولوجية بالغة . الا أن الأوهام المناهضة للسامية



جذورها عميقة فلا ينتظر من هذه الفقرة أن تحدث معجزات . لقد سبقت في تاريخ الكنيسة نصوص شبيهة ولم تفعل ،(٣٣) . ما دامت النصوص لم تفعل في الماضي فلن تفعل الآن . لماذا ؟ لأن مناهضة اليهودية في الغرب جذورها عميقة ، كما يعرف الصحفي، فكيف تقوم على أوهام ! ذلك أن الصحفي هذا (وأشباهه كثيرون) كان صالحه يقضي(عام ١٩٦٥) أن يتناسى جرائم الصهاينة ولن أستغرب اذا رأيته اليوم يجهد نفسه في تبريرما يفعلون . أن تختار بين العقدة والوهم فالوهم أصدق .

ثم أقرأ في قاموس اللاهوت الكاثوليكي (وأحد مؤلفيه من أشهر اللاهوتيين المعاصرين) السطرين التاليين في فقرة عنوانها « اليهودية والمسيحية » : „ اذا سألت عن لاهوت مسيحي كاثوليكي خلا أصلا من كل عداء لليهود في نظرته الى تاريخ الخلاص، فاعلم ان لاهوتا كهذا ما زال في أول نشأته »(٣٤) . هذا أيضاً قول غريب قول من يهمه أن يتودد اللاهوت لليهود أكثر مما يهمه أن يكون اللاهوت مسيحيا . أفنتهم الانجيل بمناهضة اليهودية وكاتبوه من اليهود ؟ أم يدعي اليوم مؤلفو القواميس ان مسيحيتهم أصدق من مسيحية الانجيليين والآباء الذين بدونهم ما عرفوا المسيح ؟ مناهضة اليهودية ما كانت قط لاهوتا وان شابت مواقف اللاهوتيين. ولا يجدي لاهوت يحاول تحريف الوقائع التاريخية وان كان من تأليف أصحاب القواميس .

الغلط نفسه تجده في ما يورده غريغوري باوم من رأي جيمس باركس : . في أيامنا هذه ومدينتنا هذه أكثر من ستة ملايين(٣٥) من جرائم القتل المتعمد هي حصيلة تعليم يتناول اليهود المسؤول عنه في آخر الأمر انما هي الكنيسة المسيحية وحصيلة موقف من اليهودية يعود أصلا الى تعليم العهد الجديد نفسه ،(٣٦) . مما يعني أن هتلر وحزبه تعلموا بغض اليهود وتعلموا الجريمة في الكنائس ولدى قراءتهم الكتاب المقدس ! جهل المؤلف وجود مجرى فكري أوربي وبالأخص الماني لقرن قبل هتلر ناهض المسيحية بأنها يهودية ، وجهل أن اليهود في ألمانيا القرن قبل هتلر لم يألوا جهداً في اثارة الألمان بأنهم سعوا في التمتع بامتيازات خاصة كالطفيلي يتكبر على ربه ، وجهل أكثر من ذلك أن القتل لا يمكن أن يحدث عن فكر أو دين وانما القاتل أبداً ضعيف يائس جبان . أن يكون أنبياء العهد القديم والعهد الجديد وآباء الكنيسة من أمثال خريسوستموس وأمبروسيوس وكبار اليهود من مثل سبينوزا وماركس ناهضوا اليهودية ذلك صحيح والمآخذ معروفة لا يجادل فيها أحد . أما ادعاء أن يكون هذا الواقع هو الذي أدى الى الثأر من اليهود ابان الحرب الكبرى الأخيرة فكأنك تعذر اليهودي لأنه يهودي وتؤثم المسيحي لأنه مسيحي .

رأينا أن الجيتو وان كان وجوده في ظل المسيحية مستهجنا فلا تسأل المسيحية عن وجوده لأنه عريق في اليهودية يلازم طبيعتها فهي بطبيعتها انعزالية تتسم الأنام فئتين اليهود على حدة وكل من سواهم الفئة الأخرى(٣٧) . وما دام الانعزال يستدعي طبعاً الحذر فالاحتقار فالبغض فالاضطهاد فلا عجب في أن تكون مناهضة اليهودية لم تولد بولادة المسيحية انما هي قديمة على ما يشهد به المؤرخون(٣٨) الذين اذ يأتون على الحقب التي شهدت ازدياداً في اضطهاد اليهود يخصون بالذكر القرن الرابع . ومعلوم أن القرن الرابع هو القرن الذي شهد في مطلعه بدء الحرية الدينية بعد ثلاثة قرون من الاضطهاد . مما يعني أمرين تجدر ملاحظتهما : أن الكنيسة المسيحية حالما انطلقت من عقالها أخذت تتضايق من تأثير اليهودية فيها فلم تكتف بقطع ما أمكن من الروابط كما أسلفنا وانما بدأت حملة على اليهودية أبرز من قام بها من الآباء يوحنا الذهبي الفم وأمبروسيوس وايرونيموس . شكا الذهبي الفم من الممارسات اليهودية التي كانت ما تزال قائمة في أنطاكية وهاجم اليهود في عظات ثمان مشهورة . وشكا ايرونيموس من اليهود بأن همهم التلذذ وبأنهم مرتزقة(٣٩) .

أما في القرنين الخامس والسادس فشهادة المؤرخين أن القسوة على اليهود صدرت عن الرهبان (وقد قويت شوكتهم) بأنهم وضعوا اليهود في صف الهراطقة . ثم قسا عليهم المشترع الكبير الامبراطور يوستينانوس الأول (٤٨٢ ـ ٥٦٥)(٤٠) .



بظهور الاسلام يقف اضطهاد اليهود في الشرقولا يتوقف في الغرب • يميز المؤرخون في القـرون الوسطى فترات من القسوة فاللين على اليهود ما خلاالحروب الصليبية التي كانت غاية في الشدة اذ أخذ عليهم (عدا شهرتهم في الربى) السرقة وقتل أطفالمسيحيين وتدنيس الأماكن المقدسة وتسميم الينابيع والسـحر ـ وذلك « في كل أنحـاء أوربا »(٤١) •وجدير بالذكر أن كبار المسيحيين فيتلك الحقبة بدلا من أن يعارضوا سوء معاملـة اليهود كانوا يعللـونالوضع اليهودي بأنه «شاهد على آلام السيد المسيح» وهي نظرية تعود الى القديس أوغسطينوس وزادعليهـا القـديس برناردس أن العـذاب اليهـودي « شاهد على اقتدائنا » • مما يعني أن اليهـود فيالقرون الوسطى كانوا يتحملون عقـاب ما ورد في الانجيل على لسان المسؤولين اليهود ابان محاكمـةالمسيح « دمه علينا وعلى بنينا »(٤٢) •

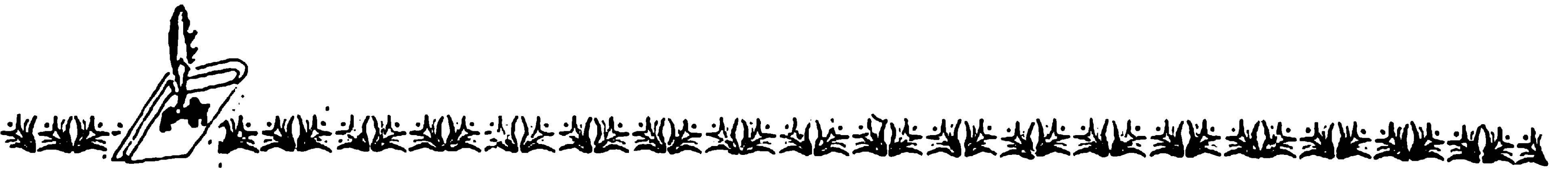
في مستهل العصر الحديث معلوم أن ملوك اسبانيا الذين يسمون ب « الكاثوليـك » بعد اخـراج العرب من الأندلس اشـتهروا بالعنف تجاه غـيرالمسيحيين فاضطهدوا اليهود (ومن بقي من المسلمين) بمساعدة الكنيسة الرسمية (محاكم التفتيش) •الا أن أوربا مـا لبثت أن التهـت بالتهافت عـلى الذهب في أميركا وما أدت اليه البدع الدينية مـنحروب (الشيع البروتستانتية) وما اكتشفت مـن تراث الأقدمـين الأدبـي (رونيسانس) فدخـلتالمسيحية الغربيـة في أزمة وحصـل فتور دينـي وتشكيك تسبب في انهيار الأطر الاجتماعية بالثورةالفرنسية وتحول عن الدين الى ما سموه العقـل وتفتت الروابط بين السلطان والكنيسة • مما أراحالأقليات بل سمح لليهود ابان الثورة الفرنسية بأن يخرجوا من الجيتو ويعتبـروا كمواطنين وكـانتالمبادرة تلك فاتحة مبادرات مثيلة في بلاد أوروبية أخرى طيلة الثلثين الأولين من القرن التاسع عشر(٤٣) •

دور اليهود في الثورات أو التحولات الأوربيةهنالك من بالغ في مداه وهنـالك من أنكره بأنـه افتراء كما سنرى • الواضح الأكيد أن اللين الذينأبداه الأوربيون تجاه اليهود في النصف الأول مـن القرن التاسع عشر لا يمكن تفسيره بأن المسيحية فيالغرب بلغت آنذاك درجة من العمق والصدق جعلتها تندم عما فات وتعامل اليهـود معاملة أقرب الـىأخلاقية الانجيل • يبدو أن دور المال اليهـودي في الاقتصاد الأوربي أخذ يشتد كما ألمحنا فكان لليهودفي حكومات ذلك العهد أصدقاء •

الا أن تأثير الأقليات في السياسة دوماً مغامرة•الأحزاب كلها ترنو الى الأقليات طمعاً في استغلالهـا فاذا مالأت الأقليات فئة معينة وتسلمت تلك الفئـةمقاليد الحكم لفترة كان للأقليات عز • ثم اذا دالت الأمور ساء وضع الأقليات بما تسببت فيه لنفسها منعداوة ولا سيما في الأزمات التي تستفز الشعـور القومي فتبحث الجماعة عن كبش محرقة •

مناهضة اليهودية لو انحصرت في الجـدالاتالعقائدية والتعيير أو حتى النبذ الاجتماعي حـق تفسيرها بعوامل بسيطة من مثل الفروق العنصريةأو الدينية أو اللغوية ـ الثقافية وما اليها • أمـا أن تمعن الأكثرية في التعدي فتسعى في التشريد بلالقتل بل الابادة فلا يفسر ذلك الا بالغرائز البهيمية مما يسمونه المصالح الماديـة أو الاقتصادية وهـوشراسـة الخـوف على المصـير أو ما سـماه داروين تنازع البقاء •

أن تكون المسيحية في الشرق والغرب خاصمتاليهود شأنها شأن من سبقها من الأمـم حتى القـرن الخامس فعـزل يرد عـلى انعـزال • وأن تكـوناليهوديـة في أوروبا القـرون الوسـطى عاشـت ذميـمة مقهـورة فهي عصبيـة الشـعوب النـاشئة • وأن يشـرس الانسـان باسم الكثلكة فهـي همجية الحروب مما يسمونها تحريرية • وأما أنيمسي اضطهاد اليهود بعد التجديد والثورة في العالم الغربي رسمياً جماعياً منظماً هائلا فذلك يفترضعوامل ومعطيات حدثت وفعلت ولم تكن من قبـل أو كانت وزادت مع الأيام خطورتها • واذا كـانالمثال الألماني في هذا الموضوع واضحاً لما كتبه كارل ماركس وغيره في شأن القضية اليهودية يمكن القولان الحساسية ضد اليهود ازدادت بازدياد تأثيرهـم في الاقتصاد الأوربي والحاحهم بالمطالبة بامتيازات•



قبل عام ١٨٧٠ لم يكن الفاتيكان (وهو تلة من تلال روما السبع) حاضرة فقط كما يسمونه اليوم أعني مساحة معينة من مدينة روما تعتبر قانوناً دولة مستقلة وانما كان الفاتيكان عاصمة مملكة تشمل ايطاليا الوسطى وكان آخر من حكمها البابا بيوس التاسع (١٨٤٨ ـ ١٨٧٨) ٠ ومعلوم ان هذا البابا لما أمر بتدمير أبواب الجيتو حدث تمرد من قبل أهل روما فتوجهوا الى الجيتو يريدون احراق بيوت اليهود ٠ ومن الأساقفة الذين اشتركوا في المجمع الفاتيكاني الأول (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠) من شهدوا بأن هنالك مدناً ألمانية ونمساوية كانت مغلقة في وجه اليهود ٠ قال رئيس أساقفة سالزبورج ان اليهود ما كان يحق لهم السكن في سالزبورج مقراً ثابتاً وما كان يحق لهم المكوث فيها لفترة ما لم يدفعوا غرامة ٠ وشهد رئيس أساقفة ميونيخ أن مدينته كانت محرمة على اليهود فلم تفتح لهم الا في السنين الأخيرة(٤٤) ٠

وكما كانت فرنسا الدولة الأولى التي حاولت اخراج اليهود من عزلتهم فهي حتى اليوم الدولة التي ربما تجد فيها (على الرغم من التودد الرسمي المصطنع) حساسية خاصة ضد اليهود ٠ صدر في باريس عام ١٩٣٦ كتاب بعنوان « الأممية اليهودية السرية » يؤكد فيه المؤلف أنها « أحد مفاتيح المأساة التي تقلب أوضاع الدنيا وتنذر بخراب المدينة »(٤٥) ٠ وكان قبل ذلك بعام واحد صدر في فرنسا أيضاً كتيب بعنوان « اليهودي سم ناقع » يحاول مؤلفه البرهان أن اليهود مرجع كل الشرور ٠

وهنالك مآخذ على اليهود أقل عنفاً أو أكثر وضوحاً ٠ يرى الأخوان ليمان خطراً في التأثير اليهودي بأنه « وضع يده على المال العام » وبأن « الذهب اليهودي شجع الثورة في الامبراطورية النمساوية وفي الممتلكات البابوية حتى أمسى المجتمع المسيحي بالنسبة اليهم (اليهود) تماماً في الوضع الذي كان فيه بالنسبة الى البرابرة ٠ فهنالك اليوم اجتياح اليهود كما حدث في ما مضى اجتياح البرابرة ٠ أما في ما مضى فاجتياح السيف ٠ أما اليوم فخطر الذهب ٠٠٠ في النمسا وهنغاريا يتألم الناس ويشكون من وطأة اليهود وروحهم المركانتيلية »(٤٦) ٠ وفي رسالة من الشاعر بول كلوديل الى الكاتب والمؤرخ دانيال روبس : « الواقع أنك ترى في كل مكان يهوداً في طليعة الأحزاب التي ترمي الى قلب الأوضاع الاجتماعية مدنية كانت أو دينية » ٠ ثم يستشهد بول كلوديل مثلاً ينقله باللغة اللاتينية اختصاراً لتاريخ اليهود : نشأوا في الحرير فتمرغوا في الجلة »(٤٧) ٠ ويتساءل ليون دو بونسين لماذا يشغل اليهود كل الطرق التي تؤدي الى السلطة فيختصر هو أيضاً في سطرين تاريخ أربعة قرون : « الغرب خدعته أساليب التعبير التي سربت على نفسه العقلية اليهودية وكان أول مظاهرها الأصلاح البروتستانتي ثم بلغت أوجها في الثورة الفرنسية بوجوهها الثلاثة (الديمقراطية والمركانتيلية الصناعية والمادية) حتى تمت السيطرة لليهود »(٤٨) ٠

المادية في المآخذ المسيحية هي السلك الذي لا ينقطع في تاريخ اليهودية ٠ نقرأ في « قاموس الدفاع عن الايمان الكاثوليكي » في باب « المسيح » : « الشعب اليهودي كما يبدو لنا عبر تاريخه كله كان شعباً شهوانياً شديد التعلق بالخيرات المادية قلما يستطيع ادراك المحاسن الروحية وقدرها ٠ كان يظن بنفسه أنه أول شعوب الأرض ويسعى في اقناع ذاته أن أمم الأرض ستخضع يوماً لسلطانه ٠ وعلى الرغم من تدمير القومية الاسرائيلية وتشتت اليهود بين شعوب الأرض كلها فان أحلام السؤدد ما زالت تراودهم بدليل ما تشهد به كتبهم في كل عصر »(٤٩) ٠ ويبدي الرأي نفسه الأخوان ليمان ثم يرويان أن يهود روما بعد زوال الجيتو بفضل بيوس التاسع أرسلوا اليهما سفارة تلتمس تدخلهم ليحصلوا على حق الملكية في روما فأجاب الأخوان : « نحن أعلم بامكانات أمتنا في الخير والشر ٠ فلو وهب لكم حق الملكية لم تعد روما للكاثوليك بل وقعت في أيديكم في غضون ثلاثين أو خمسين عاماً » ٠ واذا اعترض اليهود بأن ذلك ظلم رد عليهم الأخوان : « هلاّ تذكرتم بالحري آباءكم اذ كانت لكم القدس والأرض المقدسة فما كنتم تعترفون لغريب بالحق في أن يشتري شبراً من الأرض »(٥٠) ٠

بعد اذ قصدت الأمم « المسيحية » التخلص ما أمكن من وطأة اليهود فأنشأت بالاحتيال والعنف شيئاً يسمى دولة اسرائيل تبدو الآراء تلك وكأنها نبوءات تتجسم واقعاً في أيامنا هذه فمنهم من أمسى



صهيونياً في نفسه وعقله حتى زين دولة اسرائيـل بأن فيها نفحة دينية ومنهم من خلا من المروءة فرضي أن يكون ذنباً للعظام حتى يسمحوا له بالعيش وتبنى « واقعية » السياسة فاستكان وأقنع ذاته بأن الحق للبطش فـلا يرى عـاراً في أن يعيش ذليلا حسبـه أنه عائش وان دب دبيباً ٠

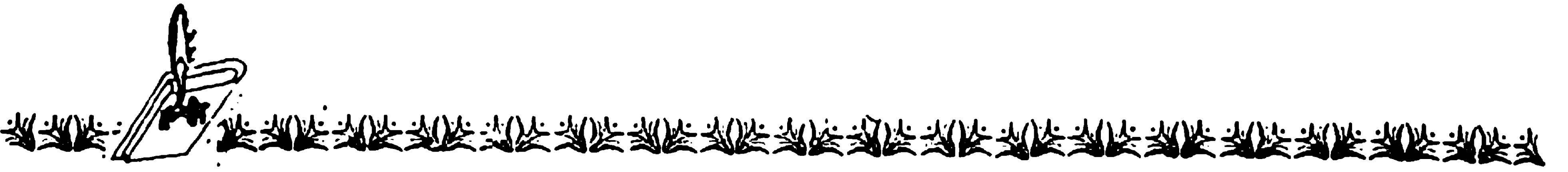
الا أن ما تأخذه المسيحية على اليهودية مـن المادية لأعمق وأخطر بكثير من التململ من عقليتهم المركانتيلية وواقعيتهم السياسية وتفوقهم المـادي ٠ بل ربما صح القول ان التململ هـذا على جانب كبير من الرثاء لأن اتهام الناجحـين بالانحطـاط الأخلاقي أيسر من الاعتراف بالعجز الذاتي ٠

في كتابه « الفلسفة المسيحية حتى ديكـارت » يأخذ المؤلف الجزويتي على التوراة ما فيها مـن تشبيه سـمج (وهو أن تتوهـم معرفة الله بأنـك تتصوره انطلاقاً مما تعرفه من الانسان يستمال بالنذور ويفضل بعضاً على بعض حتى يحلل لهم القتل والنهب ويغضب وينتقم وما الى ذلك »(٥١) وهـو مأخذ لا ينجو منه دين اجتماعي أو رسمي أياً كان ، ثم يضيف : « اليهود في فلسطين وحتى في الاسكندرية يبدون وكأنهم لم يفيدوا اطلاقاً من الهلينية السائدة في مـا يتعلـق بمفهوم الـروح كمـا أتـى بـه أفلاطون »(٥٢) ٠ مما يعني أن الاغريق « المشركين » كانوا أكثر روحانية من اليهود الموحدين ٠ – بيد أني لا أعتقد أن أحداً من المسيحيين ذهب الى ماذهب اليه كارل ماركس في مقالته المعروفة بـ « المسألة اليهودية » فلم يقتصر على التأكيد ما ذهب اليـه غـيره من أن « اليهودية بلغت الـذروة في اكتمـال المجتمع البورجوازي » بل سوى بين الاله اليهودي والمال كمن يلمح الى ما ورد في الانجيل من أن حياة الانسان تنازع بين الله والمال لا وسط بينهما ٠

ويبدو أن هناك شيئاً من الصحة في ما يذهبون اليه من ثوابت التاريخ وأخلاق الأمم ٠ ففي عـدد خاص من مجلة « اسبري » الفرنسـية حول واقـع الدولة الصهيونية ينقل أحد الباحثين ما شكا منـه أحد العرب الفلسطينيين الكاثوليك من مادية اليهود ويشير غيره الى أن الديانـة في الدولة الصهيونيـة ليست سوى لباس خارجي تتلبس به العدمية(٥٣) ٠

في « المسالة اليهودية » يلاحظ كارل ماركس أن المسيحيين اليوم لا يفرقون في شيء عن اليهـود ما داموا هم أيضاً الههم الحقيقي العجل الذهبي ٠ ولا يمنع ذلك من أن بين اليهودية والمسيحية خلافاً جوهرياً وأن هذا الخلاف محوره المسيح ٠ اليهـود رفضوا الاعتراف بأن يسوع بن مريم هو المسيـح لأنه لم يأتهم بما كانوا به يحلمون من تحرر سياسي وسيطرة عسكرية ٠ واعترف به الرسل والمسيحيون من بعدهم لأنه أفهمهم أن خلاص الانسان الحقيقي في آن يسمو بجهده وادراكه مما يولد وينشأ فيـه من عبودية النزوات والعادات والمتعة الى حريـة الروح والعطاء وهو في لسان يسوع ولادة ثانيـة وعالم جديد لا يجمـع شيء بين مقاييسه ومقاييس الحياة الدنيا التي وقفت عندها آفاق اليهوديـة ٠ ولذا فاذ حذر يوحنا اليهود من الصلف بأنهم ذرية ابرهيم ذكرهم أن « الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابرهيم »(٥٤) ٠ وكما أن المسـيحيين منذئذ يتساءلون عن الدين اليهودي والاله اليهودي مايمكن أن يتساءلون أكثر ما يتساءلون عن المسيح كيـف يتصوره اليهود بعد أن نبذوا ابن مريم ٠ ولا عجب في أن تكون التصورات اليهودية لم تتغير لدى الأكثرين ما دامت أوضاعهـم لم تتغـير فما زالوا أقليـة مشتتة وما أنشيء لهم من كيان قومي قضى جذرياً على ما كان من المفروض أن تنشيء فيهم المحن مـن الانسانية(٥٥) ٠

يقول الأب لاجرانج (وهو من كبار الاخصـائيين في هذا الموضوع) ان كثيراً من الكتب المنحولة كمثل كتاب عـزرا الرابـع ورؤى باروخ وابرهيم وايليا وصفنيا وكتاب المكابيـين الرابع ووصيـة الآباء الاثني عشر شحذت آمال اليهود في بعث مملكة اسرائيل ستكون فاتحة عهد من السعادة بأن تسود الدنيا ، وكان من جـراء ذلك أن ركبهم الغـرور فراحوا يصدقون المحال شرط أن يعدهم بالمجد(٥٦) ٠ تلك حال الأكثرين ولا سيما بين الحاخاميين كمـا رأينا ٠ ولا ريب في أنها تفسر الى حد كبير السذاجة



المذهلة التي نستغرب مظاهرها لدى كثير من اليهود المبرزين اذ يرون خطأ الصهيونية وبشاعتها فيأسفون وكفى . ولو كان هذا التواطؤ الجبان من ميزات المفكرين اليهود فقط ما بالينا لأننا نفهم أن تكون نفوسهم مريضة . ولكن المرض ليس يهودياً فحسب . هناك مجرى عطف على اليهود بل الصهاينة ذو دلالات نتبصر فيها .

٣ ـ ظاهرة العطف على اليهود :

المسيحية في جوهرها أعني المسيحية الانجيلية كما بزغت في شخص المسيح وتعليمه هي دين الحب بكل ما يمكن أن تعني هذه الكلمة من غنى شخصي نوراني يعطي لا شروط ولا بنود ولا حساب ليس له على أحد حفيظة ولا يزدري من خلق الله شيئاً فهو القوة وهو الحرية وهو السكينة . هذه المسيحية (وهي مسيحية القديسين كما تجلت في أمثال فرنسيس الأسيزي) لا تفرق بين الناس واذا فرقت كان ذلك على أساس أن « الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها هم أخي وأختي وأمي » أو على أساس « طوبى لكم أيها المساكين الودعاء الباكون الرحماء المسالمون الأنقياء القلوب الجياع والعطاش الى البر والمضطهدون من أجل البر » أو على أساس أن المسيح سلامنا جعل الاثنين (اليهود وغير اليهود) واحداً بأن هدم الحاجز بينهما وأزال في جسده البغضاء ناموس الوصايا بما فيه من فروض ليخلق في شخصه الاثنين انساناً واحداً جديداً(٥٧) . على هذا الصعيد كان المفروض في المسيحيين أياً كان العصر والمكان أن ينظروا الى اليهود نظرة صفح وعطف . أما الصفح فلأن المعلم بعد اذ سعى زعماء اليهود في قتله قائلين « دمه علينا وعلى بنينا » كان جوابه من على الصليب « يا أبتاه اغفر لهم انهم لا يدرون ما يفعلون » . فان كان يسوع لم يقم هذه الخطيئة حتى على المسؤولين أفنقيمها نحن على غير المسؤولين ؟ وأما العطف فلأسباب ثلاثة :أن المسيح ألغى التشريع الموسوي ولكنه لم يلغ الأنبياء . فما دام اليهود يتمسكون فعلا بالأنبياء فبيننا وبينهم رابط التوحيد لا يستهان به . ثم ان المسيح والرسل وكثيراً من المسيحيين الأولين في الأصل يهود . وكيفما كان الأمر فتلك الأقلية التي صادف انهيارها نشأة المسيحية ما زال وجودها حتى اليوم اشكالا بلغت فظاعته أن المجتمع البشري في عصرنا هذا لم يتصور له حلا الا في ارتكاب سلسلة من الجرائم لم يكن للبربرية القديمة أن تتصورها . ذلك أن افساد اليهودية بالحركة الصهيونية وافساد الصهيونية بدولة اسرائيل وافساد دولة اسرائيل بمحاربة الفلسطينيين والعرب أدخل على الكيان اليهودي تفتتاً جديداً وعلى الضمير اليهودي ضياعاً كلياً فكانت الدنيا اذا لهجت باليهود لهجت بخيرتهم فأمست تلهج كل يوم وفي كل اذاعة بالمسوخ التي تحكم دولة اسرائيل .

اذن فالتاريخ جرى على غير ما تقتضيه العقيدة وما يمارسه الأخيار من التسامح واللين ما دامت المسيحية الغربية (وهي الأكثرية « المسيحية ») لم تعجز عن هضم اليهودي فحسب بل نبذته وحقرته حتى حمضت نفسه من اليأس ولم يعد أمامه من سبيل ليجعل لنفسه مكانة الا بأن يستغل غرائز الغربيين ويلغم المجتمع الذي عاش هو في هامشه . حينئذ بدأت نفوس الغربيين تساورها المخاوف وأمسى اليهودي هو الحقير وهو الممول الذي لا غنى عنه لـ« الطامحين » . وكان من ذلك أن نشأت الرأسمالية واشتد ساعد اليهود ثم نشطت القومية فجزع اليهود فتهوروا تهوراً آخر بأن عمدوا الى المطالبة بامتيازات واذا بالضغينة تتفجر ضدهم كلما حلت بالمجتمع أزمة . من هنا فاجعة البوغرومات فالنازية . ومن النازية عقدة الذنب لدى الغربيين جعلتهم لا يفوتون سانحة الا اغتنموها ليتظاهروا بأنهم هم الليبراليون المتمدنون الذين لا يناهضون « السامية » بل يدافعون عن « حقوق الانسان » .

مما يعني أن العطف على اليهود في المسيحية الرسمية حديث غربي غلب فيه الحساب والتصنع على الشعور فأولى أن يسمى مساندة ومداهنة .

اذ عرضنا مشكلة الفصال المسيحي لاحظنا أن غموض العلاقة بين اليهودية والمسيحية يعود أصلا الى ازدواجية في مواقف يسوع كما يرويها الانجيل وتردد لدى الرسل والمسيحيين الأولين حتى



القرن الرابع والاحتفاظ بكتب العهد القديم على ما فيها من مذاهب ومواقف ومفاهيم تناقض روح الانجيل ورؤيته • هذا الغموض هو الذي أتاح للتصنع الغربي أن يحاول الايهام أن مناصرة اليهود مرجعها لاهوت لا سياسة •

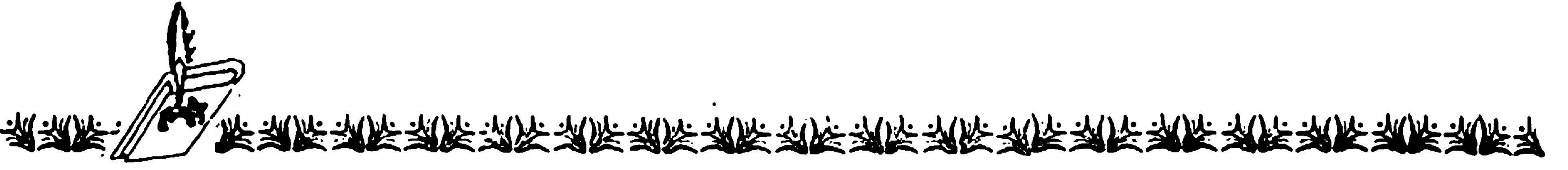
سمعنا يسوع يقول انه لم يرسل الا الي الخراف الضالة من آل اسرائيل وانه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويعطى للكلاب • ثم ينتهي بالقول :سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون في ملكوت الله فيما يلقى بنو الملكوت خارجاً وهوذا ملكوت الله ينزع منكم ويعطى أمة تأتوا ثماره ، وأخيراً يقول للرسل : اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم • ولم يمنعه ذلك من القول انه أتى لا لينقض الناموس الموسوي بل ليكمله • واذا بنا نفاجأ ب « سمعتم أنه قيل •••وأنا أقول ••• » فيما يصف بولس الناموس بأنه أشبه بالمؤدب مهمته انتهت بأن أرشدنا الى المسيح •

السؤال الجوهري اذن مزدوج لأن ما يمكن أن يتحمله الصعيد النظري من الخلط والمساومة لا يمكن أن يحتمل على صعيد العمل • وعليه فالسؤال في آخر المطاف يعود الى فحوى رسالة المسيح • سمعت يوماً الكردينال دانييلو يقول في الاذاعة الفرنسية ان ما يهمه لا أن يسوع نموذج أخلاقي لا شبيه له بل أن يسوع مخلصه • ولو سئل الكردينال المذكور أو غيره من « اللاهوتيين » المتفلسفين كيف يمكن يسوع أن يخلصه لا يهمنا نحن أن نعرف جوابه انما يهمنا أن نعرف جواب الانجيل : « وسأله أحدهم : يا رب هل الذين يخلصون كثيرون ؟ فقال لهم : جاهدوا حتى تدخلوا من الباب الضيق لأن الباب الذي يفضي الى الهلاك عريض رحب كثر الذين يسلكونه • ما أضيق وما أحرج الطريق الذي يؤدي الى الحياة وقليلون الذين يجدونه ••• كثيرون في ذلك اليوم (يوم الدين) سيقولون لي : يا رب يا رب ألم نكن باسمك تنبأنا وباسمك طردنا الشياطين وباسمك صنعنا عجائب كثيرة ؟ فأعلن لهم : اني لم أعرفكم قط • ابعدوا عني يا فاعلي الاثم »(٥٨) •

هذا جوهر الموضوع •

مفهوم التوحيد العملي كما جاء به يسوع هو أن الله يريد رحمة لا ذبيحة فلن يدخل ملكوت الله سوى المساكين المعذبين ولن يرحم سوى الرحماء ولن يرى الله سوى أنقياء القلوب • أما ما دون ذلك من صيغ نظرية وعبارات كلامية وشعائر وفروض خارجية فلا يستقيم بها معنى ولا جدوى الا بذلك أعني ب « العدل والرحمة »(٥٩) • تلك في نظر يسوع كانت رسالة الشعب اليهودي كما فهمها الأنبياء جميعاً أن يكشف للناس أجمعين أن الله الواحد هو أبو جميع الناس وأن الطريق اليه في العدل والرحمة والاستقامة لا طريق سواه • ولكن يبدو أن ما عاناه اليهود من الذل منذ أيام المصريين فالبابليين فالسلوقليين فالرومان لم يعمهم فقط عن أن لهم رسالة مفتوحة للكل وانما أغرقهم في غرور الشعب المختار فأخذوا يتصرفون لا كمن اصطفاهم الله بل لأنهم هم الذين اصطفوا الله أي كأنما التوحيد وقف عليهم • واذ غابت عن أعينهم الرسالة (وهي الروح والمعنى) لم يبق لديهم سوى التشريع (وهو آلية وصنمية) فراح «علماؤهم» يؤولون ويفصلون تقاليد بالية يحللون ما طاب لهم ويرهقون كاهل الناس حتى يبقوا عمياناً ينساقون كالأنعام • ولما جاء يسوع يفتح عيون الناس عاداه الزعماء حتى قضوا عليه وهم يظنون أنهم قضوا على مشاغب • الا أن المشاغب هذا تعصب له من اليهود نفر • هذا ما سميناه الفصال المسيحي • ويمكن القول فيه انه انشقاق أقلية كتب لها أن تنمو حتى عمت الدنيا بينما بقيت الأكثرية اليهودية أسيرة ما لديها من تراث تقوقعت فيه خوفاً من الضياع فأمسى هو بمرور الزمن جامداً عقيماً وأمست هي أقلية مبعثرة تود لو يصدق الناس أنها الأقلية الأمينة •

المواقف اذن متباينة كل التباين يمكن أن نسميها نظرية التكامل أو الاصلاح ونظرية التناقض أو الالغاء • يسوع ومن آمن به يرون أن غاية الناموس الموسوي هي المسيح فكان الناموس على حسنه مرحلياً واذ أتى المسيح الذي هو كمال الناموس أمسى الناموس ناقصاً لاغياً • وعليه كان تمسك المسيحيين حتى اليوم بكتب العهد القديم هو من باب المحافظة على التراث حتى يتمكن الأبناء من



الاطلاع على تاريخ الجدود فيفهموا ذواتهم ولايستعبدوا له فيجمدوا • مما يعود الى التمييز في العهد القديم بين الانفتاح النبوي (وهو انساني دائم) والتشريع القومي (وهو محدود زائل) • تلك نظرية التكامل أو الاصلاح التي تميز بين روح الكتاب وحرفه فلا تتنكر لروحانية الأنبياء وانما تتنكر للاحتكار اليهودي وتتنكر أكثر من ذلك لأخلاقية العبيد التي لا تعرف من الأخلاق الا ما بني على الخوف ولا تعرف من العدل الا عدل الميزان فاذا أقدمت كان ذلك ابتغاء ثواب واذا أقلعت كان ذلك خشية عقاب •

أما نظرية التناقض أو الالغاء فهي التطرف في اتجاهين : المسيحي واليهودي • هناك مسيحيون منذ أوائل الكنيسة لم يلاحظوا أن في اليهودية نفسها تناقضاً بين الانفتاح النبوي والتشريع الموسوي فرأوا أن اله التوراة غير اله الانجيل فوجب التخلي عن كتب العهد القديم حتى لا تتسرب روحها الى المسيحيين(٦٠) • غير أن هذه النظرية لم تلق استجابة في أوساط الكنيسة فنبذت بأنها هرطقة ولا ريب في أن أسباب الحكم على أصحابها أوجه بكثير من رفضهم للعهد القديم • –

وأما الرأي اليهودي فهو أن الدين والتوحيد هما التوراة فحسب وأن يسوع يهودي شذ عن اليهودية كغيره كثيرين عبر التاريخ وأن المسيحية شأنها شأن الاسلام فرع من الأصل اليهودي فليس ثمة سر ولا لغز في الوجود اليهودي على ما يدعي المسيحيون من « غشاء » يعمي اليهود • انما على خلاف ذلك اليهود بقوا يهوداً لأنهم اختاروا أن يبقوا أمناء لناموس الله • فان يكون هنالك مسيحيون ومسلمون لا يعني أن في الأمر اشكالا لليهود • أما وقد عانى اليهود ما عانوا ليبقوا راسخين في الايمان فليس لهم من مطلب سوى أن يعترف العالم بحقهم في أن يدعوا « اسرائيل الأصيل » • المسيحيون هم الذين جزموا ببطلان الناموس كما لو كانت الأغلبية اليهودية انقلبت مسيحية والواقع خلاف ذلك(٦١) •

اذا أوجزنا كان الحاصل أن يسوع ومن تبعه في زمانه يهود ارتدوا عن اليهودية على أساس أن المسيح كمال اليهودية فاذ أتى الكامل بطل الناقص • أما يهود اليوم فينظرون الى يسوع ومن تبعه في زمانه بأنهم حفنة خرجت عن ناموس الله فيما هم سلالة الشعب الذي بقي أميناً لله • مما يعني بوضوح أن يهود اليوم ما زالوا الأقلية المختارة فلا خلاص للعالم الا بأن يهتدي بنورهم • سذاجة مألوفة ما دامت كل ملة تدعي أنها الحق وغيرها الباطل • أما اذا سألت ما الفرق بين سذاجة الحاخام كابلان وسذاجة ألبيرت أينشتاين التي ألمحنا اليها في ماسبق فهو أن كابلان وأمثاله يؤكدون أن الله في الجماعة المتمسكة بالعهد القديم • فيما يرى ألبيرت أينشتاين وأمثاله أن اليهود ذوو رسالة أخلاقية بأن منهم يسوع وسبينوزا وكارل ماركس(٦٢) • أما اذا سألت كابلان كم من يهود اليوم يتمسكون بالعهد القديم أم انه يعد أميناً لناموس الله أياً كان شرط أن يقول انه يهودي لأحرجته احراجاً كبيراً •

في وجه هذين الموقفين اللذين لا وسط بينهما يقف العاطفون على اليهود وهم ثلاث فئات واحدة طبيعية قديمة واثنتان مصطنعتان حديثتان • أما القديمة ففئة الذين ارتدوا من اليهودية الى النصرانية غالباً ما عسر عليهم الهجر والشقاق كما أراده الانجيل يظلون ينظرون الى الوراء وان لاحظوا معايب اليهودية وشهروها • ولا يجدون مخرجاً لحيرتها الا بأن يأملوا ويسعوا في أن ينقلب كافة اليهود نصارى • لذى تراهم منذ القديس بولس لا ينفكون يؤولون الكتب حتى يجدوا فيها نبوءات تؤكد ارتداد اليهود جملة في آخر الزمان • هؤلاء لا يرضون بالقول انهم اذ أصبحوا مسيحيين لم يعودوا يهوداً كما يريد كابلان وزمرته لأنهم لا يخلطون بين الدين والعصبية ولا يرون في العهد القديم معنى ما لم يكن تمهيداً للعهد الجديد(٦٣) •

أما الفئة الثانية ففئة « اللاهوتيين » الذين لأسباب نفسية وسياسية يجهدون في التودد الى اليهود شعوراً بالذنب وتكفيراً يذكرون ما لليهودية من فضل على المسيحية يودون لو تطوى صفحة الماضي فلا يشار اليهم بأنهم فرنسيون أو ألمان بل بأنهم أصدقاء اسرائيل ! هؤلاء الذين هيمنوا على المجمع

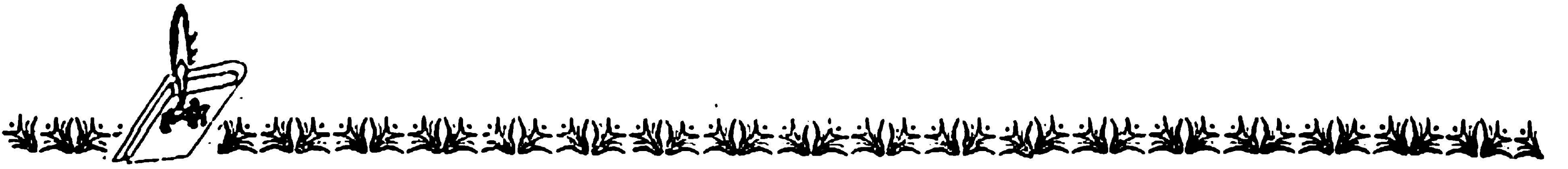


الفاتيكاني الثاني فتعاموا عن المأساة الفلسطينية وادعوا أن همهم الدين فيما اتهموا الأساقفة العرب بأنهم غارقون في السياسة • ـ وأما الفئة الثالثة فهم الضاغنون على الاسلام أو الذين يخافون منه • وهم أيضاً يمكن التمييز بينهم على أساس وجهات ثلاث كلها ظهرت أو انتعشت بنشوء الصهيونية وارساء دولة اسرائيل(٦٤) • الغربيون بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر حاربوا الاسلام في أرضه بذريعة القدس وفلسطين • والغربيون في القرن العشرين نزعوا القدس وفلسطين من يد الاسلام ليعطوها الصهاينة • لقد قاموا بالحروب الصليبية بأنهم « مسيحيون » وبأنهم غزاة • واليوم يتخلون عن الأماكن المقدسة لا حباً باليهود بل لأسباب ثلاثة أولها أن الغربيين كان لهم في غابر الزمان من الطلاء المسيحي ما يكفي ليصلح ذريعة حتى يغزوا فلسطين • أما اليوم فلم يبق لهم من المسيحية سوى الاسم وذلك لا يكفي حتى يتمسكوا بالعدل في فلسطين • ـ ثم ان بهم حاجة الى المال اليهودي وهو على حد قول كارل ماركس وغيره من الكتاب الغربيين الاله الذي يعبده فعلا الغربيون واليهود •• وأما السبب الثالث فهو أن الغربيين على ما يبدو ظنوا أن الوطن القومي في فلسطين ينقذهم من شر اليهود فاستهتروا بالاسلام وباعوا أرضه التي اؤتمنوا عليها أملا في صفقة رابحة تدر عليهم بالمال وتبعد اليهودي وتوهمه أنهم أصدقاؤه• تلك الوجهة الأولى • ـ أما الثانية فهي أيضاً غربية • يذكر الأوربيون أن الاسلام هدد بلادهم ابتداء من القرن الثامن وعاش على حدودهم قروناً كثيرة • لذا أجفلوا اذ رأوا القومية العربية تستيقظ قبل انهيار الامبراطورية العثمانية وخشوا أن تقوم الوحدة العربية مقام الأتراك فصمموا في تجزئة الوطن العربي واضعافه ما أمكن فكان من ذلك ما نشهد من دويلات بدائية وما شهدنا من مآسي لبنان الكبير فالاسكندرون ففلسطين • فلئن كان الغربيون يكرهون اليهودي فانهم يساندونه ويتظاهرون بالتودد اليه لأنهم يفيدون من وقوف الصهيونية في وجه الاسلام والعرب • ـ وأما الوجهة الثالثة فهي ما عاثه الأعاجم من فساد في مفهوم الاسلام وماعاثه البيزنطيون فالصليبيون فالاستعمار الثقافي من فساد في دار الاسلام لدى ما يسمى بالأقليات المسيحية حتى بدا الاسلام وكأنه عدو المسيحية وتوهم كثير من المسيحيين أن تقليد الغربيين يمكن أن يجعل منهم عنصراً مختلفاً • وكان من ذلك داءان لا دواء لهما : خوف الأقليات من الابادة ووهم التفوق الثقافي • ولا يمكن أن يتصور المرء عقماً أكمل وأخطر من تزاوج الخوف والغرور ولا سيما في المسيحية التي لا يمكن أن تكون اذا وجدت الا جرأة وحباً وعطاء غير مشروط • فوقعت الكارثة التي ما زلنا نعاني منها منذ ما ينيف على ألف عام : كثيرون من المسيحيين الشرقيين يجزعون من الاسلام ولا يستنكفون في الشدة من النظر الى عدو الاسلام بأنه ربما يحميهم • من هنا التملق للأجانب من الصهاينة أو أربابهم كما تجلى في المعضلة اللبنانية •

ذاك مجمل المواقف • وهاك نماذج من التعليل •

معلوم أن الضجة التي أثيرت في المجمع الفاتيكاني الأخير حول نص خاص يتودد الى اليهود كثيراً ما حاولوا تبريرها بأن البابا يوحنا الثالث والعشرين الطيب الذكر هو الذي أوحى بل ألح بالمشروع • والواقع أن أي روح مسيحية لا يمكن أن ترضى بما كانت النصوص الكنسية تورده من لعنات على اليهود نهار الجمعة العظيمة ما دام يهود اليوم لا يمكن أن يكونوا مسؤولين عن قتل المسيح وما دام الذين سعوا في قتله كما يشهد الانجيل هم رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ لا الشعب بجملته • فان يأمر البابا بتصحيح النصوص انسجاماً مع روح المسيحية وواقع التاريخ شيء وأن يطبل الكرادلة وتزمر الصحافة تصنعاً وبهتاناً فيما يشرد الفلسطيني ويقتل ويدوس الصهاينة قبر المسيح ذلك شيء آخر •

الا أن هناك أمراً طريفاً تجب الاشارة اليه • هو ان الأخوين ليمان اللذين ذكرناهما مراراً سعيا منذ المجمع الفاتيكاني الأول حتى يوجه آباء المجمع نداء ودياً الى اليهود فوضعا لذلك نصاً وقع عليه الآباء ولم يدخل في أعمال المجمع لأن الظروف السياسية عطلته • وليس في سعي الأخوين ليمان



غرابة لسببين : أنهما كانا بالأصل يهوديين وأن البابا بيوس التاسع الذي دعا الى المجمع هو الذي أمر بتدمير الجيتو الروماني أي بتحرير اليهود • انما الطرافة في ما كان الأساقفة يبدونه من تعليل ليبرّروا توقيعهم • قال أحدهم (وقد أصبح فيما بعد رئيس أساقفة باريس) : « كتب الصلاة الكنسية تلهج بالأمة اليهودية »(٦٥) • وقال أحد أساقفة الجزر الكريبية : « أود أن أقول لليهود اننا لا نفرض عليهم أن يرتدوا من دين الى دين بل أن يمزقوا الحجاب فيروا اليهودية تكتمل في الديانة الكاثوليكية ! »(٦٦) •

هذه التفاهات تغفر لآباء المجمع الفاتيكاني الأول لأنه ليس المفروض في الأسقف أن يكون عالماً كبيراً ولأن التودد الى اليهود عام ١٨٧٠ حتى يدخلوا في المسيحية كان له اطار في عقلية ذلك العصر • أما ما كتبه دانييلو في شأن المجمع الفاتيكاني الثاني فلا ريب في أنه من وحي العجل الذهبي • يختصر دانييلو اجابة الكردينال بيا على اعتراض المسيحيين العرب فيدعي أن حصحصة الغربيين لتبييض صفحتهم أمام أثرياء اليهود انما هي من وحي الانسانية والدين فيما اعتراض الأساقفة العرب مرجعه سياسي محض • ثم يسهب دانييلو في البرهان عن ترابط المسيحية واليهودية فيستنتج أن « لا بد من قول هذه الأمور وترديدها في التعليم حتى ينشأ أولاد المسيحيين على احترام شعب اسرائيل »(٦٧) • هذا هو المستوى الذي بلغته المداهنة لدى « اللاهوتي » الجزويتي حتى فاته أن المسيحية لم تنتظر قدومه حتى تقر الأولويات في التربية وأن الانجيل لا يلح بشيء كما يلح بمساندة المستضعفين وأن المستضعف عام ١٩٦٦ هو شعب فلسطين لا شعب اسرائيل • وفعلا لم تفت المداهنة محاور دانييلو أعني الحاخام كابلان فرد عليه بوضوح كما أسلفنا أن ما يطلبه الشعب اليهودي اليوم لا أن يحترمه أصحاب الديانات التي تفرعت عنه بل أن يعترفوا بأنه وحده يحق له أن يدعى اسرائيل الأصيل •

تزلف دانييلو لا تجده طبعاً لدى جاك ماريتين • انما تجد لديه الرؤية المألوفة في المسيحية على مستوى رصين • والرؤية تلك المحنا الى أنها ذات وجهين فهي صارمة نسبة الى ما سبق وهي عطوفة أملا في ما ينتظر : « اسرائيل وقد أعميت عيناه يسير في ليل العالم وقد آثره على ليل الله » (يعني الايمان) • ومع ذلك فاسرائيل لغز كما أن العالم لغز والكنيسة لغز • والألغاز الثلاثة تلك تلتقي في سر الفداء ••• فلا حل للمشكلة اليهودية الا بما أنبأ به الرسول بولس من أن اليهود سيعتنقون النصرانية(٦٨) •

هذا المزيج من العطف والرفض هو الغالب لدى المفكرين المسيحيين ولعل أبلغ الذين عبّروا عنه هو فردريك أوزنام مؤسس الجمعيات الخيرية المعروفة باسم القديس منصور دو بول في كلمة نقلها رينه شووب وهو كاتب يهودي ارتد الى النصرانية • قال أوزنام ما معناه : « لن تقدر الهوية اليهودية ما لم تسعد بأنك مسيحي »(٦٩) •

٤ ـ الضياع المسيحي تجاه التحول الصهيوني :

رأينا في مستهل هذه العجالة حيرة المسيحية في تحديد هويتها وموقفها تجاه الهوية اليهودية • ذلك أن الهوية اليهودية في ذاتها غامضة(٧٠) وليس أدل على ذلك من توالي الأنبياء في العهد القديم وهو حدث فريد في تاريخ الديانات • فالديانات الكبرى تعود عموماً الى مؤسس عاش في فترة معلومة أو كتب أنشئت في حقبة بعينها فكانت هي الأصول التي يرجع اليها دون غيرها مما يمكن أن يكون لدى القوم من أدب ديني أو غير ديني • أما في اليهودية فكأن الشعب هو الدين وكان كل الذين يكتبون أنبياء وكأن كل ما يكتب مقدس تشريعاً كان أم تاريخاً أم حكمة أم شعراً أم صلاة أم قصة وذلك في أي عصر كان حتى النصرانية • ثم ان هذه الكتب الحديثة نسبياً تتكلم وكأنها شهدت الخلق وكأن التوحيد منذ البدء كان له شهود ثم نراها تحصر التوحيد في أسرة ثم تحصره في سلالة هذه الأسرة فيمسي اله الكل اله عشيرة يبيح لها أن تحتل أرضاً وتبيد أهليها قبل أن تنقسم على ذاتها



ويحكمها الفاتحون ويشردوها ولا تنفك تدعي أن الله وقف عليها • تلك ناحية الغرابة • ـ أما ناحية الغموض ففي الكتب تلك مجريان لا يمكن أن يجتمعا : تشريع يغرق الانسان في ممارسات تسد الأفق من كل جانب ، ونزوع نبوي الى حد أدنى من الدين الشخصي والشمول الانساني(٧١) •

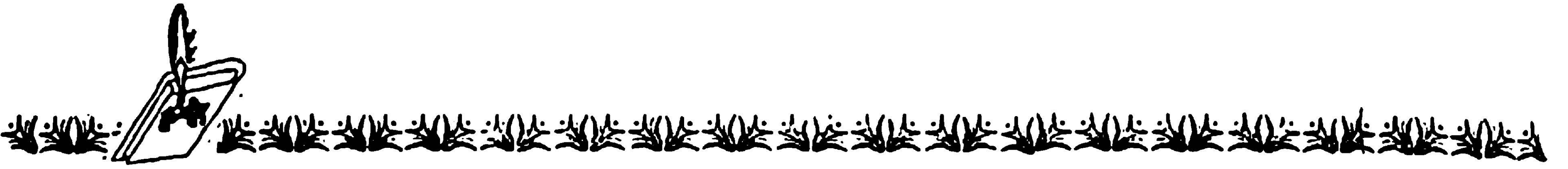
يشهد الانجيل ليسوع ويشهد له مفكرو اليهود حتى اليوم كما رأينا أنه أنكر على الشكليات كل قدرة في بناء الانسان فتمكن من أن يرسي دين الروح والحرية على أسس صارمة لا مراعاة فيها لأنها ترمي الى الكمال غير سائلة عن العاجزين • ذلك الفصل الأكبر الصريح الذي لم يستطع الرسل أن يحافظوا عليه لسببين : غرقهم في تحديد شروط الانتماء للمرتدين من الأمم أي من أصل غير يهودي (وهي قضية شكلية) ثم هموم تنظيم الجماعة بعد أن ازدادت ومعلوم أن ناموس البطولة الأخلاقية لم يمكن أن يصلح دستوراً للجماعات •

نشأت المسيحية اذن وكأنها شيعة يهودية فكان عليها أن تحارب على جبهتين : مكايد المجمع اليهودي من ناحية والسلطات الوثنية من ناحية • ثم ما لبث أن اعترضتها جبهة ثالثة داخلية من جراء الاختلاف في تحديد العقيدة واجتهاد البدع • وأخيراً أتت المصيبة الكبرى بأن دخل السلطان في المسيحية فما عتمت أن ترفت وبطرت ولم يجدها شيء أن تلجأ خيرة المسيحيين الى البراري ليعيشوا عيشة النسك والرهبنة ويعودوا بالنصرانية الى أصالتها • فأمست ديناً رسمياً رتيباً وكان المفروض أن تبقى ناراً وخميرة •

التطور هذا جعل الكنيسة أشبه بالمجمع فكان الزمن عمل على ازدهار الشيعة وتقلص الديانة الأم • وطبيعي أن لا ينشأ عن ذلك أي تقارب لما شاع بين الناس من مقاييس غريبة في تمييز الحق والباطل وادعاء الحق وترجيحه كل لنفسه • فكما أن كثيراً من اليهود حتى اليوم يتخذ من بقاء اليهودية دليلا على أنها هي الحق(٧٢) يرى كثير من المسيحيين في نمو الكنيسة على حساب المجمع دليلا على بطلان المجمع • مما يعني أن اليهود حتى اليوم وعلى الرغم مما حدث عبر عشرين قرناً من التحول في المفاهيم جميعاً وما شهد هذا القرن من انهيار اليهودية في الصهيونية يريدون أن تصدق الدنيا أن لله شعباً خاصاً وأنهم الشعب الخاص • وكذلك المسيحيون على الرغم مما انتاب النصرانية من صروف الدهر حتى كادت الصلة بينها وبين الانجيل أن تعدم يريدون من اليهودية أن تصدق أنهم هم المسيح وقد آن الآن لتعترف به •

واضح أن هذا الخلط لدى الفئتين يعود الى غموض مفهوم الدين ذاته • أن يدعي اليهودي اليوم أنه صاحب رسالة أخلاقية كما ادعى أينشتاين أو أنه الشعب الأمين كما قرأنا عند كابلان فثمة عذر المغلوب على أمره لا يلام • أما أن يظن المسيحي من الممكن أن تكون مسيحياً وليس فيك من أخلاق الانجيل شيء ذلك زيغ كبير وبرهان أزمة خطيرة لا بد من ادراكها حتى نفهم أين صارت العلاقة بين اليهودية والمسيحية في أيامنا هذه •

أزمة المسيحية قديمة كما قلنا • الا أن مقولتنا هنا ما دامت تدور بصورة خاصة حول علاقة اليهودية بالمسيحية الغربية لأنها هي المشكلة نعني بكلمة أزمة ما عانى الايمان المسيحي في الغرب من فتور وشقاق ونقد وتحول يمكن وصفه بأنه انهيار بل انطلق منه بعض الكتاب ليؤكدوا أن المسيحية في الغرب لم تكن الا شكلا فلم يكن لها قط جذور(٧٣) • الأزمة بهذا المعنى بدأت في أواخر القرون الوسطى• الا أن بوادرها ازدادت واشتدت في القرن السادس عشر اذ اطلع الأوربيون على ما حمله اليهم المثقفون البيزنطيون الهاربون من وجه الأتراك من آثار اليونان والرومان فوجدوا فيها ما أعجبهم أكثر مما أعجبهم الانجيل ـ وانشطرت أوربا شطرين بالشيع المعروفة بالبروتستانتية وهي في كثير من نواحيها عودة الى اليهودية ـ واكتشف الأوربيون الحضارات الأميركية فتكالبوا على ذهبها وأفنوها ـ ثم ظهر بينهم من ارتأى أن مفهوم العلم يغني عن مفهوم الدين فصدقوا •



ولقد رأينا أن هذا التحول لم يسهل هضم اليهود ولا اندماجهم بل ساء وضعهم حتى نجمت عنه الدعوة الصهيونية وهي تحول في اليهودية ذاتها بأنها في أصولها هرب ويأس وفي نشأتها استغلال وتمويه وفي انجازها لصوصية وعربدة • مما يعني أن الانتماء الديني والمصالح الاقتصادية والظروف السياسية كلها معاً كانت تارة تحمل الأوربيين نحو اليهودي فيحسن وضعه وحيناً تثيرهم عليه فيغلظون في معاملته • وعلى أن أينشتاين مثلا ينكر جملة ما جهد كثيرون في برهانه من عبث اليهود في أوربا(٧٤) تبقى ظاهرة اتهامهم ذات مغزى ويبقى أن دورهم في تاريخ أوربا منذ أواخر القرون الوسطى كان كبيراً • لذا ترى المؤرخين اذ تساءلوا عن ازدهار الرأسمالية خلطوا البروتستانت باليهود (٧٥) •

في أحاديث تعود الى الأعوام ١٩٣١ ـ ١٩٣٣ يقول أينشتاين : « لقد أعلنا بوضوح أننا لا نسعى في خلق مجتمع سياسي انما هدفنا ثقافي بكل ما وسعت هذه الكلمة من معنى ووفقا لما عهدته اليهودية من عرف • فكان علينا أن نجد حلا لمشكلة التعايش وأخانا العربي بما يليق من الصراحة والكرامة • تلك سانحة لنظهر ما تعلمنا طوال آلاف السنين من الاستشهاد ••• جماعتنا ليست سياسية ولا ينبغي أبداً أن تصبح سياسية ولا تبرير لوجودها الا على هذا الأساس ••• من هذه الوجهة أود لو تنظرون الى الحركة الصهيونية »(٧٦) • لو لم يكن أينشتاين هو المتكلم من صدّق ؟

ثم أقرأ ما يقوله عن اليهودية : « من أميز ما اتسم به العرف اليهودي تقديس كل حياة فردية وما يعني ذلك من احترام كل ما هو روحي •••اذا سمعت اليهودي يقول انه ذاهب الى الصيد بأن في ذلك سلوى فاعلم أنه يكذب »(٧٧) •

تمضي خمس سنوات فيقول أينشتاين : « أخشى على اليهودية من مفهوم الدولة مهما هزلت لما في ذلك من خطر أن تظهر بين ظهرانينا قومية ضيقة فنحن نعاني من هذه الآفة ما فيه الكفاية بدون أن يكون هناك دولة يهودية ••• أما ان كان لا بد من هذا العبء فلنحمله بتؤدة وصبر »(٧٨) •

وتقوم دولة اسرائيل فيكتب أينشتاين : «اسرائيل أقامته جماعة تقتفي ما أمكن مثل شعبنا الأخلاقية كما صنعها تاريخ طويل • وان أحد تلك المثل هو السلم الذي يقوم على التفاهم وضبط النفس لا على العنف » • واذ يرى الكاتب أن الواقع يكذب أقواله جميعها تراه يلقي تبعة العنف والهمجية على الانكليز(٧٩) •

هذا منطق العاقل فهل تعجب من صفاقة رؤساء العصابات يعلنون : « دولة اسرائيل أساسها مبادىء الحرية والعدل والسلم كما علمها الأنبياء العبرانيون »(٨٠) ؟ أما الحاخام بلانت فيصرح : « هنا (في دولة اسرائيل) التوراة حية لأن التوراة انما هي التاريخ اليهودي يخالط تاريخ الله ••• العهد (بين الله واليهود) يبدو هنا أصدق منه في الأماكن الأخرى »(٨١) • وفيما كان أينشتاين وغيره من المتحمسين يغرّون ذواتهم ويعللون الناس بـ « المثل » اليهودية كانت « الصفاقة اليهودية » (كما يقول ليون دو بونسين) تتجلى في أكمل صورها في كتاب اسرائيل زانكفيل الذي صدرت ترجمته الفرنسية في باريس عام ١٩٢٦ » : لا يمكن أن نرضى بوقوف العرب مانعاً من بعث تاريخي على هذه الأهمية ••• يجب أن نقنعهم بلباقة بأن عليهم أن يرحلوا • أليس لديهم فعلا كل (الجزيرة) العربية ومساحتها مليون ميل مربع فيما لا يملك اسرائيل مساحة بوصة ؟ ••• أولم يصبحوا مضرب مثل في ماتعودوه من لملمة خيمهم والاقلاع خلسة ؟فليفعلوا اليوم كما تعودوا(٨٢) •

تجاه تهور اليهودية في القومية الصهيونية وتهور الصهيونية في الكيان السياسي لدولة اسرائيل وتهور الدولة الاسرائيلية في المنعجهية العسكرية في أقل من ستين عاماً وفي عصر قلب الدنيا رأساً على عقب بما أحدث من حروب عالمية طاحنة وانجازات تكنولوجية مذهلة في سرعتها مذهلة في همجيتها اذ



فقد الكلام معناه فخفت صوت المفكرين وأخذت وسائل الاعلام تزعق ليل نهار بأكاذيب الأقزام النافذين وتصريحات المجرمين والمهرجين الذين احتكروا الواجهة - كانت الفاجعة الكبرى أن المسيحية غارت وقد تعودت أن تتخلف عن مجرى الأحداث وكان المفروض أن تسبقه وتوجهه ٠

أن يأمل أحد الاسرائيليين بعد كل ما جرى طيلة سبعين سنة في استطاعة دولة اسرائيل أن تجد صيغة تعايش تضمن حقوق الفلسطينيين فتؤكد بذلك « أننا من الشعب الذي أنجب الأنبياء وعلماء التلمود »(٨٣) ذلك من باب التمويه وقد يكون ساذجاً بريئاً ٠ أما أن تبلغ السذاجة هذا الحد عند جاك ماريتين فالدلالة خطيرة ٠ قال ان للصهيونية في نظره أهمية تاريخية كبرى لأنها شاهد على نجاز النبوءات في التاريخ بأن عودة اليهود الى فلسطين انما هي (في نظر ماريتين وغيره من « اللاهوتيين ») فاتحة خلاصهم (بأن يرتدوا الى الدين المسيحي)(٨٤)٠ مما يعني أن جاك ماريتين نفسه بعد أربعين سنة من بروز الصهيونية وعشرين سنة من وعد بلفور ودسائس المسؤولين في العالم كله لم يكن ليعي ويصدّق سوى خرافة توهمه أنه مطلع على أسرار الله ٠ وكان أجدر به لو وعى ما وعى قبل ذلك بسنين يهود أذكى وأجرأ من أينشتاين في هذا الشأن اذ أدركوا أن المعضلة اليهودية لا تحل بالصهيونية : « ولو حصل أن أفلحت زمرة من المغامرين في فتح فلسطين بقوة السلاح ليدخلها اليهود أو في شراء الأرض المقدسة من مالكيها فنجاز رجائنا لا ينبغي أن نراه في حاصل كهذا » ٠ انما يرى فريد لندر نجاز الأمل اليهودي في سعي اليهود حتى تزدهر وتسعد الأمم التي بينها يعيشون(٨٥) أما من غير اليهود فيلخص الحاخام بلانت ما ورد في كتاب « التاريخ : محاولة في تأويله » للمؤرخ الانكليزي توينبي (الطبعة الفرنسية ، باريس ١٩٥١) من أن مفهوم الصهيونية وواقع الدولة العبرية نرى فيهما تراجعاً مأساوياً بأنهما يزيدان لدى الشعب اليهودي ما ابتلي به من ضيق النظر فيستحيل بعث هذا الشعب المتحجر(٨٦) ٠ ويورد بول كلوديل في مجموعته « اليهود » ما كتب ستيفن كامبل تحت عنوان « آحد المسيحيين أمام الصهيونية » فتشعر بأن أمرأ واحداً خاب لديه أمل الكاتب اذ زار دولة اسرائيل فلم يتمالك عن الاعتراف به وهو أن البعد الديني ليس من ميزات الشعب الصهيوني(٨٧) ٠ هذا قبل عام ١٩٣٧ ٠ ثم نسمع الشهادة عينها وغيرها أخطر منها بعد ثلاثين عاماً في مجلة اسبري حيث يتهم الكتاب الدولة الصهيونية باستغلال الشعب اليهودي حتى قام الخلاف بين المسؤولين في دولة اسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية ويتهمونها باستغلال الشعب الألماني والمذابح النازية ويتهمونها بأنها تستغل الدين غطاء للقومية(٨٨) ٠ الا أن أخطر وأبلغ ما يكون التطور أن تبعث النازية في الصهيونية كما يحذر كتاب « الظلمات البرانية » : « القومية نعرف أين تؤدي (الى العنصرية) ٠ فان كان اليهود ستسببون فيها فذلك يكفي حتى ننقلب نحن أيضاً ضد اليهود »(٨٩) ٠ أما رينه شووب فقد شهد جازماً قبل ذلك بعشر سنين : « اذا استثنينا ما تزيده القوة على الكبرياء من غلاظة فاني لا أرى فرقاً كبيراً بين روح الهتلرية وروح الصهيونية بأن كل واحدة تؤله ذاتها ٠ لذا كنت أتساءل لدى مكوثي في فلسطين عن الهتلرية والصهيونية في ألمانيا أي واحدة أحدثت الأخرى »(٩٠) ٠

هذا الذكاء وهذه الاستقامة والصلابة لا تجدها لدى دومناك المسؤول عن مجلة اسبري انما تجد لديه ذلك الحد الأدنى من الذكاء الذي يميز العيوب وذلك التصميم في الانحياز الأعمى الذي ينشأ عن الجهل والخوف والضعف فيخشى مواجهة الحقيقة واعادة النظر في الأمور المريبة والاعتراف بالخطأ وتسمية الأشياء بأسمائها ثم يتلمس الذرائع الشكلية ليسكت ضميره ويموه على الناس ٠ دومناك يسمح لنفسه بأن يميز بين سياسة اسرائيل وشرعية اسرائيل بل يسارع الى تنبيه القارىء أن الأمر مقضي فلا جدال : دولة اسرائيل أنشأتها الأمم المتحدة بقرار رسمي فأياً كانت سياستها لاطعن في شرعية وجودها فهي من حيز القانون الدولي(٩١). هذا منطق « المتمدنين » : أبرم الباطل فيصير حقاً ويطمئن ضميرك بعد اذ أمنت مصالحك ٠

* * *



خاتمة :

موضوع العلاقة بين اليهودية والمسيحية اذن موضوع معقد لتشعب المفاهيم • لاحظ أحدهم أن التشريع في دولة اسرائيل لا ينص بشيء حول ماتعني لفظة « يهودي » ولاحظ آخر ان الحاخامات هم الذين يقررون من يمكن أن يدعى يهودياً(٩٢) • ولقد ألمحنا الى أن اضطهاد اليهود بأنهم يهود كان من جملة نتائجه الميل لدى كثير من اليهود المرتدين الى النصرانية الى أن يدّعوا أنهم ما زالوا يهوداً بل ميل لدى بعض المسيحيين الى الخلط ما أمكن بين اليهودية والمسيحية مما أثار لدى الحاخاميين ردات فعل عنيفة لأن الحاخاميين يخشون أكثر ما يخشون تلك المقارنات بعد اذ كان همهم طوال عشرين قرناً منع اليهودية من أن تتفتت وتذوب • أهي دين أم قومية ؟ أهي عنصرية مغلقة كما تشير قلتها أم هي تبشيرية مفتوحة ؟ وماذا بقي منها بعد أن سيطر عليها الصهاينة ؟ والى م ستصير اذا انقادت لدولة اسرائيل ؟ تلك مقولات أربع (دين وقومية وعنصرية وسياسة) حارت بينها اليهودية لأنها خشيت تخطي الجماعة أو عجزت عنه فاستحال عليها بناء الشخصية الفردية التي تفجر الأطر الاجتماعية فتنشىء مذاهب فكرية مستقلة تصمد في وجه المحافظين وتفتح منافذ للهواء الطلق فلا تجمد الجماعة وتعفن • شهد الأخوان ليمان كما رأينا أن الحاخاميين يستدلون على صحة الجماعة بأنها ما زالت باقية(٩٣) انما يمكن أن يبقى الحي من قلة الموت كما تقول العامة لا من زخر الحيوية • أما تفسير الجمود فهو الضعف والخوف والانعزال • مما جعل الجماعة أسيرة قوتين محافظتين لا انطلاق من قبضتهما هما الحاخام والرأسمالي • والانجيل صريح في أن خروج المسيحية من اليهودية كان قدرة الحياة ضد الجمود(٩٤) لا كما يريد الزاحفون أمام المال اليهودي أن يصوروه بأنه تفتح وثمرة طبيعية : يا أورشليم يا أورشليم (حيث الكهنة والكتبة والشيوخ ورؤساء الشعب) ، كم من مرة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا • هوذا بيتكم يترك لكم خراباً » • وعليه كانت حيرة اليهودية الأساسية بين الشريعة (التي تقوقع) والنبوة (التي تجدد) وكان من الظروف التاريخية أن اليهودية هرمت فلزمت الشريعة ولم تعد تطوق الأنبياء أو تخرج أنبياء •

أما المسيحية التي بنيت على « الأنبياء والرسل وحجر الزاوية المسيح يسوع »(٩٥) فقد غلب فيها الروح ما اضطهدت ثم دخل فيها السلطان فأمست في معظمها دنيوية يعبث بها الشقاق والسياسة والشكليات وتبوخ يوماً عن يوم لا صلة لها بروح الانجيل ولا نكهة ولا شوكة ولا طرافة هي التي حررت الفرد خالصاً لله يشقون النفس في اقناعنا بأنها يمكن أن تشكل في وجه الاسلام (لا في وجه الصهيونية) « اثنية » و « قومية » • وهي التي فرضت حب الأعداء فرضاً وجعلت وحي الحب يعلو على كل ناموس • وهي الملكوت الذي لا يمكن أن يدخله الأثرياء ولا يمكن أن يرثه سوى المستضعفين يسعون دأبهم ليبوّؤوا فيه زعماء الأحياء وأرباب الحوانيت •

اذا كان لنا مع ذلك أن نجتزىء وجب التمييز على الأقل بين مسيحية الانجيل التي تقوم باقتفاء المسيح كمثل أعلى في ما فرض من اعلاء المستضعفين والتجرد والمسالمة والعطاء المطلق لا شروط ولا حدود ـ والمسيحية الرسمية التي آثرت أن تكون ديانة شعبية فخفضت مفهوم الكمال الى مفهوم الخلاص واكتفت من الأخلاق بحدود دنيا وضخمت العقائد والشعائر حتى قام بها الخلاص أكثر مما قام بالأخلاق وشرع الباب الذي به طغت الاجتهادات والسفسطات « اللاهوتية » وبها حل الحرف محل الروح •

لو لم تكن المسيحية الانجيلية نقيض اليهودية لما قامت المسيحية الرسمية • أما وقد أمست المسيحية الرسمية فعلا يهودية على حد تعبير كارل ماركس فالصراع بينهما لم يعد صراع الحرف والروح كما هو في الانجيل انما هو صراع الأكثرية السائدة المتناقضة والأقلية الحانقة المستميتة هي أعلم بمواطن الضعف في خصمها تتلاعب لغفلته •



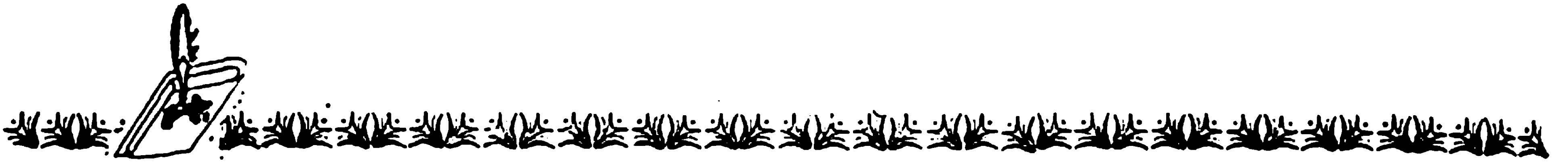
يبدو أن الخطأ الأول والتشويه الأكبر كان في فهم التوحيد بأنه عقيدة نظرية لا سلوك عملي ٠ هذا الخطأ الفادح أفسح في المجال لخطأ ثان أخطر منه فعلا هو وهم الشعب المختار أعني ادعاء ان الله يمكن أن يفضل شعباً على شعب فيحل لـ «شعبه» أيا كانت شراسته أن يفسد الحرث والنسل باسم رب العالمين كما نرى في التوراة ونرى اليوم على كثرة « الموحدين » ٠ هذا ما فهمه يسوع فجهد بالقول والمثل حتى يفهم الناس أن التوحيد ان لم يكن عملياً فليس بشيء وأن العقائد والشعائر لا تجدي ما لم ينقلب الانسان جديداً وأن انقلاب الانسان جديداً انما يقوم بحب جميع الناس بأنهم جميعاً من الله واليه يرجعون ٠ هذا التعليم نقله الرسل والمسيحيون الأولون ولكنهم غفلوا عن أنه يناقض اليهودية في ثلاث نقاط : أن الدين لا يستقيم الا فردياً ما دام الفرد وحده يعي ويسأل فلا معنى لـ « الشعب المختار » ـ واذا كان لـ « الأمة المقدسة » من معنى فان الله من عليها بأن تنقل رسالة وذلك يفرض عليها واجبات ولا يخولها حقوقاً حتى تحقر أو تستغل غيرها ـ وأن الدين جعل ليهدي الانسان الى الكمال لا ليؤمن له « الخلاص » بأن يتمي الى قطيع معين يفسد مفهوم الله وهو يدعي حصره في مفاهيم عصر وبيئة معينة ٠

كان من هذا الغلط أن الكنيسة لم تتنبه الى وجوب الغاء الناموس الموسوي الا في القرن الرابع٠ ومع ذلك احتفظت في صلواتها الرسمية بنصوص العهد القديم وان كان أغلبها لا يتلاءم وروح الانجيل من قريب أو بعيد مهما جهد المرء في التاويل والرمز٠ وهو تهور كبير من ناحيتين : بأن التبس على المؤمنين الفرق بين الديانتين فكسرت تفاهة الدين الاجتماعي شوكة الدين الشخصي لدى الأكثرين ، ـ وبأن المسيحيين ظهروا كمن يدعي أن العهد القديم يخصهم أكثر مما يخص اليهود وانهم يفهمونه ويؤولونه أفضل من اليهود وهو ادعاء أوغر الضغينة في قلب اليهود حتى اليوم كما رأينا ٠

ولقد ألمحنا الى أن كثيراً من المسيحيين (اكليرسا ومسيحيين أصلاء ويهوداً اعتنقوا النصرانية) يتهمون المؤسسات اليهودية بدسائس شتى ومؤامرات عبر التاريخ لنخر المسيحية وتخريبها كما ألمحنا الى أن يهوداً كباراً ألحوا بنفي تلك الاتهامات جملة وتفصيلا ٠ تلك ناحية لا تهمنا في شيء لسببين : أن مكايد الجماعات بعضها لبعض أمر يومي طبيعي ولكن برهان تفصيلاته ليس بالأمر السهل فهو من شأن الذين فرغوا للاثارة ٠ والسبب الثاني أن موضوع العلاقة بين اليهودية والمسيحية أدق وأعمق وأخطر بكثير من دسائس اليهود للمسيحيين لأن الدسائس لا تنال من الخصم ما لم يكن في الخصم ثغرات ٠

وما دامت الثغرات شهدناها منذ البدء فلا عجب في أن تكون بالزمان تكاثرت حتى حصل ما راقبه الأخ دانيال : « بدأنا نسمع أصواتاً لهاوزنها تقول ما لم يسمع قط في ما مضى من أن العالم بفضل بولس (وهو أول من فلسف رسالة يسوع) اذ أصبح مسيحياً أصبح يهودياً » ، هذا من الناحية النظرية ٠ أما من الناحية العملية فقد لفت انتباهنا(٩٦) ٠ انهيار المسيحية عملياً في الغرب حتى ان الذين كان أجدادهم في القرن الحادي عشر شنوا الحروب الصليبية بذريعة حماية القدس الشريف باعوا فلسطين لليهود في القرن العشرين ضاربين عرض الحائط لا بالحقوق والأخلاق فحسب بل بكل ما يحمل بيت المقدس من معان ٠

هذا في الغرب حيث التنكر للمسيحية سمي علمنة بأن الدين المسيحي في الغرب دخيل فأمكنت العلمنة لأنها بالتحديد عودة الى ما طبع الغربيين قبل النصرانية من ثقافة اليونان والرومان ٠ أما في الشرق حيث الثقافة أصلا دينية فقد حدث للطوائف المتزاحمة في ما بينها ما حدث لليهود في وجه الاضطهاد الأوربي بأن الانتماء الديني تحول من الثقافة الى القومية فعقم الدين وعقمت الثقافة وأمست العقول والنفوس جاهزة للغزو الأجنبي فغزا ٠ ولما كانت حصيلة الغزو لا يمكن أن تسمى ثقافة لأنها هجانة (وان سموها انفتاحاً على الغرب والشرق معاً) ولما كانت الثقافة الانجيلية نقيض العصبيات جميعاً كان تدهور المسيحية الشرقية الى عصبية قومية كارثة مزدوجة بأن الجماعة مسخت المفاهيم الدينية وليس لديها ما تبني به العلمنة ٠



بيع فلسطين لليهود عام ١٩١٧ من قبل « المسيحيين » الانكليز لقاء دراهم معدودة وما تلا ذلك من مآس عالمية ومحلية ما زلنا فيها غارقين يضطرنا اذن في آخر هذا المقال الى الاعتراف بانهيار الديانات الرسمية جميعا • فاليهودية بقدر ما انقادت للصهيونية لم يعد فيها من الدين شيء • والمسيحية الغربية كادت أن تكون وراثة أسرتها العقد اليهودية بما فيها الصهيونية(٩٧) • وفئة من المسيحية الشرقية تود لو تصلح المسيحية شعاراقوميا • والاسلام حائر في وجه هذا الزمان تشله الفرقة والمنازعات • فلم تعد القضية على ما يبدو أن نعرف مدى تأثر المسيحية باليهودية او ان نتساءل عن النبوءات هل آن لها أن تتم • تلك مقولات تخطاها الزمن • القضية أن الدين أصلا هو الملح والخميرة وهو الذي بعثنا وجمعنا فكان لنا في الدنيا فعل ومعنى فوجب التساؤل عن الدين لدينا ماذا فعلنا به حتى فسد وتفتت عصبيات متناحرة •



□ الحواشي :

١ - كلمة يوردها الحاخام يعقوب كابلان على لسان مونتسكيو • راجع كتيبا بالفرنسية عنوانه « المجمع واليهود » اشترك في تأليفه الكردينال دانييلو والحاخام كابلان ، باريس ١٩٦٦ •

٢ - آل عمران ١٩ و ٦٧ ، الأنعام ٧٩ ، يونس ١٠٥ ، الروم ٣٠ ، الحج ٣١ ، البينة ٥ •

٣ - لم أرسل الا الى الخراف الضالة من آل اسرائيل (متى ١٥/٢٤ و ١٠/٦) •

٤ - سمعتم انه قيل ••• وانا اقول ••• (متى ٥/٢١ وما يليها) •

٥ - متى ٢١/٤٣ و ٢١/٣١ و ٨/١١ - ١٢ ، لوقا ١٣/٢٩ ، متى ٢٨/١٩ ، مرقس ١٦/١٥ •

٦ - روما ٩/٢ - ٥ • القضية التي نعالجها هنا تملا الفصول ٩ و١٠ و ١١ فنستغني عن الحواشي •

٧ - لوقا ٢٣/٣٤ •

٨ - اعمال ٧/٦٠ •

٩ - لوقا ١٤/٢٥ - ٢٦ • راجع ايضا متى ١٠/٣٧ •

١٠- لوقا ١٢/٥٣ ومتى ١٠/٣٥ - ٣٦ •

١١- روما ٩/٦ - ٨ •

١٢- روما ١١/٢٥ - ٢٧ •

١٣- متى ٥/٦ •

١٤- يوحنا ٤/٢٤ •

١٥- « الضيق اليهودي » لادوارد فلانري ، الترجمة الفرنسية ١٩٦٨ ، الصفحة ٤٤ •

١٦- الكتاب المقدس ، نشرة المدرسة الأورشليمية ، ١٩٦١ ، الصفحة ١٦٥٧ •

١٧- « تاريخ الكنيسة » لكراوس ، الطبعة الثانية للترجمة الفرنسية ، الجزء الأول الصفحات ١١٥ - ١١٧ •

١٨- « قضية بقية اسرائيل في المجمع الفاتيكاني الأول » ، ليون وباريس ١٩١٢ ، الصفحة ١٠٣ •

١٩- « اليهودية » لفنسان باريس ١٩٣٢ ، الصفحة ١٧ • راجع ايضا الصفحة ٣٢ حيث يورد شهادة القديس ابيفانيوس بان من قرى الجليل من بقيت يهودية حتى أوائل القرن الرابع « فلم يكونوا (اليهود) يتحملون احدا بين ظهرانيهم يونانيا كان او سامريا او مسيحيا ولا سيما في طبريا والناصرة وكفر ناحوم حيث يحرص اليهود على عدم مساكنة اي شعب » ، ثم الصفحات ١١١ - ١١٣ و ١٧٣ - ١٧٤ •

٢٠- عينه الصفحة ١٣٣ •

٢١- تأليف دونيز ايمي ومارينا مناتي •

٢٢- كراوس الجزء ١ الصفحة ٤٤٦ •

٢٣- قضية بقية اسرائيل الصفحات ١١٦ - ١١٧ •

٢٤- الظلمات البرانية ، الصفحة ٧١ ، الحاشية •

٢٥- قضية بقية اسرائيل ، الصفحة ١٣ •

٢٦- فنسان ، الصفحة ٢١٠ •

٢٧- قضية بقية اسرائيل ، الصفحات ١٣ - ١٥ و ٥٦ •

٢٨- في « الضيق اليهودي » يقول ادوارد فلانري ان أصل الجيتو اقدم بكثير من المسيحية فلا ينفك عن طبيعة اليهودية ذاتها ، الصفحة ٧١ ، الحاشية •

٢٩- يلاحظ فنسان ان اليهود الذين لا يؤمنون باله شخصي ولايتقيدون بشيء من التوراة هم ايضا يظنون ان الشعب اليهودي لذو رسالة خاصة (الصفحة ١١٥) ولعلا تجد مثلا لدى البيرت اينشتاين نفسه سذاجة مذهلة في تبرير الصهيونية وان كان شهد بنفسه تطورها من سعي انساني الى توحش عسكري • (راجع كتابه « افكار وآراء » ما بين الصفحات ١٧٧ و ١٩٩) • ولو كان الغرور يقف عند هذا الحد لما كان غرور اليهودي يختلف كثيرا عن غيره مما نشهد كل يوم لدى كل الشعوب • الا ان الحاخام غونتر بلانت في كتابه « قضية لصالح الشعب المختار » (الترجمة الفرنسية باريس ١٩٦٧) يروي ان احد الحاخامين لما قتل الرئيس كندي تساءل أيجوز ان تقام لراحة نفسه الصلاة التقليدية ما دام من غير الأكيد ان كندي له « روح » بالمعنى اليهودي (الصفحة ١٥٩) ان كان ثمة مرض عضال فهذا هو المرض العضال •



٣٠ـ في « قاموس العصور القديمة » لدارنبرغ وساليو ، الصفحة ٦٢٦ ، يلاحظ تاودور ريناخ ان اليهود كان هدفهم دوما ان يصبحوا مواطنين لينعموا بامتيازات البلد دون تحمل التبعات (فنسان ، الصفحة ٢٧) .

٣١ـ اينشتاين الصفحة ١٧٤ .

٣٢ـ كارل ماركس ، « المسألة اليهودية » .

٣٣ـ « يوميات المجمع » لهنري فيسكي ، ١٩٦٥ ، الصفحة ٧٩٢ .

٣٤ـ « قاموس مختصر اللاهوت الكاثوليكي » لراز وفور جريملر ، باريس ١٩٧٠ .

٣٥ـ هذا العدد المتداول ليس اكيدا على ما يبدو ما دام هنالك محققون يشكون حتى في وجود ما اشتهر من الأفران المخصصة لحرق الجثث بالجملة . وايا كانت حقيقة الامر فليست الهمجية النازية في انها قتلت ستة ملايين لا مليونا واحدا انما الهمجية في ان تحلل لنفسك قتل البريء . منطق الهمجية منطق المسؤولين الصهاينة (وهم سلالة النازيين المباشرة) في تدمير بيروت الغربية : « نقصف بناية فيها أبرياء اذا اصبنا بذلك فلسطينيا » . اما منطق الحد الأدنى من الانسانية فيقول : « من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » .

٣٦ـ « اليهود والانجيل » لغريغوري باوم ، باريس ١٩٦٥ ، الصفحة ١١ ، الحاشية . والنص مأخوذ عن « اليهودية والمسيحية » لجيمس باركس .

٣٧ـ « اليهود » لبول كلوديل ، باريس ١٩٣٧، الصفحات ٣١٧ـ٣١٨ . وكارل ماركس : « المسألة اليهودية » .

٣٨ـ راجع الصفحات الاربعين الاولى من « الظلمات البرانية » حول مناهضة اليهودية قبل ظهور المسيحية .

٣٩ـ « الضيق اليهودي » الصفحات ٥٩ ـ ٧٧ .

٤٠ـ نفسه ، الصفحة ٨٤ وكراوس ، الجزء ٢ ، الصفحات ٣١٠ـ٣١١ .

٤١ـ كراوس ، المرجع نفسه و « الضيق اليهودي » الصفحات ١١٢ وما يليها .

٤٢ـ « الضيق اليهودي » الصفحة ١١٥ في الحاشية .

٤٣ـ هولندا ١٨٣٠ ، امركا ١٨٤٩ انكلترا ١٨٥٨ ، النمسا ١٨٦٠ ، بروسيا ١٨٦٦ .

٤٤ـ « قضية بقية اسرائيل » الصفحات ٤٣ و ١٨٦ ـ ١٨٧ .

٤٥ـ ليون دو بونسين « الأممية اليهودية السرية » الصفحة ١١ باريس ١٩٣٦ .

٤٦ـ « قضية بقية اسرائيل » الصفحات ١٠١ و ١٧٨ . « سكان الالزاس وهنغاريا وسيليزيا ورومانيا يشكون من ان اليهود يفترسونهم » (الصفحة ٧٧) .

٤٧ـ « اليهود » لبول كلوديل وغيره ،باريس ١٩٣٧ ، الصفحة ٧١١ .

٤٨ـ « الأممية اليهودية السرية » (صفحة ٣٦٨) . راجع ايضا « نحو نظام اجتماعي مسيحي » لدولاتور دو پين ، باريس ١٩٠٧ و ١٩٢٩ ـ « اليهود في العالم » لارتور روبين باريس ١٩٣٤ يؤكد : « لا يرتاح اليهودي الا في الليبرالية الرأسمالية » الصفحة ٥٧ الحاشية .

٤٩ـ «قاموس الدفاع عن الايمان الكاثوليكي» لجوجي ، باريس ١٨٨٩ .

٥٠ـ « قضية بقية اسرائيل » الصفحات ٢٩ و ٤٦ و ٥٧ .

٥١ـ « اليهودية » لفنسان يأخذ على اليهود الشائبة عينها في الصفحة ١٠٠ .

٥٢ـ « الفلسفة المسيحية حتى ديكارت » لرومير ، باريس ١٩٣٤ ، الصفحات ٢٧ و ٣٤ . مجلة « ايرينكون » الفرنسية في عدد آذار ونيسان ١٩٣٠ الصفحة ٢٠٠ تشير الى مقال من مجلة بوت الروسية يمتدح كتابا المانيا لاوسكار جولدبرغ عام ١٩٢٥ تحت عنوان « حقيقة العبرانيين ، مدخل الى الخماسية الموسوية » بأنه يجاري نظرية فلاديمير سولوايوف في ان اللاهوت اليهودي مادي .

٥٣ـ Esprit ايلول ١٩٦٦ الصفحة ١٦٥ ، حاشية، والصفحات ١٨٠ ـ ١٨١ .

٥٤ـ متى ٨/٣ ولوقا ٩/٣ .

٥٥ـ نيتشه في شأن الاغريق : « لكم تألم هذا الشعب حتى تمكن من بلوغ منتهى الجمال ! » نشأة التراجيديا » ترجمة المركور دو فرانس ، باريس ١٩٤٧ ، الصفحة ٢٢٣ . وهو أمر يفهمه كل من دفع ثمن الرقي الروحي . ومن دلائل جمال الشعوب صاحبة الرسالة أنها كالاغريق تدين لابنائها العظام وتشع بهم على الدنيا بأسرها . وقد يكون من الغاز التاريخ لا ان الشعب اليهودي كلما علا شأنه يشرس فحسب بل ان اكابر ابنائه (من امثال يسوع وسبينوزا وماركس) اما يتنكر لهم واما يتنكرون له .

٥٦ـ « مفهوم المسيح عند اليهود » باريس ١٩٠٩ الصفحات ١٩٥ وما يليها و ٣٠٠ وما يليها . ذكره فنسان في الصفحات ٢٣و١٢٤ كما يذكر « اليهودية في القرون المسيحية الاولى » من تأليف مور ، طبعة كامبريدج ١٩٢٧ ، الصفحة ٨٣ .

٥٧ـ لوقا ٢١/٨ ، مرقص ٣٥/٣ ، متى ٥٠/١٢ ، لوقا ٢٠/٦ ـ ٢٦ ، متى ٣/٥ ـ ١٢ ، افسس ١٤/٢ ـ ١٦ .

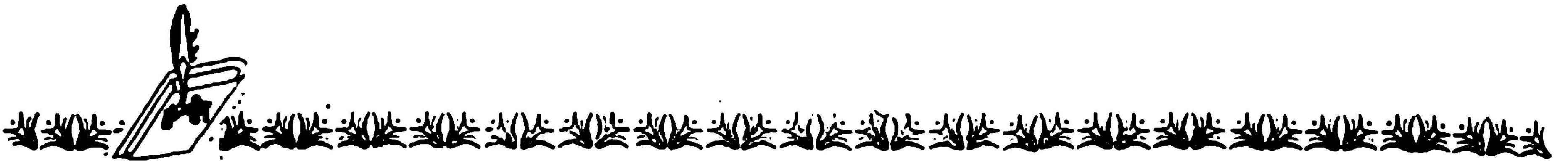
٥٨ـ لوقا ٢٣/١٣ ـ ٢٧ . متى ١٣/٧ ـ ٢٣ .

٥٩ـ متى ٢٣/٢٣ .

٦٠ـ اشهرهم ماركيون (قدم روما حول ١٤٠) يرى الشقة بين العهد القديم والعهد الجديد كالشقة بين الخوف والحب او بين عدل المحبة وعدل الميزان . راجع « الفلسفة المسيحية حتى ديكارت » الصفحة ١٦٣ .

٦١ـ « المجمع واليهود » الصفحات ١٣ ـ ٢١ .

٦٢ـ من غريب الأمور تنازع اليهود حول اكابر الشخصيات التي خرجت من الجماعة اليهودية من امثال يسوع وسبينوزا وكارل ماركس . نقتصر مثالا على ما يلي : في كتاب عنوانه « يسوع الناصري : حياته وزمانه وتعليمه » القدس ١٩٢٥ يلوم الحاخام كلاوسنر يسوع على ازدراء الأرض والأطر الاجتماعية والقومية والحرف الذي يلازم الروح بأن الازدراء هذا فصل يسوع عن شعبه . ولا يمنعه ذلك من اعتبار الأخلاق الانجيلية بأنها « احدى أبدع الجواهر في الأدب الاسرائيلي ! » وكذلك قيل في كتابه «اليهودية» يرى أن التعليم الأخلاقي والروحي في الانجيل ليس سوى



« الزهرة التي تفتح عنها التوحيد الاخلاقي في دين اسرائيل » ٠ بيد ان المجلة الانكليزية جويش ريفيو في عددها الاول (لندن ١٩١٠) تورد عن فريد لندر انه عجب واستاء مما ابداه غيره من اليهود من احترام لشخص يسوع علما بان مؤسس المسيحية من « اعداء اليهودية الألداء » ٠ راجع « اليهودية » لفنسان الصفحات ١٣٤ ـ ١٣٦ ٠ وانك لتجد تناقضا شبيها في كتاب « اليهود والانجيل » لغريفوري باوم ، الصفحات ٩ و ١١ ٠

٦٣ـ راجع كتاب الأخوين ليمان ٠ واطرف منه ما اوردته الصحافة من اخذ ورد عام ١٩٨١ اذ صرح رئيس اساقفة باريس (وهو من اصل يهودي يحمل اسما المانيا منشاه بولندا وجنسيته فرنسية) بانه اذا ارتد الى المسيحية لم ينفك ان يكون يهوديا فانبرى الحاخامات يبرئون اليهودية منه ٠

٦٤ـ الراهب الأخ دانيال (وهو مرتد عن اليهودية) يشير بحق الى ان الاجتهاد في تصوير المسيحية بانها فرع يهودي امر حدث ٠ راجع مجلة اسبري ، ايلول ١٩٦٦ الصفحة ٣١٣ ٠ ولا ريب في ان مرجع ذلك كما قلنا امران آخران هما عقدة الذنب لدى الغربيين بعد انهيار النازية ناحية اولى وضغط المال الصهيوني ناحية اخرى ٠

٦٥ـ هذا ما لفت ايضا نظر ليون بلوا : « صلواتنا الرسمية كلها ماخوذة عن الكتب اليهودية » ٠ راجع كتاب بول كلوديل «اليهود» الصفحة ٧١ ٠

٦٦ـ « قضية بقية اسرائيل » الصفحات ١٣٣ و ٢٢٢ و ٢٥١ و ٢٧٧ ٠ ولئلا يخفى ما في هذه المواقف من عدم الفكر نشير الى ان المرجع نفسه يذكر اساقفة آخرين تناقض آراؤهم ما سبق وان كانت هي ايضا كارثة ٠ اذ لاحظ الأخوان ليمان ان كثيرا من اليهود يتخذون من العلم والفلسفة ذريعة ليهجروا الدين اجابهم احد الأساقفة الأميركيين ان ليس في ذلك الجنوح ما يؤسف له بل فيه خدمة لله لأن اليهودي اذا نبذ ايمانه فكأنه يمهد الطريق لاعتناق المسيحية. واضاف اسقف آخر هو ايضا اميركي : « ذلك انه من الأسهل ان تبني في مكان خال ! » راجع الصفحات ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ٠ زد على ذلك ما يشهد به البيرت اينشتاين من ان اليهودية لا يمكن ان تسمى دينا بالمعنى المألوف (افكار وآراء الصفحات ١٨٤ ـ ١٨٥) فتتم البلبلة ٠

٦٧ـ « المجمع واليهود » الصفحات ٤ و ٧ ٠

٦٨ـ راجع مقال جاك ماريتين « استحالة مناهضة السامية » في كتاب بول كلوديل « اليهود » الصفحات ٤٨ ـ ٥١ ٠

٦٩ـ المرجع نفسه الصفحة ٣٢١ ٠

٧٠ـ راجع « افكار وآراء » لأينشتاين (ولا سيما الصفحة ١٧١) فهو لا ينفك يتساءل : ماذا يعني ان تكون يهوديا ؟ لأنه يرى ان ما احدثته صروف الدهر من مرض في نفس اليهودي انها لا قرار فيها ٠

٧١ـ راجع فنسان ، الصفحات ١٣٩ ـ ١٤٠ و ١٦٢ ٠

٧٢ـ « قضية بقية اسرائيل » ، الصفحة ٥٥ ٠

٧٣ـ راجع دوني دوروجمون في « الحب والغرب » ، باريس ١٩٦٣ ، الصفحات ٥٩ ـ ٦٠ ٠

٧٤ـ البيرت اينشتاين في « افكار وآراء » ، الصفحة ١٩١ ٠

٧٥ـ راجع « المسألة اليهودية » لكارل ماركس ، و « اليهود في العالم » لروبين ، باريس ١٩٣٤ ، و « الدين ونشوء الراسمالية » لتوني ، نيويورك ١٩٥٤ ٠

٧٦ـ الصفحات ١٧٧ ـ ١٨٢ ٠

٧٧ـ الصفحات ١٨٤ ـ ١٨٦ ٠

٧٨ـ الصفحات ١٨٧ ـ ١٨٩ ٠

٧٩ـ الصفحات ١٩٨ ـ ١٩٩ ٠ وكان يشوع بو خميل في كتابه « مشكلات النهضة اليهودية » ، القدس ١٩٣٦ اكد ان « حقوق العرب لا يمكن ان تمس كيفما كانت الحال نظرا الى ما تهتدي به الشبيبة اليهودية المهاجرة الى فلسطين من مثل العدل والمساواة » ٠ ثم ذكر ما كتبه برنشتاين (وكان من اكثر الصهاينة تطرفا) في كتابه « الفكر الصهيوني على طريق الضلال » ، فيينا ١٩٢٩ : « فلسطين اذا اصبحت يهودية لن تحرم العرب شيئا مما لديهم بل ستعطيهم كثيرا مما ليس لديهم»، الصفحات ١١٢ـ١١٤ ٠

٨٠ـ « القضية لصالح الشعب المختار » ، الصفحة ٤١ ٠

٨١ـ نفسه ، الصفحة ١٤٥ ٠

٨٢ـ « الأممية اليهودية السرية » ، الصفحة ٢٦٧ ، الحاشية ٢ ٠

٨٣ـ مجلة اسبري ايلول ١٩٦٦ ، الصفحة ٢٦١ ٠

٨٤ـ « اليهود » لبول كلوديل ، الصفحة ٧٠ ٠

٨٥ـ راجع فنسان « اليهودية » ، الصفحة ١٢٥ ٠ وفي الصفحات ١٩٩ ـ ٢٠٠ موقف آشر جيزبيرغ المعروف باسمه المستعار احدهاعام (واحد من الشعب) ولد في روسيا وارتأى ضد هرتزل ان تكون فلسطين قبل كل شيء مركز اشعاع فكري وخلقي ـ وكذلك مرتين بوبر في كتابه الذي نشر باللغة الالمانية عامي ١٩٠٩ و ١٩٢٣ « خطاب في اليهودية » اراد من اليهود في فلسطين ان يعملوا والعرب في الاعمار لا ان يقاوموا العرب ٠ ولقد سبق والمحنا في هذا الاتجاه الى آراء ابل ٠

٨٦ـ « القضية لصالح الشعب المختار » ، الصفحة ٧٠ ٠ مجلة اسبري تتكلم عن « قصر النظر » ، الصفحة ١٦٥ ٠

٨٧ـ « اليهود » ، الصفحة ٢٤٥ ٠

٨٨ـ اسبري ايلول ١٩٦٦ ، الصفحات ١٦٧ ـ ١٨٧ ٠

٨٩ـ « الظلمات البرانية » ، الصفحة ٥٦ ٠

٩٠ـ « اليهود » لكلوديل ، الصفحة ٣٢٦ ٠

٩١ـ اسبري ايلول ١٩٦٦ ، الصفحة ١٦٣ ٠

٩٢ـ نفسه الصفحات ١٨٩ و ٣٢٩ ٠

٩٣ـ « قضية بقية اسرائيل » ، الصفحة ٥٥ ٠

٩٤ـ « اتيت لتكون لهم الحياة وتكون فيهم زاخرة » يوحنا ١٠/١٠ ٠

٩٥ـ افسس ٢/٢٠ ٠

٩٦ـ مجلة اسبري ايلول ١٩٦٦ ، الصفحة ٣١٣ ٠

٩٧ـ وان كان شذوذ الصهاينة واخطاؤهم ربما ادت الى اضعاف اليهودية في الغرب ٠

بعض المراجع الأجنبية

AIME-MANNATI	Les ténèbres extérieures, Paris 1946.
BAEK L.	Das Wesen des Judentums, Francfort 1928.
BAUM G.	Les Juifs et l'Evangile (trad.), Paris 1965.
BERNSTEIN F.	Der zionistische Gedanke auf Irrwegen, Wien 1929.
BUCHMILL J.	Problème de la renaissance juive, Jérusalem 1936.
CLAUDEL P.	Les Juifs, Paris 1937.
DAHAN B.	Nous et les Israéliens, Beyrouth 1971.
DANIELOU-KAPLAN	Le Concile et les Juifs, Paris 1966.
EINSTEIN A.	Ideas and opinions; N. Y. 1973.
ESPRIT (revue)	sept. 1966.
FESQUET H.	Le journal du Concile, Journal Le Monde, 1966.
FLANNERY E.H.	L'angoisse des Juifs (trad.), Paris 1968.
INGLESSIS E.	Maximos IV. L'Orient conteste l'Occident, Paris 1969.
ISAAC J.	Jésus et Israël, Paris 1948, 1958.
IZOULET J.	La métamorphose de l'Eglise, Paris 1928.
JAUGEY J. B.	Dictionnaire apologétique de la foi catholique, Paris 1889.
JEAN CHRYSOSTOME	Huit homélies anti-juifs, Patrologia graeca vol. 48.
KLAUSNER J.	Jesus of Nazareth, his time, life and teaching, Jerusalem 1925.
KRAUS Fr. X.	Histoire de l'Eglise (trad.), Paris 1896.
LAGIER C.	L'Orient chrétion des Apôtres jusqu'à Photius, Paris 1935.
LAGRANGE M. J.	Le messianisme chez les Juifs, Paris 1929.
LA TOUR DU PIN	Vers un ordre social chrétien, Paris 1907, 1929.
LAZARUS M.	Ethic des Judentums, Francfort 1898, 1911.
LEMANN frères	La cause des restes d'Israël à Vatican I, Lyon-Paris 1912.
MAIMONIDE	Les huit chapitres, Paris 1927.
MOORE J. F.	Judaïsm in the first centuries in christian era, Cambridge 1927.
PLANT W. G.	The case for the chosen people, N. Y. 1965.
PONCINS L. de	La mystérieuse internationale juive, Paris 1936.
RANER K.	Petit dictionnaire de théologie catholique (trad.), Paris 1970.
REINACH Th.	Histoire des Israélites, Paris 1901.
ROMEYER B.	La philosophie chrétienne jusqu'à Descartes, Paris 1934.
RUPPIN A.	Les Juifs dans le monde moderne, Paris 1934.
TOYNBEE A. T.	L'Histoire, un essai d'interprétation (trad.), Paris 1951.
VINCENT A.	Le Judaïsme, Paris 1932.
WEILL J.	Le Judaïsme, Paris 1931.
ZANGWILL I.	La voix de Jérusalem (trad.), Paris 1926.

★ ★ ★

الموقف الأميركي



الأمم المتحدة إزاء القضية الفلسطينية عداء مستمر

ناجي علوش

اتسمت السياسة الأميركية ، منذ ١٩٤٢ ، بالثبات في موقفها من المشروع الصهيوني والدولة الصهيونية . ولم تستطع كل التطورات التي حدثت ، منذ قيام الدولة الصهيونية وحتى الآن ، أن تحدث اي تغير في السياسة الأميركية .

ولقد شهدت هذه الفترة (١٩٤٨-١٩٨٢) عدة حروب هامة : حرب ١٩٤٧-١٩٤٩ ، حرب ١٩٥٦ ، حرب ١٩٦٧ ، حرب ١٩٧٣ ، وحرب ١٩٨٢ . كما شهدت غارات برية وجوية واعتداءات عديدة، واحتلال أراض ، ومصادرة حقوق قومية ، ونهب ثروات الخ..

وعلى الرغم من ذلك ، فان السياسة الأميركية التي التزمت بانشاء الكيان الصهيوني ، منذ سنة ١٩٤٢ ، التزمت بتوفير مقومات الوجود للدولة الصهيونية، وبتزويدها بكل اشكال المساعدة السياسية والعسكرية اللازمة للاستمرار والتوسع ، واتقاء آثار العزلة الدولية .

وهي لم تكتف بذلك ، بل عمدت الى انتهاج سياسات ازاء الوطن العربي ، تسمح باستمرار التخلف والتجزئة والتبعية وبتراكم عوامل الضعف ، ليظل الكيان الصهيوني اكبر قوة في المنطقة .

لقد كان الالتزام الأميركي بالكيان الصهيوني واضحاً ، وتجلى بأشكال مختلفة . من ذلك :

١ - الالتزامات السياسية المعلنة والرسمية :

ولو بدانا بالتصريح الثلاثي سنة ١٩٥٠ في الخامس والعشرين من ايار ، حيث التزمت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بحدود الاحتلال الصهيوني ؛ لوجدنا المواقف الكثيرة التي تعبر عن هذه السياسة . ومن ذلك تصريح الرئيس كارتر الذي اعلنه من على منصة الكنيست يوم الثاني عشر من آذار ١٩٧٩ ، والذي جاء فيه : « دعوني اكرر ما قلته لرئيس الوزراء بيغن في العام الماضي ، امام البيت الأبيض ، في عيد تأسيس دولة اسرائيل الحديثة ، واليكم ما قلته :

طوال ثلاثين عاماً ، وقفنا الى جانب دولة اسرائيل الأبية والمستقلة ، واستطيع القول دون تحفظ كرئيس للولايات المتحدة ، اننا سنظل على هذا الموقف ؛ ليس فقط لمدة ثلاثين سنة اخرى ، بل الى الأبد » ، واضاف : « وانا اعرف واتفهم القلق الذي تشعرون به ، وانتم تبحثون اهمية الخيارات التي سيتعين مواجهتها، حتى بعد ابرام معاهدة سلام بين اسرائيل ومصر ، واذ يقترب موعد هذه الخيارات عليكم ان تذكروا التعهد الذي التزم به امامكم اليوم ثانية ، وهو ان الولايات المتحدة لن تساعد على الاطلاق اي اتفاق ، او اي اجراء ، يمكن ان يعرّض امن اسرائيل للخطر » ولقد تكررت مثل هذه التعهدات على لسان ريغان ، وكل الرؤساء الأميركيين من قبل . كما تجلت في اتفاق التعاون الاستراتيجي الأميركي - الصهيوني .



٢ ـ المساعدات السياسية والعسكرية : وهي مساعدات مباشرة او غير مباشرة ، تحتل موقعاً هاماً في الاقتصاد الصهيوني ، وبناء القوة الصهيونية . وكانت الولايات المتحدة حريصة في البدء ، على ان تقدم الدول الأوروبية اجزاء اساسية من هذه المساعدة ، ثم ما لبثت ان اصبحت الممول الوحيد .

وتلعب هذه المساعدة دوراً هاماً في حقن الاقتصاد الصهيوني المصطنع والمضطرب ، بمقومات الاستمرار ، كما تلعب دوراً اكثر اهمية في بناء القوة العسكرية المتطورة ، التي تفوق ما لدى الأنظمة العربية كلها ، من حيث النوع ، وتكفي كما خطط لها لمواجهة معظم ما لدى هذه الأنظمة من حيث الكم .

وهي مساعدات تزداد باستمرار ، وتاتي ملبية مخططات الحكومات الصهيونية المتعاقبة ، في مجالي الاقتصاد والدفاع .

واذا كانت هذه المساعدات قد بدات بقرض يبلغ مائة مليون دولار في ١٩٤٨/١١/٢٩ فانها بلغت ما يقرب ١ر١ مليار دولار سنة ١٩٦٧ ؛ وعام ١٩٧٣ الى ٥ر٢ مليار دولار ؛ وفي الفترة ٧٣–٧٦ حوالي ٧ مليارات . وهي تزيد الآن عن ثلاثة مليارات دولار . هذا عدا المساعدات غير الرسمية ، وبلغت حصيلة التعويضات الألمانية ما بين ١٩٥٣–١٩٧٦ حوالي ١٥ مليار مارك الماني .

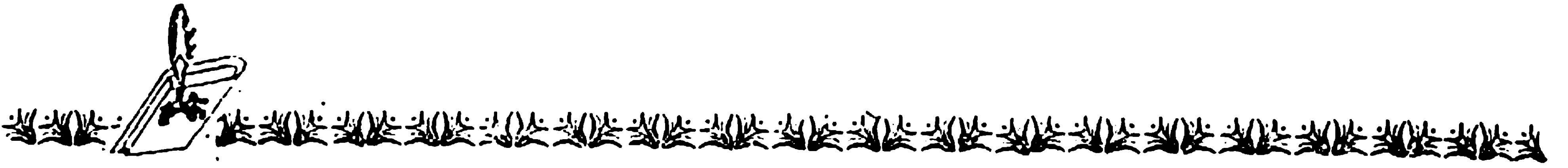
٣ ـ المشاركة في برامج التوسع والدفاع عنها : ولم تلتزم الولايات المتحدة بتمويل الكيان الصهيوني والدفاع عن وجوده فقط ، بل شاركت في كل خطواته التوسعية ، والتزمت بالدفاع عنها في كل الميادين ، ومنها مجلس الأمن والأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها ، وكان هذا واضحاً في الحروب ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، ١٩٨٢ خاصة .

ولو اخذنا الاقتراع في الأمم المتحدة مقياساً ، لوجدنا ان الموقف الأميركي هو الموقف الصهيوني ، وان الخلاف ان حدث في بعض الحالات المحدودة ، فانه لا يعدو ان تقترع « اسرائيل » ضد ، والولايات المتحدة امتناع في قضايا غير اساسية ، اما في القضايا الأساسية فموقف الدولتين واحد .

وسنقدم هنا صورة عن الاقتراع خلال السنوات ١٩٧٦–١٩٨٠ .

الجدول – ١ – الاقتراع في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٦

رقم القرار	تاريخ القرار	نوع القرار	الاقتراع: اسرائيل	الاقتراع: الولايات المتحدة	المكان
٣١/٦	١٩٧٦/١١/٩	العلاقات بين اسرائيل وجنوب افريقيا ادانة استمرار التعاون وازدياده	–	ضد	الجمعية العام
٣١/١٥ الف	١٩٧٦/١١/٢٣	تقديم المساعدة للاجئين الفلسطينيين	امتناع	–	» »
٣١/١٥ دال	١٩٧٦/١١/٢٣	السكان واللاجئون النازحون منذ ١٩٦٧	ضد	مع	» »
٣١/١٥ هاء	١٩٧٦/١١/٢٣	اللاجئون في قطاع غزة	ضد	امتناع	» »
٣١/٢٠	١٩٧٦/١١/٢٤	قضية فلسطين	ضد	ضد	» »
٣١/٣٤	١٩٧٦/١١/٣٠	ما للاعلان العالمي لحق الشعوب في تقرير المصير ، وللاسراع في منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة من اهمية لضمان حقوق الانسان ومراعاتها على الوجه الفعال	–	ضد	» »

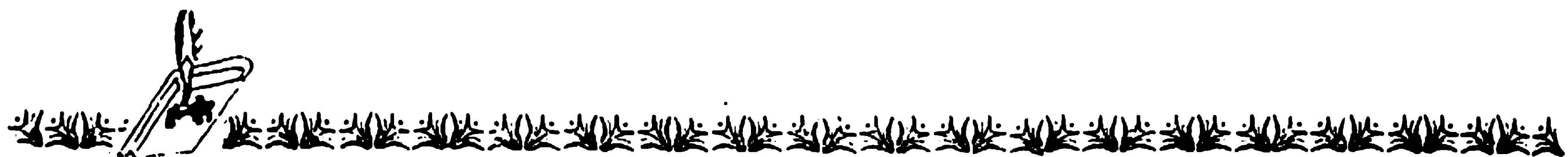


(تابع الجدول ـ ١ ـ الاقتراع في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٦

رقم القرار	تاريخ القرار	نوع القرار	الاقتراع اسرائيل	الاقتراع الولايات المتحدة	المكان
٦١/٣١	١٩٧٦/١٢/٩	الحالة في الشرق الأوسط	ضد	ضد	الجمعية العامة
٦٢/٣١	١٩٧٦/١٢/٩	مؤتمر للسلام في الشرق الأوسط	ضد	ضد	» »
٧١/٣١	١٩٧٦/١٢/١٠	انشاء منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط	امتناع	مع	» »
١٠٦/٣١	١٩٧٦/١٢/١٦	التحقيق في الممارسات الاسرائيلية التي تمس حقوق الانسان في الأراضي المحتلة .			
الف			ضد	ضد	» »
باء			امتناع	مع	» »
جيم			ضد	ضد	» »
دال			ضد	امتناع	» »
١١٠/٣١	١٩٧٦/١٢/١٦	ظروف حياة الشعب الفلسطيني.	ضد	ضد	» »
١٨٦/٣١	١٩٧٦/١٢/٢١	السيادة الدائمة على الموارد الوطنية في الأراضي العربية المحتلة .	ضد	ضد	» »
٢٠٢٦	١٩٧٦/٨/٤	مساعدة الشعب الفلسطيني .	ـ	ضد	المجلس الاقتصادي
٢ (دورة ٣٢)	١٩٧٦/٢/١٣	ادانة اسرائيل بسبب انتهاكها المستمر لحقوق الانسان في الأراضي العربية المحتلة وتغيير معالم القدس وتهديم القنيطرة .	ـ	ضد	الجمعية العامة
٣	١٩٧٦/٦/١١	اوضاع حياة الفلسطينيين في المناطق المحتلة .	ضد	ضد البيئة	مؤتمر الأمم المتحدة للمستوطنات البهودية
	٧٦/٦/١١ـ٥/٣١	اعلان فانكوفر بشان المستوطنات البشرية ١٩٧٦ .	ضد	ضد البيئة	

الجدول - ٢ - الاقتراع في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٧

رقم القرار	تاريخ القرار	نوع القرار	الاقتراع: اسرائيل	الاقتراع: الولايات المتحدة	المكان
٥٣٢	١٩٧٧/١٠/٢٨	الاجراءات الاسرائيلية غير المشروعة التي تستهدف تغيير الطبيعة القانونية والتشكيل الجغرافي والتركيب السكاني ، وعرقلة المساعي المبذولة للتوصل الى سلام عادل ودائم .	ضد	امتناع	الجمعية العامة
١٤/٣٢	١٩٧٧/١١/٧	ما للاعلان العالمي لحق الشعوب في تقرير المصير وللاسراع في منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة من اهمية لضمان حقوق الانسان ومراعاتها على الوجه الفعال .			» »
٢٠/٣٢	١٩٧٧/١١/٢٥	الحالة في الشرق الأوسط .	ضد	ضد	» »
٣٥/٣٢	١٩٧٧/١١/٢٨	انشطة المصالح الأجنبية التي تعرقل تنفيذ اعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة في روديسيا الجنوبية وفي سائر الأقاليم الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية .	ضد	ضد	» »
٤٠/٣٢	١٩٧٧/١٢/٢	قضية فلسطين .			
الف			ضد	ضد	» »
باء			ضد	ضد	» »
٨٢/٣٢	١٩٧٧/١٢/١٢	انشاء منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط .	امتناع	مع	» »
٩٠/٣٢	١٩٧٧/١٢/١٣	وكالة الأمم المتحدة وتشغيل اللاجئين في الشرق الأدنى . تقديم المساعدة الى اللاجئين الفلسطينيين .	امتناع	مع	» »
الف			—	—	» »
باء			ضد	امتناع	» »

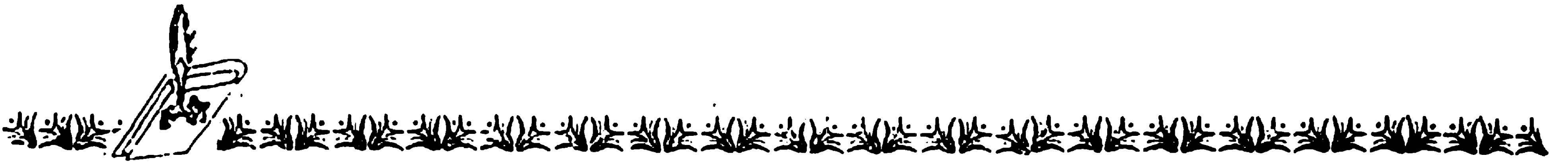


(تابع الجدول ـ ٢ ـ الاقتراع في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٧

رقم القرار	تاريخ القرار	نوع القرار	الاقتراع اسرائيل	الاقتراع الولايات المتحدة	المكان
جيم		اللاجئون في قطاع غزة .	ضد	امتناع	الجمعية العامة
دال					
هاء		السكان واللاجئون منذ عام ١٩٦٧ .	ضد	مع	» »
و		الهبات والمنح الدراسية .	ضد	مع	» »
٩١/٣٢	١٩٧٧/١٢/١٣	في الممارسات الاسرائيلية التي تمس حقوق الانسان لسكان الأراضي المحتلة .			» »
ألف		مطالبة اسرائيل بالاعتراف باتفاقية جنيف .	ضد	مع	» »
باء		ادانة التدمير الذي لحق بالقنيطرة.	ضد	امتناع	» »
جيم		ادانة ضم الأراضي واقامة مستوطنات واجلاء وترحيل السكان .	ضد	ضد	» »
١٠٥/٣٢	١٩٧٧/١٢/١٤	العلاقات بين اسرائيل وجنوب افريقيا .	ـ	ضد	» »
١٦١/٣٢	١٩٧٧/١٢/١٩	السيادة الدائمة على الموارد الوطنية في الأراضي العربية المحتلة .	ضد	ضد	» »
١٧١/٣٢	١٩٧٧/١٢/١٩	احوال معيشة الشعب الفلسطيني.	ضد	ضد	» »
١ الف، باء (دورة ٣٣)	١٩٧٧/٢/١٥	ادانة سياسات وممارسات اسرائيل التي تشكل انتهاكاً لحقوق الانسان .	ـ	ضد	لجنة حقوق الانسان
الف باء			ـ	ـ	» »
١ (دورة ٣٣)	١٩٧٧/٢/١٠	برقية الى حكومة اسرائيل تعبر عن القلق ازاء موت معتقلين عرب في سجون اسرائيلية .	ـ	ضد	» »

الجدول ـ ٣ ـ الاقتراع في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٨

رقم القرار	تاريخ القرار	نوع القرار	الاقتراع		عدد الأصوات		
			اسرائيل	الولايات المتحدة	مع	ضد	امتناع
٢٤/٣٣	١٩٧٨/١١/٢٩	ما للاعلان العالمي لحق الشعوب في تقرير المصير وللاسراع في منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة من أهمية لضمان حقوق الانسان ومراعاتها على الوجه الفعال .	ضد	ضد			
٢٨/٣٣	١٩٧٨/١٢/٧	لا يمكن اقامة سلم عادل ودائم في الشرق الأوسط دون تحقيق حل عادل لمشكلة فلسطين على اساس نيل الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف .					
الف		دعوة م.ت.ف. للاشتراك على اساس القرار ٣٢٣٦ .	ضد	ضد			
باء		تقدير اللجنة المعنية بممارسة الشعب الفلسطيني حقوقه غير القابلة للتصرف .	ضد	ضد			
٢٩/٣٣	١٩٧٨/١٢/٧	ادانة استمرار الاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية والعربية والدعوة الى تسوية شاملة .	ضد	ضد			
٤٠/٣٣	١٩٧٨/١٢/١٣	ادانة تواطؤ جميع الدول المتعاملة سياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً وعسكرياً مع جنوب افريقيا .	ضد	ضد	٨٣	١٤	٣٤
٤٠/٣٣	١٩٧٨/١٢/١٤	الدعوة الى انشاء منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط .	امتناع	مع	١٣٨	ـ	١
٧١/٣٣ الف	١٩٧٨/١٢/١٤	الطلب الى جميع الدول الامتناع عن التعاون العسكري والنووي مع اسرائيل .	ضد	ضد	٧٢	٣٠	٣٧
١١٠/٣٣	١٩٧٨/١٢/١٨	رجاء اعداد تقرير عن الأحوال المعيشية للشعب الفلسطيني .	ضد	ضد	١٠٩	٢	٢٤
١١٢/٣٣	١٩٧٨/١٢/١٨	دعوة جميع الدول الى تلبية حاجات الوكالة .					

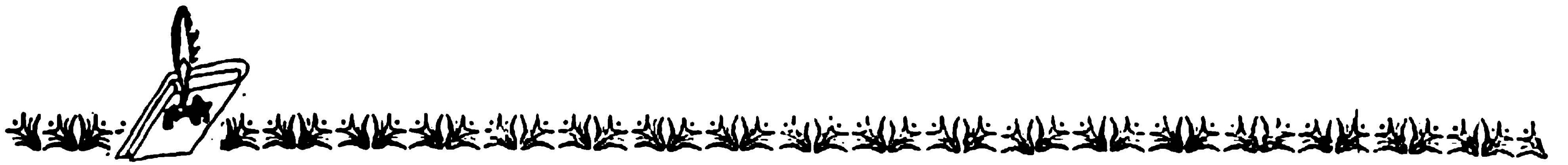


(تابع الجدول ـ ٣ ـ الاقتراع في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٨

رقم القرار	رقم القرار	نوع القرار	الاقتراع		عدد الأصوات		
			اسرائيل	الولايات المتحدة	مع	ضد	امتناع
ألف		تقديم المساعدة الى اللاجئين الفلسطينيين .	ـ	امتناع	١٣٦	ـ	٢
باء		تقديم المساعدة الى النازحين نتيجة لأعمال القتال التي حدثت في حزيران ١٩٦٧ .	ـ	ـ		اجماع	
جيم		الهبات والمنح الدراسية والتدريب المهني الفلسطيني .	امتناع	امتناع	١٣٦	ـ	٢
دال		تمويل وكالة الأمم المتحدة .	ـ	ـ		اجماع	
هاء		اللاجئون في قطاع غزة .	ضد	امتناع	١٣٦	١	٤
واو		السكان واللاجئون النازحون منذ عام ١٩٦٧ .	ضد	ضد	١١٥	٤	٢٢
١١٣/٣٣	١٩٧٨/١٢/١٨	شجب الممارسات الاسرائيلية التي تمس حقوق الانسان لسكان الأراضي المحتلة .					
ألف		عدم اعتراف اسرائيل باتفاقية جنيف .	ضد	مع	١٤٠	١	١
باء		استمرار الاحتلال وتغيير الطابع القانوني والسكاني والجغرافي .	ضد	مع	١٣٩	١	١
جيم		ادانة ضم الأراضي واقامة المستوطنات والترحيل .	ضد	ضد	٩٧	٣	٣٨
١٤٧/٣٣	١٩٧٨/١٢/٢٠	طلب تقديم المساعدة الى الشعب الفلسطيني .	ضد	ضد	١٠٢	٥	٣٥
١٨٣/٣٣	١٩٧٩/١/٢٤	ادانة جميع اشكال التعاون بين اسرائيل وجنوب افريقيا .	ـ	ضد	٨٢	١٨	٢٨
رقم ١ ألف، باء	١٩٧٨/٢/١٤	الاعراب عن القلق ازاء خرق حقوق الانسان في الأراضي المحتلة.	ـ	ضد	٥٣	٢	٧

الجدول – ٤ – الاقتراع في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٩

رقم القرار	تاريخ القرار	نوع القرار	الاقتراع: اسرائيل	الاقتراع: الولايات المتحدة	عدد الأصوات: مع	عدد الأصوات: ضد	عدد الأصوات: امتناع
٢٩/٣٤	١٩٧٩/١١/١٦	الطلب الى سلطات الاحتلال الاسرائيلية الغاء امر الابعاد الصادر بحق رئيس بلدية نابلس السيد بسام الشكعة .	ضد	مع	١٣٢	١	١ ١٧
٥٢/٣٤	١٩٧٩/١١/٢٣	الطلب الى الحكومات بذل اسخى ما يمكنها من جهود لمواجهة الاحتياجات المتوقعة لوكالة الأمم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين ، والطلب الى اسرائيل اتخاذ خطوات فورية تكفل عودة جميع السكان النازحين .					
الف		تقديم المساعدة الى اللاجئين الفلسطينيين .	امتناع	مع	١٤٠	١	١ ١٠
باء		تقديم المساعدة الى النازحين نتيجة لأعمال القتال التي حدثت في حزيران ١٩٦٧ .			اجماع		
جيم		الهبات والمنح الدراسية المعروضة من الدول الأعضاء للتعليم العالي، بما في ذلك التدريب المهني للاجئين الفلسطينيين .	امتناع	امتناع	١٣٨	–	٢ ١١
دال		السكان واللاجئون النازحون منذ ١٩٦٧ .	ضد	ضد	١٢١	٣	١٦ ١١
هاء		اللاجئون الفلسطينيون في قطاع غزة .	ضد	امتناع	١٣٦	١	٥ ٩
٦٥/٣٤	١٩٧٩/١١/٢٩	اعلان ان « اتفاقات كامب ديفيد باطلة من حيث ادعاؤها، البت في مستقبل الشعب الفلسطيني » .					
الف		عدم تحقيق حل عادل ، دعوة م.ت.ف. للاشتراك في المفاوضات.	ضد	ضد	١١٧	١٤	١٦ ٤
باء		رفض احكام اتفاقات كامب ديفيد.	ضد	ضد	٧٥	٣٣	٣٧ ٦

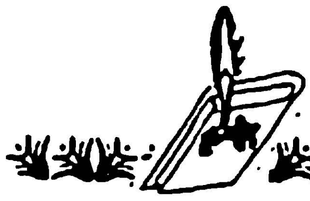


(تابع الجدول ـ ٤ ـ الاقتراع في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٩

رقم القرار	تاريخ القرار	نوع القرار	الاقتراع		عدد الأصوات		
			اسرائيل	الولايات المتحدة	مع	ضد	امتناع
جيم		حول لجنة ممارسة الشعب الفلسطيني حقوقه .	ضد	ضد	١١٨	١٠	١٢	١١
٣٤/٧٠	١٩٧٩/١٢/٦	مؤتمر سلام رعاية الأمم المتحدة والرئاسة المشتركة للاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ومشاركة م.ت.ف.	ضد	ضد	١٠٢	١٧	٢٠	١٢
٣٤/٧٧	١٩٧٩/١٢/١١	منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط .	ضد	مع	١٣٦	ـ	١	١٤
٣٤/٨٩	١٩٧٩/١٢/١١	ادانة محاولة اسرائيل ادخال اسلحة نووية الى الشرق الأوسط.	ضد	ضد	٩٧	١٠	٣٨	٦
٣٤/٩٠	١٩٧٩/١٢/١٢	ادانة انتهاكات اسرائيل المستمرة لحقوق الانسان في الأراضي المحتلة .						
الف		ادانة السياسات والممارسات الاسرائيلية .	ضد	ضد	١١١	٢	٣١	٧
باء		مطالبة اسرائيل بالاعتراف باتفاقية جنيف .	ضد	مع	١٤٠	١	٤	٦
جيم		وقف اية اجراءات في الأراضي المحتلة تمس الوضع القانوني .	ضد	مع	١٤٠	١	٤	٦
٣٤/١٣	١٩٧٩/١٢/١٤	رجاء الأمين العام اعداد تقرير شامل عما للاحتلال الاسرائيلي من اثر على احوال معيشة الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة .	ضد	ضد	١٢٠	٢	٢١	٨
٣٤/١٣٣	١٩٧٩/١٢/١٤	تمويل المشاريع الخاصة بمساعدة الشعب الفلسطيني .	ضد	ضد	١١٢	٣	٢١	١٥
٣٤/١٣٦	١٩٧٩/١٢/١٤	تاكيد حق الدول والشعوب العربية التي تقع اراضيها تحت الاحتلال الاسرائيلي في السيادة الدائمة الكاملة على مواردها الطبيعية .	ضد	ضد	١١٨	٢	٢١	١٠

الجدول – ٥ – الاقتراع في الأمم المتحدة سنة ١٩٨٠

رقم القرار	تاريخ القرار	نوع القرار	الاقتراع		عدد الأصوات			
			اسرائيل	الولايات المتحدة	مع	ضد	امتناع	
داط – ٢/٧	١٩٨٠/٧/٢٩	مطالبة اسرائيل بالبدء بالانسحاب قبل ١٩٨٠/١١/١٥ من جميع الأراضي المحتلة منذ حزيران ١٩٦٧ .	ضد	ضد	١١٢	٧	٢٤	٨
١٢/٣٥	١٩٨٠/١١/٣	تأييد مساعدة اللاجئين واتخاذ خطوات فورية لاعادة اسكان النازحين .						
الف		تقديم المساعدة للاجئين .	امتناع	مع	١٠٩	–	١	٤٣
باء		الهبات والمنح الدراسية .	ضد	امتناع	١٠٩	١	١	٤٢
جيم		تقديم المساعدة الى النازحين نتيجة لأعمال القتال في حزيران ١٩٦٧ .	–	–	تبني دون تصويت			
هاء		حق اللاجئين بالعودة وشجب استمرار اسرائيل في رفض اتخاذ أجراءات العودة .	ضد	ضد	٩٦	٣	١٦	٣٨
واو		طلب الكف عن ترحيل اللاجئين في قطاع غزة .	ضد	امتناع	١١٢	١	٣	٣٧
٣٥/٣٥	١٩٨٠/١١/١٤	اهمية الاعمال العالمي لحق الشعوب في تقرير المصير والسيادة الوطنية وشجب النشاطات التوسعية لاسرائيل في الشرق الأوسط .	لا معلومات					
٧٥/٣٥	١٩٨٠/١٢/٥	ادانة السياسة الاسرائيلية المؤدية الى تدهور احوال معيشة الشعب الفلسطيني .	ضد	ضد	١١٨	٢	٢٦	٧
١٢٢/٣٥	١٩٨٠/١٢/١١	شجب الممارسات الاسرائيلية التي تمس حقوق الانسان لسكان الأراضي المحتلة .						
الف		شجب عدم اعتراف اسرائيل باتفاقية جنيف .	ضد	مع	١٤١	١	١	١٠
باء		عدم قانونية تدابير اسرائيل في الأراضي المحتلة .	ضد	امتناع	١٤٠	١	٣	٩



(تابع) الجدول ــ ٥ ــ الاقتراع في الأمم المتحدة سنة ١٩٨٠

رقم القرار	تاريخ القرار	نــوع القرار	الاقتــراع		عـــدد الأصوات			
			اسرائيل	الولايات المتحدة	مع	ضد		امتناع
جيـم		انتهـاك اتفاقية جنيف وادانـة سياسة الضم والاجلاء ومصادرة الممتلكـات .	ضـد	ضـد	١١٨	٢	٢٣	١٠
دال		الغاء التدابير غير القانونية .	ضـد	امتناع	١٤٠	١	٣	٩
هـاء		ادانة تمادي اسرائيـل في تغيـير الطابع العمراني لمرتفعات الجولان.	ضـد	ضـد	١١٩	٢	٢٣	٩
واو		ادانة حملة القمع الاسرائيلية ضد الطـلاب والجامعات .	ضـد	ضـد	١١٧	٢	٢٥	٩
١٥٧/٣٥	١٩٨٠/١٢/١٢	الاشـارة الى التسلـح النـووي الاسرائيلي .	ضـد	ضـد	٩٩	٦	٣٨	١٠
١٦٩/٣٥	١٩٨٠/١٢/١٥	اعادة تاكيد حق الشعب الفلسطيني في العـودة الى دياره وممتلكـاته وحقه في اقامـة دولته المستقلة ذات السيادة .						
الف		الحـق في تقرير المصـير .	ضـد	ضـد	٩٨	١٦	٣٢	٧
بـاء		معارضة الاتفـاقات التي تنتهـك حقوق الشعب الفلسطيني .	ضـد	ضـد	٨٦	٢٢	٤٠	٥
جيـم		حول نشاط اللجنة الخاصة بحقوق الشعب الفلسطيني .	ضـد	ضـد	١٢٠	٣	٢٣	٧
دال		حـول اللجنـة الخاصـة بحقوق الشعب الفلسطيني .	ضـد	ضـد	١٢٠	٤	٢٣	٦
هـاء		شجب امعـان اسرائيل في تغيير طـابـع القـدس .	ضـد	امتناع	١٤٣	١	٤	٥
٢٠٦/٣٥	١٩٨٠/١٢/١٦	ادانة جميـع الدول التي تستمر في التعاون مع جنوب افريقيـا في المجالين العسكري والنووي .						
بـاء		تعاون اسرائيل وجنوب افريقيا.	غياب	ضـد	١٠٣	١٩	٢١	١٠
٢٠٧/٣٥	١٩٨٠/١٢/١٦	ادانـة العـدوان الاسرائيلي على لبنان والشعب الفلسطيني بشدة.	ضـد	ضـد	١٠١	١٣	٣٠	٩

ان هذه الجداول تكشف ما يلي :

أولاً : ان الموقف الأميركي كان الموقف الاسرائيلي في كل عمليات الاقتراع المتعلقة بحقوق الشعب الفلسطيني ، او بادانة الممارسات الصهيونية ضد المواطنين الخاضعين للاحتلال ، ولم يشذ الموقف الأميركي عن الموقف الاسرائيلي ولو مرة واحدة .

ثانياً : ان الولايات المتحدة الأميركية ، كانت تقترع في قضايا ثانوية خلاف الموقف الاسرائيلي ، وهذه القضايا ثانوية جداً ، وتتعلق باللاجئين عامة ، او قضايا اخرى ، لا تمس الاحتلال ، ولا تؤثر في سياساته العدوانية .

ويؤكد هذا الموقف الذي استمر ، منذ قيام دولة الاحتلال الصهيوني حتى الآن ، موقف الولايات المتحدة الأميركية العدواني من شعبنا ، واصرارها على تحدي ارادة امتنا العربية في مقاومة العدوان . كما يؤكد انتهاج الولايات المتحدة الأميركية سياسة امبريالية معادية لحق الشعوب في تقرير مصيرها عامة، ولحقوق شعبنا خاصة .

ونحن نضع هذا الكشف امام جماهير شعبنا ، وامام كل الأحرار في العالم ، لأنه بيان ادانة لسياسة الولايات المتحدة الأميركية .

ويعكس الاقتراع ازدياد عدد الدول التي تؤيد حق شعبنا في تقرير مصيره، في آسيا وافريقيا واوروبا واميركا اللاتينية . بينما يعكس في الوقت عينه ثبات السياسة الأميركية ، والتزامها بالموقف الصهيوني .

ويعبّر هذا التأييد الأميركي المعلن للسياسة الصهيونية ، في منابر المؤسسة الدولية ، عن الالتزام الأميركي بالوجود الصهيوني الاستيطاني ، وبالدفاع عن السياسة الصهيونية العدوانية .

وتكون السياسة الأميركية بذلك مسؤولة عن استمرار العدوان وعن حمايته . وهي بذلك تلعب دوراً اساسياً في منع شعبنا من ممارسة حقه في تقرير مصيره ، وتنتهك هذا الحق ، في مؤسسة عالمية وجدت باسم الدفاع عن مثل هذا الحق ، وتمكين الأمم من ممارسته .

ناجي علوش



المراجع :

١ ـ د. محمد شديد : الولايات المتحدة والفلسطينيون ، بين الاستيعاب والتصفية . المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الأولى ١٩٨١ .

٢ ـ يفغيني بريما كوف : الولايات المتحدة الأميركية ، والنزاع العربي الاسرائيلي ، دار الفارابي . طبعة ثانية ١٩٨٠ .

٣ ـ محمد العيد ابراهيم : اسرائيل في التصور الأميركي ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ـ الأهرام ـ آب ١٩٧٩ .

٤ ـ ناجي علوش : خط النضال والقتال ، وخط التسوية والتصفية :

١ ـ الشعب الفلسطيني وحقوقه القومية ص ١٠٩ .

٢ ـ قرارات الدورة الثلاثين للامم المتحدة حول فلسطين ص ١٣٩ .

٥ ـ سويدان ناصر الدين : السياسة الأميركية والقضية الفلسطينية (١٩١٧ ـ ١٩٨١) شؤون فلسطينية ، العدد ١٢٦ ، أيار (مايو) ١٩٨٢ ص ١٤٨ .

٦ ـ حبيب قهوجي (اشراف) : الرأسمال العالمي وتكوين الاقتصاد الاسرائيلي ، اصدار مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية دمشق ١٩٨١ .

التطور المشترك وظاهرة الإنسان

بمناسبة مرور ١٠٠ عام على وفاة تشارلز داروين

ندرة اليازجي

أحب وأنا أناقش موضوعاً هو القضية الحاسمة في الوجود على مستوى كوكب الأرض، أن أمنح مغزى اجتماع الانسان مع الانسان الصفة الأولية والقاعدة الأساسية الدالة على أن لقاء الأناس قدرة فاعلة لتنشيط طاقته وتحقيق انسنته تزداد توتراً لتبلغ غاية سامية هي تلاقي قدراتنا الكامنة في اتحاد، وصعود الخطة الكونية لتحقيق غايتها. وتحمل هذه المقولة في ثناياها حقيقة واضحة هي أن اجتماعية الانسان جوهر لا عرض، وأنها السبيل الوحيد للصعود بالأنسنة الى قطبها الأعلى المتمثل بوحدة الانسانية. واذا كانت الغاية من الاجتماع تتمثل في تنشيط الطاقة وزيادة توتر الدماغ من أجل تلاقٍ أعظم أو تشابك أقوى لأنسجة أدمغتنا وفاعلية عقولنا ، فان ما يتصف به التجمع البشري حالة زائفة للوضع الانساني . واذا كنا نسوق أنفسنا ، ونحن نضع مقدمة من هذا النوع ، الى نتيجة تلزم منطقياً عنها ، فلا مناص من القول ان الانسان في حقيقته كائن اجتماعي نمي زيفه كائن تجمعي .

اجتماعية الانسان صفة ملازمة لكيانه لا تضاف الى كمونه الجوهري . ومثل هذه الاجتماعية فعل خلاق لأنها ، في ظاهرها ، اضافة كم الحاكم ، وفي جوهرها تحريض لطاقة كامنة واثارة لقدرة فطرية قائمة في باطن الانسان . وتجمع الانسان ظاهرة كاذبة ، باطلة في أساسها ، تشير الى اضافة مقدار الى مقدار دون التوغل الى الجوهر . وحري بنا أن نقول أن مثل هذه الاضافة عرضية واتفاقية . وان تمثل التمييز الحاد بين اجتماعية الانسان وتجمعه قضية يُحكم عليها في المثال التالي :

ان اجتماع عدد من الباحثين عن حقائق العالم وأسراره ، أو اجتماع مجموعة من الهادفين الى سبر بواطن الرموز لاكتشاف الشامل المختبىء في قلب الأشياء ، أمر يحث الطاقة البشرية ، بأشكالها وأنواعها ، على المزيد من الفعل والارادة ووضوح الغايات واتحاد العقول الفردية ، وان تجمع مجموعة من القابعين في ظلمة ذواتهم ، مجموعة تتمثل في أناس أنانيين ومتكبرين وطامعين ومستغلين الخ أمر يحط من قيمة الأنسنة ويدفع بها الى هاوية التناقضات حيث ينظرون الى مرآة أنفسهم فيرون أفراداً وذواتاً تجردوا من كل غاية نبيلة ، ورفضوا كل معرفة ووعي، ووضعوا في سبيلهم عوائق تتمثل في ظواهر الأنا أو الذات . ومثل هذا التجمع حري بأن يدفع الأفراد الى داخل اللابرينث اليوناني ، وهو متاهة العالم والعقل ، أو الى صحراء التيه ، وقادر على تشتيت الطاقة وردعها عن التحقق في الاتحاد أو الوحدة التي يبلغها الاجتماع الانساني.

ان مقدمة وجيزة بهذا المقدار تلزمني على التساؤل الأهم عن اجتماعية الانسان وتجمعه ، وهو : هل تلتقي الحيوانات ، كما يفعل البشر ،



للبحث في قضايا وجودها ومناقشة أبعادها الممتدةفي الماضي عبر النبات والحالة البدائية للمادة ، تلك الحالة اللا حتمية ، وفي المستقبل لتعرف القصد الذي ينطوي عليه قانون وجودها ، أو لتعدل خطة سيرها انكان ماقدر لها يتبطن بحتمية قاهرة٠ ولقد تساءلت ، في كل مرة أطرح مثل هذه القضية في غمرة تفكيري ، ان كانت القردة أو الحيوانات الأخرى ، وهي تعاني من نزع ألم أو من خفة طرب أو من حكمة حياة ، تلتقي لتقرر مصيرها وتناقش أصولها فيالتاريخ العالمي باتجاه الماضي والمستقبل٠ وان كنت أحتفظ لنفسي باحترامي للمملكة الحيوانية ، وأعلم أن قانون حياتي وقانون حياتها قانون واحد لنسيج كوني واحد يتدرج في الصعود المكاني الزماني المتكامل ، لكنني أتيقن من أن الوجود الحيواني تجمعي ٠

وما من شك، أن النتيجةالمنطقية التي ندركها عن الانسان لازمة في أنه كائن اجتماعي ٠ وتقتضي اجتماعية الانسان هذه بأن يلتقي مع صورته المنعكسة في الآخر ليناقش معضلة وجوده ، فيرسل اشعاعات فكره وتصوره في الاتجاهين الظاهرين الرئيسين : الماضي والمستقبل ٠ اذن ، فاجتماعية الانسان قضية جوهرية ، تحثه على النظر في أمور ثلاثة :

١ ـ فرديته وشخصيته ٠

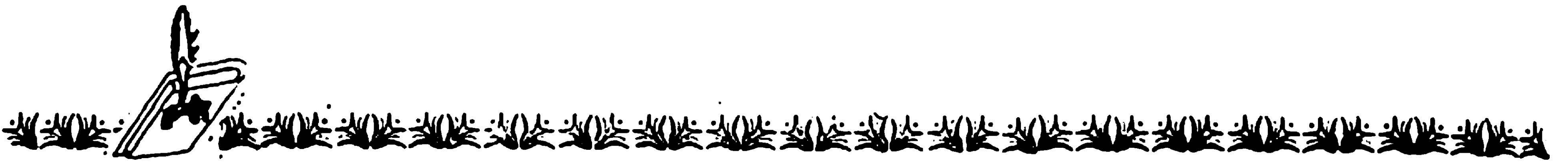
٢ ـ اجتماعيته ٠

٣ ـ علاقته بالكون والطبيعة ٠

واذا كان الأمر كذلك ، فان المسلمة الأولى في بناء الانسان ونظام وجوده نجدها مجسدة في اجتماعيته ٠ وهذا ما يجعلنا نتصور أن الناس يلتقون ليلقوا ضوءأعلىزاوية من زوايا وجودهم، أو ليناقشوا قضية بشرية ، أو ليحققوا غاية معينة، أو ليعرفوا السر الكامن في الحياة ٠ ان لقاء كهذا يؤكد اجتماعية الانسان ٠ ولكن ، لما كان الواقع يرفض مثل هذه الحقيقة ، فقد تحول الاجتماع الانساني الى تجمع تتنافر خيوط نسيجه والوان رسمه ، وتتباين مواقفه الى حد يعرض اجتماعيته للخطر وانسانيته للتهديم ٠ ولا يغرب عن بالنا ، ان اجتماعية الانسان عملية تتلاقى فيها خيوط نسيجه وتتآلف ألوان رسمه وتتوحد مواقفه ، وتتكامل وجهات النظر العديدة ٠ ونضيف الىهذا قولنا أن اجتماعيته قوة ضاغطة لمضاعفة جهده المبذول في سبيل تجاوز أسمى بفعل حرية تنأى باجتماعيته عن حتمية ظهرت في ثنايا انطواء المادة على ذاتها ، مادة الانسان ومادة الكون ٠

واذا كانت اجتماعية الانسان فاعلية لأنسنة تتكامل ، فلأن مغزى الانسان في وجوده هو الغاية التي يعمل العقل جاهداً للكشف عن مضامينها ٠ فالانسان لا يتورع عن التساؤل عن قيمة وجوده ، ولا يألو جهداً في البحث عن مركزه في الطليعة والكون ٠ وان طرح قيمة الوجود أمر له دلالته الكبرى ٠ فالانسان يسعى الى معرفة نفسه منخلال تقييم يطرحه في نطاق وجوده وفي سلم الوجود ٠ وليست تساؤلاته العديدة حول عظمة وجوده وتفاهته الا دليلا على قلق داخلي وتوق كبير الى الشعور بذاته وقيمته ٠ وان كان باسكال قد وضع الانسان في مرتبة تتأرجح بين التفاهة والعظمة فانما ليشير الى أن حياة الانسان تقوم في تحديد قيمة وجوده وفي معرفة ما اذا كان كائناً له أهميته أو « أنا منقذفة في العالم » على حد قول بعض فلاسفة الوجودية ، تجد رصيدها في الضياع والتفاهة واللا جدوى والعبث ٠ ولا تخرج فكرة الخلود عن نطاق تساؤل الانسان عن حقيقةوأهمية هذه الحقيقة ٠ وعندما يتساءل الانسان عنحقيقة وجوده نراه يتأرجح بين قطبين متعارضين هما الخلود والعدم ٠ ولا غرو أن اليقين الذي يثبتفيه العقل يشير الى أحد أمرين : القيمة التي يتميز بها الوجود أو العبث الذي يتصف به ٠ اذن ، فقيمة الانسان تتجلى في اعلاء شأنه في سلسلة متصلة ، هي سلسلة الوجود الكبرى ٠ وفي هذه السلسلة الكونية يجد الانسان نفسه ممتداً في اللا نهاية ، الأمر الذي يلزمه على الاتصاف بديمومة الوجود٠

واذا تجاوزنا مفهوم القيمة الى مفهوممركزية الانسان ، أي الموضع الذي يحتله في الطبيعة والكون ، بلغنا الغاية المرجوة في الوجود ٠ واذا كانت حقيقة الانسان تتضح شيئاً فشيئاً في سرمعرفة كنهه فان مثل هذا الطرح يضعنا وجهاً لوجه أمام لوحة الوجود والكون فنرى كما قال باسكال ، لا نهايتين ، أحداهما لا نهاية الكبير وثانيهماالانهاية الصغير ٠ واذا كان الانسان حلقة وسطى بين هاتين اللا نهايتين فلن يكون مصيره الا التيه والضلال



والقلق الوجداني الايجابي أو السلبي المؤلم ، ذلك أن مثل هذه النقطة التي يجد نفسه فيها تجعله يضيع في متاهة العالم ويعجز عن أن يكتشف نفسه في عالمين لا يعرف كيف يرتبط بهما أو يقيم صلة وثيقة بهما • ولكي نكون قادرين على تجاوز هذه المعضلة المستعصية ، فاننا نضطر ، ونحن نسعى الى ادراك الموضع الذي يحتله الانسان في الكون ، المركز الذي يشغله بين لا نهايتين ، الى اضافة لا نهاية ثالثة ، عبَّر عنها تياردو شاردان في فلسفته وعلمه الواسعين ، وأطلق عليها مصطلح لا نهاية التشابك • وان القصد الذي رمى اليه شاردان هو أن لا نهاية التشابك توحد اللا نهايتين الأخريين في نسيج واحد ، وفي سلسلة متصلة بالكم والكيف ، انطلاقاً من كوكبنا الأرضي ووصولا الى المجرات واللا نهاية الكبرى •

واذا كان الانسان يمثل لا نهاية تشابك توحد اللا نهايتين ، فلأن مركزه يحتل حيزاً هو مكان لقاء اللا نهايتين ، أو توحيدهما ، أو صهرهما في نطاق واحد هو مركزية الانسان في الوجود الأرضي • ولن يرتاح الانسان ويطمئن حتى يعرف أنه نقطة تلاق ويتجاوز الزعم القائل انه أسير لا نهايتين تضعانه، كما عبَّر أحد المتشائمين ، بين فكيها • ومن الآن فصاعداً لن يكون الضياع من نصيب الانسان ، وهو يرى نفسه في مركز تلتقي فيه لا نهاية كبرى ولانهاية صغرى • وهكذا يبدأ في التعرف على نفسه، وادراك قيمته ومغزى وجوده ، وتقدير الدور الهام الذي يقوم به •

ولا يسعنا ، ونحن نطرح المقولة السابقة الا وأن نبحث في الوسائل الكفيلة بهذه المعرفة وهذا الادراك وهذا التقدير • وقبل معالجة هذه الوسائل يجدر بنا أن نتساءل عن الطاقة التي تحرك الانسان باتجاه المعرفة • وفي الواقع تتجه هذه الطاقة من مركزية مكانية تتحدد بالجسد الى امتداد كوني يتجاوز التحديد • فالانسان ، وفق هذا المنظور ، داخل وخارج ، باطن وظاهر ، يتسع مع الكون ويتركز في نقطة ، يتعمق معه ويضيق معه ، يمتد في الأجواء اللامتناهية وينكفىء الى محدوديته ، يعود الى ماضيه ساعياً الى معرفة سره المكنون في الطبيعة والكون ويتجه الى مستقبله باحثاً عن امتداده في العالم ، يتأمل حضوره فيجد أنه يتطابق مع حضور كلي • والانسان بالاضافة الى ما ذكرناه، يتساءل عن حقيقة وجوده ، ويتأرجح بين تناقضات ظاهرية ، فهو يرفض ويقبل ، يتمرد ويخضع ، يثور ويهدأ ، يحتقر ذاته ، ويمجد ذاته ، ينفي أناه ويؤكد عليها ، يتألم ويفرح ، يؤمن وينكر ، يضع قواعد سلوكه ويعصيها ، يقبع في لا جدوى الحياة وعبثها ويفلت من اسارهما ، يعيش في ظلمة لا وعيه وينطلق في رحاب وعيه ، يحد وجوده بالعدم ويطابق كيانه مع المطلق ، يشعر بوجوده ويحس بلا وجوده ، يوحد ذاته بالكتلة المادية ويوحد كيانه بالطاقة الروحية ، يسعى الى العلم من أجل المعرفة ويتنكر لهذا العلم بعد حين ، يثق بنفسه ويتهم نفسه بالخيانة ، يحس بالغربة في العالم ويلتصق به في آن واحد ، ينفجر في أعماقه ويهدأ بعد حين ، ينفعل ثم يندم ويتعاطف ثم ينسى ، يتفرد في عزلة ذاته ويتشخصن في انفتاح كيانه ، يرتكس الى قوقعة ماضيه ويعمل على الاستمرارية في الحياة ، يصارع ذاته والآخرين ويستسلم في نهاية المطاف ، ينطوي على ذاته وينفتح على الآخرين ، ينطوي على فئة من الناس وينفتح على فئة أخرى ، يتيه في صحراء أنانيته وذاتيته ويبلغ غايته القصوى في أنانته وكيانه ، يهبط الى عالم الخزي والعار ويتألق في ضياء الشرف والنبل ، يحتقر ذاته ويمجد شخصه، يعيش تنائيته الظاهرية ويسعى الى تحقيق وحدته الجوهرية ، يعاين عالم الكثرة والتعدد ويرنو الى عالم الوحدة والتكامل •

هذا هو الانسان المعقد ، هذا هو الكائن الذي يحقق أحد أمرين : التيه في تعقيده والبقاء في نطاق التناقضات والضلال في ثنائياته الظاهرية العديدة، أو التعمق في عالم تعقيده والخلوص الى وحدة أصيلة هي خلفية تلحم التعقيدات المتعددة وتتمثلها في وعي كامن يتسامى حتى يبلغ مطلق وجوده •

واذا كان التعقيد الماثل آمامنا حقيقة لا تقبل النقاش فان موضع الانسان أو مركزه في الكون كله أو على كوكبنا هذا يحتل النقطة التي يلتقي فيها التعقيد الكوني مع التعقيد الأرضي ، هذا مع العلم أن التعقيدين في جوهرهما واحد وفي ظاهرهما اثنان • وأنا أقصد بالتعقيد الكوني اللا نهاية المطلقة وبالتعقيد الأرضي الكينونة القائمة فيه • ويمكننا تمثيل اللانهاية المطلقة بشجرة



لا متناهية في الكبر تمتد جذورها في اللا نهاية وتتعمق أغصانها في الكرة الأرضية ، كما يمكننا تمثيل الكينونة الأرضية بشجرة تتعمق جذورها في الأرض وتمتد أغصانها في اللانهاية • ويمكننا أخيراً أن نمثل الموضع الذي يحتله الانسان بأنه حيز يقع ضمن نطاق لقاء الشجرتين • واذا كنا قد اعتمدنا سابقاً التشبيه الثلاثي لما يمكننا تطبيقه على لا نهايات ثلاث : لا نهاية في الكبر ، لا نهاية في الصغر وتشابك لا نهائي • فالانسان ، في هذا الوصف ، لا نهاية تشابك اللانهايتين ، هو النقطة التي يلتقي فيها عالم اللا نهاية وعالم النهاية ، عالم الزمان وعالم المكان • لذا كان الانسان زماناً كلياً ومكاناً كلياً • وهذا هو سر تعقيده ، سر عمقه، سر حيرته وتساؤله ، سر المعرفة التي يسعى الى وعيها • ففي تعقيده ينطوي الكون على ذاته ، وفي معرفة نفسه يتألق ضياء الحقيقة • والسؤال هو : ماذا يفعل الانسان لكي يسبر عمق حقيقته ويعرف نفسه ؟

ان التعقيد الانساني يشير الى تصاعد في تعقيد انطلق من لاحتمية ظهور الحياة ونشاتها الى لاحتمية تتجه الى نظام مغلق معقد ، ينطوي على ذاته ، في تركيز وتداخل • ووفق هذا المنظور يمكننا القول على لسان تياره شاردان ان « علم الحياة هو فيزياء التعقيدات اجمالا » واذا أقمنا مقارنة بين تعقيد الحياة وتعقيد الآلات الحاسبة لرأينا أن هذه الأخيرة مجرد ألعوبة قرب الأخرى • اذن ، فالتعقيد في العالم يقف من الوعي موقف ناموسه • فالوعي يتولد من التعقيد ، والتعقيد يمكّن من ظهور الوعي • والوعي الكامل كما يرى في الانسان « معلول خاص لتعقيد منظم » •

وفي هذا الخضم الواسع من التعقيد يتساءل الانسان عن حقيقته ، فيلقي نظرتين تأمليتين ، احداهما باتجاه الماضي وثانيهما باتجاه المستقبل• ولا يخفى علينا أن مثل هذه النظرة المتجهة الى الماضي والمستقبل تساعد الانسان على حدس المستقبل من الماضي ، ورؤية المستقبل في الماضي ، وذلك لأن « كمال الأشياء يبدو في بداياتها » • وبهذه الطريقة يوحد الانسان الماضي والمستقبل ، ويستشف الغاية من القانون • وهكذا تكون غاية العالم قائمة في قانونه الممتد من البداية ، على نحو انغلاق ، الى المستقبل ، على نحو كشف وانفتاح ، ويعبر هذا القانون عن حتمية أولية ظاهرة وحرية كامنة تنتظم في تطور تنفتح فيه الطاقة المغلقة وهي تصعد سلم الحياة الى مزيد من الوعي •

رؤية الماضي

نحن كائنات نحيا على كوكب نطلق عليه اصطلاحاً كوكب الأرض ، تتناسب أجسادنا مع هذا الكوكب وتتوافق طاقتنا الحياتية والنفسية معه في انسجام وتجانس • ولما كان هذا الكوكب خاضعاً لتحديد في الزمان والمكان موضع زماني مكاني نسبي يمتد في مكان زماني مطلق • وعلى الاصطلاح الأول نطلق تسمية هي الزمان الأرضي وعلى الاصطلاح الثاني نطلق تسمية الأبدية • ويهمنا الآن أن نشاهد الزمان الأرضي في أبعاده الثلاثية : الماضي ، الحاضر ، والمستقبل •

ان دراسة هذه الأبعاد الزمانية الثلاثية تكشف عن الحقائق التالية : الحاضر وجود تام ، حضور كلي ، نعجز عن تصوره الا في الزمان الكلي ،وهو الأبدية • وان قولنا أن العقل الكلي ، أو المطلق، حضور تام يشير الى حضور كلي قابل للتصور في الوجود الكلي وليس في الزمان النسبي المتجزىء الى وقت • لذا ، يحتمل أن نقول أن الحاضر ، وفق المستوى الكوكبي الأرضي ، بمحلية انتقالية يصب من خلالها المستقبل في الماضي • ومثل هذا التعريف يجعلنا نتمثل الحاضر بأنه الديمومة المترائية لنا ، وفيها نشاهد البعدين الآخرين ، المستقبل والماضي، يتداخلان ليشكلا فلسفة الوجود وحكمته • اذن ، فالحاضر هو الخلفية التي تقع فيها أحداث الحياة•

واذا ما انتقلنا الى البعد الثاني المتمثل بالمستقبل علمنا أنه مجهول ، لامعلوم في ظاهره ، يتجه الى الوراء ليصب في الماضي • فهل هو قائم بذاته أم أنه عملية تقدم للماضي ، لم تشاهد معالمها بعد ؟ فالمستقبل ، بوصفه بعداً زمنياً ظاهراً، لا يقبل الدراسة والفهم والبحث الا بمقدار ما يمدنا الماضي • وفي هذا المد يتحول المجهول الى مُدرَك ، واللامعلوم الى معلوم • ولو تساءلنا عن الحقيقة القائمة في هذه العبارة لأجبنا بأن ادراك المستقبل يتحقق من خلال تصورنا للماضي ، فبقدر ما نفهم الماضي نفهم المستقبل • وفي رأيي أن العبارة القائلة « ما يزرعه الانسان اياه يحصد» تشتمل على حكمة كونية بالغة الشان وعميقة



المضمون • فليس ثمة علم للمستقبل بمعزل عن علم الماضي • فالمستقبل يستدل من الماضي •

ولما كانت تلك هي الحقيقة الجوهرية فان الماضي هو البعد الوحيد الذي ينتصب أمامنا فاتحاً باب محرابه لنطل على أسراره وطاقاته الكامنة ، يطلعنا على ما حدث للكون ، في مستواه الأرضي ، وما سيحدث • اذن ، فالماضي مفتاح السر وباب الولوج الى المستقبل • في الماضي تتراكم أحداث الأرض في تاريخ يشتمل على نشأة الحياة ، ما قبل الحياة ، تطور الحياة ، وتطور الانسان • وفي هذا الماضي نرى الحياة وهي تسير ببطء الى المستقبل • وما أن يتحقق هذا المستقبل حتى ينقلب الى ماضي قابل للدراسة • ان الاف السنين الغابرة تمثلت في مستقبل الاف السنين التي تلتها ، وما لبثت ان أصبحت ماضياً لآلاف السنين اللاحقة • هكذا يصب المستقبل في الماضي ، وهكذا ندرك الحياة في الماضي ، ونستشف المستقبل من الماضي • وهكذا يكون الماضي قوة دفع الى الأمام ، باتجاه المستقبل ، ويكون المستقبل رأس السهم المتجه الى الأمام لتحقيق ما هو كائن وكامن في الماضي ، وأعني لتحقيق الطاقة المكنونة في بدايات الحياة والمعبر عنها بقانون أو بقوانين الحياة والوجود • فليس المستقبل الا كشفاً عن القوانين الأولية والمبادىء الأساسية المنطوية في الكتلة والمنغلقة على ذاتها في عملية تطور داخلي أو باطني • اذن ، هو كشف عن طاقة باطنة أو كامنة ، في ظاهرة أو ظاهرات: ظاهرة هي الانسان، وظاهرات هي الموضوعات الأخرى المتجسمة في الحيوان والطير والنبات والمادة ، بوصفها شكلاً ظاهراً أو أشكالاً ظاهرة لطاقة مختبئة باطنة •

وفي ضوء هذه الحقيقة تتجلى أمامنا حقيقة أحادية الاتجاه ، ثنائية المظهر • تتمثل الاحادية في رؤية للانسان منطوية في الماضي، في تلافيف الأرض والطبيعة ، في الحياة الأولى ، في نشوئها وتطورها ، وتوحيدها مع الطبيعة ، وتجنب أي فصل بينهما • وتتمثل الثنائية الظاهرة باتجاه الماضي ، وهو رأس رمح أو طاقة دفع ، الى المستقبل • ولما كان المستقبل الانساني أو الطبيعي يصب في الماضي ، فليس غريباً أن يكون الماضي هو حقل رؤيتنا الوحيدة • واذا كان الأمر كذلك ، فان التطور هو الكلمة الوحيدة التي تتلاءم مع رؤية أحادية للماضي واستشفاف هذا الماضي في المستقبل • هكذا يكون الماضي سجل الحياة •

ولما كانت كلمة تطور مشحونة بغموض يكتنه تفكيرنا ، ويحمل معنى واحداً طرحه العلم بمفهومه التجريبي المادي ، الذي يحمل لواءه كل من داروين ولامارك ، فانني أهدف الى شرح هذه الكلمة بأبعادها كلها ، لأبلّغ مضامينها أو مضمونها وفق ما أتت به الحكمة القديمة السرية والدراسات الباليونتولوجية الحديثة التي تتوافق مع معطيات هذه الحكمة ، وفي مثل هذا التصرف تكون كلمة تطور أملاً لنا لفهم ما اكتنه من غموضها ، وغموض الانسان والكون ، والقاء ضوء على ما استتر في حياة الأرض الباطنة والظاهرة ، وباباً نلج من خلاله الى قصر وجودنا الرحب • واليكم أولا الشروح المبدئية لكلمة التطور ، شروحاً استقيتها من مبادىء الحكمة القديمة ، ومن مبادىء الباليونتولوجيا الحديثة ، حيث يقف العلامة تيارده شاردان فوق ذروتها ، ومن تأليفي الخاص في هذا المضمار :

- التطور هو مسيرة الحياة على مستوى كوكب الأرض انطلاقاً من حالة اللا تمايز المتجانسة ، الى حالة تمايز كبيرة واسعة ، تتفرع حتى تصل أخيراً الى الانسان •
- المادة هي الطاقة المنغلقة التي تنفتح من خلال التطور •
- التطور هو انفتاح الطاقة الكامنة في الكتلة •
- التطور هو حرية الطاقة من حتمية ظاهرة هي الكتلة •
- التطور وجوب للطاقة المغلقة على ذاتها ، في ما نسميه الكتلة ، لكي تفصح عن ذاتها لتصير الى مرحلة نهائية قصوى •
- التطور هو الكشف عن الوعي أو عن خصائص الوعي المتضمنة في كل شيء ، بما فيه المادة ، وانتقالها التدريجي الى كيان يعي ذاته •
- تطور المادة يعني أن العالم « كتلة في عملية تحول » •
- التطور اكتشاف « الشامل المختبىء تحت الأشياء » • هو اكتشاف باطن موجود في كل مكان في الطبيعة منذ بداية الأزمنة •



- التطور يظهر سيادة التلاقي والتوحيد على التشتت ٠
- التطور خلاق مبدع ، هو جدلية تنطلق من المادة الى الانسان والى المطلق ٠
- التطور هو « الكون في تكون » ٠
- التطور « تكوين كوني يتحرك نحو نقطةالتقاء واحدة » ٠
- التطور مقولة من مقولات العقل البشري ، هو حاجة العقل الى الادراك ، ادراك التوحيد الذي تلتقي الأشياء كلها تحت كنفه ٠
- التطور هو نمو الحياة الى غاية هي الحرية والوجدان ، هو توجه نحو حالة سامية مطلقة ٠ ولا يتم هذا النمو والتوجه الا في « صهر تكوين الحياة في تكون الكون وتاريخ الحياة في تاريخ الكون » ٠
- التطور هو « اضمار التصاعدية في التبدل » ٠
- التطور ينطلقمن المادة لبلوغ الصور السامية٠

أعتقد أن هذه التعاريف والتحديدات تلامس الحقيقة من جوانب كثيرة ، وتميط اللثام عن تساؤلات عديدة تغلق منافذها دوننا ونحن نطرح الأسئلة الفضولية دون السعي الى تبيان سرها وجوهرها ٠ وكما أعتقد أن أي تعمق في بحث مضامين هذه التعاريفيساعدنا على تصنيفموضوع التطور في مقولات ثلاث :

١ ـ التطور قبل الانسان ، وينقسم الى قسمين :

آ ـ استعداد ما قبل الحياة ٠

ب ـ استعداد الحياة ٠

٢ ـ التطور بعد الانسان ، أي استعداد المؤنسن٠

التطور قبل الحياة تطور هابط الى انغلاق وانطواء وانثناء وانغلاق ، يطلق عليه حكماء المعرفة والعلم مصطلح الانبثاق أو الصدور ٠ وفي هذا التطور الهابط تنغلق الطاقة ، التي هي جوهر الكون وجوهر كياننا ، وتنثني على ذاتها٠ ويدرك هذا الانطواء في تكاثف للطاقة يبلغ أقصاه في المادة ٠ فالكتلة المادية طاقة كونية بلغت كثافة اهتزازها ٠ واذا توخينا التعبير الواضح قلنا أن المادة طاقة ضمن درجة اهتزاز ، تتراوح في معالمها الكثيرةعلى نحو اجمالي، بين حدين ٠ واذا استطعنا التأليف بين الطاقة والحياة والتوحيد بينهما ، استطعنا أن نحل السر الأساسي للكوكب الأرضي وللمادة المهتزة ، واستخلصنا المقولة الهامة التالية : الكتلة المادية حياة منطوية على ذاتها في تبطن ، وطاقة منطوية على ذاتها في انغلاق داخلي ٠ وهذه الحياة أو الطاقة تقوم مقام النفس في الجسد٠وهذا ما يدفعنا الى التصريح بأن كوكب الأرض جسد له نفس تنبض بالحياة ٠ وليس هذا الجسد الا كثافة طاقة تنزع الى الافصاح عن ذاتها في عملية تطورية شاقة هي انفتاح الى نطاق الوعي ، وعي ذاتها ٠ ووفق هذا المعيار لم يعد كوكب الأرض آلة تعمل، تتآلف أجزاؤها ، ذلك أن النظر الى العالم بوصفه آلة ، وهو وجهة النظر الآلية ، قد بطل مفعوله ، والنظر الى الحياة بوصفها نتاج آلية ميكانيكية أصبح في طي النسيان ٠ وان منظور العلماء المحدثين الى الكون تعبير لديناميكية حية ، تنبض بالوعي الكامن ٠

نستنتج مما تقدم :

١ ـ الكتلة طاقة كثيفة ، منغلقة على ذاتها ومنطوية على سرها ٠

٢ ـ الطاقة المنغلقة والمنطويةوالمنثنية هيالحياة٠

٣ ـ الحياة هي نفس كوكب الأرض ٠

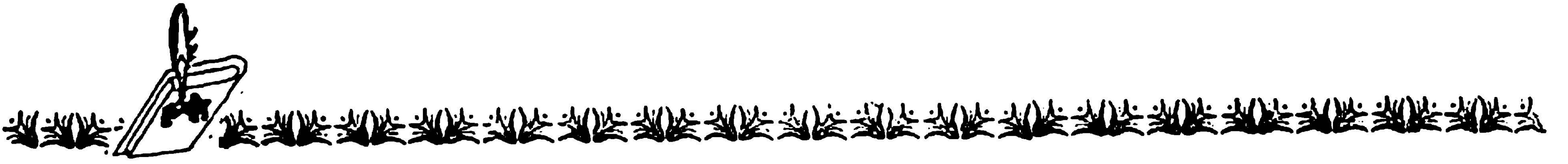
٤ ـ الحياة تسعى الى الافصاحعن ذاتها فيتصاعدية التبدل ٠

٥ ـ الوعي الكامن في المادة مقترن بالطاقة والحياة ٠

٦ ـ الوحدة النفسية الفيزيقية ـ الجسدية ـ للعالم ٠

٧ ـ الخصائص العقلية، وهي مايطلق عليهالعلماء مصطلح Mentoid كامنة في المادة الأولية الناتجة عن كثافة طاقة كونية ٠

٨ ـ الانسان الكامن ، وهو ما يطلق عليه العلماء المحدثونPotential Manمصورفي كثافة الطاقة وهي المادة ، وفي حياتها ووعيها ، وفي تعقيداتها الأولية ٠



نستدل من هذه الحقائق أن المادة حية ، وأن الحياة تحقق الوعي وهي في سبيل الافصاح عن ذاتها ، وان الطاقه هي جوهر العالم • وهكذانقول ان المادة والطاقة والوعي والحياة تاليف لحقيقة واحدة ، تتداخل ضمن ذاتها وتتفاعل • وقداضطر العلماء المحدثون الى الاقرار بهذه الحقيقة والاعتراف والجهر بها في مؤلفاتهم التي تنطوي على التعابير التالية : روحانية المادة ، العلم والروحانية ، الطاقة والمادة الحية ، الميتافيزياء في الفيزياء ، وأمام هذه الحقائق وقفوا ينظرون الى ظاهرة الانسان وهي متصلة بالكون منذ بداياته ، وأدركوا أن عقله الحالي كان متضمناً في قلب المادة على هيئة خصائص عقلية ، أو على صورة عقل كامن ، وان هذه الظاهرة ليست فريدة من نوعها لأنها مرتبطة بكلية الطاقة والوعي والحياة ، وبكلية المادة • هكذا كانت المادة الأولى مستعدة ومتهيئة للحياة لأنها تحمل بذور الحياة والوعي • والجدير بالذكر أن تلك المادة الأولى لم تكن خاضعة لحتمية أو جبرية ، بل كانت حرة غير مقيدة •

تلكم هي المقولة الأولى ، بسطناها بايجاز بالغ •

ننتقل الآن الى المقولة الثانية وهي استعداد الحياة • وقبل التحدث عن استعداد الحياة لنا عودة الى استعداد ما قبل الحياة ، ونستخلص ما يلي :

١ ـ وجود وعي كامن في الكتلة المادية •

٢ ـ وجود الخصائص العقلية في نسيج كوني ينطوي على ذاته •

٣ ـ حياة المادة تشكل في كليتها « جوهراً لامنقسماً حقيقياً واحداً ، هو المادة الكلية •

٤ ـ الكتلة المادية تحيا من خلال نفس ديناميكية •

٥ ـ الطاقة الكامنة في المادة تعني اتجاه المادة نحو تشابكات عليا تتحدى القدر وتتجاوز الحتمية الى الحرية •

هكذا تستعد مرحلة ماقبل الحياة لتحقق الوعي المنغلق والمنطوي فيها فتلج بذلك الى مرحلة الحياة • والجدير بالذكر ان مرحلة ماقبل الحياة تعرف بأنها حالة لا تمايز وتجانس •

تتصف مرحلة الحياة باستعدادها لتعقيد متنام تزداد فيه الطاقة النفسية مع زيادة الانتظام والترتيب والتركيز • وتميل الحياة الى التمايز والى تشكيل وحدات أكثر تعقيداً وأشد نفساً • واذا توغلنا الى داخل المادة شاهدنا ثلاثة أوجه لها :

١ ـ الكثرة ، وهي قدرة على التمايز •

٢ ـ الوحدة ، وهي التجانس في قلب الأشياء •

٣ ـ الطاقة ، وهي قدرة موحدة وتعبير عن بنية وقياس ما يمر من جوهر الى جوهر آخر في مجرى تحولهما » •

وفي بدء هذه المرحلة تتصف الطاقة في المادة بقدرة على التحبب في جزئيات أولية تتمخض عنها الخلايا • ولما كانت الخلايا هي التشكلات الأولى للطاقة والحياة والوعي الكامن فانها تتصف بسيكولوجية أي نفسانية • ولكن هذا المظهر النفسي القائم في هذه التعقيدات الأولية يرفض كل اختبار على غير ماهو جلي في الانسان وأكيد عند الحيوان • وتتصاعد التشكلات الخلوية في التعقيد وتزداد طاقتها النفسية حتى تصل أخيراً الى الانسان • ومع هذا التعقيد تتجه الطاقة النفسية الى زيادة في التركيز ، الأمر الذي يسير بها الى تمركز رأسي يعرف بالدماغ • وليس هذا التمركز الرأسي الا تمايز رأس يعد المنطقة القائدة للجسد ، الأمر الذي يؤدي الى نشوء عقل يتولد من عملية التعقيد • وهذا يعني التطور التدريجي للخصائص العقلية الكامنة في مرحلة ما قبل الحياة ، كما يعني تحقيق الأنسنة التي هي بدورها تحقيق للانسان الكامن في الوعي والطاقة المستغرقتين في المادة الكلية الأولية •

نستنتج مما تقدم الخلاصات التالية :

١ ـ الحياة غائية في اتجاهها وتتجاوز الجبرية والحتمية •

٢ ـ وجود باطن للمادة يظهر على شكل علاقات كيفية وكمية •

٣ ـ وجود خارج للمادة يظهر في التشكلات والتعقيدات العضوية •

٤ ـ توحيد الباطن والخارج في عملية تطورية تتضح فيها سيادة النفس والعقل • ولذا ، يعتبر الباطن والخارج مجرد خطين متوازيين، يختلفان ظاهرياً ويتكاملان باطنياً ، يتجهان بفعل حرية داخلية الى تحقيق الأنسنة •

٥ ـ يعتبر التكون الانساني تاجا للتكون الكوني• ويعتبر الانسان نقطة التلاقي لطاقة كلية شاملة ونفس مشتركة ينتج منها العقل والوجدان والانسنة •

تلكم هي المقولة الثانية عرضناها في ايجاز وبساطة •

ننتقل الآن الى المقولة الثالثة وهي التطور بعد الانسان ، لنشير الى أن العالم لا يسير بارادته الشاملة ليتأنسن بل ليبلغ أنسنة قصوى • وتعرف هذه الأنسنة القصوى بأنها المرحلة المقبلة التي يستدل بها الى عملية يتسامى الانسان فيها على ذاته ، ويستحق تسمية جديدة • وهذا يعني أن الانسان لم يكتمل بعد ويجب أن يتخطى ذاته •

ولكي يحقق الانسان تطوره الذي يتسامى فيه ذاته ، يتوجب عليه أن يقوم بالتأليف الثلاثي التالي :

١ ـ تأليف العالم المادي والطبيعي مع عالم العقل والروح •

٢ ـ تأليف الماضي مع المستقبل ، أي تحقيق الوعي الكامن في أنسنة قصوى •

٣ ـ تأليف التعدد مع الوحدة ، الكثير مع الواحد• ومن هذه الجدلية تنشأ جدلية ثلاثية أخرى ترينا المشهد التطوري كله :

١ ـ وصال مع الحقيقة السامية •

٢ ـ وصال مع الأرض •

٣ ـ وصال مع الحقيقة السامية عبر الأرض•

نخلص مما تقدم الى النتائج التالية :

١ ـ الوعي الكامل كما يرى في الانسان « معلول خاص لتعقيد منظم » •

٢ ـ يكشف الوعي عن ذاته كيفياً في كل نوع من أنواع النفس انطلاق من الأشكال الأكثر بدائية بادراكها الداخلي القابل للتصور الى الظاهرة الانسانية ذات التفكير التأملي » •

٣ ـ التلقائية المادية المنطلقة من الباطن حرية تتجاوز حتمية مركزة في الخارج • وهذا ما يجعل الوعي والباطن والتلقائية تعابير ثلاثة لحقيقة واحدة •

٤ ـ الانسان ظاهرة الوجود الأرضي تأليف له أبعاد ثلاثة وتشابك ثلاثي الأبعاد •

٥ ـ الأنسنة القصوى تجاوز للانسنة ، وانجذاب الى قطب أسمى تلتقي فيه الانسانية •

٦ ـ تطور الانسان الى غاية سامية يتم عن طريق تطوير العقل الى عقل فوقي ، وعن طريق تسامي الوجدان الى المستوى الذي تشتعل فيه المادة بالروح ، الى « مركزية واعية » هي كمال روحي •

تلكم هي المقولة الثالثة لمفهوم التطور •

تشير الصورة التي رسمتها للتطور في اتجاهيه الماضي والمستقبل الى مسيرة الطبيعة من وعيها الكامن ، الذي يطلق عليه خطأ اللاوعي ، الى وعي منفتح على ذاته ، من حتمية ظاهرة الى حرية حقيقية ، من انغلاق الطاقة على ذاتها وانطواء الخصائص العقلية فيها الى انفتاح هذه الطاقة والى كشف للعقل ضمن عملية تطورية يحتل التعقيد المحمل بتزايد الطاقة النفسية المركز الأول ، ومن قانون تكون فيه متجانسة ومنسجمة ولا متمايزة الى كثرة متمايزة تتركز في تبطن داخلي ويكون فيه التلاقي مبدأ الوحدة القائمة في ما قبل الحياة الى غاية يتحقق فيه هذا القانون • وتشير الصورة أيضاً الى اتجاه للتطور بعد الانسان الى قطب ، هو أوميغا ، تتلاقى فيه البداية والنهاية ، وتتحد فيه الانسانية كلها في محبة هي ، لحمة تجمع الكل ، ويتجاوز الانسان فيها ذاته الى كيانه •

وقد يتساءل بعضنا : كيف تتفق وجهة النظر هذه مع وجهة النظر التطورية المألوفة والمدعوة خطأ بالتفسير المادي للتطور ؟ وان اجابتنا على هذا التساؤل لا يقلل من أهمية وجهة النظر التطورية المادية ، بقدر مايسد الفجوات التي أحدثتها النظرية حين عجزت عن تمثل الوحدة الشاملة المختبئة تحت



جميع الأشياء· واذا كانت نظرية دارون هي النظرة القائدة للتطور المادي فانني ساعرض لها في حوار وجيز محاولا أن أردم الخليج الذي سببته وهي تعالج موضوع ظهور العقل في الانسان ·

وسوف أبدأ حواري هذا بتدبيج دفاع عن دارون ومدرسة التطور التي اعتنقت التفسير المادي الآلي · ولما كنت أعتقد أن الفكرة وهي تسير عبر التاريخ الطبيعي والانساني تفصح عن جوهرها في مراحل تاريخية ، فانني أوكد على القول بأن دارون مثل مَعلما من معالم التعبير عن الفكرة القائدة في تاريخ الفكر الانساني يوم كان العقل البشري العلمي في طريقه الى الاستزادة من المعرفة· ولما كانت الفيزياء والرياضيات والعلوم الأخرى في مرحلة انتقال الى ما هو أشمل وأعم فقد لمس دارون الحقيقة لكنه أسقط الجانب الكلي الشامل منها · لذا ، لا يسعنا القاء اللوم كله على دارون ذلك لأنه لم يستطع أن يقدم تفسيراً شاملاً للكون· فالعلوم لم تكن قد بلغت مستوى يسمح بمثل هذا التفسير الشامل · واذا كنا نسعى الى وضع صيغة للنقص الأول في نظرية دارون فلا نتورع عن القول بأن سيادة وجهة النظر الآلية ـ الميكانيكية في العلوم على وجهة النظر الديناميكية ـ الحركية ـ الطاقية ، قضية أدت الى عجز في نطاق التصور الشامل الكلي للوجود والعالم والطبيعة · وأما النقص الثاني، وهو تعبير آخر أو وجه آخر للنقص الأول ، فاننا نتلمسه في الفلسفة · فقد كانت الثنائية تهيمن على العقل الانساني خلال القرن التاسع عشر · وكان بعض الفلاسفة يقيمون ثنائية بين العقل بوصفه فكراً والعالم بوصفه موضوعاً · ولا غرو أن هذه الثنائية عجزت عن رؤية التوحيد بين الفكر والموضوع ، بين الانسان والطبيعة ، ومعرفة أن العقل والطبيعة حقيقة واحدة · وضمن هذا الاطار الميكانيكية في العلم والثنائية في بعض الفلسفات ـ رسم دارون صورة لنظريته في التطور · ومع هذا ، فقد كان دارون رائداً عظيماً في حقل المعرفة ،وان توجب علينا النقد ، فلكي نقول ان اساءة الفهم وضيق النظر ومحدودية الأفق التي قوبلت بها نظرية دارون أمر أدى الى تأخير مسيرة التطور ، واعاقة السعي الى ملء الفجوة التي خلفها دارون للعلماء الذين سيعملون جاهدين لانطلاقة أسمى وأعظم ·

وضع دارون كتابين رئيسين : أولهما هو « أصل الانواع » ، وثانيهما هو « تحدر الانسان» وحاول ، وهو يطرح موضوع ظاهرة الانسان ، ان يجد لها اصلا مشتركا مع الانواع الاخرى ،ومع نوع اخر · ولان دارون قد توصل الى معرفة او ادراك هذا الاصل المشترك للانواع ، لذلك سعى سعيا حثيثا الى البحث عن الأصل الذي يجمع الانسان والانواع الاخرى في نوع او جنس · وفي اعتقادي ان دارون لم يكن في وضع يسمح له بالتاكيد على يقين او ما شابه ، وان ما قدمه للعالم يظهر في محاولته الجريئة الرائدة ·

وعندما حاول دارون ربط الانسان بأصل يشترك فيه مع الانواع الاخرى من رئيسيات او اشباه الانسان او الانسانيات عجز عن التوفيق بين معطيات العلم المعتمدة ونظرته في التطور ،فاصطدم بعراقيل حالت دون رواية كاشفة وعميقة · ويحق لنا الآن أن نتساءل عن الحقائق التي غابت عن رواية دارون وقصر في تبيانها · وتتجسد هذه الحقائق بالنقاط التالية :

١ ـ ظهور العقل في الانسان ·

٢ ـ الطفرة أو الافتجاء

٣ ـ الصراع في الطبيعة في سبيل البقاء ·

عد دارون ظهور العقل ، أو عتبة التفكير ، الظاهرة الكبرى التي ارتبطت بالانسان وحده واعتبرها الحد الفاصل بين مملكته والممالك التحتية السابقة · وقد دفعه هذا الأمر الى البحث عن العقل لأنه لم يجد له سابقة في الممالك الحيوانية والنباتية والترابية · فاذا كان العقل هو الصفة المميزة للانسان على الحيوان ، فان اقامة علاقة بينه وبين الأنواع الأخرى غاية في الصعوبة والاستحالة · اذن ، فالانسان يختص بالعقل دون سائر الأنواع · ولما حاول دارون وغيره من علماء أصل الانسان والحياة الكشف عن خيط رفيع يربط الانسان بالحيوان وجدوا أنفسهم يتيهون في معضلة لا نهاية لها · لذا ، فقد تميز جهد دارون في الوصول الى تفسير معقول لهذه الظاهرة · واضطر، وهو العالم الكبير ، الى الاعتراف بوجود فجوة واسعة بين الانسان العاقل والحيوان المجرد من العقل والفكر · ولكن مثل هذا الاعتراف لم يلزمه

على اعتراف مماثل هو أن احتمال انتماء الانسان والحيوان الى أصل واحد قائم وممكن ٠

لقد أخطأ داروين في اعتماده على هذا التعليل٠ ويرد خطؤه الى النتائج العلميه التي توصل اليها علم القرن التاسع عشر ٠ ولأن العلم يومذاك تبنى النظرة الميكانيكية التجزيئية واغفل النظرة الديناميكية التكاملية ، لذلك لم يكن في وسع داروين ان يؤلف نظرة توحيدية شاملة لتطور الطبيعه والانسان على نحو مشترك ، الأمر الذي جعله يظل على جانب من جوانب الحقيقة دون سبر جوهرها٠ ولم يستطع العلم تغطية هذا العجز الا في القرن العشرين ٠ ويعود الفضل في هذا المضمار الى التقدم الذي احرزه العلم وتجسد في رؤية تطورية للانسان والطبيعة ، رؤية توحيدية وتكاملية ، رواية لم يعرفها الانسان منفصلا عن الطبيعة ٠ والحق يقال أن هذه الرؤية كانت ، ولا تزال ، من نصيب الحكمة القديمة التي وعت حقيقة العالم وجوهر الطاقة ، ورأت مسيرة الحياة من بدايات انطلاقها حتى بلغت الانسان ٠ لذا ، يعرف القرن العشرون بأنه القرن الذي يتميز بخاصية متقدمة على العصور الأخرى ، اذ أن فروع العلم بدأت تتجه الى التلاقي والتكامل٠ فقد بدأت العلوم، وعلى رأسها الفيزياء والبيولوجيا والرياضيات ، تلتقي بعد أن عانت من التشتت والتفرد٠ وان مثل هذا التلاقي تجلى في عون مشترك أدى بدوره الى رؤية علاقات متداخلة متبادلة بين سائر العلوم والى الاحساس بالوحدة والشعور بالشمول ٠ وهكذا بدأ العلم يرتد الى مبادىء الحكمة ، ذلك أن الحكمة تمثل الوعي والعلم يمثل الحقل الذي يختبر فيه هذا الوعي ٠

ويتدارك القرن العشرون، ممثلا بأحد حكمائه هو تياره شاردان ، الخطأ الذي وقعت فيه علوم القرن التاسع عشر ٠ فقد شاهد هذا القرن العقل منبثا في ممالك العالم كلها ٠ فالعقل لم يعد خاصة يتميز بها الانسان على الحيوان أو يتفرد بها ، هو خاصة مشتركة بين الكائنات كلها وأنواع الحياة قاطبة : انه قائم في الانسان والحيوان والنبات والجماد ٠ والعقل قدرة منطوية في المادة وخصائصه كائنة فيها ٠ وثمة تطابق بين اعترافنا بهذا الأمر وبين اعتراف آخر هو أن العالم جسد له نفس تنبض بالحياة والوعي الكامن ٠ ولما كان القرن التاسع عشر عاجزا عن رؤية الشمول فلأن سيادة النظرة الميكانيكية التجزيئية أو الثنائية كانت مطلقة ٠ وان رؤية الشمول تتطلب اعترافا بالنظرة الديناميكية وادراكا لها ٠ فليس هنالك نظرة اخرى غيرها تستطيع ان تحدس نفس العالم في جسده ، وترى في العقل والوعي والطاقة حقيقة واحدة تتنوع دون ان تتناقض ، تخص العالم كله دون ان يتفرد بها كائن ٠

ان التعليل الذي بسطته يعني ، أكثر مما أشرت اليه ، أن العقل خاصة مشتركه بين الكائنات الأرضية وقائمة في تضاعيف المادة ٠ ولكن هذه المشاركة لا تنفي تدرج العقل ضمن نطاقات تنطلق من بداية وترتفع ضمن سلسلة متصلة كبرى وتنتهي الى الوعي الذي يفصح عن ذاته في ثلاث صور تشكل جدلية واحدة :

١ ــ معرفة النفس ٠
٢ ــ معرفة الوجود والطبيعة ٠
٣ ــ توحيد المعرفتين في وعي واحد ٠

وجدير بنا ونحن نطرح القضية في مثل هذا النسق، أن نعرض الكيفية التي تم فيها هذا التدرج٠ وفي سبيل البساطة والايجاز نجزىء على نحو ظاهري المراحل المتدرجة من البداية حتى الانسان :

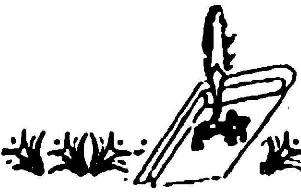
١ ــ في مرحلة ما قبل الحياة ، نجد الخصائص العقلية كامنة ، كما نجد الانسان الكامن ٠ ويشير هذا الى استعداد الحياة للانطلاق في سلسلة وجودها الكبرى ٠

٢ ــ في مرحلة الحياة الأولى ، نجد الخصائص العقلية تتركز في كيانات أو وجودات ، كما نجد النفس وقد بدأت في التشكل ٠

٣ ــ في مرحلة الحياة الوسطى ، يزداد التعقيد المادي للمتعضيات أو للكيانات وتزداد معه الطاقة النفسية العقلية في تركيزها ٠

٤ ــ في مرحلة الحياة الأخيرة ، يزداد التعقيد المادي ويزداد معه التعقيد النفسي متجهاً الى التركيز في الدماغ ٠ ويشير التركيز الدماغي الى اتجاه الحياة الى الأمام ٠

٥ ــ في مرحلة الانسان ، نجد تركيزاً متزايداً للدماغ وزيادة كبرى في التركيز النفسي بحيث تتعادل الزيادتان في كم وكيف: كم هو الدماغ وكيف هو العقل ٠



٦ ـ في مرحلة ما بعد الانسان ، نجد العقل ، وقد وجد قوته في الدماغ ، يعمل من أجل تجاوز ذاته الى عقل فوقي . وفي هذا التجاوز يبدع الانسان ذروة كماله الارضي .

عندما نتأمل ما ورد في النقاط المذكورة أعلاه نحصل على النتائج التالية ونخلص الى غاية متضمنة في صميم وجودنا . ولن نكون قادرين على فهم هذه الغاية ما لم نكتشفها في الطريقة التي نعالج الموضوع بها ، كما يلي :

١ ـ **حالة اللا تمايز** ، وهي حالة استعداد ما قبل الحياة ، وفيها كانت المادة متجانسة لاتعرف التغاير . وفي حالة اللاتمايز هذه نجد الطاقة منغلقة على ذاتها ، والوعي كامنا ، والخصائص النفسية العقلية قائمة . وتعد حالة اللاتمايز هذه تطوراً هابطا الى انغلاق وانطواء وانثناء ، تنغلق فيه الطاقة على ذاتها لتكون كتلة مادية في ظاهرها .

٢ ـ **حالة التمايز** ، وهي حالة استعداد أولي للحياة ، وفيها يبدأ اللاتمايز انطلاقه الى تمايز . وتعد حالة التمايز وضعا تتكاثر فيه الأنواع ، وتتنوع الحياة في كثرة وتعدد . وفي هذه الحالة تكون الوحدة هي الصفة الجوهرية للعالم الأرضي والكثرة هي الصفة الظاهرية . فالأنواع كلها ، تتصف بجوهر واحد هو الحياة ، الطاقة ، الوعي . وهكذا تتصف الأنواع الكثيرة بظاهر أو خارج وبباطن ـ كثرة في وحدة ، وتنوع في واحد . ويكون الباطن هو الصفة الجوهرية المشتركة بين الأنواع الكثيرة ، والخارج هو الشكل الذي تتميز به أو تتمايز اليه الأنواع . وبالاضافة الى هذا ، يكون الباطن ، ويعرف بتلقائية الطاقة المغلقة ، هو الوعي الكامن ، والخارج هو الكتلة الظاهرة . وهذا يعني أن الاشكال تتصف بالوعي في الباطن ، وبالكتلة في الخارج .

٣ ـ ان حالة التمايز تتراءى لنا في كل نوع وهو يسعى الى تحقيق الطاقة المنطوية فيه . ويمكننا التعبير عن هذا السعي الى التحقيق بمصطلح هو التطور Evolution ، لذا ، يعد التطور عملية تنفتح فيها الطاقة المغلقة ، أو الوعي المنطوي ، أو الخصائص النفسية والعقلية المنثنية على ذاتها ، الى غاية هي تحقيق القطب الأسمى الذي تسير اليه بفعل كيف طاقتها وكم كتلتها .

نعود من جديد الى حالة اللا تمايز الأولى حيث كانت الخصائص العقلية والنفسية معبراً عنها بالكم والكيف ، في كمون ووجود بالقوة . ويمكننا الآن تشبيه هذه الحالة بمقدار ضخم من الفطير او العجين . واذا توخينا الوضوح قلنا ان الفطير كان في حالة تجانس ، أي في حالة لا تمايز فيها . ولكن هذا التجانس او اللا تمايز يحمل في جوهره وصميمه قدرة على التمايز الى أنواع في الكم والكيف . وتفسر هذه القدرة على التمايز عن طريق القانون المهيمن على الكرة الأرضية . فهذا الكوكب يخضع لقانونين اساسيين : ثنائية ظاهرية ، وتعدد أو كثرة أو تنوع . ونستنتج مما سبق أن الثنائية الظاهرية والتعدد أو الكثرة قضية ظاهرية ، وليست حقيقية . والحقيقة الثابتة هي أنها تتالف في وحدة هي في صميمها تجانس أو لا تمايز . ولما كان القانون تعبيراً عن قدرة تصل بين الجواهر ، فان القانون السائد على كوكب الأرض هو قانون الوحدة في الباطن وقانون الثنائية والتنوع في الخارج . لذا ، يتصف عالمنا هذا بالثبات في جوهره وباطنه وبالحركة في خارجه وأشكاله .

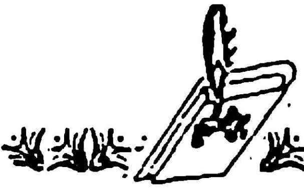
ان تفسير ظهور الأنواع المتمايزة من حالة هيمن عليها اللاتمايز يقوم على حقيقة هي أن الكرة الأرضية تفسر بقانون الوحدة الصميمية والكثرة الظاهرية . ولما كنا قد تصورنا الحالة الأولى المتجانسة اللامتمايزة بوصفها عجيناً متناسقاً ، فاننا نضيف الى صورتنا تلك أن الطاقة المكنونة في حالة التجانس اللامتمايز اتصفت بقدرة على التنوع ، فقسمت ذاتها الى خمائر كثيرة ، لا حصر لها ، تمايزت في الكم والكيف : الكم ويمثل الكتلة والكيف ويمثل الطاقة . ولأن هذه الخمائر تتمايز في الطاقة والكتلة فسوف تسعى الى تحقيق طاقتها وكتلتها . ولأن التطور ، وهو انفتاح الطاقة المغلقة ، يتقدم الى الأمام في تمايز وتنوع ، تتكشف الطاقة ، وهي خصائص عقلية ونفسية كامنة ، شيئاً فشيئاً لتشكل خارجاً هو الكتلة أو الجسم أو العضوية . ولأن الخمائر متمايزة فان البعض منها يحقق النوع الذي تمايزت اليه في فترة زمنية قصيرة نسبياً ، وأما الخمائر التي تركزت طاقتها وكتلتها ونالت حظاً وافراً منهما فانها ستتأخر عن الكشف والانفتاح عن الخمائر الأخرى . ولسوف تحقق كل خميرة ما تضمن فيها من طاقة هي باطن وكيف

ومن كتلة هي خارج وشكل • ولما كان الانسان هو التطور النهائي لخميرة تمايزت عن غيرها بطاقة شديدة وكتلة مركزة فان ظهوره في سلم التطور جاء متأخراً اذا قيس بتطور الخمائر الاخرى التي تمايزت بطاقة أدنى وكتلة اقل تركيزاً •

يتضمنهذا الشرح القول أن المملكة الانسانية والحيوانية والنباتية والماديه خمائر تنتمي الىعجين أو فطير واحد • فهي اذن عجين واحد تمايزت خمائره وتطورت الى ما فيه تحقيق كتلتها المادية وطاقتها النفسية أو العقلية • ووفق هذا المنظور لم يتحدر الانسان من الحيوان أو ، بالحري ، لم يصعد منه • فالحيوان بأنواعه خميرة متمايزة بطاقة معينة وكتلة معينة ، والنبات بأنواعه خميرة متمايزة بطاقة معينة وكتلة معينة ، والطير بأنواعه خميرة متمايزة بطاقة معينة وكتلة معينة ،والانسان بأنواعه خميرة متمايزة بطاقة معينة وكتلة معينة • وجدير بالذكر أن الطاقه الانسانية طاقة كبيرة عظيمهوالكتله الانسانية كتلة مركزةغاية التركيز•

واذا كان التطور يتقدم الى الأمام في عملية انفتاح وكشف ، فهو لا يعرف الطفرة او الافتجاء لأنهبطيء غاية البطء• فالطفرة أو الافتجاءمصطلح اعتمدهعلماء التطور عندما وجدوا انفسهمعاجزين عن تفسير التكامل المرتبط بعملية الانفتاح • فالتطور ليس صراعاً بل تكاملا ، وليس انقراضاً بل استمراراً في النوع • فالنوع يتحول الى نوعاخر في عملية تحقيق لباطن وخارج ، ولا يتعرض للانقراض لأنه يتابع مسيرته في نوع يتكامل فيه ويبلغ الهدف أو الغاية المتضمنة في القانون الذي يوجد من أجله ، في سبيل تحقيق ذاته على مستوى أعلى • اذن ، يتابع الوعي المنغلق والطاقة الكامنة تطوره أو تطورها في سلسلة وجوده أو وجودها حتى يبلغ أو تبلغ الغاية المعبر عنها بقانون وجودها • فالتطور لا يعرف الانقطاع بل التواصل،ولا يخضع للتجزئة بل للتكامل ، وهكذا يكون التطور حركة ديناميكية تكاملية وليس ميكانيكية تجزيئية •

تشير الدراسة السابقة الى تطور التجانس اللا متمايز الى انفتاح متمايز للوعي الكامن في التجانس • وتشير كذلك الى اشتراك التمايز في خلفية واحدة ، فبقدر ما هو كثير هو واحد •والحق يقالأن التمايزات العديدة تتنوعفي الشكلوالخارج وتشترك في النفس والطاقة • ولأن التمايزات كثيرة ، تنحصر في ممالك أربع ، يتطور الوعي الكامن في المملكة الأولى الى وعي اكثر انفتاحاً في المملكة النباتية، وأكثر انفتاحاً في المملكةالحيوانيه وأكثر انفتاحاً في المملكة الانسانية • واذا كانت مقولتنا هذه تشير الى صدق في الحقيقة فان قولنا أن العقل خاصة مميزة للانسان قول باطل•فالعقل صفة مشتركة بين الأنواع كلها والممالك كلها • اذن ، فالعقل قائم في الانسان ، وقائم في الحيوان والنبات والمادة الصرف • ومع ذلك ، فهو يتدرج في التركيز والتفكير • فالعقل في الانسان ، وهو الطاقة النفسية المركزة ، يعمل عن طريق الدماغ والحواس ، التي هي اطالات الدماغ ، والصلةالتي تربط العقل الانساني بالطبيعة صلة غير مباشرة • وعندما يطرح العقل ذاته على الطبيعة فانماليدرس ذاته فيها ويتعرف على حقيقته المنطبقة فيالطبيعة• هذا، لأن كل مافي العقل موجود في الطبيعة ،بأشكالها وأنواعها وممالكها • لذا يحتاج العقل الانساني للتعلم والتدريب • والعقل في الحيوان قوة طبيعية تدرك ذاتها على نحو مباشر ، الأمر الذي يشير الى أن الحيوان لا يحتاج الى التعلم لأنه يحقق طاقته النفسية المركزة بشكل مباشر • واذا توخيناالدقة والوضوح ذكرنا أن العقل الانساني دائريالاتجاه والعقل الحيواني واحدي الاتجاه • اذن ، فالعقل الانساني يحتاج الى تركيز لأن اشعاعاته تتجه منه الى كل الاتجاهات ، والعقل الحيواني لا يحتاج الى تركيز لأنه يلامس موضوعه بشكل مباشر •والعقل النباتي قوة طبيعية مستقرة سكونية ، تكشف عما في الطبيعة المادية والطاقة الكامنة فيها بطريقة مباشرة • انه يلتصق بالطبيعة التصاقاً جوهرياً ، ويعبر عن ذاته عن طريق الشعور والاحساس • ولقد دلت التجارب الحديثة على امتياز النبات بالاحساس والشعور • فهو يسجل كل اهتزاز ويتجاوب معه سلباً أو ايجاباً • والعقل في الطبيعة المادية طاقة مغلقة ، وعي كامن ، غارق في سباته ، ويسعى الى اليقظة • والحقيقة هي أن العقل في الطبيعة يشاهد على أنه خصائص عقلية تسعى الى الكشف عن ذاتها بفعل التطور • وهكذا نرى أن العقل منبث في العالم كله • واذا كان هذا العقل منبثاً ، ويتطور وينمو الى حالات أكثر تركيزاً ، فانما ليدل على أن العقل لم يظهر في الانسانفجأة



أو نتيجة لطفرة • لقد قام بمسيرته البطيئة الكبرى خلال العصور وملايين السنين ، وعبّر عن ذاته في أنواع كثيرة من التركيز ، في الانسان والحيوان والنبات• وانا نخطىءاذ نعتقد أن العقل الانساني حصيلة تطور حدث لعقل الحيوان ، ذلك أن الخميرة الانسانية تشكلت منذ البدء ، كما تشكلت الخميرة الحيوانية والنباتية أيضاً • وسارت كل خميرة في السبيل الذي خططته لذاتها للتعبير عن طاقة كونية• وفي كل سبيل سارت الطاقة والكتلة في خطين متوازيين، وهذا يعني أن كل تقدم أو تطور للكتلة كان يسايره أو يوازيه تطور أو تعقيد للطاقة النفسية• ولقد سار كل فرع في طريقه أي في اتجاهه ليبلغ ذروة كماله في الشكل ، في الباطن والخارج • ونستطيع القول أن الانسان والحيوان والنبات ينتمون الى شجرة واحدة ، هي شجرة الحياة ،ويمثل كل واحد منها فرعاً من فروع الشجرة • ونستطيع أن نضيف الى قولنا هذا قولا أخر هو أن الفرع الانساني ينطلق من شجرة الحياة ليمثل نوعاً خاصاً يتميز بطاقة كبرى وتركيزا كبيراً للكتلة • اذن ، فالانسان لم يتحدر ، أو لم يصعد ، من فرع الحيوان •

ويمكننا الان ، ونحن نقف على أبواب شجرة الحياة نطل على فروعها الكثيرة ، أن نتساءل عن كيفية التمايز الذي انطلق من حالة لا تمايز أولى عرفت بالتجانس •

في العودة الى حالة ما قبل الحياة نرى ،بحدس وبصيرة ، الطاقة المتجانسة اللامتمايزة في حالة تأهب للتحبحب ، أي للتجمع في حبيبات ستكون النواة الأولى لتجمع متزايد • وفي تعمقنا ، ونحن نتلمس المعالم الأولى للحياة وهي تختفي عن عيوننا، نستدل الى استعداد الحياة ، أي الطاقة ، الى التجمع في حبيبات ستنشأ عنها الخلايا الأولى • وفي هذه الخلايا تجمعت جمهرة من الحبيبات التي ستتجه الى تشكيل متعضيات متنوعة • وعلى هذا الأساس، تجمهرت حبيبات طاقية في خلية ستسير الى تحقيق الانسان ، وهذا ما دعانا الى تسميتها بالانسان الكامن ، وتجمهرت حبيبات طاقية أخرى في خلية ستسير الى تحقيق الحيوان والطير بانواعه ، وتجمهرت حبيبات طاقية أخرى في خلية ستسير الى تحقيق النبات •

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا تفسير الجسد الانساني والجسد الحيواني والجسد النباتي •ففي الخلية الانسانية الأولى اجتمعت الكتلة الأرضية في تركيز طاقي شديد بحيث أن المادة كلها تركزت بملء طاقتها • ولسوف ينشط هذا التركيز لتحقيق الجسد الانساني• وهكذا يتودنامثل هذا الاعتراف الى الاقرار بأن الجسد الانساني تركيز لعناصر المادة وطاقتها في نقطة نسميها الخلية الانسانية• ولا يغيب عن بالنا أن اجتماع الحبيبات في خلية ، وتجمهر العناصر في نقطة هي الخلية ، قد استغرق ملايين السنين • اذن ، فالانتقال من استعداد ما قبل الحياة الى التشكل العضوي الأولي ،واستغراقه ملايين السنين ، يعني أن الخلية تحمل عمرين : عمر زمني يقاس بالكم، وعمر نفسي يقاس بالكيف• وللدلالة على أهمية هذا التجمهر والاجتماع ،نعود الى آراء العلماء المحدثين الذين ينفون الصدفة في هذه العملية ، آخذين بعين الاعتبار أن مبادىء الاحتمال تتعارض مع الصدفة • ويقول أولئك العلماء أن عملية التجمع ، لو تمت بالصدفة ، لاستغرقت عمراً زمنياً يفوق عمر الكرة الأرضية بالاف المرات ، ولتطلبت مكاناً أو حيزاً تحدث فيه هذه الصدفة يفوق حجم الأرض بالاف المرات • وان مثل هذا الدليل برهان صادق على أن الطاقة المنغلقة على هيئة مادة كانت تعي ما ترسم لذاتها في كل خطوة تقوم بها ، وفي كل تالف أو تركيز او تحبحب تحققه • فالوعي كان في البدء ، والوعي ، في كمونه ، كان يستعد لينغلق من جديد في كتلة تعد أكثر حرية وأقل حتمية ، ستعمل بدورها على الانغلاق في كتلة جديدة ، هي متعضية ، تعد أكثر حرية وأقل حتمية ، حتى تبلغ درجة الانسان•اذن، فالتطور من الخلية الانسانية الأولى الى الانسان مجموعة من الانغلاقات والانطواءات ، يعبر كل منها عن حرية أكثر ووعي أكثر ، وسلسلة غير منقطعة، بل متصلة ، لطاقة تتحقق ضمن كيانات ووجودات ستبلغ غايتها في الانسان •

وفي الخلية الحيوانية الأولى اجتمعت الكتلة الأرضية في تركيز طاقي أقل شدة • ولسوف ينشط هذا التركيز لتحقيق الجسد الحيواني • ولما كان الجسد الحيواني أقل تركيزاً لكتلة وطاقة فيمكننا



الاعتراف بأن عقله متدن بكثير عن العقل الانساني، لكنه أكثر اتصالا بالطبيعة ، على نحو مباشر ، من العقل الانساني • فالعقل الحيواني الذي يتصل اتصالا مباشراً بالكتلة المادية قد بلغ تعقيداً معينا للدماغ لا يساعده على التجريد والتصور ، لسبب وحيد هو أن كتلته غير مكتملة اكتمال الكتلة الانسانية وطاقته غير مكتملة اكتمال الطاقة الانسانية • لذا ، يتدنى دماغ الحيوان وعقله عن دماغ الانسان وعقله •

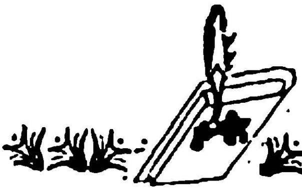
وفي الخلية النباتية الأولى تركزت الكتلة والطاقة بحيث أبقت على الاتصال التام بهما في الطبيعة • لذا ، كان عقل النبات يعمل بدون دماغ • فهو لايحتاج الى دماغ يعمل كوسيلةللتعبير، لأنه كموني ، طاقي ، وذاتي الشعور •

نستخلص مما تقدم أن الأشكال التي اتخذتها الأنواع كانت نتاجا لطاقة باطنية تفعل • فلكل خارج طاقة باطنية أكسبته شكلا أو ظاهراً • وهكذا تفسر الأشكال بالطاقة الداخلية على غير ما فسر الأمر داروين • فلقد شرح داروين الصفات الملازمة للاجساد أوللمتعضيات بنمو الشكل الخارجي • فالطاقة الداخلية، في رأيه، نتاج للمظهر الخارجي• لقد أساء داروين وأتباعه فهم الطاقة الكامنه ، وجهلوا وحدة وتفاعل الحياة والطاقة والوعي والكتلة • وان مثل هذا الانطلاق الخاطىء قادهم الى أخطاء تراكمت ، الأمر الذي جعلهم يتحدثون عن صراع في الطبيعة ، وافتجاء أو طفرة ، وميكانيكية دون تكاملية ، وظهور للعقل دونرؤية سابقة له ، فلو استطاع داروين وأتباعه رؤيةالوعي الكامن في الطاقة المنغلقة على ذاتها ، التي نسميها المادة ، لرأوا التكامل في الطبيعة ، والتطورالبطيء، واتصال الأنواع ، ووجود العقل وخصائصهالأولى•

ان طرح مبدأ الطاقة المنغلقة على ذاتها والمنثنية على ذاتها يستدعي البحث في معرفةجوهر هذه الطاقة التي تحولت بفعل علة داخلية الىمادة• ولكي نستشف وجود هذا الجوهر فاننا نعمد الى تبيان حقيقة التطور في هبوطه وصعوده • هنالك تطور هابط من الأعلى باتجاه الأدنى ، وتطور صاعد من الأدنى باتجاه الأعلى • ويعد التطور الهابط مجرد تكاثف طاقة كونية لطيفة ، ووعي كوني شامل • وان ما نراه في مادة الأرض انما هي طاقة كثيفة في درجة اهتزاز وضمن حدين لهذا الاهتزاز الطاقي • اذن ، فالمادة الأرضيةكثافة طاقة كونية بلغت أدنى درجات لطافتها وأقصى درجات كثافتها • واذا كانت المادة الأرضية مجرد طاقة مكثفة فلا غرو أن تكون خصائص الطاقة والوعي متضمنة في المادة وكامنة فيها ، على نحو انغلاق وانطواء وانثناء على الذات • وان قولنا بأن الكرة الأرضية كانت في بدء تشكلها غازاًملتهباً أخذ يتبرد ، دليل على أن مادة هذه الأرض نار ابتردت ، الأمر الذي يدعونا الى الاعتراف بأن خصائص النارمنغلقةعلى ذاتها في القشرةالأرضية• وقولنا ان النار مجرد كثافة نور دليل على أن خصائص النور قائمة في النار وخصائص النار قائمة في المادة • وهكذا تكون خصائص النور والنار قائمة في المادة •

يشير ما أوردناه الى تطور هابط من عالم أو عوالم لطيفة الى عالم كثيف • ويمثل هذا التطور الهابط بتخلخل النور الذي يزداد ابتعاداً عن مصدره • وجدير بالملاحظة أن التطور الهابط مجرد فيض لطاقة كونية تنتقل في تحولها من نطاق الى نطاق ، من عالم الى عالم ، من سماء الى سماء ، حتى تبلغ عالمنا هذا وقد حققت كثافة كبرى ، تسمى مادة • اذن ، فالمادة كثافة طاقة كونية لطيفة ، غاية اللطافة ، تابعت مسيرتها الكونية منتقلة من نطاق أو سماء أكثر انفتاحاً ولطافة الى نطاق أقل انفتاحاً ولطافة ، حتى بلغت الهدف النهائي لها ، فانطوت على ذاتها في عالم يسمى العالم المادي•وفي هذا العالمالمادي «يغفو» الوعي ، وتغفو الطاقة معه في كمون •

ويقابل هذا التطور النازل أو الهابط تطور آخر ، هو تطور صاعد من الأدنى • وليس هذا التطور الصاعد الا قاعدة جوهرية موضوعةلتحقيق الكون في صدوره وانبثاقه من جوهر كونيوعودته وايابه الى هذا الجوهر • اذن ، فالفيض أوالانبثاق أو الصدور مجرد كشف لحقيقة كونية ، حقيقة سامية ، يسمى تطوراً هابطاً ، والاياب مجرد تطور صاعد لهذه الحقيقة التي انغلقت فيانطوائها الشديد الى مصدرها ، لتعود الى حالتها النقية الصافية • وجدير بالقول أن كل تطور صاعد مرهون بدرجة كثافة المستوى الذي يقع فيه هذا



التطور • وعلى الرغم من أن العوالم كلهامنغلقة على ذاتها في مستوياتها الدنيا ، لكن التحقيقيتم وفق المستوى الذي يحتله العالم المنوط به •

وعلى كوكب الأرض ، يبلغ التطور الهابط أدنى مستوى له في اللطافة وأعلى مستوى لـه في الكثافة • وتظهر هذه الكثافة على نحو انطواء في الصغير ، وفي قدرة هذ االصغير على تحرير ذاته ، بفعل طاقته الواعية الغافية والكامنه ، الىمستويات اعلى في سلم الوجود • ويعود الوجود لينثني على ذاته من جديد في كائن هو الانسان • ولا يحدث هذا الا لكي يعمل الانسان ، بفعل حرية ووعـي مدركين ، للعودة الى الحقيقة التي انبثقت منها • وهكذا يمكننـا أن نقول أن التطور فعل حر ، هو الحرية المتمثلة في الوعي • ولكي نتوخى الوضوح نقول أن التطورفعل مبدع ، مبدؤه الحرية وظاهره الحتمية ، هو انعتاق دائم هادف وغائي منعبودية تظهر على نحو حتمية في حارجها •

تتجه النظرة السطحية الى اعتبـار الانغلاق الكوني واتخاذه شكل المادة حتمية • أمـا النظرة العميقة فترى في الانغلاق والانطواء الطاقي حتمية ظاهرة وحرية باطنة • ووفق هذا المعيار ، تكون الطاقة ، والوعي الكامن فيها ، القدرة الموجهـة للصيرورة ، والحرية الواعية المتطورة دوما وأبدا الى أشكال وصور أكثر سموا وارتقاء وتكاملا • وعلى هذا النحو تطرح الحرية ذاتها مقابل الحتمية الظاهرية • فلا حتمية في الكون ، ذلك أن الكـون يعي ذاته بفعل حرية وغائية ، ويرتقي سلم الوجود ضمن قانون ذاته • ولما كان قانون الكون ، وهو قانون الوعي والحرية ، متضمنا فيه ، وغيرمفروض عليه من الخارج ، فان الحتمية تتقلص حتى تبلغ اللاشيء • ولكن الحق يقال أن حتميـة ظاهرية تعاين في اللحظة التي تنغلق الطاقة الكونية على ذاتها • ولا تتصف هذه الحتمية الظاهرية بالواقع لأن الطاقة الواعية تنطوي على ذاتها ، فتظلواعية في صميمها وجوهرها ، وتظهر على هيئة حتمية في خارجها ، ولما كان قانون الكون كله يتأرجح بـين الانغلاق، وهو تطور هابط الى أعلى درجات الكثافة في المادة ، والانفتاح ، وهو تطور صاعد الى أعلى درجات اللطافة في الوعي الكوني ، فان الانغلاق يبدو على هيئة حتمية والانفتاح يبدو على هيئة حرية • فالتطور حرية تفعل في وجودها ساعية الى الانعتاق من اسار انغلاق • والحقيقة هي أنالوعي الكوني لا يتحقق ، ولا يدرك ذاته ، الا من خلال هـذه العملية التي ينطوي فيها على ذاتـه ، فيعد مادة ، وينفتح شيئا فشيئا ليدرك ذاتـه في مسيرة تطورية شاقة وطويلة ، فيعد روحا •

ان انغلاق الطبيعة يؤدي الى تحقيق مقاومة سالبةفي المادة• لذا، تعرف الكتلة بمقاومتهاالسالبة• وتفسر المقاومةالسالبة كمايلي: عندماتتكتلالطاقة فيالمادة، تصبحهذه المادةقوةسلب،وذلك لأنها تجمعت على ذاتها ، فسلبتحقيقتهاعلى نحوظاهري ونفت ذاتها على نحو اغتراب • ويشير تجمع الطاقة على ذاتها ــ وهذا هو المقصود بالمادة ــ الى بدء الزمان والمكان، كما يشير الى انتفاءظاهري للوعي الباطن• ولما كان هذا الوعي ــ الباطن قائما او كامنا فانه سيفعل على نحو مقاومة ايجابية تسعى الى العودة بذاتها المغلقـة الى الانفتاح • وفي هـذا النطاق ، يمكننا اطلاقمصطلح المقاومة السالبة على الحتمية الظاهرية ، والمقاومـة الايجابيـة على الانفتـاح والوعي الكاشف لذاته • وهكذا تعني كلمة نبذ ، مقاومة سالبة ، وحتمية شيئا واحدا ، وتعني كلمة جذب ، مقاومة ايجابية ، وحرية شيئا واحدا •ولما كانت عملية الجذب والنبذ ، والمقاومـة الموجبـة والسالبة ، والحتمية والحرية ، تفعل في ذاتها ، في واقعها ، في كتلتها ، ولا تخضع لعامل خارجي ، فان النبذ والسلب والحتمية وقائع خارجية ، ظاهرية، وأعراض شكلية لحقيقة باطنيةهيالجذب والايجاب والحريـة • وفي هـذا السياق نخلص الى تأسيس قاعدة للتطور تتمحور حول الوعي : التطور انفتاح انغلاق ظاهري ، وحرية حتمية ظاهرية ، وجذب نبذ ظاهري ، وايجاب سلب ظاهري ، هو الكون وهو يعي ذاته ، المادة وهي تعي حقيقتها ، الطاقة وهي تعي جوهرها • اذن ، فالمـادة هي مركبـة الطاقة ، هي الرداء الذي تلبسه ، هي المظهرالذي تتخذه لتعي ذاتها ضمن عملية كونية تشير الى أن الوعي الكوني لا يتم الا ضمن هذه الجدلية ،وضمن تأليف ، يطرح فيه الوعي الكوني ذاتـه فيتركز ، ليعود الى ذاته بعد انفتاح •

رؤيـة المستقبـل

المستقبل ، في هذا السياق ، رمز للتطور بعد الانسان ، يشير الى تحقيق الزمان المقبل ، والى ملء هذا الزمان بالفعل والابداع • ولما كان المستقبل نتاجاً لما يزرعه الانسان والعالم الطبيعي وتحقيقا للطاقة المجسمة في الكتلة ، فلسوف يجسد الحقـل الذي يزرع فيه الانسان البذور التي استخلصها من الطبيعة ، او بذرته هو، التي تمثل التركيز الطاقي والكتلوي للحياة • واذا كان الاقرار بوجود الماضي ممكنا فمن الصعوبة بمكان الاعتراف بوجود المستقبل• والحقيقة هي أن المستقبل علـى مستوى الانسان سيوجد ، وعلى المستوى الطبيعي سيوجد •ولكن، لما كان مستقبل الطبيعة المادية مجرد نفاذ للطاقة، خاصة وان غايتها قد تحققت بجزئها الأكبر بوجود الانسان ، فان مستقبل الانسان يتكشف في تآلفين اثنين : مستقبله ومستقبل الطبيعة المادية • فهو لن يألو جهداً عن الفعل الدائم المستمر للبلوغ بطاقته وطاقة المادة الى ذروة كمالها في نهاية قصوى للعالم• والقضية المطروحة يعبر عنها في التساؤل التالي : كيف يكون الانسان أداة لصيرورة الطاقة الماديـة والبلوغ بها الى ذروة كمالها ، وتحقيقها في أعلى المستويات ؟

يتوجب علينا، ونحن في صدد شرح هذه المقولة، أن ندرك :

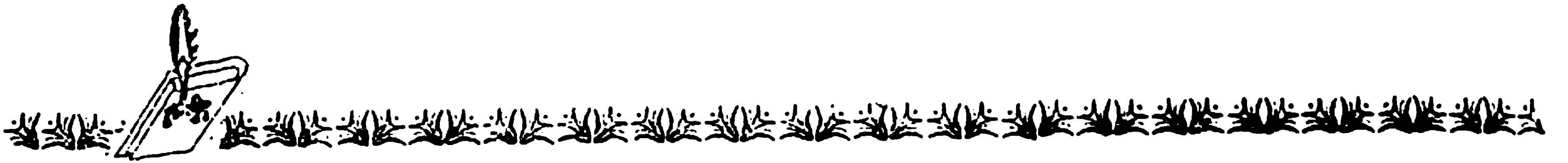
١ ـ كيف يكون الانسان أداة للتحول ، أي لتحويل الطبيعة المادية الى قدرة فاعلة بعد تنشيطها •

٢ ـ كيف تكون الخطة القائدة لمسيرة الطبيعـة بحيث أنه ، بعد تنشيط المادة ، والاسراع في زيادة تفاعلهـا وفاعليتها ، يروض المـادة ، ويساعدها على تحقيق كيانها والتخلي عـن ذاتها ، هكذا يكون الفعل الانساني مضاعفاً : تحقيق كيانه وتحقيق كيان الطبيعة •

ولن يتسنى للانسان أن يكون أداة تحول ما لم تكن الطبيعة المادية كلها ، بكتلتها وطاقتها ،مركزة فيه• وليس هذا التركيز الا انغلاق مادة الأرض كلها في جسد الانسان •

وكما ذكرنا سابقاً ، تحمل الخلية الانسانية عمرين : عمر زمني وآخر نفسي ، كما تحمل باطناً وظاهراً • فالباطن هو عمرها النفسي ، والظاهر أو الخارج هو عمرهـا الزمنـي • لذا ، نرى أن تشكل الانسان في رحم المرأة يشير الى أن الخليـة التي ستنمو لتصير انساناً تحمل الماضي كله فيها : انها تحمله بباطن هو طاقة نفسية ، وخارج هـو طاقة مادية ، وبعمر زمني وعمر آخر نفسي • ومن هذا ندرك أن بدء تشكل الانسان في رحم المرأة يشير الى انغلاق الأرض كلها ، بطاقتها وكتلتها ، في الخلية التي ستصير هذا الكائن • وبالاضافة الى هـذا ، ندرك أن نمو هذه الخلية أو تكاثرها أو انقسامها يشير الى صيرورة ، أو تكوين ونشوء ، ضمن خطين متوازيين : خط كمي ، هو خارج ـ جسد ـ متعضية، وخط كيفي هو باطن ـ نفس • ويتابع الكائـن الانساني في رحم الأم مروره بالأحقاب والمراحـل التي اجتازتها الخلية الأولى خلال تطورها ونموها• واذا كان التشابه قائماً بين التكوين الانساني الأولي، حتى الثلاثة الأشهر الأولى ، والتكوين الحيواني ، فليس لأن الانسان مر بالمرحلة الحيوانية وتابـع مسيرتـه الى عالم انسانيتـه ، بل لأن التكوينين متشابهان في الكم ، حتى هذه النقطة ، ولأن الخمائر واحدة ، رغم انها تختلف في الكم والكيف •

يتابع الانسان، في رحم أمه، مسيرته التطورية حتى يبلغ المستوى الذي بلغته الطبيعة في التركيز الدماغي والتركيز النفسي • ويشير هـذا الى أن الانسان وهو في رحم أمـه ، يمثل طيلة الأشهـر التسعة التي يقضيها في غفوة طبيعته أي في أحضان الطبيعة، المرحلة الزمنية الكاملة التي قضتها الحياة، لبلوغ الأنسنة • وهذا يعني أن التطور المنطلق من الخلية الانسانية الأولى حتى الانسان عبر ملايـين السنين ، يكرر ذاته في رحم المرأة خلال شهور تسعة• فمن الخلية ينشأ الجسد ، ومنها تنشأ النفس •ومن هذه العملية نستنتج أن الجسد كله والنفس كلها مركزان في الخلية ومنطويان فيها • اذن، فالانسان، في بدء تكوينه ، يحمل العمر الزمني كله والعمـر النفسي كله • ويمكننا القول ، أن الانسان يمثل، في المرحلة الجنينية حتى يخرج من رحم أمه ،تكثيفاً للتطور كله حتى ظهوره على كوكب الأرض •ويتسم خروجه من رحم أمه بتطور آخر يمثل التطور بعد وجود الانسـان • وليس ثمـة منظور آخر يفسر مقولتنا هذه وهي أن الانسان أداة للتحول التطوري•



اننا استعرضنا كم وكيف التطور قبل الانسان وأصبحنا ، انطلاقاً من هذه اللحظة ، قابلين لطرح التطور بعد الانسان على بساط البحث ٠وبوجيز العبارة نقول أن التطور بعد الانسان يتجه الى تنشيط الطاقة الكامنة فيه ، وتوجيهها وجهةفكرية، عقلية ، نفسية ، أخلاقية وروحية ٠ واذا وضعنا مقولتنا في قاعدة لغوية سليمة قلنا : أن التطوربعد الانسان يتجه الى المطلق ، الى الحقيقة السامية ، الى الغاية القصوى ، الى الحرية النهائية من الحتمية الظاهرية ، الى الاتحاد بالأسمى بعد الابتعاد عنه، الى تحقيق الغاية المطلقة المتضمنة في القانون الأصلي، الى بلوغ الياء التي انطلقت من الألف ، الى كمال النهاية المركزة في البداية ٠ واذا أردنا أن نضع مقولتنا هذه في عبارة أكثر تركيزا قلنا : ان تطور ما بعد الانسان يعني روحنة المادة ٠

واننا نتساءل : كيف تتروض المادة ؟

ان الكون المنغلق على ذاته في عالم الأرض ، يعي ذاته في تطور بطيء هادف ، ويتركز في الانسان ٠ ويعيد تركيز الانسان الدراما الكونية كلها متمثلة في ما كان سابقاً وفي ما سيكون لاحقاً ٠ ولأن الانسان هو الكون الذي أخذ يعي ذاته وكيانه ، وبدأ يدرك حقيقته المنطوية في باطن الوجود وفي صدر الحقيقة السامية ، فسوف يعمل على روحنة ذاته لتحقيق كيان الروح المنغلق في المادة ، ويفعل بطاقته لروحنة المادة الأرضية ٠ وفي هذا الفعل الثنائي المتحد ، تتآلف الطاقة مع الكتلة ٠ ولما كانت الكتلة الأرضية طاقة كونية منغلقة على ذاتها ، فانها تسعى جاهدة للعودة بذاتها الى أحضان الطاقة ، الأمر الذي يجعلها تتروحن ٠ ولأن الانسان أصبح الأداة المتحولة للتطور بعد تركيز الكم والكيف فيه ، فانه سيزيل الفاصل الوهمي والحد المصطنع بينه وبين الطبيعة المادية ٠ وهذا ما جعلنا نذكر في فقرة سابقة أن الظاهرة الانسانية لا ترى بمعزل عن الطبيعة المادية ٠

ويؤسفني القول أن الصدع القائم بين الطبيعة والانسان أمر ماساوي ، وخطير الى أبعد حدود الخطورة ٠ ويعد هذا الصدع نتاجا للثنائية التي كرسها العلم في بدء دراسته التي قامت على التجربة الحسية ٠ لقد أقام بعض من الفلاسفة والعلماء جداراً أو فجوة بين الانسان والطبيعة ، بين العقل والمادة ، وخلقوا من الانسان سيداً على الطبيعة يحاول اذلالها أو اخضاعها ٠ لكن الحكمة القديمة تمثلت هذه الخطورة وأعلنت قيام وحدة بين الانسان والطبيعة ٠ والواقع أن علماء وفلاسفة محدثين ، تأثروا بالثيوزوفية ، أي الحكمة الالهية كما ترى في الكون ، والمبشرين بها وهم راؤون وعواحقيقة الكون والوجود ، بدؤوا يدركون هذه الحقيقة ، وينادون بمبدأ اعادة الصلة بين الانسان والطبيعة، في اتحاد والتحام وانسجام ٠

لقد أدى العلم ثنائيته المهددة ، الى خلق مشكلة لا يعرف العلماء كيف يتخلصون منها ٠انهم أخطؤوا في اعتقادهم أن سيادة الانسان تتجسد في تفجير الطبيعة وفي سيطرته على الحيوان ، وأخطأوا عندما فجروا الذرة، هذا التفجير الذي يجر الويلات والكوارث على الطبيعة والانسان ، وأخطؤوا عندما تنكروا للحكمة القديمة التي دعت الى اتحاد الانسان مع الطبيعة ، الى الالتحام والانسجام معها ، والى محبة الانسان للحيوان ، وأخطؤوا في تجربتهم التي أدت الى التفجير الذري أي المادي : كان على العلماء أن يصغوا الى ارشاد الحكماء ليدركوا أن سيادة الانسان تعني وعي القانون الكوني ، والاتحاد بالمادة والطبيعة ، والالتحام بهما ، كان عليهم أن يدركوا أن الحقيقة قائمة في وحدة الانسان والطبيعة ، في صحة الانسان والحيوان ، وان القانون الكوني مشترك بينهما ، وأن روحنة المادة هي الطريق الوحيد للوعي والمعرفة والعلم ٠

أحب ، وقد بلغنا نهاية بحثنا الوجيز ، أن ألمح الى السر العميق القائم في الانسان ، السر الذي يسمح له أن يكون أداة تحويل للطبيعة المادية ، والتائد الذي يتجه الى تحقيق نهاية متضمنة في بداية ، وغاية متضمنة في قانون أولي ٠ ويمكنني التعبير عن هذا العمق المتأصل في الانسان في مفهومين :

١ ـ ان الانسان حصيلة التطور الطبيعي للمادة ـ والمادة طاقة واعية منطوية على ذاتها ٠ وهذا يعني أن الوعي المنطوي في الطبيعة المادية منطو كذلك في الانسان، ونا الجسد الانساني تركيز للطاقة المادية ٠

٢ ـ ان الجسد الانساني الذي تتركز فيه الطاقة الأرضية كلها ، بعناصرها كلها ، لا يمثل الكيان الانساني كله • والحق يقال أن جسداً آخر، هو جسد روحاني ، يفعل في الكيان الانساني • ويعد هذا الجسد الروحي تركيزاً لطاقة عليا ، بلغت غاية تركيزها • اذن فالانسان تركيز للعالم الأرضي في جسمه المادي ، وتركيز للطاقة الكونية في جسمه الروحي •

نستطيع أن نفهم الآن كيف يكون الانسان أداة تحويل للعالم المادي • انه يحمل هذا العالم في جسده المادي • وهو قادر على تنشيط المادة وروحنتها من خلال جسمه الروحي• وهذامايدعوه الى أن يكون الفاعل الأول على كوكب الأرض • وعلى الرغم من أن الكتلة المادية طاقة مركزة وكثيفة، لكنها ، بعد أن تبلغ مستوى معيناً من التطور ، هو مستوى تعين الجسد الانساني، لن تكون قادرة على روحنة المادة الكلية للعالم • وسوف يتوجب على الجسم الروحاني أن يقوم بهذه العملية على صعيدين: صعيد الطبيعة ، بالاتحاد معها ، والانسجام معها ، والالتحام بها، وعدم تفجيرها أو اخضاعها ،وصعيد الانسان نفسه ، بالسمو بجسمه المادي الى مستوى الحرية والوعي ، والاتحاد مع الآخرين في نطاق المحبة ، ومع الكون في نطاق الحقيقة •

ندرة اليازجي

* * *

المصـــادر :

١ ـ تيارده شاردان : ظاهرة الانسان (ترجمة الكاتب)

٢ ـ « « : موضع الانسان في الطبيعة (ترجمة الكاتب) •

٣ ـ « « : فاعلية الطاقة •

٤ ـ روبير لنسن : روحانية المادة

٥ ـ روبير لنسن : العلم والروحانية

٦ ـ شارلز دارون : تحدر الأنواع

٧ ـ شارلز دارون : أصل الأنواع

٨ ـ مجموعة من المؤلفين : في البدء كان الوعي •

٩ ـ ندرة اليازجي : دراسات في المثالية الانسانية

١٠ـ ليال واطسون : مد الحياة

١١ـ ت• غودج : صعود الحياة

١٢ـ كريشنامورتي : يقظة الوعي

١٣ـ ش• اوروبندو : تطور الحياة

* * *

عبد الرحمن الكواكبي

فكره وأثره

حافظ الجمالي

يهدف هذا المقال الى التعريف بشخصية المفكر القومي عبد الرحمن الكواكبي ، وعصره ، والثقافة التي تاثر بها ، والأفكار التي صدرت عنه ، وأخيراً الى ايضاح الأثر الذي خلّفه للأجيال التي جاءت من بعده ·

□ شخصية الكواكبي :

يذكر حفيد هذا المفكر، وسميّه أيضاًفي مقدمة الطبعة الجديدة لكتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» ان الجد ولد عام ١٢٧١ هـ أو ١٨٥٤ م ، لأسرة عربية قديمة في حلب(١) ·

وأنه تلقى علومه في المدرسة الكواكبية (التي أنشأتها الأسرة قبله) وعلى أيدي عدد من مشاهير علماء حلب ، دون الاشارة الى أي واحد منهم ·

ثم انه توفي في القاهرة متأثراً بسم دُسّ له في فنجان القهوة عام ١٣٢٠ هـ الموافق لعام ١٩٠٢ م ، وفيها دفن ، ولا نرى في ترجمة الحياة هذه أي تعيين لا ليوم الميلاد ولا لشهره · وكذلك بالنسبة الى الموت ·

والغريب أن الأستاذ الكبير أحمد أمين صاحب فجر الاسلام وضحاه ، وظهره وعصره ، ذكر في كتابه زعماء الاصلاح أنه ولد عام ١٢٦٥ لا عام ١٢٧١ · وهنا تأخذنا الدهشة ، اذ أن «أحمد أمين» مؤرخ كبير لتاريخ الحضارة الاسلامية ، وهو معروف بالدقة وحسن التحقيق فيما يقول · ومن جهة أخرى فان حفيد الرجل أقرب اليه ، وأدعى الى التصديق ، من حيث المبدأ ، فمن نصدق هنا : العالم أم القريب ، لا سيما وأن هذا القريب ليس بالرجل العادي ، بل هو مثقف رصين ، يعرف بالضرورة شروط التأريخ الصحيح لحياة الناس وموتهم · وعلى كل حال ، فان صدور كتاب ، مثل كتاب أحمد أمين بغير تاريخ والاختلاف بين تاريخي الولادة لمن نكتب عنه ، تبعاً لروايتي العالم والقريب ، ليسا بالأمر الغريب في كل ما نسجل من حوادث التاريخ · وربما سنحت لنا فرصة لاستخلاص المعاني الكامنة وراء هذا الاضطراب التاريخي في تعيين يوم الولادة ، ويوم الوفاة ، ويوم تولي الخلافة ، أو يوم وقوع معركة كبيرة حاسمة ، أو ما يشبهها من الأحداث العظيمة · ولئن كنا نعذر الماضي بعض الشيء في مثل هذا الاضطراب ، على الرغم من أننا لا نجد ما يشبهه في تواريخ الأمم القديمة المعاصرة أو الأسبق من تاريخنا الاسلامي وحده ، بألف سنة على الأقل ، فاننا لا نفهم مثل هذا الاضطراب في حوادث قريبة منا جداً ، كتاريخ ولادة الكواكبي ·

□ عصر الكواكبي :

ومن المألوف جداً أن يذكر اليوم ، كما لو كان ذلك أحد اكتشافات العصور الحديثة ، التي لم يعرفها الماضي ، أن أي فكر لأي انسان ، لا بد وأن يكون متصلاً بأحداث العصر وسماته وثقافته

وشروطه الاجتماعية والاقتصادية المختلفة ، التي أحاطت بحياته ، أو عاش هو في خضمها • وعلى الرغم من الحذلقة الكبيرة التي تبدو في هذا الرأي، وما يحاط به من هالات علمية ذات « مهابةوجلال»، فان أصحابه ينسون أن كثيرين غير من يؤلفون له ، أو يؤرخون لحياته ، عاشوا معه ذات الأحداث والظروف ، ولكنهم لم ينتهوا الى مثل الآراء التي انتهى هو اليها • لا بد اذن أن الناس لا يتأثرون بالظروف الواحدة ، تأثراً واحداً ، وأن شخصية كل منهم تراها بمنظارها الخاص ، أو تعكسها بشكل خاص ، ذاتي ، مفرد ، ليس من المحتوم أنه منظار كل الناس • على سبيل المثال ، ان كان هنالك ضرورة لشرح البديهيات ، نذكر أن مفكراً عربياً معروفاً جداً هو أنور عبد الملك ، يذكر في كتاب له ، أنه لا يفهم ما الذي يقصدونه بمفهوم أزمة الفكر العربي الراهن ، ولا في الحكم العربي أيضاً • (أي أنه ليس هنالك من أزمة) ، وأن الأزمة الحقيقية في التدهور الحضاري للغرب حيث يسود ضياع القيم والانتحار وغيرها من مظاهر التأزم الاقتصادي والنفسي ••• أما في بلادنا فليس هناك غير مظاهر تخلف اقتصادية ، فضلا عن أننا نحقق في ميدان التقدم خطوات لا يسبقها في السرعة الا ما حققته الصين الشعبية • وأظن أننا نعيش في نفس الفترة التاريخية التي يعيشها أنور عبد الملك ، ولكننا قلما نتفق معه في الرأي الذي أشرنا اليه • ان التفاعل بين المرء وعصره ، ووجود علاقة مؤكدة بينه وبين ظروف عصره ، مسألة لا جدال فيها ، ولكن أن نحاول جعل هذه العلاقة حتمية ، وأنها تثير في كل العقول ، أفكاراً واحدة ، فهذا غير صحيح • وصحيح أن انساناً يعيش في أيامنا ، لا يخطر في باله أن يفكر بالدرجة الأولى في أيام أرسطو ، ومشكلات زمانه ، لكن الصحيح أيضاً أنه ليس ضرورياً أن يفكرأرسطو في أيام الكواكبي ، بنفس الطريقة التي فكر فيها الكواكبي •

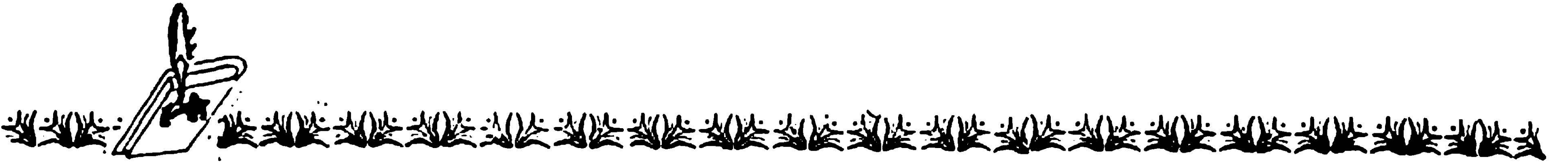
ولكن ماذا كان عصر الكواكبي ؟ لقد ولد الرجل أيام العثمانيين ، ومنذ ولادته حتى موته ، تعاقب على الحكم بعد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) كل من السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١) ، والسلطان عبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦) ثم مراد الخامس لأقل من سنة ، ثم السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) • وفي تلك الأيام ، كان الشيء الهام في حياة الدولة ، هو الحرص على مجابهة الأخطار المحيطة بها ، وتلافي الهزائم التي تمنى بها بدءاً من هزيمة سان جوتار (١٦٦٤ م) ، وخوتين (١٦٧٣) ولمبرج (١٦٧٥) ، ومهاج التي انتهى بها حصار فيينا ، وما ترتب على ذلك كله من خروج المجر من قبضة العثمانيين (١٦٨٦ م) واستيلاء البنادقة والنمسويين على البوسنة والمورة ، وتزايد أطماع الروس في أملاك العثمانيين في أوربا ، وشنهم الحروب ، الواحدة بعد الأخرى ، ضد هؤلاء ، وخروجهم منها دوماً ظافرين ، واستردادهم آزاقوف (أو آزوف) عام ١٧٥٠ م تقريباً ، ثم القرم •

ويعني ذلك أن الدولة العثمانية في الخارج كانت مهددة أكبر التهديد ، تماماً كما هي حال العرب الآن ، وأن الناس كانوا يشعرون بهذا الخطر الذي لا تملك الدولة له رداً ، حتى ولا الأمل بالرد الناجع ، ما لم يتغير الكثير في نظام الدولة ، وأسلوب حياتها •

ولم يكن الداخل بأدعى الى الاطمئنان ، لأن محاولة السلاطين التغيير والتحديث اصطدمت بمقاومة الجيش الانكشاري الذي لم يستطع أحد قبل السلطان محمود الثاني القضاء عليها عام ١٨٢٦ •

الا أن انشاء جيش حديث لم يرد للدولة هيبتها ، وتتابعت الهزائم في كل مكان ، بخروج محمد علي باشا عن الطاعة ، في مصر ، وما يشبه استقلال باي تونس ، وداي الجزائر ، ثم استيلاء الفرنسيين على الجزائر عام ١٨٣٠ ، وعلى تونس سنة ١٨٨١ ، وانتزاع الروس لقارص وباطوم ، والتنازل لانجلترا عن جزيرة قبرص ، عام ١٨٧٨ ، وانفصال اليونان عام ١٨٢٨ ، والأفلاق والبغدان (أي رومانيا الآن) واستقلال الصرب نهائياً عام ١٨٦٧ • وكل ذلك في مناخ عام يؤذن بأن الرجل المريض ميت لا محالة ، وأن ثروته ستوزع قريباً بين الطامعين •

كان ذلك هو الجو التاريخي الذي عاش فيه الكواكبي • أما من الناحية الفكرية ، فقد عاش جواً يقابل هذه الأحداث كلها ، في محاولات الأتراك البحث عن حل لأزمة دولتهم ، ولا سيما مفكريهم



لاقامة دولة عصرية على أسس ديمقراطية ، دستورية ، تنفي الاستبداد ، وتعتمد على الشعب وارادته ، وتصويته ، في سن الشرائع والقوانين . ومن هنا كانت سلسلة الاصلاحات التي قامت بها الدولة لتنظيم الحياة العامة ، في الجيش والنظام العام . وكان الكواكبي لم يولد بعد عندما أصدر السلطان عبد المجيد عام ١٨٣٩ خط كولخانة ، الذي يسوّي فيه بين رعاياه في الحقوق ، ويضمن لهم أو على الأصح يهبهم الأمان على حياتهم وأعراضهم وأموالهم ، دون أن يجد ذلك في الواقع تطبيقاً واقعياً ، كما يحدث عادة في البلاد المتخلفة التي تعلن الدساتير والقوانين والنظم ، ولا تتقيد بها مطلقاً ، أو لا تطبقها الا بمقدار ما يتلاءم ذلك من مصالح الفئات الحاكمة فيها ، وكل ذلك عاشه الكواكبي ، أو سمع به ، أو حُدّث عنه ، أو درسه فيما يؤلف من الكتب ، وتقع عيناه عليه .

ولقد عاش الكواكبي ، شيئاً آخر ، من هذا النوع ، منذ عام ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ ، اثر الحروب التي شنتها روسيا على الدولة العثمانية ، وبروز الصدر الأعظم مدحة باشا ، في الدستور الذي فرضه للحكم ، والتقليص من سلطة السلطان التقليدية ، كما لو أنه يُعبر بذلك عن رغبة عامة لا ترى من حل للأزمة الكبيرة القائمة ، الا في حرية الشعب ، وقيامه هو بواجبات حياته ، وانتهاء ذلك الى الغاء هذا الدستور والقبض على مدحة باشا ، ونفيه الى الجزيرة العربية ، وقتله خنقاً هناك في منفاه . ولا بد أن الكواكبي الذي كان آنئذ في مطلع شبابه، كان يلاحظ هذه الأحداث ، ويستخلص عبرها ، كما يفعل كل ذي عقل سليم . وسنرى أن الأفكار التي دعا اليها ، ونادى بها بعد ذلك لم تكن قط بغريبة عن هذا المناخ الفكري العام الذي يرد كل مصائب البلاد الى ما في نفوس القادة من حب للاستبداد ، وغرام به ، وحرص عليه ، كأنه العشيقة الغالية التي لا يهدأ البال ان لم نكن معها كل الليل وكل النهار .

ومن هنا يتبين أن التفاعل بين الكواكبي ، وبين أحداث عصره، من جهة أولى، وبينه وبين الأفكار السائدة فيه ، بغض النظر عن الأصل الذي تنحدر منه هذه الأفكار ، كان كبيراً ولعل من الصحيح أيضاً القول : انه ما من انسان الا وهو ابن عصره، وبيئته، وأسرته ، والجو المحيط به ، الا أن مستوى الانسان هو الذي يعين درجة الانتساب الى هذا العصر ، وهذه البيئة . وهذان الأخيران ليسا طبقة واحدة متجانسة ، بل طبقات كثيرة ، فيها الأساس التقليدي اليابس ، الجامد ، وفيها الطبقة العليا التي تتحرك فيها الأفكار الجديدة . ومهما يكن الكواكبي عبقرياً ، فانه لا يستطيع الا أن يكون عربياً ، مسلماً ، حريصاً على السمتين معاً ، وبهذا يشترك مع أكثرية أبناء شعبه في التعلق بقيم لصيقة بهم جميعاً ، ولا مجال للانفصال عنها . وسنرى عما قريب أن ثقافة الكواكبي كانت بآن واحد ، تقليدية جداً من جهة أولى ، ومعاصرة كذلك بدرجة بارزة، من خلال تطلعاته الفكرية ، ومطامحه الروحية ، وبحث هذه عما يدعمها في المناخ العام أولا ، ثم في كل ما قد يتوفر من ثقافات خارجية مناسبة في هذا المناخ نفسه . غير أنه لا يفوتنا هنا أن الكثيرين من الذين يرددون مقولة العلاقة الحميمة بين الانسان وعصره ، ينسون بكل سهولة أن يتحدثوا عن العصر أولا ، وعن طابعه أو بصماته ، في الشخصية التي يدور البحث حولها، كما لو أن مجرّد ذكر العلاقة الحميمة يغني عن شرح حديها ، وايضاح طرفيها ... وهكذا فعل أحمد أمين في بحثه عن الكواكبي ، كما فعل الدكتور محمد عاطف العراقي في البحث الذي نشرته له عن هذا الموضوع ، مجلة الفكر العربي(٤) ، كما لو أن المفكر ، أي مفكر ، مطلق من نوع ما ، يفكر تلقائياً ، وينشر أفكاره عشوائياً ، بغض النظر عن الزمان والمكان والعصر والأحداث ، والثقافة الشائعة ، وكل ذلك دون أن ننسى أن هذا المطلق انفعل بعصره ، ولكن دون التنازل الى بحث صورة هذا الانفعال ، وكيف تم .

□ ثقافة الكواكبي :

قلنا فيما سبق ان هنالك ما يشبه الجيولوجيا الثقافية في كل مجتمع . وفي أيامنا هذه ، وفي مجتمعاتنا المتخلفة ، يعود قسم من الطبقات الثقافية الى عهود غابرة ، قديمة ، ولعل بعضها أقدم من الاسلام ، ويعود قسم آخر الى أحد ما وصل اليه العصر من ثقافة متقدمة ، ومن الممكن أن نعثر على أناس لا ينتسبون الى عصرهم ، الا بما هو أبعد ما فيه عن الحياة الثقافية المعاصرة ، وأن نعثر كذلك على فئات لا تنتسب الى عصرها ، الا بما هو



أقرب الى المعاصرة ٠٠٠ وربما كان بين الفئتين من البعد الثقافي ما بين العصور الحجرية ، والعصور الحديثة ، على كون الفئات الحديثة الثقافة لا تجهل الثقافات السابقة لها ، أو المعاصرة زمنياً لها ، على بعدها عنها ٠ أما المنتمون الى الثقافات القديمة فقلما يعرفون شيئاً عن الثقافات الحديثة ٠ وربما قام بين الفئتين شيء من التناكر أو كل التناكر ، وما يتبع ذلك من أنواع الصراع الاجتماعي ٠

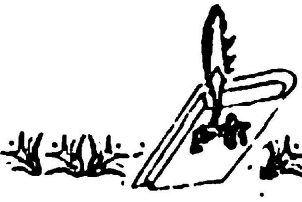
فأين كان الكواكبي من هذا كله ؟

انهم يقولون لنا انه تلقى علومه في المدرسة الكواكبية وعلى أيدي عدد من مشاهير علماء حلب٠ ولكن ماذا كانت تلك المدرسة ، والى أي مستوى تصل بطلابها ؟ اننا لا نعرف عن ذلك شيئاً ٠ ولكن يجب أن نقدّر أنها على الأكثر مدرسة متوسطة تعلّم القرآن الكريم ، واللغة العربية ، وبعض الفقه ، وبعض الأدب العربي ٠ أما مشاهير علماء حلب ، فلا يعني ذلك شيئاً ٠ فلو أنهم مشاهير حقاً ، للمعت أسماؤهم ، ولبقي لنا تراثهم ، أو شيء منه ٠ لكن ذلك لا يعني مطلقاً أنهم لم يكونوا من المثقفين التقليديين المتضلعين من علوم الدين واللغة والحديث والأدب ٠ وبالتالي فان ثقافة الكواكبي في الأصل ثقافة تقليدية ٠ وعلى الرغم من أن أقرباءه لايقولون شيئاً عن معرفة الرجل للتركية والفارسية ، فان أحمد أمين يقول ذلك ، ويبدو أنه صحيح ٠ يمكن القول اذن ان ثقافة الكواكبي كانت تؤهله خير تأهيل ليكون أحد مثقفي القرن الثالث والرابع الهجريين ، حيث كانت معرفة هاتين اللغتين بالاضافة الى العربية وعلومها ، أقصى ما يطمح اليه المثقف الحريص على مركز مرموق في بلده ٠

لكن العصر لم يكن العصر الثالث ولا الرابع ، بل كان القرن التاسع عشر وما فيه من تقدم علمي على جميع الصعد ٠ ولهذا لم يكن بد لعقل يتفتح من الاطلاع على بعض صور التقدم العلمية ، والأساسية فيها بوجه خاص ، كالعلوم الرياضية والطبيعية ٠ وهكذا فعل الكواكبي ، أو نظن أنه فعل ٠ أما دراساته التاريخية الأخرى فلا شك أنها كانت نتيجة لاهتمام خاص بحاضر الأمة ، لعله يفسر بماضيها ، واهتمام مماثل بمستقبلها ، لعله يهتدي بذلك الماضي ٠ غير أننا نجد اسماً أجنبياً يعجب أحمد أمين كيف وصلت آثاره الى مثل الكواكبي ٠ هذا الاسم هو ألفييري فيتوريو A. VITTORIO ، الأديب النبيل الايطالي (١٨٤٩ ـ ١٨٠٣)(٥) والشاعر الرومانطيقي الشديد العنف ، والمفكر السياسي أيضاً الذي تأثر بفولتير وروسو ومونتسكيو ، وكتب ضد واقع عصره بروح هؤلاء ، كما سيفعل الكواكبي بعده ٠ وأغلب الظن أن الكثير من الكتب الفرنسية أو الثقافية في ذلك العهد كانت تترجم اما الى العربية أو الفارسية أو التركية ، وكانت تصل الى الكواكبي بهذه القنوات ٠

لا بد اذن أن الكواكبي كان مطلعاً على شيء من أعمال روسو وفولتير ومونتسكيو بالاضافة الى أعمال ألفييري فيتوريو ، السياسية على الأقل ، ولو أننا نجهل كيف وصلت اليه ٠ ولئن كان هؤلاء المؤلفون ينشدون الحرية ، ويندون بالاستبداد ، فان واحداً منهم ، على الأقل ، وهو مونتسكيو ، حاول جدياً في كتابه روح القوانين الذي عرف شهرة عالمية رائعة ، أن ينظم الدولة على أساس فصل السلطات بعضها عن بعض ، واستقلالها عن بعض بالدرجة الكافية ، حتى لا تطغى عليها غيرها من السلطات ، على ما هو سائد الآن في كل النظم الديمقراطية في العالم ٠ لكن تأثر الكواكبي بهؤلاء لم يصل به الى أكثر من فضح مآسي الاستبداد ، دون الوصول الى نظرية عامة في الحكم ، على مثال مونتسكيو ، على الرغم من أن مدحت باشا ، الصدر الأعظم، كان أحدالمنادين بهذه الديمقراطية، وما توجب من دستور ، وحرية تعبير ، واقامة مجالس نيابية ، كما لو أن هذا كله تحصيل حاصل، يتم بصورة تلقائية متى قام نظام الحرية ، ولعل الرجل قد فطن الى أن القضية في الاصلاح طويلة ، وأنها تحتاج الى نشر التعليم ، واضاءة العقول بالثقافة ، وأن المسألة يجب أن تتم بهدوء وبالنفس الطويل ، فلا مجال اذن للبحث منذ الآن ، في دعائم النظام الذي يقوم على أساس حرية الشعب ٠

غير أن شخصية الكواكبي الذي لا نعرف الآن ما اذا كان طويل القامة ، أم مربوعها ، ولا ما اذا كان نحيفاً أم سميناً ، والذي تدل صورته الباقية لنا ، على أنه كان يعتم بعمامة بيضاء ، ويبقي على لحية ، سوداء ، لا يحفي منها الشاربين ، ويرتدي



دوما جبة تقليدية على عادة رجال الدين يومئذ ، وحتى الآن، لم تكن في الثقافة وحدها، ولا مما يرثه من وجاهة الأسرة ، بل كانت وكأن أبرز سماتها الاباء والشمم ، وقوة الشعور بالكرامة ، والجرأة على منازلة الأعداء ، والخصوم الذين كان منهم والي حلب عارف باشا الذي زور عليه وثائق تدينه بالخيانة ، فنجا من مؤامرته ، وأبو الهدى الصيادي الحلبي الذي كان ينعم بنفوذ كبير لدى السلطان عبد الحميد ، والذي شاء أن يدعم نسبه عند الكواكبي ، بوثيقة تثبت أنه من الأشراف ، فلم يفز بطائل عنده، مما حمله على الانتقام من الأسرة، وحرمانها من نقابة الأشراف ، والاستيلاء عليها لنفسه • وكل ذلك ينهض دليلا على أن الكواكبي لم يكن ممن يستكين للسلطة ، ولا يجاملها في شيء • ولقد أتيح له من المناصب الكثير « فمن محرر لجريدة رسمية ، الى رئيس كتاب المحكمة الشرعية ، الى قاض شرعي في احدى المدن السورية، الى رئيس بلدية لمدينة حلب ، الى صاحب جريدة « هي الشهباء » تعيش مدة قصيرة ، الى اشتغال بالأعمال التجارية ، أو بالمشاريع العمرانية • ومع ذلك فان وظائفه هذه ، وأعماله الحرة المختلفة ، لم تكن بحيث تعطيه هذا الوزن الشخصي الذي كان له لا في سورية وحدها ، بل في الوطن الاسلامي كله ، ولا سيما بعد زياراته لكثير من بلاد المسلمين ، في افريقية الشرقية ، حتى سواحل آسيا الغربية ، اذ لقد غدا شخصية بارزة ، ذات زعامة واضحة ، مستشار في كل مناسبة ، ويفزع اليه الناس من كل صوب لرد مظلمة ، أو دعم طلب مشروع • فكأن الشخصية شيء ، والثقافة شيء آخر • وقد تفيد هذه تلك ، الا أن الشخصية تبقى شيئاً آخر ، مستقلا عن الثقافة • انها روح من نوع خاص ، وطبع موات ، وفضيلة متفردة ، ومهابة يشعر بها الآخرون ويولونها الثقة • انها شخصية زعيم وطني ، تأتلف القلوب حولها بمحبة واحترام ، لأنها تمثل أو تجسد المثل الأعلى الذي يتوق الى تحقيقه الجميع ، بغموض أو بوضوح •

□ فكر الكواكبي :

ان كل ما لدينا من فكر الكواكبي هو كتاباه الوحيدان، «طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد» ثم « أم القرى » • وفي الاثنين صورة واضحة عن رصانة هذا المفكر ، واعتدال آرائه ، على الرغم مما نلاحظه في ثنايا سطوره من لوعة على هذه الأمة ، وأسف حارق على ما هي فيه •

أما كتابه طبائع الاستبداد (وهو مجموعة مقالات نشرت في الصحف أو المجلات ، ثم هذبت بعض الشيء وجمعت في كتاب(٦)) فيعالج فيه آثارالاستبداد في مختلف المستويات على ما يقوله هو نفسه : « وفي زيارتي هذه لمصر ، نشرتفي أشهر جرائدها بعض مقالات سياسية تحت عنوانات الاستبداد ، وتاثيره على الدين ، على العلم ، على التربية ، على الأخلاق ، على المجد ، الى غير ذلك • « ثم وسعت تلك المباحث خصوصاً في الاجتماعيات ، كالتربية والأخلاق ، واضفت اليها طرائق التخلص من الاستبداد ، ونشرته في كتاب سميته طبائع الاستبداد ، ••• وجعلته هدية للناشئة العربية المباركة الأبية ، المعقودة آمال الأمة بيمن نواصيهم ، ولا غرو ، فلا شباب الا بالشباب •

وتبدو الرصانة الفكرية واضحة في قوله : وأنا لا أقصد في مباحثي ظالماً بعينه ، ولا حكومة أو أمة مخصصة ••• انما أردت بيان طبائع الاستبداد وما يفعل ••• ولي هنالك قصد آخر وهو التنبيه لمورد الداء الدفين ، عسى أن يعرف الذين قضوا نحبهم (ترى كيف سيعرفون ؟) أنهم هم المتسببون لما حل بهم ، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار ، انما يعتبون على الجهل وفقد الهمم والتواكل • وعسى الذين فيهم بقية من رمق الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات •

ويقف الانسان عند قوله : وأنا لا أقصد ظالماً بعينه ••• الخ ويتساءل : أهذه رصانة فكرية ، أم هي حذر مشوب بالخوف ؟

اننا نقطع بأن الحذر والخوف هما اللذان يحملانه على مثل هذه العبارة ، كما لو أنه يتخيل يوماً ما ، أن يقف بين أيدي الظلمة المستبدين ، ليسالوه عما اذا كانوا هم مقصودين بما يكتب • وعندئذ سيجد الجواب جاهزاً ، مكتوباً سلفاً : اني لا أقصد في مباحثي ظالماً بعينه ، كانما هو يفكر تفكيراً مجرداً ، بغض النظر عن الزمان أو المكان أو العصر ، أو الحكام ، الذين يعيش هو تحت كنفهم • ومن جهة أخرى فانه يكتب في هذا السياق ، ما يعني أن مشكلة الاستبداد طويلة معقدة ، وأنه ليس



بالامكان حلها دفعة واحدة ، وأن من الخير أن تحل بالتدريج ، شيئاً فشيئاً ، مما يعني أن في وسع مستبدي أيامه (السلطان عبد الحميد وما أدراك ما السلطان عبد الحميد) ، أن يقولوا مطمئنين : ان القضية في زوال الاستبداد مؤجلة ولن يصيبنا مما يكتب هذا الرجل ، ومن أثر ذلك في الرأي العام ، الا القليل القليل ، فيتسامحون لهذا السبب عما يكتبه ··· ومع ذلك فان الكتاب لم يصدر باسمه · بل بقلم الرحالة « ك » امعانا في التقية · لا شك عندي أن الرجل كان خائفاً، وأنه يحسب ألف حساب لما يمكن أن يعانيه من المستبدين(٧) ·

لكن الحذر والخوف هنا لا ينشآن من الظروف وحدها ، اذ هي واحدة بالنسبة اليه والى الأفغاني جمال الدين · الا أن هذا الأخير لا يحسب هذه الحسابات ، ويمضي متفجراً ، مجموعة براكين · وهكذا نرى فكأن الطبع الأصلي هو الذي يرسم للظروف صورتها ، فيكبرها أو يصغرها ، ويحذر منها أو يحتقرها ، ولا شك أن الأفغاني كان هو الأميل الى التصغير والاحتقار ، وكانت الرصانة الأصيلة في نفس الكواكبي هي التي تحمله على ايثار الحذر ، والنظر الى الظروف القاسية ، نظرة تكبرها قليلا أو كثيراً ، أو لأقل : بموضوعية أكبر على الأقل · وعندما نعرف أن الأفغاني والكواكبي كانا يعيشان في مصر ، أي في ظروف متابهة نسبياً من ناحية طبيعة الحكم والحكام ، فانه لا مجال الا للقول : ان المواقف ليست هي التي تتحكم في ردود الأفعال ، بل ان الطباع ، قبل المواقف ، هي التي تحدد هذه الردود ·

وفي هذا الكتاب يطرق المؤلف جملة قضايا تدور كلها حول الاستبداد ، على قلة ميل المؤلفين العرب بوجه عام الى البحث في موضوع واحد من كل جوانبه(٨) · وهكذا تتوالى الأبحاث بعناوين مثل : ما هو الاستبداد ؟ الاستبداد والدين · الاستبداد والأخلاق، الاستبداد والتربية· الاستبداد والترقي · الاستبداد والتخلص منه ·

وقد عرض الكواكبي بتفصيل وشدة ، طوال هذا المؤلف ، للاستبداد بصورة عامة ، وخاصة في صوره الشرقية · وأظهر بصورة جلية نتائج هذا النظام السيئة في جميع الميادين ، كما لو أنه ينقلها من الواقع العثماني مباشرة ، رغم الملاحظة التي يوردها على سبيل التقية، بأنه لا يقصد شخصاً بعينه ولا أمة بعينها ·

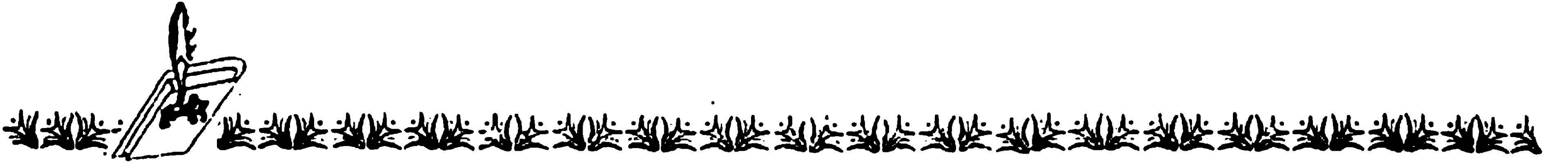
ولا يكتفي الكواكبي بعرض مساوىءالاستبداد ومفاسده فحسب ، فلو أنه فعل ذلك وحده ، اذن لقيل ان عمله سلبي ، ولقلنا نحن ذلك أيضاً ، بل انه يعرض بوضوح نظامه المفضل ، أي الديموقراطية الدستورية (دون أن يصل الى مستوى تحليلات مونتسكيو وبالتالي دون أن نعرف كيف ستكون هذه الديمقراطية الوئيدة الخطى) ويؤيد بأدلة عديدة أن نوع الحكم يطابق روح الاسلام السلفي · ويقوم الكواكبي فضلا عن ذلك بتحليلات نفسية عميقة صحيحة عن المستبد والنبلاء ورجل العامةفي النظام الاستبدادي· وأخيراً فان الاعتبارات الواقعية التي يشير بها الى الطريق الذي يجب السير فيه للتخلص من الاستبداد دليل على بعد نظر ممتاز »(٩) أو على رصانة فكرية حقيقية ·

ونذكر على سبيل المثال كيف يرى أنالحكومات العادلة ضمنت لأفراد شعبها ما وعدت به الأديان أهل السعادة في الجنان · حتى ان كل فرد يعيش كانه خالد بقومه ووطنه ، وكأنه أمين على كل مطلب ، فلا هو يكلف الحكومة شططاً ، ولا هي تحمله استحقاراً :

١ ــ فهو أمين على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الدولة التي لا تغفل عن المحافظة عليه بكل قوتها في حضره وسفره ، بدون أن يشعر بثقل قيامها عليه · فهي تحيط به احاطة الهواء ، لا احاطة السور يلطمه كيفما التفت أو سار ·

٢ ــ أمين على لذاته الجسمية والفكرية ، برعاية الدولة للشؤون العامة ، المتصلة بالرياضات الجسمية والنظرية والعقلية ، حتى يرى أن الطرقات المسهَّلة (المعبَّدة) والتزيينات البلدية ، والمنتزهات ، والمدارس ، والمجامع ، ونحو ذلك ، قد وجدت كلها لأجل لذاته ، ويعتبر مشاركة الناس له فيها لأجل احسانه ، فهو بهذا النظر والاعتبار لا ينقص عن أغنى الناس سعادة ·

٣ ــ أمين على الحرية ، كأنه خلق وحده على سطح هذه الأرض فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل وأمل ·



٤ ـ أمين على النفوذ ، كأنه سلطان عزيز ، فلا ممانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الأمة التي هو منها ٠

٥ ـ أمين على المزية ، كأنه في أمة يتساوى جميع أفرادها منزلة وشرفاً وقوة، فلا يتميّز الواحد عن الآخر الا بالفضيلة ٠

٦ ـ أمين على العدل ، كأنه هو القابض على ميزان الحقوق ، فلا يخاف تطفيفاً ، وهو المثمّن فلا يحذر بخساً ، وهو المطمئن على أنه اذا استحق أن يكون ملكاً صار ملكاً ، واذا جنى جناية نال جزاءه لا محالة ٠

٧ ـ أمين على المال والملك ٠٠٠

٨ ـ أمين على الشرف بضمان القانون ٠

ولا ريب أن هذا التعداد لحقوق المواطن الطبيعية ، لا يعني بالتفصيل الذي كتب فيه ، الا مرارة الحرمان منها ، ولهذا يعلق الكواكبي على كلامه هو نفسه ، فيقول :

« أما الأسير ـ ولا أحزن المطالع بوصف حاله ، فأكتفي بالقول : انه لايملك حتى ولا نفسه ، وغير أمين حتى على عظامه في رمسه ، اذا وقع نظره على المستبد أو أحد من جماعته ، على كثرتهم ، يتعوّذ بالله ٠ واذا مر من قرب احدى دوائر حكومته أسرع وهو يكرّر قوله : «حمايتك يا رب ٠ ان هذه الدار ، هي كالمجزرة ، كل من فيها اما ذابح أو مذبوح ٠ ان هذه الدار كالكنيف لا يدخله الا المضطر ٠ »(١٠)

ولقد أشرنا الى ملاحظة تابيرو حول نقد الكواكبي للاستبداد بصورة عامة ، وبخاصة في صورته الشرقية ٠ ونلاحظ الآن أن للاستبداد صوراً شتى ، ليست كلها في الشر سواء ٠ وأن الاستبداد الشرقي مطلق ، لا نواظم له ، ولا قانون يقف عنده ٠ ولئن استطاع الغرب التقدم حتى في عهود الملكيات المستبدة ، فلا ريب أن الاستبداد الغربي ذاك لم يكن كالاستبداد الشرقي ، ولولا ذلك لما أنتج الا التخلف الذي أنتجه هذا الأخير ٠٠٠ فكأننا نقول : هنالك استبداد يقف عند بعض النواظم الأساسية ، ولو جار منها على الثانوية ٠ وهناك استبداد لا يعرف الاً ولا ذمة ٠ ولم يكن هذا النوع خاصاً بالعثمانيين ، بل انه هو الذي ساد منذ الأزمنة القديمة في كل البلاد الشرقية ، ونترك للقارىء أن يقدّر ما اذا كان قائماً حتى الآن ، في المشرق كله ، وفي كل البلاد التي تشهدنا روائع تخلفها ٠

ولكن ما هي النتيجة التي يريد الكواكبي الوصول اليها ؟ انها ظاهرة منذ الصفحات الأولى ، حيث يقول ، ان أفكار الباحثين في موضوع تخلف الأمة متحدة المدلول ، مختلفة التعبير ٠

فيقول المادي : الداء القوة ، والدواء المقاومة ٠

ويقول السياسي : الداء استعباد البرية ، والدواء استرداد الحرية ٠

ويقول الحكيم : الداء تغلب السلطة على الشريعة ، والدواء تغليب الشريعة على السلطة ٠

ويقول الرباني : الداء مشاركة الله في الجبروت والدواء توحيد الله حقاً (١١) ٠

وقد جاء كتاب « أم القرى » ليبحث في التدابير المؤدية الى القضاء على هذا الداء ٠

□ كتاب أم القرى :

أما الكتاب الثاني (أم القرى) ، فقد أُلف ككتاب جامع ، مباشرة ، ونشر لأول مرة في حلب عام ١٩٠٠ م ولم يمض عامان على ظهوره حتى مات الرجل فجأة في مصر عام ١٩٠٢ ٠ ويقال انه مات مسموماً ٠

وهذا الكتاب لا يعدو أن يكون محضر جلسات مؤتمر اسلامي ، عقد في مكة للتداول في أحوال المسلمين ، وأسباب تخلفهم ، بحضور مؤتمرين لا يمثلون جميع البلاد الاسلامية فحسب ، بل ان بينهم مندوبين عن جاليات اسلامية في مختلف مناطق العالم، كروسيا آنئذ وبريطانيا (أي سكان ليفربول خاصة) ٠ وقد أسندت الرئاسة للعضو المكي (كرمز من المؤلف الى أن الرئاسة يجب أن تكون من الجزيرة العربية ، وأن يكون صاحبها قرشياً ، تماماً كما كان الأمر يوم وفاة النبي (ص)) ٠ اذ لا خلافة الا في قريش ٠ أما أمانة السر فقد أسندت الى السيد (الفراتي) ، وهو الكواكبي نفسه ٠

وأول ما يلاحظه المؤلف في كتابه هذا ، أن مؤتمره هذا قد انعقد فعلا ، الا أن الحقيقة أنه كله من نسج الخيال ٠

والأمر الثاني هو أن القارىء يلاحظ منذ البداية أن القضية التي تشغل بال المؤلف ، هي البحث عن أسباب تخلف المسلمين ، اذ لا بد أن تكون هنالك أسباب نشأ عنها التخلف • وعلى المؤتمر أن يتداول الرأي فيما عساها أن تكون ، لا سيما وأن الكواكبي نفسه يشير في خطاب المقدمة الى أن هذا التخلف يعود الى ألف عام أو أكثر ، نجح الغربيون خلالها بانشاء دول وأنظمة وحضارات ، بلغت من القوة أنها أصبحت المسيطرة في كل أرجاء العالم •

وكان على المؤتمر أن يبحث في قضايا أربع هي :

١ ــ بيان الحالة الحاضرة للعالم الاسلامي ، ووصف أعراضها بوجه عام •

٢ ــ بيان أن سبب الخلل هو الجهل الشامل •

٣ ــ توجيه اللوم الى الأمراء والعلماء •

٤ ــ انذار الأمة بسوء العاقبة •

ومع أن هذا الخطاب يبدو متشائماً جداً من الوضع الحاضر فانه لايرى أن ذلك يدفع الى اليأس، ذلك أن في وسعنا تجاوزه خلال عشرين سنة ، تتمكن فيها الشعوب الاسلامية من تحصيل العلوم الحديثة الضرورية لبناء ركائز المجتمع الجديد • ثم انه لا بد بين عشرين سنة أخرى لتكوين جيل جديد يقوم على مبادىء خلقية متينة •

أما الوسيلة لهذا الانبعاث الجديد فهو الجمعيات ، لأن الأفراد يخفقون ، اذا هم تصدوا فرادى ، لقلب المجتمع ، أما الجمعيات فانها أيسر نجاحاً •

وينتهز المؤلف الفرصة التي أتاحتها هذه الملاحظة ليضع جدولا يتضمن أمهات المسائل التي يجب أن تبحث في الجمعية • وهي عشر :

١ ــ تلمس موضع الداء •

٢ ــ وصف أعراض الداء •

٣ ــ جراثيم الداء •

٤ ــ ما هو الدواء •

٥ ــ ما هي وسائل استعمال الدواء •

٦ ــ ما هي الاسلامية (العقيدة الاسلامية) ؟

٧ ــ كيف يكون التدين بالاسلامية ؟

٨ ــ ما هو الشرك الخفي •

٩ ــ كيف تقاوم البدع •

١٠ــ وضع قانون لتأسيس جمعية تعليمية •

ومن أطرف ملاحظات المؤلف في وصف الوضع الحاضر ، للأمة الاسلامية ، قوله : ان الفتور أو الخمول ملازم للمسلمين في جميع بقاع الأرض ، من أي قوم كانوا وأينما وجدوا، وكيفما كانت أحوالهم الدينية أو السياسية أو المعاشية • فاذا وجدنا اقليمين متجاورين ، أو ناحيتين في اقليم ، أو بيتين في قرية ، أهل أحدهما ، مسلمون ، وأهل الثاني غير مسلمين ، نجد الأولين أقل من غيرهم نشاطاً وانتظاماً في جميع شؤون حياتهم الفردية والعامة ، وأقل اتقاناً من نظرائهم في كل فن وصنعة ، على كون المسلمين ما يزالون يحتفظون بأمهات الفضائل الأخلاقية ، كالأمانة والشجاعة ، والسخاء • فما هو السر في ذلك ؟

ان « الشامي » يرد هذه الحال الى ما شاع بين المسلمين من عقيدة جبرية ، نؤمن بأن كل ما يحدث ، يحدث بقضاء من الله ، ولا راد لهذا القضاء ، وكذلك الى ما شاع بين المسلمين من الزهد في الدنيا، والقناعة باليسير من الرزق •

أما « القدسي » فيجد السبب في تحول الحكم من نظام ديمقراطي اشتراكي ، الى نظام الحكم المطلق • فتفرقت كلمة الأمة ، وطمع بها أعداؤها ، وتعرضت للحروب الداخلية والخارجية معاً •

ويرى « الحكيم التونسي » أن السبب هو جهل معظم الأمراء المسلمين المترفين ، الذين ضلوا السبيل •

ويرى « الرومي » أن البلاء يصدر عن فقدان الحرية ، وانعدام محاسبة الحكام • (السبب هو نظام الحكم) •

ويأتي « الكردي » فيرى السبب في تقصير المسلمين في العلوم المادية • وهي أسس الحضارة والقوة (سبب علمي) •

ويتكلم « الفقيه الأفغاني » فيقول : ان الداء العام هو الفقر ، قائد كل شر ، ورائد كل نحس (سبب اقتصادي) •



أما السعيد الانجليزي ، فيقول ان الغرب لم يتوصل الى ما وصل اليه الا بتدابير خاصة (مثل تخصيص يوم في الأسبوع للعطلة، مما يتيح الاجتماع بين الناس ، وعقد الندوات ، وتخصيص أيام لتخليد العظماء، واعداد ساحات ومنتديات تيسيراً للاجتماع والمذاكرة والتظاهر ، وايجاد منتزهات عامة ، واقامة حفلات رسمية ، ومهرجانات ، بقصد البيع والشراء ، مما يؤدي الى اجتماعات بين مختلف الطبقات ، وانشاء المسارح ، والمحافظة على الآثار القديمة ، ثم اقامة النصب للأبطال ، وتشجيع النشر في الصحف للوقوف على جميع الأحداث ، وتنوير الأذهان ، ثم بث الحماسة في الأغاني) وقد أهمل المسلمون كل هذه ، فتأخرت أحوالهم ٠

ويأتي « العالم النجدي » فيبين أن المسلمين ما تخلفوا الا لأنهم أهملوا تعاليم دينهم دون أن نعرف لماذا أهملوها ٠

ويتتابع النقاش في جلسات متعددة ، يحاول الكواكبي فيها من خلال أحاديث المندوبين المختلفين أن يبرز مختلف ما وقع فيه المسلمون من اختلاف عقائدي ، وتعصب مذهبي ، وعمل بأحكام أئمة وفقهاء تشددوا في أمر العبادات ، وأرهقوا الناس بها ، أو باعدوا بينهم وبين أحكام القرآن الكريم وسنة رسول الله وأتباعه الأقربين ، لينتهي من ذلك كله الى تلخيص الأسباب التي ادت الى انهيار المسلمين ، فاذا بها عداد ثلاثة أنواع :

١ ــ دينية ٠
٢ ــ وسياسية ٠
٣ ــ وأخلاقية ٠

أما الدينية فمنها :

١ ــ تاثير عقيدة الجبر في أفكار الأمة ٠

٢ ــ وتاثير المزهدات في السعي والعمل ٠

٣ ــ وتاثير فتن الجدل في العقائد الدينية ٠

٤ ــ وتشدد الفقهاء المتاخرين في الدين خلافاً للسلف ٠

٥ ــ وادخال بدع ليست من الدين في شيء ٠

٦ ــ وتهوين غلاة الصوفية من شان الدين، وجعلهم اياه لهواً ولعباً ٠

٧ ــ واعتقاد منافاة العلوم الوصفية والعقلية للدين الاسلامي ٠

وأما الأسباب السياسية ، فانها تتجلى في : الاستبداد المطلق في الحكم دون تحمل المسؤولية ، وحرمان نبهاء الأمة من العون والتشجيع ، والتفاوت الاجتماعي ، واعطاء أموال الفقراء للأغنياء ، بدلا من العكس ، وابعاد الأمراء للأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار ، وحصر الاهتمام السياسي بالجباية والجندية وحدهما ٠

وتلخص الأسباب الأخلاقية في : الاستغراق في الجهل والارتياح له ، وانحلال الرابطة الدينية وفقدان التربية الأخلاقية، وفقد القوة المالية بسبب التهاون في الزكاة ، والتباعد عن المصارحة والنقاش في الشؤون العامة ٠

ومع ذلك فان الجدال يتتابع ليوضح تفاصيل بند أو آخر من البنود السابقة ، وليوضح عوامل انحطاط الدولة العثمانية ، فيما نصل آخر الأمر الى اقرار قانون لانشاء جميعة الموحدين التي ستعمل على نشر التعليم ، وتنوير الأذهان ، واصلاح الأخلاق الشخصية والعامة ، والرفع من شأن المرأة ، والسير في النهضة بخطى حثيثة ، ولكن بهدوء وتؤدة ، واقناع الناس بجعل الجزيرةالعربية كمركز للدولة الاسلامية الجديدة ،وايثارعربهاعلى غيرهم ، لبعد بلادهمعن الأطماع الأجنبية ، وتوسطها بين الدول الاسلامية ، وسلامة أخلاق أهلها بالنسبة لغيرهم ، ومعرفة هؤلاء للشريعة الاسلامية بصورة أفضل من بقية البلدان ، ثم لأن العرب أسلم حكمة ، وأحرص على الحرية ، وأعرفهم بنظام الشورى ، وأهداهم الى الحياة الاشتراكية ٠ وبهذا ينتهي كتاب أم القرى، بعد أن تم تأسيس جمعيةالموحدين، ووضع نظامها ، وأوضح أنها جمعية لا تتدخل في الأمور السياسية ٠

□ مناقشة آراء الكواكبي :

لاشكأن الاستبدادالشرقيالآسيوي ، لا الاستبداد جملة ، أي الاستبداد الذي لا يتقيد بأية نواظم وقوانين ، ولا يكترث لأي المقدسات ، ولا يحكم الا بالرغبة الشخصية ، مسؤول الى حد كبير عن حالة التخلف التي وصل اليها العرب ٠ ولم يكن الكواكبي وحيداً في الاشارة الى هذا كله ٠ فقبله وبعده وُجد مستشرقون وفلاسفة ومفكرون غربيون أولا ثم مسلمون عرب أو غير عرب أشاروا الى مفاسد هذا الاستبداد الشرقي ، وآثاره الضارة ، ونتائجه



المدمرة • ونحن واجدون مثل هذه الملاحظات في آثار فرانسوا برنييه (١٦٢٥ ـ ١٦٨٨) الطبيب الذي عاش في بلاط أباطرة المغول في الهند ، وفي أعمال الفيلسوف الألماني هردر ، في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم في أعمال فولتير ومونتسكيو الذي يزعم تابيرو أن الكواكبي تأثر بأفكاره تأثراً شديداً، مما يشير الى أنه كان يعرف الفرنسية : ثم نحن واجدوها بعد هؤلاء في أعمال خير الدين باشا التونسي (١٨١٠ ـ ١٨٧٩) ، أي في كتابه : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، وفي أفكار الثورة العرابية ، وفي مجموعة زعماء ومفكرين عرب آخرين ، ظلوا يتتابعون جيلا بعد جيل ، ولا يزالون يتتابعون •

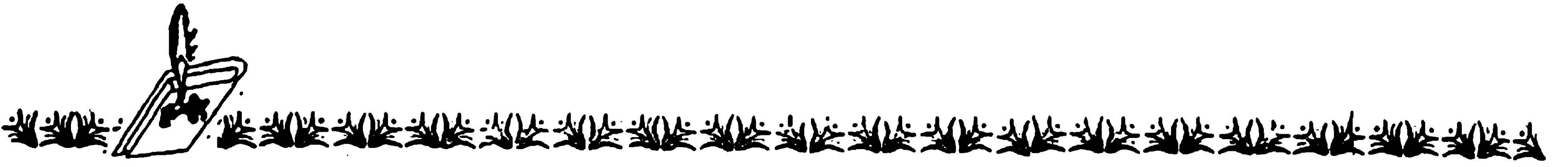
ولكن المشكلة هنا هي أنه بيَّن آثار الاستبداد المدمرة في شتى النواحي ، واعتبره عدواً للعلم والثقافة • الا أن كثيراً مما يُعزى الى الاستبداد قد زال الآن • ذلك أن الناس يتعلمون بكثرة ، والوعي يكبر ، والعقول تستنير ، حتى على يد الاستبداد ، كما لو أن العلم والاستبداد قد تصالحا• وكذلك فان تشويهات الدين ، وبدعه ، وخرافاته، قد زالت في أكثرها ، بتأثير الثقافة والعلم ، ومع ذلك فان الاستبداد ما يزال باقياً ، ولو أنه الآن يستمد شرعيته من أفكار ثورية،ومبادىءعقائدية• ولقد كان أمام العرب والمتخلفين جملة ايديولوجيات، يستطيعون الاختيار بينها ••• ومن الغريب أن الله لم يهدهم الا لتلك الايديولوجيات التي تفتح لهم باب الاستبداد على مصراعيه ، وتغرق شعوبهم فيه، وتجعله صورة من صور التقدمية • ونصبح فاذا المطالبة بالحرية هي الرجعية بعينها •

ثم ان أرزاق الناس أصبحت أوفر من ذي قبل ، ولم يعد هنالك الا القليل من آثار الجبرية ، والزهد في المال ، والانقطاع الى التصوف ••• ولكن الارتقاء لم يتم ، وما زلنا نغرق في تخلف يتزايد بتزايد الأيام ••• ان هذا لا يعني أن الاستبداد أنزل عن عرشه ، فما زالت آثاره المدمرة هي هي ، ولكن بعض النتائج التي ظن الكواكبي أنها ناشئة عنه ، أو ملازمة له ، أو تعينه على البقاء والاستمرار ، ليست كما ظن أو حسب ، بل انها تستطيع مفارقته ، والزوال نهائياً ، مع بقاء الاستبداد حيث كان • ذلك أنه يكفي أن يوظف بعض المثقفين لخدمته ، والسير في ركابه ، ليستغني هؤلاء عن ضمائرهم ، وليستغني هو عن خدمات المخلصين ، والأنقياء ، والأوفياء لأمتهم •

ولكن الأهم من ذلك أن الاستبداد الغربي ، أيام الملكيات المطلقة، والصور الأخرى من الاستبداد الشرقي في ظل الحكومات العقائدية ، كل هذا لم يحل دون التقدم ، على كونه تعرقله بعض الشيء • لا بد اذن ان الاستبداد بذاته لا يؤثر كل هذا التأثير البالغ الخطورة ، لولا أنه يفارق العقل والمنطق ، ويؤثر الرغبات الفردية عليها ، ويعمل بوحي من النزوات ، والمطامع ، والمصالح الشخصية ، ومن هنا تنشأ خطورة الاستبداد ، وقوته التدميرية• ولكم سمعنا عن خلفائنا وحكامنا أن الأمور اضطربت في عهودهم ، وضاعت هيبة الدولة ، وعدا عليها الأعداء من كل جانب ، لأنهم انغمسوا في لذاتهم ، ونسوا المصلحة العامة ، والعمل لدعم الكيان القومي • لم تكن الجريمة اذن جريمة الاستبداد بالذات ، بقدر ما هي جريمة المفارقة للعقل ، والتنكب للحكمة • وما من نظام في الدنيا ، ديمقراطي ، أو غير ديمقراطي يفارق الحكمة ، الا ويؤول بالأمة الى أسوأ المصائر • ان كل المشكلة في الاستبداد أنه ييسر للحكام أمر الاستغناء عن العقل والمنطق ، أكثر من الأنظمة الأخرى، ومن هنا كان وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، غريباً عن هذا النظام ، الشرقي السمات • وكل هذا كان غير واضح في كتاب طبائع الاستبداد •

ولكن هل يعني ذلك أن الحكم الديمقراطي هو الأسلم ؟ اننا نذكر هنا كلمة تشرشل التي يرى معها أن لهذا الحكم ألف علة وعلة ، على كونه أقل عللا من الاستبداد ، أو أقل هو دونه سوءاً • وبالتالي فان القضية ليست الاختيار بين خير مطلق هو النظام الدستوري ، وشر مطلق هو النظام السلطوي ، بل هي الاختيار بين نظامين ، في كل منهما بعض الجوانب السلبية ، ولكنها في واحد أكثر منها في الثاني •

ويعجبنا من الكواكبي ملاحظته أن التخلف الاسلامي يدوم منذ ألف سنة وأكثر • ولقد مضى على كلامه على الاستبداد مئة سنة تقريباً• وبالتالي فانه يمكن القول انه يدوم منذ ألف سنة وازدادت مئة أخرى في أيامنا هذه • ولما كانت الدول الاسلامية مختلفة في المناخ ، والقرب من البحر أو البعد عنه ، وفي عدد السكان ، وفي اتساع المساحة ، وفي غزارة



المياه والأمطار ، دون أن يكون لهذا كله أثر واضح في درجة تقدمها أو تخلفها ، فان من المعقول جداً أن نستنتج من ذلك أن حكم الاستبداد هو العنصر الوحيد المشترك بينهما ، وبالتالي فانه العنصر الوحيد الذي رافق التخلف ووازاه على طول الخط دون العوامل الأخرى . أفيمكن اذن أن لايلاحظ القادة هذا التوازي التاريخي والمعاصر ، وأن لا يستخلصوا من ذلك نتائجه الطبيعية والمنطقية ؟ أماوان الواقعيبقى حيثهو من التخلف ،والاستبداد يستمر على ما كان ، فلا ريب اذن أن من يعنيهم الأمر لا تهمهم سلامة بلادهم ، ولا تقدمها ، ان لم نقل أنهمهم هو العكس بالتأكيد . وحقاً فانالحكم الشرقي هو حكم النزوة ، والرغبة العارضة ، والمصالح الذاتية ، وفقدان النواظم ، وانعدام القانون ، وجعل القوة وحدها هي الشريعة . واذا قلنا الحكم الشرقي ، فقلما يتبادر الى الذهن أنه ليس هو الحكم الذي يسود البلاد العربية والاسلامية وحدها تقريباً دون غيرها .

وآخر ملاحظة نقولها هي التساؤل عن كلام الكواكبي ، وعما اذا كان ابن عصره وحده ، أو انه يمكن الاعتراف بصحته حتى بالنسبة الى ما قبل عصره وبعده . الحقيقة أنه يمكن الاطمئنان الى أن ما قاله الكواكبي عام ١٩٠٠ تقريباً ، كان يمكن أن يقال في أي عام أردنا قبل تاريخه ، ويظل صحيحاً ، ومن المؤسف أننا بحاجة اليه حتى الآن ، ولا ندري الى أي مدى زمني آخر ، ونظل نراه هو الكلام المطلوب . وهذا ما يرد لفكر الكواكبي آنيته ومعاصرته وحداثته ، كأنه آية كل العصور السابقة واللاحقة .

أما ما نقول حول كتاب أم القرى ، فيمكن أن نوجزه فيما يلي :

ان البحث عن أسباب التخلف ، كان دقيقاً فعلا وشاملا حقاً . كان الكواكبي مذعوراً من التخلف ، فهو يبحث عنه في كل مظانه ، حتى لا يخطئه في أي مجال قد يوجد فيه . اذ لقد تحدث بلسان المندوبين المختلفين عن كل الآراء الواردة في هذا الصدد ، والتي يمكن أن تخطر على البال . لكن المشكلة هنا هي في العلاج الذي يقترحه : وهو انشاء جمعية الموحدين التي تقبل بسهولة أن ترتفع فوق الفروق المذهبية ، وتعمل بروح اسلامية واحدة ، متسامية بها ، متعالية ، فلا يجد أفرادها شيئاً يفرق بينهم ، وينشطون لنشر المعرفة والثقافة ، وتربية الأخلاق الدينية السليمة ، حتى تنشأ أمة واحدة موحدة ، يرى الكواكبي أنه يكفيها عشرون سنة لكي تتقدم علمياً ، وعشرون أخرى لكي ترى على أفضل صورة دينية وعندئذ سوف تكون أمة لا تبارى . والذي حدث فعلا أن الجمعية لم تنشأ ، وأن جمعيات كثيرة أخرى ، وجدت ، وقامت الى جانبها أحزاب متنوعة الأهداف ، ولكنها جميعاً تريد خير الأمة العربية أو الاسلامية . ولم تكن غاية هذه كلها نشر الثقافة وحدها ، وكذلك لم تكن تخشى العمل في السياسة ، خلافاً لجمعية الكواكبي . ومع ذلك فان كل هذه الجهود المبذولة لم تسفر الا عن بقاء أمتنا حيث هي من التخلف ، أو عن ازدياد تخلفها . ولا شك أن مشكلة كبرى كالتخلف العربي، تعالج بانشاء جمعية لنشر الثقافة فقط ، لا يمكن أن تكون حقاً مشكلة. واذا كانت كذلك ، فان العلاج اذن ساذج جداً ، لا لأنه غير حكيم ، ولكن لأنه لا يكفي مطلقاً . ولعل الكواكبي قد اذهل عن أن بامكان الدولة أن تستولي هي وحدها على نشر العلم والمعرفة .

ولئن كان لنا أن نزيد بعض الملاحظات هنا حول شخصية الكواكبي ، فهي أولا ، أنه كان تقدمياً حقاً ، وعربياً حقاً ، بالرغم مما يقال عن أن أباه كردي ، وأمه فارسية . أما أنه تقدمي فلأنه آمن بالاشتراكية ، ولو أن من السذاجة الاعتقاد بأن الذكاة الاسلامية تكفي لتأمينها ، ولأنه نادى بحقوق المرأة كأفضل من نادى بها ، وأنه يعمل ، في الدين ، بوحي القائل : رب يسر ولا تعسر ، ولأنه صفى هذا الدين من كل الشوائب التي تراكمت فيه بعد العصر الذهبي للعقيدة ، وأنه رأى خطر تعدد المذاهب ، (وهذه فكرة أشاعها الأفغاني ومحمد عبده) وأنه لم يقبل بقول من يقول : ان الأمة فقدت عزتها ، وتقدمها ، لأنها انحرفت عن دينها ، ويجيب قائلا : اذن يجب أن نتساءل لِمَ انحرفت ذلك الانحراف ؟ وأنه يؤمن بكرامة الانسان وقيمة الانسان ، وأولوية هذه القيمة ، ضد السلطة والسلطان على ما كان شائعاً في عصره ، وهذا هو جوهر التقدمية ، وأولها وآخرها ، وألفها وياؤها ، فيما نظن . أما عروبته الأصيلة فلقد صح فيها قول من يقول : ليست العروبة بعرق ولا بنسب ، فمن تكلم العربية فهو عربي . اذ أنه حرص على رد الخلافة الى العرب ، والى قريش نفسها . ولو

أنني لا أعرف ما اذا كان قد بقي شيء من قريش أو آثارها في أيامه ٠

ومع ذلك فان الرجل الذي تعالى على عصره ، كان مع ذلك ابنه في قضايا كثيرة هي من المعتقدات الشائعة ، بين العرب المسلمين ، والمسلم بها عندهم٠ ولئن كان هذا هو منطق المسلمين فيما بينهم ، فمن السذاجة أن نؤكده كحقيقة بالنسبة الى معتنقي الأديان الأخرى ، ونظن أن من الصعب أسلمة اليهود أو النصارى ، حتى ولو أخذنا بنظـام التبشـير ، وكالقول بأن القرآن الكـريم يشتمل ضمنيـاً أو صراحة على كل الاكتشافات العلمية الحديثة ، مما يعني أن أحداً من المسلمين لم يفهمه ، وأن الذيـن فهموه ، هم العلماء والمكتشفـون الغربيون غـير المسلمين ٠ وفي هذه الحال لا نهنىء المسلمين على هذا التخلف في الفهم ٠ وسذاجة أخـيرة نكتفي بهـا في مقالنا هذا ، هي اعتقاده بأن الذكاة وحدها تكفـي لاشاعة الاشتراكية ٠ ولا نعلق على ذلك الا بالقول: ما أيسر الاشتراكية اذن ، لو كانت الذكاة الشرعية وحدها ، كافية لاشاعتها ٠

لكن ما هو أثر الكواكبي في الأجيال اللاحقة ؟ انه كغيره من المفكرين العرب ، بدا صوته داوياً في أيامه ، ثم تضاءل وتضاءل حتى لنشك أنه يوجد بين الأجيال الفتية اليوم من يعرف حتى اسمه ، أو شيئاً من فكره ٠ وأكثر من ذلك أن شيئاً من أفكـاره لم تنقلب الى واقع ، ولم يتجسد فيه ، على نحو مـا تجسدت أفكار روسو وفولتير ومونتسكيو في العقلية الغربية كلها ، لا في فرنسا وحدها ٠ الا أنه ليس وحيداً في هذا المصير ، فخير الدين باشا التونسي ، ومدحة باشا التركي ، وأحمد خان الهندي ، وجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده المصري ، ورشيد رضا السوري ، وقسطنطين زريق اللبناني ، ومجموعـة المفكرين الكبار الذين عاشوا من قبل أو يعيشون اليوم ، ينتمون الى نفس المصير من المرور سريعا على المسرح ، دون أن يبقى منهم أثر ٠ وحقاً فـان المأساة العربية والاسلامية معا ، هي في هذا قبل كل شيء ٠ فنحن نقتل مفكرينا ، ونرمي بهم الى هاوية النسيان على الأقل ، ان لم نكل لهم العذاب ألواناً ٠

* * *

□ المصـــادر :

١ ـ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، ص : ٩ ٠

وهو من منشورات رياض كيالي ، ومطبوع في دار القرآن الكريم بيروت ، عام ١٩٧٣ ٠

٢ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت لبنان ، دون ذكر لسنة الطبع ٠

٣ ـ الفكر العربي في معركة النهضة ، نشر دار الآداب بيروت ١٩٧٤ ٠ص : ١٩٧ ٠

٤ ـ الفكر العربي ٠ العدد ٢٢ ٠ تشرين الأول عام ١٩٨١ ، ص :٤٧٣ فما بعدها ٠

٥ ـ الفيري فيتوريو : شاعر ومسرحي ايطالي ولد في ١٦ كانون ٢ ١٧٩٠ ومات في ٨ تشرين الأول عـام ١٨٠٣ (لاحظ الدقة في تعيين التاريخين على الرغم من ان هذا الرجل ولد قبل الكواكبي بنحو قرن كامل ٠ ومن الممكن ان نجد هذه الدقة في التاريخ لحياة أفذاذ كثيرين جدا من عصور قديمة) ٠ وله اكثر من ١٧ مسرحية ،فضلا عن كتبه السياسية التي منها كتابه ، عن الاستبداد ٠

٦ ـ في المصدر نفسه ، طبعة دار القرآن الكريم ، بيروت ٠ ص ، ٦ ٠

٧ ـ لنلاحظ المجاملة التي تصبغ كلامه عندما يتحدث عن مصر في عهد عزيزها حضرة سمي عم النبي (العباس الثاني) ناشر لواء الأمن على اكناف ملكه ٠ (في المقدمة نفسها) ٠

٨ ـ انظر : نوربير تابيرو ٠ الكواكبي ـ المفكر الثائر ترجمة : علي سلامة ٠ نشر دار الآداب عام ١٩٦٨ بيروت ٠

٩ ـ نفس المصدر ٠ ص : ٦٤ ٠

١٠ـ طبائع الاستبداد ٠ ص : ١٣٧ ٠

١١ـ طبائع الاستبداد ٠ المقدمة ٠

رأي في صخرة الجولان

محمد حيدر

إذا كان المرء يتوخى النزاهة ، فان الكتابة عن صديق تشكل نوعاً من الاحراج : فاما أن يميل الى الهوى ويبتعد عن الحقيقة ، أو يتشدد في التماس النزاهة فيقع في الجور — لأن التمسك المطلق بالعدالة ، كما تقول الفلسفة ، يؤدي الى الظلم . ولكنني سأحاول ، ضمن حدود الطبيعة الانسانية ، التزام الحقيقة . أعني: ما أرى أنه حقيقة .

وأول خطوة في هذا الطريق ، أنني عزلت نفسي عن فئة لست منها . ومن هنا فقد أسميت هذا المقال **بالرأي** : فأنا لست ناقداً ، **ولا أفهم النقد** ، ولا أؤمن بجدوى هذا الفن (أو العلم) الذي يسمونه النقد — ورحم الله سعيد تقي الدين حيث يقول : « النقد ، فن زائف ومهنة طفيلية » . وأضيف الى سعيد فاقول : **النقد ، مهنة قليلة الجدوى ، كثيرة الكلام .**

والنقد الذي كان يقصده سعيد ، هو النقد الجاد المنزه عن الأغراض الشخصية . على الرغم من هذا ، فقد قال فيه ما قال — فكيف به ، يرحمه الله ، لو رأى النقد العربي اليوم ، وقد تحول الى تجمعات عشائرية ، وسياسية ، ونفعية ، ليس فيها من النزاهة الا الظل ؟

* * *

□ لا أفهم النقد ...

ولئلا يقع التباس ، فيظن أحد أنني أفخر بجهلي .. أو أتجاهل لأغمز بالنقد ، فاني أرى من الضروري تثبيت الحقيقة التالية : العاقل يفخر بعلمه وليس بجهله — واذن ، فأنا لا أتجاهل ولا أفخر بهذا الجهل ، وانما أعنيه بكل دقة ودون التواء : فهناك اصطلاحات كثيرة يستعملونها في الدراسات النقدية وفي كتب النقد ، مثل : الفن للفن ، الالتزام ، الرومانسية ، الكلاسيكية ، البطل الايجابي ... السلبي ، الشخصية المدورة ... المسطحة ، الواقعية الاشتراكية ... — وبكل وضوح أقول : حتى الآن لم أفهم معاني هذه هذه الاصطلاحات ، ولا الفرق بينها ، ولا متى تكون رواية ما .. من الفصيلة الواقعية أو من فصيلة الفن للفن .

واذا أردت لكلامي هذا أن يخلو نهائياً من المبالغة والكذب، فانني أقول : الفن للفن — الالتزام — الرومانسية — الكلاسيكية — هي الاصطلاحات الوحيدة التي « كنت أظن » أنني على معرفة يسيرة بها . ولكنني ، وعبر كل الروايات التي قرأتها ، لم أتمكن من الامساك بعنصر يأذن لي في القول ، بأن هذه الرواية رومانسية ... وأن تلك ملتزمة ومن هنا ، فقد خرجت بالنتيجة التالية :

١ — معلوماتي عن هذه المصطلحات كانت خاطئة .. وأنا لم أفهمها أصلا .



٢ ـ **المصطلحات النقدية كلها ، تعاني اضطرابا منطقيا من جهة التعريف •**

٣ ـ **النقاد ، يطلقون النعوت على الانتاج الأدبي دون تحديد •**

وفي كتاب ممتاز جداً عن النقد ، للاستاذ خلدون الشمعة ، يقول ان « داميان غرانت أحصى ٢٥ مصطلحاً للواقعية » ••• وكل مصطلح في النقد يتضمن أكثر من معنى •

ولأنني أقرأ بعقلي الفردي ، الحر ، وليس من خلال النظريات والمناهج والمصطلحات ، فقد دعوت هذا المقال بالرأي •

ولكن ما هو الفرق بين الرأي والنقد ؟

النقاد ، يضعون الانتاج الأدبي على سرير بروكيست ، وهم يحملون سيفاً من الأحكام الجاهزة والنظريات • أما أنا ••• فانظر في كائن حي اسمه رواية ، قصة •• ومن ثم أقول ما يجذبني في هذا الكائن ، أو يحيرني ، أو ينفرني منه ـ واذن :**الرأي اجتهاد** •• وجهة نظر ، محادثة شخصية بين قارىء وقارىء ، تأمل في الجزئي ـ أما **النقد ، فهو قانون •**

والمرض الذي يعانيه النقد ، ليس في تباين النظريات والمناهج ، وانما :

١ ـ **في الانحياز المسبق •**

٢ ـ **في المكافآت وصكوك الحرمان التي يفرضها النقاد على الأثر الأدبي •**

٣ ـ **في طابع الجزم الذي يسبغه النقاد على أحكامهم ، وهو أسوأ الأمراض •**

وأختم هذا الكلام بشاهدين :

الأول ، من كتاب « واقعية بلا ضفاف »تأليف روجيه جارودي :

« تساءل بيكاسو اثر اطلاعه على كتاب يتناول سيرته : هل أنا من سكان المريخ ؟ ثم أسدى للمؤلف النصيحة التالية : يجب أن تضيف فصلا تقول فيه ان بابلو بيكاسو له ساعدان وساقان ورأس وأنف وقلب ، وكل مظاهر الكائن البشري » لقد كان بيكاسو عبقرياً عظيماً فلم يستسغ هذه الترهات النقدية ، وأفهم المؤلف بقسوة لطيفة، بأن الكتاب ليس عنه •

الثاني ، عن لورانس داريل ـ

بعد صدور روايته المعروفة باسم الرباعية الاسكندرانية ، تناولها كبار النقاد وأساتذة الأدب في الجامعات • وكان من الطبيعي أن تتباين فيها الآراء • ولكن هذا التباين وصل الى درجة تدفع القارىء الى التساؤل عن جدوى وشرعية هذا النقد ـ اذ قال أحد النقاد بأن الرباعية عمل عادي، بينما قال آخر : « ان ظهور الرباعية يجعلنا نطمئن الى أن جيل العباقرة لم ينقطع بعد » •

وهذا هو « النقد » الذي يملأ الكتب والصحف والمجلات ـ

★ ★ ★

وصخرة الجولان هذه ، رواية للأستاذ علي عقلة عرسان ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب لعام ١٩٨٢ ـ وتقع في ١٧٠ صفحة •

وقد ارتبط الجولان في ذهن المواطن العربي، بكونه ساحة المواجهة المباشرة مع العدو الاسرائيلي• ومن هنا ، فان العنوان يوحي لنا وعلى الفور ،بأن الرواية تعالج موضوعاً قومياً • ولا تلبث الرواية أن تقوم بتوكيد هذا الايحاء ـ ولكن اذا كان الجولان بكامله ساحة للمعركة ، **فلماذا أفرد المؤلف « صخرة » منه ؟**

هذا الافراد يؤدي دوراً نفسياً مهماً •• اذ يصبح العنوان أدعى الى التساؤل وأشد جذباً للاهتمام ـ وأول ما قرأته تساءلت : ماذا في هذه الصخرة ؟

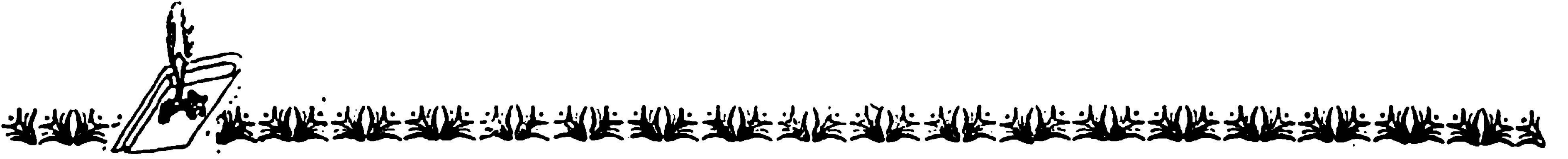
وأمامي الآن ثلاث مقالات عن الرواية ، وكلها بعنوان واحد : صخرة الجولان •

الأول ، للأستاذ عدنان بن ذريل ـ صحيفة البعث ١٩٨٢/٥/٣٠

الثاني ، للأستاذ سمر روحي الفيصل ـ صحيفة البعث ١٩٨٢/١٠/٦

الثالث ، للأستاذ محمود منقذ الهاشمي ـ مجلة الموقف الأدبي العدد ١٤٠ •

وقد تناول كل منهم ، على تباين في الاجتهاد ، العنوان بالتفسير :



يقول ابن ذريل : « يمكن أخذه على الحقيقة، فيقصد حجرة من حجارة الجولان والتي طالما أنس لها هذا البطل وتغنى بها • كما يمكن أيضاً أخذه على المجاز ، واعتبار عزيمة هذا الجندي الشريف على الصمود كصخرة جولانية صلابة وشدةبأس » •

هذا التفسير للعنوان ، طبيعي جداً وسليم ـ

ويقول سمر الفيصل في حديثه عن الجانب الوطني في شخصية بطل الرواية محمد المسعود : « الرواية تؤكد حبه لوطنه ، وتتركه يشخص الصخرة ليناجيها وتناجيه ، حتى تصبح الصخرة عند القارىء وطناً يحتاج الى حماية ، وأسرة تحتاج الى مدافع عنها ، وأناساً لا يخلدون الى النوم ولا يعرفون للسعادة طعماً ما لم يكن هناك رجال يدفعون عنهم العدو » •

ويقول أيضاً : « فقد ناجى محمد المسعود الصخرة وشخّصها بدافع داخلي صرف » •

من الملاحظ أن السيد سمر قد توسع في المعنى أكثر من ابن ذريل ، فأعطاه صبغة اجتماعية كلية، بحيث يصبح الجزء بديلا عن الكل : فالدفاع عن الجولان بصخرته ، هو دفاع عن سورية ، ودفاع عن الوطن العربي بالوقت ذاته •

هذا الفهم ، لطيف جداً ومنطقي ، ويوافق الشعور الطبيعي عند الناس •

وأنا أرتاح كثيراً لهذين الرأيين عند سمر وابن ذريل ، ولا أخرج عليهما في شيء • ولكنني أفضل الاكتفاء بما يلي : العنوان مأخوذ بكل بساطة من اسم مكان المواجهة مع العدو • فكما نقول : ذي قار ، حطين •• كذلك نقول :الجولان ـ أما اضافة « الصخرة » فكانت لاثارة الاهتمام• ولم أجد في العنوان ما يغريني بتأويل آخر •

أما الأستاذ الهاشمي ، فيقول : « ولعل المفهوم المفتاحي للكشف عن عالم هذه الرواية ، هو رمز الصخرة ـ ان صخرة الجولان الواقعة على سفح الجبل ، هي رمز الأم • فالصخرة هي الأرض ، والأرض هي دائماً الرمز العالمي للأم » •

وفي مقطع آخر يقول : « وبفهمنا لذلك نستطيع أن نفسر معنى الرواية وشخصياتهاوطبيعة المجتمع الذي تصوره • الا أن علينا أن ننبه الى أن الأم هنا ليست أماً معينة لشخص معين وان تشابهتا• وصورة الأم المتناقضة ، كما سنرى ، هي صورة للتناقض الاجتماعي الذي شكلها • فالمبدأ الأمومي هو مبدأ الحب غير المشروط ، والمساواة الطبيعية، والتأكيد على روابط الدم والأرض ، والحنان والرحمة • والمبدأ الأبوي هو مبدأ الحب المشروط، والبنية الهرمية ، والفكر المجرد ، والقوانين والدولة البشرية الصنع »

ويأخذ السيد الهاشمي على ابن ذريل عدم انتباهه الى رمز الصخرة ، فيقول : « ورغم ذلك فان ناقداً كعدنان بن ذريل قد فاته هذاالأمرتماماً»

وأنا ، بالنيابة عن ابن ذريل ، أجيب : لقد رأى الصخرة على صورتها الطبيعية ••• مجرد صخرة •• ولم يجد فيها أي رمز ـ فكيف تريده أن يقول بما لا يراه ؟

ويتوسع الهاشمي في الشرح عن الارتباط الصميمي السري بين محمد المسعود والأرض ، ويستند الى شواهد من مناجاة المسعود للصخرة ـ وحول هذه المناجاة :

١ ـ أستعير الجملة الذكية التي قالها السيدسمر: « فقد ناجى محمد المسعود الصخرة وشخصها بدافع داخلي صرف » •

٢ ـ عندما أرى شخصاً يناجي بيتاً أو شجرة أو صخرة ، فاني أنظر بارتياب اليه : مناجاة الصخرة ، كانت نوعاً من العجز عن مواجهة العالم الخارجي ، وتعبيراً عن هزيمته وعدم قدرته على تبديل وضعه الاجتماعي •

هذه المناجاة ، فيها شيء من النكوص الى مرحلة الطفولة ، حيث يناجي الأطفال الجماد والنبات والحيوان ••• وهكذا رأيت شخصية المسعود خلال المناجاة ـ ومن الجدير بالذكر أن جزءاً من تفكير المسعود ، كان أحلام يقظة •

دراسة الأستاذ الهاشمي ـ دراسة رصينة ، تكشف بوضوح عن ثقافته الواسعة وفهمه للنظريات والاصطلاحات التي يستند اليها • ولكن التصدع فيها ، أنه تحدث بالنظريات أكثر مما تحدث عن الرواية • ولا أرتكب شططاً حين أقول : لقد رأى في الرواية ما ليس فيها ، وحملها فوق ما تستطيع،

حاشـــية :

الأستاذ الهاشمي ، له كتاب بعنوان : **الرؤية النقدية** ــ منشورات اتحـاد الكتاب العرب لعـام ١٩٨٠ ــ ويقع في ١٥٩ صفحة ·

وهذا الكتاب ، شاهد لا يقبل الطعن ، على ما يملكه الأستـاذ الهاشمي مـن معرفة واسعـة وعميقة ، ودليل على ما يتمتع به من ذكاء وقدرة على الاستنتاج ·

ومن هنا ، فقد سألت نفسي : أيكون الأستاذ الهاشمي ، وبهذا العقل الناضج المتقد ، قد أخطأ في فهم الرواية ؟

والجواب : لا ···

ولكن أصحاب العقول ، يجذبهم اغراء النظريات وما فيها من تماسك وشمول ··· فيميلوا الى الأخذ بها وتعميمها على الواقع ، دون أن يكون في هذا الواقع ما يسمح بالتعميم ·

وعلى الأرجح ، فان الأستاذ الهاشمي مال الى هذا الطريق ــ

وسيكون لي لقاء قصير مع الهاشمي ، حـين يصل الكلام الى أحمد الحسن ــ

اشـــارة :

مـن الكتب النقدية ، قرأت كتاب الهاشمـي الآنف الذكر ، وكتاب الأستاذ **خلدون الشمعة** وهو بعنوان : **النقد والحرية** ــ منشورات اتحاد الكتاب العرب ــ وفضـل الكتابين عليّ (بالاضافـة الى المعرفة) انهما أثارا في نفسي دافعاً قوياً ، للبدء بقراءة منظمة للدراسات النقدية ·

* * *

☐ ملخص الرواية :

محمد المسعود ــ عريف مجند مـن حوران · فقير جداً ·· لا أرض لـه ولا أملاك ولا مصدر للرزق سوى العمل الجسدي · وقد ورث هذا الفقر عن أبويه ، ولم يستطع بدوره أن يتخلص منه ــ بحث طويلا في قريته عن عمل ، وبحث أيضاً في قرى أخرى ، وطرق أبواب المسؤولين ·· ولكنه أخفق ــ وعندما تزوج ، زاد فقره ·· فقد دفع كل ما يملكه واستدان ·

بعد الزواج مباشرة ، يسافر الى الكويت للعمل ، ليطعم زوجته خبزاً ولتسديد الديون ــ زوجتـه اسمها زينب · له ثلاثة أولاد : زيد ، أحمـد ، فاطمة · لم يحضر ولادة أبنائه · كان يحضر من الكويت بعد الولادة ، فيقضي شهراً الى جانب زوجته ·· ثم يعود ·

يُستدعى الى الخدمة الاحتياطية ويذهب الى ساحة القتال في الجولان ــ يصاب في احدى المعارك بجروح / نزار الشاوي ، رفيقه في خندق القتال ، يكتب رسالة الى مختار قريـة المسعود يخبره بأن المسعود قد جرح أمامه ، ولكنه لا يعلم ما ذا كان حياً أو ميتاً ، ولذا فانه يعتبر في عداد المفقودين ·

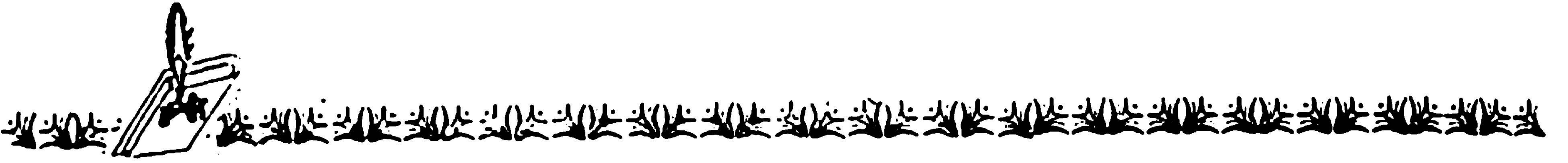
وأثناء غيابه ، كانت زوجته تشتغل في الحصاد عند عمها جابر لتطعم أولادها ــ بعد ورود الرسالة ، يجدد أحمد الحسن محاولاته للزواج بها ، وذلك بمساعدة العجوز أم سليمان · وأحمد الحسن هذا ، صاحب دكان في القرية ، يبيع السكر والقهـوة والشاي ·

ونعلم فيما بعد ، آن المسعود أسير لدى العدو ، وأن جروحه كانت خطيرة ، ونتائجها قمة المأساة : رجله اليمنى مبتورة ــ اليسرى في الجص ــ يده اليمنى سليمة ·· ولكن اليسرى مضمدة ومعلقة برقبته ·

ويمر المسعود بسلسلة قاسيـة مـن التعذيب الجسدي والنفسي ، حيث يحاول العدو الحصول منه على معلومات تتعلق بالجيش ، ولكنه يرفض ــ وفي النهاية يموت المسعـود ــ يموت ··· دون أن تعلم زوجته أو أحد من القرية بالأمر : فآخر الأخبار التي رواها المختار ، بالاستناد الى أقوال زملائه ، تقول انه حي · ولكن الهلال الأحمر لم يؤكد الخبر ، وقد طالبت به الحكومة » وما جاء شيء رسمي عنه يثبت أو ينفي ، والعدو لا يعترف بوجوده » ·

* * *

والرواية من ١٢ مقطعاً : ستة منها **بضمير المتكلم** ، ويرويها المسعود بنفسه ، والستة الأخرى **بضمير الغائب** ــ وفي الشان يقول ابن ذريل :



« ان التقنية الروائية تزاوج بين حديث الحاضر ، وبين العودة الى الماضي ، بين الحديث النفسي ، وبين السرد التقهقري ٠٠ ولذلك اعتمدت المعالجة صيغة المتكلم على لسان محمد المسعود ، ثم صيغة الغائب على المرويات نفسها ، مما أتاح تجميع مقومات التجربة المعروضة ، وظروفها الخاصة والعامة » ٠

كلام ابن ذريل ، وفي حدوده ، صحيح تماما : لأن تعدد الأحاديث ، يقدم للقارىء صورة واسعة عن عالم الرواية ـ والذي يهمني هنا ، أن ابن ذريل قصر كلامه على الدور الاخباري لضمير المتكلم والغائب ، دون أن يتجاوزه الى الدور الوظيفي ٠٠ ودون أن يعطي أيا منهما أفضلية على الآخر ٠ وهذا ما أستحسنه عند ابن ذريل ٠

أما سمر الفيصل فيقول :

« وغير خاف على أحد أن ضمير المتكلم يؤدي مهمتين هنا :

المهمة الأولى ، أن الشخصية الروائية أكثر دراية بعواطفها وأحاسيسها وأفكارها من أي انسان آخر ، لأن هذه الأشياء خاصة بها وحدها ٠ ويستطيع الروائي ضمان قدر أكبر من قناعة القارىء بالشخصية ، اذا تركها تعرض أفكارها بنفسها ، وتحلل أمام القارىء أحاسيسها وآراءها ٠ فاذا قدمت ذلك كله بنفسها ضمنت للروائي موضوعية عرض الشخصية دون أي تدخل منه ٠

المهمة الثانية : يضمن الروائي بوساطة ضمير المتكلم تقديم شخصيته من الداخل الى الخارج وليس العكس ٠ وهذا الأسلوب في التقديم يخلق شخصية متكاملة حية ٠٠٠ »

أما أنا : فلا أرى أي داع للتمييز بين الضميرين ، سواء من جهة الخصائص ، أو من جهة الوظيفة الأدبية لكل منهما ٠ حتى الحديث عن الضميرين لا مبرر له بتاتاً ـ وخلال قراءة الرواية ، لم يذهب عقلي أبداً في هذا الاتجاه ٠ **فالأحداث** ، سواء كانت بهذا الضمير أو ذاك ، أو عن طريق شخص ثالث ، أو رابع ٠٠٠ (الرباعية الاسكندرانية ـ لورنس داريل) انما **يرويها شخص واحد ، هو علي عقلة عرسان** ٠ وبالتالي فانها تعبر عن وجهة نظره ، وتتجه الى خدمة ما يريد أن يطرحه من آراء ٠ واني لأقرأ الرواية ، وقد قرأتها ، على هذا الأساس ٠

□ عودة الى المقال :

ومنذ الأسطر الأولى ، يحدد السيد سمر غرضه ، فيقول : « على أننا ـ هنا ـ راغبون في ملاحقة مقدرة صخرة الجولان على اقناع القارىء ٠٠ »

المقال اذن ، مكرس لهذه النقطة بالذات ـ وأنا أشكر للسيد سمر هذا التحديد : لأن عزل ظاهرة ما ٠٠ ومن ثم تقصي جوانبها المتعددة ، يساعد في فهمها ، ويخدم الظاهرة والباحث والقارىء على السواء ـ وهذه **ميزة العقل الصافي** ٠ (او العلمي كما يقولون) ٠

حاشية اولى :

هذه الميزة ، لا يجادل في صوابها الا الحمقى ـ على الرغم من ذلك ، لم أتمكن ، وفي معظم المقالات التي كتبتها ، من الالتزام بمنهج عقلي : أنساق وراء مشاعري الشخصية ، حتى لو كان ذلك على حساب تماسك المقال ٠ ومقالي الحالي خير مثال ـ فانا لا أسوق الكلام حسب مواقعه أو لزومه ، وانما حسب أهميته بالنسبة للموضوع ٠٠ وحسب ظهوره في الشعور ٠

حاشية ثانية

تحدث السيد سمر عن نفسه بصيغة الجمع : « اننا ٠٠٠ راغبون »

ومن البديهي أنه لا يقصد تعظيم نفسه ، لأن هذا الاستعمال اللغوي شائع جدا في الكتابة ، وشائع أيضاً في المخاطبة بين الناس ـ ومن هنا ، فان هذه الحاشية ، لها صفة العمومية والتجريد ٠ وعلى هذا أقول : ان مخاطبة شخص ما ، بكلمة : **أنتم** ٠٠ تعني في نظر الناس ، التفخيم والتعظيم ٠ وهذا ، في رأيي ، خطأ عجيب ٠ لأن هذه الصيغة ، تعني تحويله الى كيان مبهم لا خصوصية له ولا قوام ـ أما المخاطبة بكلمة : **أنت** ٠٠ فانها تعني :

١ ـ علاقة صميمة بين الاثنين ٠

٢ ـ افراد المخاطب ، كشخص ذي كيان مستقل ٠

وحين يتحدث انسان عن نفسه بضمير الجماعة ، فهذا يعني أنه تنازل عن فرديته وخصوصية شخصيته ـ أما اذا قال المتكلم : اننا نطالب ٠٠ نرى ٠٠٠



وكان يقصد الفئة التي ينتمي اليها ، فهذا صحيح وضروري · كأن يتحدث أحد المدرسين نيابة عن زملائه ـ وفي غير هذه الحالة ، فاني أنفر من استخدام ضمير الجماعة ، لينوب عن الفرد ·

لقد اشتغلت مدرساً ، وفي بعض الوظائف الادارية ـ وكنت أخاطب رئيس العمل الذي أضمر احتراماً له ، بقولي : ما هو رأيك ؟ كما تريد ·· أما الرئيس الذي كنت أعتبره عادياً ·· مجرد رئيس ، فكنت أحذفه من شعوري وأخاطبه بصيغة الجمع وكأنه غير موجود ، فأقول له : ما هو رأيكم··

ملاحظة تابعة

في أول سطر من المقال ، قلت : اذا كان المرء يتوخى النزاهة ، فان الكتابة عن صديق ·· ـ وبالطبع ، كنت أقصد ذاتي ، وأقصد علي عقلة عرسان ـ ولكنني بالوقت نفسه ، كنت أقصد كل انسان يتوخى النزاهة ·· لذلك كان من الضروري تجريد العبارة من صفتها الشخصية وتحويلها الى مبدأ عام ·

عودة الى السيد سمر

انه يعطي ضمير المتكلم ثلاث وظائف :احداث قناعة لدى القارىء / الموضوعية وعدم تدخل الروائي / خلق شخصية متكاملة حية ـ

١ ـ **عن الموضوعية** ـ اذاكان الروائي هوالذي يخلق الشخصية : فكيف ننفي تدخله ، وكيف تكون هذه الموضوعية ؟

٢ ـ **الشخصية المتكاملة الحية** ـ أيكفي استخدام ضمير المتكلم لتحقيق هذه المهمة الصعبة ؟ أم أن الموضوع تابع لموهبة الروائي ؟ وماذا عن الروايات المكتوبة بضمير الغائب ؟

٣ ـ **قناعة القارىء بالشخصية** ـ وقبل البدء، يجب أن أقول : ان مقال السيد سمر ، منشور في الصفحة الثقافية لجريدة البعث · والمساحة التي يشغلها أي مقال في صفحة ثقافية ، لا تسمح بتفصيل أكثر ـ بتعبير آخر : ان المقال ، وضمن مساحته وغرضه ، أعطى الكثير ، وخاصة المناقشة الذكية لأبعاد شخصية المسعود · لذلك فان كلامي (ولأهمية موضوع القناعة بالنسبة لي) هو توسع في موضوع القناعة ، وليس مناقشة للمقال ·

ان قناعة القارىء ، ليست مرتبطة اطلاقاً بضمير المتكلم ـ وهذا الضمير ، لا يقوم بأي دور في هذا المجال : ان « **القناعة** » ليست مفهوماً وحيد العنصر ، انها **عاطفة مركبة** ·· ولا تتوقف على طرف واحد ـ

أولا : أي نوع من القناعة نريد ؟ أخلاقية ، نفسية ، عقلية ، اجتماعية ···

ثانيا : أي نوع من القراء ؟ وهل يتساوى قارىء هوميروس ، في القناعة ، مع قارىء روايات الجيب ؟ وقارىء من ايديولوجية معينة ·· أيشابه قارئاً من أيديولوجية أخرى ؟

ثالثاً : ما هو دور موهبة الروائي في هذا المجال ؟

سأترك الاجابة الى حينها ·· عند مناقشة موضوع شائق ، وهو : رغبة زينب في هرب زوجها من قطعته العسكرية بدافع الشوق اليها ·

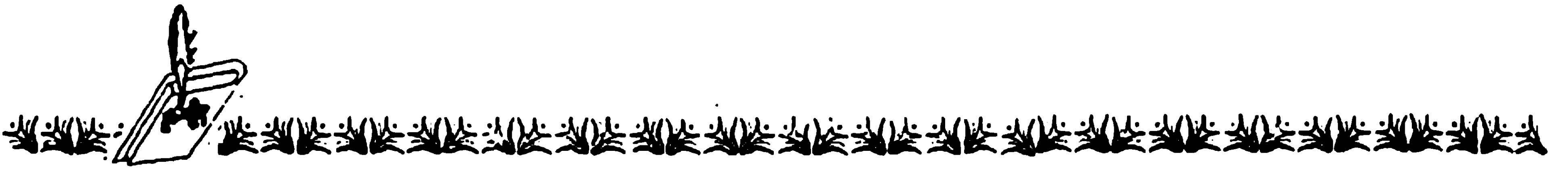
★ ★ ★

واذا كان موضوع استخدام الضمائر لا يهمني في شيء ، فان **طريقة التقديم** جديرة بكل الاهتمام: فالمقطع الأول بضمير المتكلم / الثاني بضمير الغائب / الثالث والرابع بالمتكلم / الخامس والسادس بالغائب / السابع بالمتكلم / الثامن بالغائب ···

وعندما أنهيت قراءة الرواية (وحتى في أثناء القراءة) خالجني الشعور بأن المؤلف كتب روايته في ظل الرغبة بأن تكون فيلماً سينمائياً أوتلفزيونياً ـ بتعبير آخر : أراد أن يكتب رواية قومية ،ولكنه وضع في حسابه أن تكون صالحة للسينما أو التلفزيون·

وهذا الاهتمام المزدوج: **القومي والسينمائي،** ليس جديداً على المؤلف · فقد سبق للاستاذ علي عقلة ، أن كتب ثماني مسرحيات ، أربعاً منها في قضايا وطنية قومية · وخاصة مسرحية « **الأقنعة** » التي تستمد موضوعها من حرب تشرين · كما كتب سيناريو لفيلمين ، هما : شناو ـ والمصيدة ·

واستناداً الى هذا الارث المسرحي ، والقومي ، والسينمائي ، يمكنني القول بطمأنينة ، بأن هذه الرغبة كانت في صلب تفكيره قبل أن يكتب الرواية ـ لقد أراد أن يخرج بالقضية القومية (موضوعته



التشرينية كما يسميها ابن ذريل) من مجال « القارىء الأدبي » الى ساحة الجمهور الواسعة ، لتكون الفائدة أشمل — وأفضل وسيلة الى ذلـك ، السينمـا أو التلفزيون ٠

ومن هنا يمكن القول :

الهدف الأولي — الموضوع القومي ٠

الهدف الغائي — القارىء والجمهور على حد سواء ٠

وقد نجم عن هذه الطريقة في التقديم ، ثلاثة آثـار :

الأول — ايجابي ، وذلك بالنسبة للبناء الفني للرواية ٠ فقد أصبحت وكانها جاهزة لتحويلها الى فيلم ٠

الثاني — سلبي ، فقد أوجز المؤلف في بعض الجوانب ، وأغفل جوانب ٠٠٠ كان من الضروري أن تكون ٠

الثالث — نفسـي ، حيث تثـير لدى القارىء شعوراً بالضيق ٠ وذلك حين يجد نفسه مرغماً على قطع حركته النفسية والعقلية ، لينتقل من مقطع الى آخر ٠

كمثال واضح : في المقطع السادس — الطفل زيد يقع ٠٠ الدم ينسكب من فمه ٠٠ احدى أسنانه مكسورة ٠٠ « شُقت شفته العليا شقاً بليغاً — ص ٨٩ » — تعود أمه الى البيت ، فلا تجده ولا تجد أم سليمان التي تقوم ، أحياناً ، بالعناية بالأطفال — تهم بالخروج مـن البيت للبحث عن أبنهـا وقـد « تلاطمت في رأسها الهواجس كسرب طير نُفِّر في ليل ، وامتزج في قلبها الخوف بالغضب »

في هذه اللحظة يدخل أحمد الحسن وهو يحمل زيداً ٠٠٠ في هذه اللحظة المشحونـة بالانفعالات الحادة ، يوقف الأستاذ علي المقطع السادس ٠٠٠ قبل أن يتم الكلام !

فاذا علمنـا أن أحمد الحسن هـذا ، يقوم بمحاولات للتقرب من زينب ، على أمل الزواج بها في حال ثبوت وفاة زوجها ، أدركنا مدى الضيـق الذي يمسك القارىء بسبب هذا القطع / والقارىء هنا ، هو أنا بالطبع — وقد شاركني في هذا الشعور ثلاثة من أصدقائي بعد قراءة الرواية ٠

ملاحظـــة

نهاية المقطع السادس ، تقع في صفحة ٩٠ ، تقابلها بداية المقطع السابع صفحة ٩١ — لذلـك انتقلت فوراً الى المقطع الثامن لأرى تتمة الكلام ٠ وبعد قراءته رجعت الى المقطع السابع ، لأعرف ما جرى للمسعود بعد وقوعه في يد العدو ٠

وأعطي مثالين عن الايجاز والاغفال —

اشتغل محمد المسعود حوالى ست سنوات في الكويت (المدة غير مذكورة — تؤخذ بالقرينـة) وهي مدة طويلة ٠ على الرغم من ذلك ، فكل ما تذكره الرواية عن هذه الفترة من حياة المسعود ، أنه » اشتغل في الكويت » ٠٠ بالاضافة الى كلمات سريعة عن موضوع الاقامة والحر الشديد في الكويت٠

لو كان محمد المسعود أمامـي يحدثني عـن حياته ، ومر بالفترة التي عاشها في الكويت مرور الكرام ، كما فعل الأستاذ علي ، لأوقفته بدهشة : ست سنـوات ٠٠ سبع سنوات في الكويت ٠٠ ولا شيء سوى « اشتغلـت في الكويت » ؟ مـاذا كنت تشتغل يا محمد المسعود ؟ كيف كنت تعيش ؟ في الكويت عدد كبير من أهالي حوران : ألم تتعرف الى بعض الحوارنة ؟ ألا يوجد أحد من قرية كحيـل سواك ؟

« لا أنا ولا أي قارىء ، يحق لـه أن يطالب الكاتب بنوع معين من الحوادث أو الشخصيات — ولكن هل يرى الأستاذ علي عقلة أن هذا الجانب من حياة المسعود ، نافلة لا لزوم له ؟ أيا كان جواب الأخ علي ، فان حياة المسعود بدت لي ناقصة ٠

حاشية في هذا الباب

اشتغلت في الكويت خمس سنـوات — بعـد ثلاثة أشهر ، كتبت رسالة الى صديق ٠٠ من عدة صفحات ٠ كلها ملاحظات وصفيـة عـن المجتمـع الكويتي ، وخاصة في مجال التدريس ٠

☐ مثال عن الاغفال

لم يتحدث المؤلف بكلمة واحدة عـن ثقافـة المسعود : متعلم ٠٠ أمي ٠٠ دخل المدرسة أم لا ٠٠ ختم القرآن (على عادة الريف) أم لا ٠٠ ؟



وسؤالي : لماذا ؟

محمد المسعود ـ والذي وجد الوقت الكافي أثناء الهدوء النسبي للقتال ، ليتذكر حياته ··· محمد المسعود الذي يتخيل ابنه زيداً وقد دخل المدرسة : ألم يجد ، ولو بعض الوقت ، ولو بعض الاهتمام ، للحديث عن هذه النقطة ؟

لماذا أغفل المؤلف ذلك ؟

قرأت الرواية أكثر من مرة ، وفكرت فيها مراراً ، ولكنني لم أجد تفسيراً لهذا الاغفال ·

* * *

☐ **الرواية ومشكلاتها :**

الرواية ، في ظاهرها ، سهلة :

الحوادث ـ لا يوجد فيها تشابك حياتي ، ولا تعقيدات فكرية، لأن المؤلف آثر البساطة أو أحادية الموقف ـ وبفطنة ممتازة ، يقول ابن ذريل : « ان علي عقلة عرسان ، فنان ذو حساسية للانساني ، فائقة· ولذلك هو يوليه اهتمامه في الوصف والتحليل· وكان بامكانه التوسع في السرد أو الاستطراد في التحليل حتى يشمل حيوات الأبطال الآخرين ، في أوضاعهم ومصائرهم ، ولكنه آثر البساطة المواقفية، فركز على تجربة محمد المسعود ، وبطولته · »

الشخصيات ـ طبيعية · لا شذوذ في سلوكها ولا أمراض نفسية ·

الهدف ـ لا غموض فيه ولا تأويل : رغم الشقاء الفردي ، فان التضحية في سبيل الوطن ، واجب مطلق ·

لكن الرواية ، وعلى الرغم من سهولتها الظاهرية ، **أثارت** في ذهني عدداً من الأسئلة والقضايا ·· وكانت من الغموض بحيث ظللت عدة أشهر قبل أن أجد « ما أظنه الجواب » ·

بالطبع ، كان بامكاني أن أتناول الوجه الظاهري للرواية ، فأكتب المقال في يوم ويومين · ولكن هذا يعني أنني قرأت الرواية بأذني ··· وأنا ، للعلم ، لا أستعمل الأذنين في الأدب على الاطلاق / واللغة العربية ، تميز بصورة رقيقة بين : **نظر الى الشيء ـ ونظر في الشيء** ـ ولأنني من طبع يرتاب ويأخذه الوسواس ·· فأنا لا أنظر أبداً الى الشيء ، وانما فيه · ومن هنا أدركت ، بشعور داخلي ، أن تفسير القضايا موجود في عقل المؤلف ، وليس في صفحات روايته ·

وكانت أول قضية ، تعاسة محمد المسعود :

عندما فرغت من الرواية ، أسكنني **شعور بالاختناق** لهذه الحياة المظلمة التي عاشها المسعود ـ رجعت الى الرواية مرة·· ثم مرة ·· فرض المسعود وجوده علي · لازمني في البيت ، والشارع ، والعمل ، والباص··· وقفت معه في خندق القتال، وسافرت معه الى الكويت ، ولم أتركه لحظة واحدة خلال التحقيق والتعذيب ·· ولكنني لم أستطع اكتشاف الأسباب التي دفعت بالمؤلف لايقاع المسعود في هذه التعاسة : لم يرتكب المسعود (أو أحد من أبويه) أي عمل من شانه أن يجعل عقوبته عملا مشروعاً !

الشقاء البشري موجود ·· وهذا أمر مفهوم ـ والشقاء يصيب أشخاصاً كثيرين ، بسبب أو بدون أسباب ·· وهذا أمر طبيعي ، ومفهوم ـ والشقاء في الحياة ، قد يكون أقسى مما جاء في الرواية بكثير ··· وهذا أيضاً مفهوم : أما الحاح المؤلف في توكيد وتكثيف هذا الشقاء (وكأنه يريد أن يزرعه في شعور القارىء) فانه ، وفي جانب منه ، غير مفهوم ·

ولأنني من طبع يرتاب ، فقد أخذني الشك وقلت : الحاح غريب !

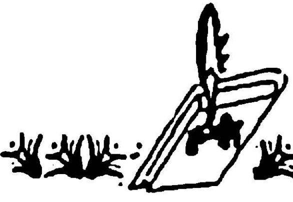
واليكم هذه الصور :

١ ـ « سأعمل حصادة حتى نؤمن لقمتنا »

٢ ـ « لم يكن معي قرش واحد يقيم أودهم أو يدفع غائلة الجوع عنهم »

٣ ـ « تترك الأولاد ينامون وحدهم · أوتودعهم عند الجيران كاي وعاء تضعه من يدك عند أحد حتى تعود ·· تحملهم نياماً واحداً بعد الآخر وقد تهدلت أطرافهم وأقلق نومهم ·· لتضعهم في بيت آخر ـ أولادي أمانة عندكم حتى أعود » ·

هذه الصورة شديدة القسوة يا علي ··· وتجرح النفس ـ



٤ ـ « وزينب لا تملك شيئاً .. كل ما يمكنها أن تحصل عليه من العمل لا يكاد يكفيهم ثمناً للقمة الخبز » .

٥ ـ « مسكينة زينب.. لم تر معي اليوم الأبيض. فقد تزوجنا ونحن في الفاقة، نركض والرغيف والرغيف يركض أمامنا ولا نلحقه » .

٦ ـ « أمامها الصغار الثلاثة كعصافير الدوري في العش . تفتح مناقيرها . تزقو عند قدومها ، لتبحث في ركن البيت عن كسيرات خبزجاف»

٧ ـ « وهم يبتلعون لقيماتهم الجافة بصعوبة بالغة » .

٨ ـ « مسكينة زينب .. لم تر معي اليوم الأبيض » .

٩ ـ وعندما تزوجت تركت زوجتي وهاجرت لأشبعها الخبز » .

وأظنها تكفي هذه الأمثلة ـ

جوع .. جوع .. يركض وراء الرغيف ويسبقه الرغيف ـ وتلك هي حياة المسعود :حياة جائعة / محدودة الجوانب والأفق / أحلامه لاتعلو فوق لقمة العيش ـ

ألم يجد علي عقلة مجالا للتخفيف من هذا الشقاء ؟ أين كرم الريف .. والتساند الاجتماعي في الريف ؟

أنا أعرف ، وكل الناس يعرفون ، أن المفاهيم والعلاقات الانسانية ، قد تبدلت حتى في الريف ـ والمسعود نفسه ، في خطابه لأبيه ، يقول : «والحياة في أيامنا قاسية ، وليست كما كانت في أيامكم » .

ولكن هل نضبت ينابيع الخير ؟ لا ... حتى في المدينة ، عالم العلاقات الجهنمية ، عالم الصناعة اللعين ، ما زالت نزعة الخير موجودة في النفوس ـ وإذن : لماذا أغفل المؤلف هذا الأمر ؟ غفلة منه ؟ لا ... لقد تعمد هذا الاغفال ، وترك المسعود في بؤسه الخانق ـ لماذا ؟

☐ السبب الأول :

لاحداث تباين بين حياة المسعود البائسة ، والمصير الذي اختاره بارادته . وذلك بقصد ابراز نبالة الهدف الذي ضحى من أجله بحياته ، وبيان جذوره العميقة في شخصية المواطن السوري . أو كما يقول الأستاذ سمر : « ومن ثم يجد القارىء حب الوطن عند محمد المسعود يرتفع فوق القهر الانساني والاجتماعي دون أن يلغيه . وفي الظن أن رؤية علي عقلة عرسان تكمن في هذه النقطة ، في أن **مصلحة الوطن فوق مصلحة الأفراد**»

يمكنني أن أعطي هذا السبب مرتبة اليقين. ولكنه ليس كافياً لتفسير حياة المسعود القاتمة تماماً . انه يفسر جانباً منها ، ولكنه لا يفسرها كلها ـ أعني : بامكاني ، وبامكان القارىء ،أن يقتنع ببطولة المسعود وبسموّ مصيره ، دون ايصاله الى هذا الحد من البؤس . ولذا كان عليّ أن أعيد التأمل في الأمر .. ليستقيم وأطمئن اليه ـ وقد وجدت ما كنت أسأل عنه .

☐ السبب الثاني :

لنأخذ هذه الصورة للمسعود : رجله اليمنى مبتورة / رجله اليسرى في الجص / يده اليسرى مضمدة ومعلقة برقبته / اليد اليمنى سليمة ـ

لا يستطيع أحد أن يرميني بالمبالغة ، اذا قلت انها صورة قاسية جداً ـ وسؤالي : هل كان المؤلف بحاجة أو نحن بحاجة ، الى هذه الصورة لاقناعنا بنبالة التضحية التي قام بها المسعود ؟ لا ... على الاطلاق : فالجيش العربي السوري فيه فقراء،وفيه متوسطو الحال ، وفيه أغنياء . وبطولات أفراد هذا الجيش ، بتاريخه المجيد ، موجودة بين كل فئاته .

وإذن : انها قسوة متعمدة . **انها سادية** .

هذه السادية ، هي التي تفسر وضع المسعود التعيس / واذا كان السبب الأول يستند الى حكم عقلي ، ويتمتع بمتانة عقلية تكفي لاعطائه يقيناً لا يمكن دحضه ، فان السبب الثاني لا دليل عليه سوى الشعور الشخصي .

أعرف أن الاعتراض على هذا السبب سهل جداً .. وأن أي اعتراض يُثار سيمتاز بقوة منطقية تفوق الشعور الشخصي الذي اعتمد عليه ـ ولكنني أحب أن أسأل ، وبطريقة الأرقام : في حياتنا العامة والخاصة ، ما هي نسبة المواقف التي نعتمد فيها على العقل ، ونسبة المواقف التي نعتمد فيها على الشعور الداخلي ؟ أعني : البصيرة ـ

كل قارىء له جوابه الخاص ـ ولكنني ، من جانبي ، أقول : في كثير من المواقف ، أتخذ القرار بالاعتماد على **الحس الداخلي** وليس بالركون الى

العقل ـ بهذا الحس فهمت الرواية • وقد هداني هذا الحس ، الى أن المؤلف كان يجد متعة في عذاب محمد المسعود •

هذه المتعة ، لا تحمل ادانة أخلاقية ٠٠ ولا تدخل في نطاق الأخلاق ـ انها شعور طبيعي :فعندما نرى شجاراً في الشارع ٠٠٠ ألا نتوقف لنرى ، بشعور من المتعة ، هذا الشجار ؟ أنا ، والله ، أتوقف وأستمتع وأرى ـ وهذا ما كنت أعنيه بقولي ان هذه المتعة ليست قضية أخلاقية/ انها شعور موجود في النفس ، ولا يدخل في مملكة الأخلاق •

□ قصة في هذا الباب :

حدث شجار في الباص بين امرأتين •واقتصر على الشتائم والتماسك بالأيدي وبعض الكفوف ـ لم يتحرك أحد في الباص لاصلاح الأمر وفض النزاع • كانوا يتفرجون بكثير من التوقد والمتعة/ قديظن بعض القراء الكرام أنها فكاهة مفتعلة •ولكني مستعد لأن أضع يدي على كتاب الله وأقسم على صدق هذا الكلام •

حاشية على السادية

براهيني العقلية ضعيفة جداً ٠٠ أكثر وهياً من نُواس العنكبوت ـ ولكنني أقف على أرض متينة من الناحية الانسانية : سأفترض أن معجزة وقعت ٠٠٠ ودبت الحياة في الرواية ـ فماذا يستطيع الأخ علي أن يقول للمسعود ، اذا جاء يسأله بالعذاب الذي وضعه فيه ؟

اذا كان بامكان الأخ علي أن يقنع محمد المسعود ، فاني أسحب كلمة « السادية » • واذا كان يرى في هذه الكلمة خروجاً على أدب الخطاب فاني أتقدم أيضاً بالاعتذار •

* * *

□ القضية الثانية ـ ثقافة المسعود :

وقد عالجتها ، عابراً ، من قبل ٠٠ أثناء كلامي عن الايجاز والاغفال ـ وفي أي حال ،فانها لن تأخذ مني الكثير ، لأن كل المنافذ كانت موصدة بوجهي : فلا الرواية أعطتني ، ولا الحس الداخلي أسعفني بشيء • يضاف الى ذلك ، أن القضية ذات أهمية محدودة جداً بالنسبة لي ، وللرواية ـ واذا كان بعضهم يطلب من الروائي ، أن تكون لغة الرواية مطابقة للشخص الذي يقول ٠٠٠ واذا كان بعض آخر يطالبه بلغة أو بأسلوب من طراز معين ٠٠ فأنا ، والله ، لا من هنا ولا من هناك • مطلبي يسير ومحدود • وهو : لغة الرواية ٠٠٠ أهي مفهومة ولها معنى ، أم هي كلام ترهّل وشحمه أكثر من لحمه ؟ ومن هذه الناحية ، فلا مأخذ لي بتاتاً على « صخرة الجولان » •

أنا من أنصار سومرست موم الذي يقول ، ما معناه : لا أطيق صبراً على أولئك المؤلفين الذين يطلبون من القارىء أن يبذل جهداً اضافياً ليفهمهم •

واذا كنت أريد أن أقول شيئاً عن لغة الرواية ، فلا أجد خيراً مما قاله ابن ذريل والهاشمي ، واني لآخذ به دون أي احتراز •

يقول ابن ذريل : « البساطة في السرد ، والدقة في التحليل ، بحيث استطاع المؤلف علي عقلة عرسان ايصال موضوعته التشرينية الى جمهوره الواسع ، بفن وشاعرية »

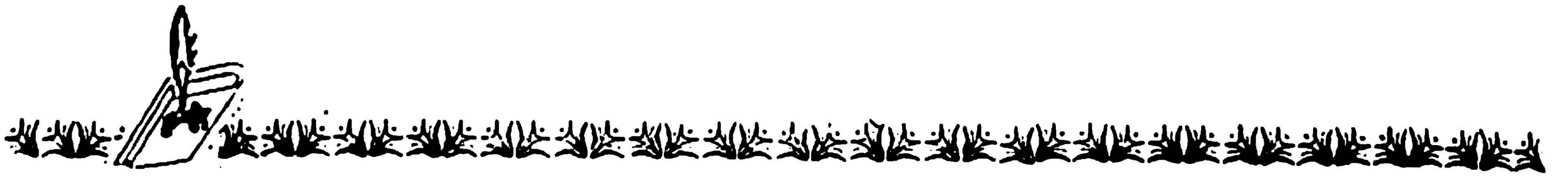
وفي موضوع آخر يقول : « وميزة اللغة في الرواية ، بساطتها ، اذ لا تكلف فيها ولا تعقيد »ـ ولكن أكثر عبارات ابن ذريل لطافة ودقة ، هي التالية: « ومنها هذه المزاوجة بين الفصيح والمأنوس» / والسبب في بساطة اللغة ، والمزاوجة بين الفصيح والمأنوس ، أن المؤلف قد حرص ، في بعض الأجزاء ، على مخاطبة الجمهور الواسع ، ولكنه لم يهمل حسه اللغوي ٠٠٠ فتكلم بلغة رفيعة في أجزاء أخرى ، بحيث يصل الى مرتبة الشعر •

أما السيد الهاشمي ، فيقول : « وتنقل ماحدث ويحدث ٠٠ وذلك بأسلوب شاعري رصين • وهي خاضعة لقيود الفكر السببي ، والمنطق وسياق الأحداث » •

حاشية في هذا الباب

أحد الأدباء ، سأل برنارد شو عن أفضل طريقة لكتابة قصة ناجحة ـ

فأجابه شو : اقرأ القصة بعد أن تكتبها ، وافترض أنك سترسلها برقية ، فاذا وجدت كلمة لا تستحق الابراق ، فاحذفها • وستكون القصة حينئذ ناجحة •



تذكرت هذه النصيحة الرائعة ٠٠ وأنا أقرأ صخرة الجولان ـ وقد وجدت أن كل الكلمات فيها تستحق أجرة الابراق ٠

يجب أن أقطع الكلام عن ثقافة المسعود ،لأقول شيئاً له صلة وثيقة بالموضوع :

أولا ـ في كتاباتي، أنا أكثرميلا الى الاسلوب٠ وحتى أنني لأبدل الجملة عدة مرات ، أو أتوقف يوماً وبعض اليوم ، من أجل العثور على « كلمة » أو « صيغة » تستوعب ما أريد ـ على الرغم من ذلك ، فهذا الأمر ليس مطلباً لي عندما أقرأ للآخرين ٠

ثانياً ـ عندما أقرأ رواية ، فالذي يشغلني ، الشخصيات : عن أي جانب كشف المؤلف ، في شخصياته ؟ عن الجانب الظاهري ٠٠ الاجتماعي٠ الداخلي ؟ أكانت حرة أم لا ؟ ماهي مشروعيةمعاملة المؤلف لاحدى شخصياته بهذه الطريقة أو تلك ؟ ثم ، مصير أو هدف هذه الشخصيات ٠

□ عودة الى ثقافة المسعود

١ ـ اهتمامي بثقافة المسعود ، لا يتجه اليها باعتبارها « ثقافة » ٠٠ باعتبارها موضوعاًيستحق الاهتمام ـ وفي حياتي الشخصية ، لا أنظر اطلاقاً ما اذا كان زميلي ٠٠ صديقي ٠٠ محدثي ٠٠٠ يحمل « ثقافة على الورق » أم لا ـ ان معرفتي ، أو جهلي ، بالثقافة الرسمية لشخص ما ٠٠ لاتدخل في حسابي على الاطلاق ٠ ومن هنا ، فان اغفال علي عقلة لثقافة المسعود ، لم يؤثر بتاتاً في قراءتي للرواية ، كما أنه لم يؤثر في الرواية نفسها ، أو في قيمتها ، أو في شخصية المسعود ٠

اهتمامي بثقافة المسعود ، كان متجهاً الى علي عقلة نفسه ٠٠ الى دوافعه بالذات : لماذا لم يتحدث عن هذا الموضوع ؟

٢ ـ قراءة الرواية ، توحي بأن ثقافة المسعود الرسمية ، ثقافة أولية ٠ ولكن ثقافته العامة واسعة ٠ (خبرته الحياتية)

* * *

□ القضية الثالثة ـ زينب :

الموقف الأول

منذ الصفحة الأولى في الرواية ، يقدم لنا المؤلف شخصية زينب ٠٠٠ والمتحدث هو زوجها محمد المسعود ٠ ثم يقدمها مرة ثانية في صفحة ٣٩ بصيغة الغائب ، أو المرويات حسب تعبير الأستاذ ابن ذريل ٠

من الصفحة الأولى وحتى صفحة ٤٨ ، ظلت زينب كما أراد لها المؤلف أن تكون : شخصيةعادية، لا نعرف منها الا ظاهرها الاجتماعي ٠٠٠ كأي امرأة أخرى في القرية ـ ولكن ابتداء من صفحة ٤٩ أخذ المؤلف ينزع الغطاء الاجتماعي عنها ، ليكشف لنا خصوصية هذه الشخصية ـ **وهنا تبدأ زينب الحقيقية** بالنسبة لي :

جاءت رسالة نزار الشاوي ، لتقول ان محمد المسعود سُجل في عداد المفقودين ـ وفي غمرة الانفعالات أخذ أهالي القرية يترحمون على المسعود ، وكانه ميت فعلا ٠ ثم توافدوا الى بيت زينب للقيام بواجب التعزية ـ وبعد العزاءانفض الناس ٠

واذن ، **سقط الجدار الاجتماعي** ، وصارت زينب وحيدة أمام نفسها وأمام مصيرها ٠ ومع سقوط هذا الجدار الذي كان يحجب دخيلتها ، **بدت موهبة علي عقلة شديدة التالق** ٠٠٠ لترسم الخلجات الدفينة لنفسية زينب :

« وحين انفض الناس من حولها في تلك الليلة، شعرت ، لأول مرة في حياتها بأنها ضعيفة جداً وبأنها وحيدة الى حد مفزع / تغير المناخ والمحيط ومعاني الأشياء ومواقفها منها على نحو غريب ٠

كانت أقل حركة تصدر من حولها تجعلها تنتفض ٠٠٠ كانت تنهض من مكانها وتقترب من الباب أو النافذة ٠٠ تصغي أو تنظر باضطراب ثم تعود مسرعة لتحضن زيداً أو تناديه بصوت مرتفع، كانما تعلن عن وجوده معها ـ ص ٤٩ » ٠

ملاحظات دقيقة ، وتصوير بارع لنفسية زينب ، وقد امتزج فيها القلق بالرغبة بالخوف ٠ وقد انطوت هذه الملاحظات على **اشارة فلسفية**

مهمة ، وهي : تبدل ادراك العالم الخارجي بتبدل الحالة النفسية ـ « تغير المناخ والمحيط ومعاني الأشياء ··· » ·

أما احتضان ابنها زيد ، ومناداته بصوت مرتفع ـ فانه شاهد على ما يملكه المؤلف من معرفة عميقة بالنفس البشرية ·· وعلى الأخص في هذا الموقف بالذات · ولكن هذه الحركة من زينب ، لم تكن لاتقاء الخوف وحده ، وانما للفرار أيضاً من الغواية · وهذا هو المؤلف بنفسه يقول : «ولكنها منذ تلك الليلة ، وجدت نفسها امرأة يمكن أن يصل اليها أي رجل ، يمكن أن يطمع بالوصول اليها أي رجل · ص ٥٠ » ·

وبتحليل ثاقب فيه الكثير من الفطنة (حتى لأكاد أحسد عليه) يقول : « أكان هذا الشعور عاياً منها ؟ أتراه شعور امرأة تهيء نفسها لزواج جديد، بتوجس الخيفة واعلان الخوف من الرجال ؟ ذلك الخوف الذي يشكل استدعاء غير مباشر لهم ،وحاجة ماسة اليهم ؟ هل هي رغبة تتستر بثياب رهبة ؟ ! ص ٥١ » ·

وأتخطى نفوري من صيغة الجزم ، وأقول بطمأنينة جازمة : انها رغبة عميقة وصادقة ، اتخذت صورة الرهبة والدهشة ، خوفاً من السقوط في الغواية ··· غواية كانت زينب تخافها ،وتريد حدوثها بآن واحد ·

لا أعرف (وهذا أمر بديهي) رأي قراء الرواية في سلوك زينب هذا ـ ولكنني لم أنظر اليه، ولم يتبادر الى ذهني على أنه نقص في محبتها لزوجها ، أو على أنه دليل على تحول أخلاقي :انه، وبكل بساطة ، رغبة أصيلة في النفس · تعبير عن التجاذب الحيوي الطبيعي بين الرجل والمرأة ··ولا علاقة له اطلاقاً بالحالات الفردية ·

وبهذا الرأي ، يكون المؤلف قد كشف عن واحد من العناصر الأساسية في تكوين شخصية **الأنثى** ·· مطلق الأنثى ـ وكأنه ، بترتيب ذكي ، يمهد للكشف عن الرغبات اللاشعورية عند زينب · والمقطع التالي، هو الشاهد على ذلك :

« أحقاً غاب محمد المسعود الى الأبد ؟ أين جثته الآن يا ترى ؟ ! هل هي في الصحراء ، أم ردموا عليها التراب ردماً دون عناية فتدحرج الحصا مع التراب السميك في ثغره المفتوح ؟ ! ثغره ؟ نعم ، ثغره الذي طالما ابتسم لها وطالما حنت الى تقبيله بشوق · يا له من تعس زوجها ، لم تتح له فرصة الاستمتاع بها على مهل ، ولا أتيحت لها هي تلك الفرصة أيضاً ، لقد مات · ص ٥٣ »

صحيح أن هذا المقطع ، يكشف بصراحة كاملة عن جوهر الأنثى الكامن ، لاشعورياً ، في شخصية زينب ··· ولكنني لم أذكره لهذا السبب ـ لقد ذكرته من أجل العبارة الأخيرة فيه : **يا له من تعس زوجها ، لم تتح له فرصة الاستمتاع بها على مهل، ولا أتيحت لها هي تلك الفرصة أيضاً** ·

عبارة غريبة ! ! هذا الكشف الكامل عن الشهوانية الأزلية :**الاستمتاع على مهل** ···

وأنا أقرأ هذه العبارة ، تذكرت مقالا كتبته منذ عشرين عاماً ـ كان المقال عن رواية جوستين من تأليف لورنس داريل · وفيه قابلت بين دوستويفسكي وداريل ، فقلت :

ـ دوستويفسكي ، يجنح الى التعاطف التام مع شخصيات رواياته ، خاصة الشخصيات التي تجسد أفكاره الرئيسية ·

ـ أما داريل، فانه يقف على الحياد ،**وادارته العقلية للرواية صارمة جداً** ·

ـ دوستويفسكي ، يعالج الشؤون العقلية بسيال عاطفي لذلك تكتسب شخصياته نوعاً من التأجج الوجداني ·

ـ أما داريل فيعالج الشؤون العاطفية بسيال عقلي ··· وبصمات العقل الخشنة تظهر بوضوح فوق كل حالة عاطفية ·

ـ أنا مع دوستويفسكي ، ولكنني أحسد داريل ·

والمشابهة بين علي عقلة وداريل ، من جهة ادارة الرواية ، هي التي جعلتني أتذكر المقال : علي عقلة مخرج مسرحي ·· مارس الاخراج أكثر من خمسة عشر عاماً · وقد حمل معه هذه الصفة الى عالم الرواية ، **فقام بضبط شخصياته ضبطاً صارماً** ، ولكن الموقف السابق يشير الى أن المناخ الروائي قد جذبه ، فأفلت الزمام منه ··· في هذا الجانب الجزئي من شخصية زينب ·



☐ الموقف الثاني :

موجزة بكلمات : زينب ، تتخيل زوجها هاربا ··· ـ وهذا هو الموضوع الرئيسي في القضية الثالثة ، ولكنه يتضمن أمرين آخرين ، فرعيين :

الأول ، أن زينب قد أفلتت من رقابة على عقلة لفترة أطول ، وفي جوانب أكثر خطرا ·· حتى بدا لي وكأنها تتجه الى ميادين جديدة ، ستكون بمثابة التحول الكلي في تربيتها وكيانها الشخصي ـ ولكن المؤلف ما لبث أن أعادها الى وضعها السابق ، وأمسك كل نوازعها بمهارة فائقة · عادت زينب الى وضعها الاجتماعي ··· كما يجب أن تكون عليه الأم الصالحة المسؤولة عن أولادها، والزوجة الفاضلة التي فقدت زوجها في ساحة الدفاع عن الوطن ·

الثاني ، يتعلق بقناعة القارىء ، وسيأتي الحديث عنه بعد قليل ·

☐ عودة الى الموقف :

زينب ، تتخيل زوجها وقد هرب من قطعته العسكرية بدافع الشوق اليها · وعندما لم يجدوه قالوا انه مفقود واعتقدوا أنه ميت ·

والمؤلف ، يقدم لنا هذا الموقف ، كمحلل نفساني خبير ، دون أن تنقصه براعة الأديب الخلابة :

ـ « أين محمد الآن ؟ أهو ميت حقا ، أم هو جريح ؟ أم سليم معافى ؟ ص ٧٥ » ·

ـ « وازهرت في رأسها فكرة ، غدت مصدرا لصور كثيرة ، خلقت من حولها عالما افترّ له ثغرها عن ابتسامة رضا ، ودغدغ قلبها حلم جميل ، أحست معه أن دم الصبا يعود اليها ، وأن حيوية الشباب تنبعث في عروقها · وبدأت تشعر بجسدها يعج بالحياة، ونما في كيانها برعم الرغبة ،فلمست ثدييها ، ومدت كفها نحو أسفل بطنها ثم ارتفعت بها شيئا فشيئا الى أعلى الخصر ، واستنشقت مثل ارج الربيع في البرية ، فاستعادت لحظة من لحظات المتعة مع زوجها ، وهي تسبح على أجنحة الخيال ـ

وعلى قفزات صور استراح خاطرها عند صورة جميلة طافحة بالأمل تعتقت في ذهنها ، أخذت تعيد تفسير الأحداث وتكوينها في معطى جديد · ص ٧٦ » ·

اعادة تركيب الواقع لتحقيق الرغبة ـ **بداية حلم يقظة** ··· وهذا هو الحلم :

ـ « ماذا لو كان محمد في طريقه الى البيت الآن ؟ لا بد أن شوقه اليها دفعه الى الفرار بضعة أيام ، ليعود الى فراشه الذي طالما احبه واستراح فيه من عناء الحياة والجسد ؟ لا بد أن ذلك ماحدث، وعندما لم يجدوه قالوا انه مفقود ، واعتقدوا أنه ميت ! ص ٧٦ ـ ٧٧ » ·

ـ « وازدهرت الفكرة في نفسها ونمت كشجرة الربيع ، واستحوذت على حيويتها ، فأخذت قواها تتركز في حواسها ، وخيل اليها انها تراه يسرع الخطو اليها على الطريق الوعرة متجنبا الطرق المعبدة وركوب السيارات كي لا تمسكه الشرطة ص ٧٨ » ·

ـ « تصورته يقترب من القرية ، ويتحاشى الدخول في الطرق الرئيسية ، وطمانت نفسها بأن الوقت ليل ، والليل في آخره ، والناس نيام · بدأ كل جزء من جسمها يتحول الى جملة حواس مرهفة · ومحمد يسير على مهد من حواسها تحتضنه وتهدهده لتوصله سالما الى البيت دون أن يراه أحد · وها هو يتخطى في الظلام طرقات القرية ، ويصل الى مقربة من الدار · وتهيأ لها أنها تسمع وقع خطى تمر من خلف البيت ، فأخذت دقات قلبها تزداد سرعة وعنفا وامتدت يدها الى اللحاف ترفعه عن جسمها وتبعده قليلا بما لا يكشف الصغار الهاجعين الى جانبها ، ثم نهضت متجهة الى باب الغرفة،كأنما تريد أن تفتح الباب وتخرج لتلقاه في أرض الدار ص ٨٠ » ·

دقة فريدة في تصوير الرغبة الداخلية ،وهي تنمو لتتحول الى سلوك ظاهر ـ واذا كان حلم اليقظة هذا ، هو تعبير عن جوهر الأنثى ، فان تجسده العملي بهذه الصورة المكشوفة ، هو بمثابة نزوة شهوانية عارضة ··· تفكك طارىء في شخصية زينب بتأثير عوامل لا شعورية ـ ويتجه حلم اليقظة الآن ، لا الى محمد المسعود ، وانما الى أي رجل ··

ـ « ربما كان هناك شخص غريب فعلا يقترب، رجل يقصد دارها في آخر الليل ، وقد عرف أنها

امرأة وحيدة لازوج لها ، ولا يوجد معها في البيت من يحميها ؟ ان هذا ممكن ، فماذا تفعل ؟ ومن يكون هذا الشخص الذي يقترب ؟ لن يفعل ذلك ، اذا حدث ، الا رجل من القرية ، شخص يعرفها ويعرف وضعها • وتقاطرت في ذاكرتها بعض الأسماء : صالح الأحمد ؟ كان يرغب فيها ويحاول أن يخطبها ، ولكنه أعقل من أن يفعلها • من يا ترى ؟ أحمد الحسن ، هو الآخر عينه تلعب عليها، ولا يوفر اقتناص النظرات الى نحرها وجيدها عندما يرتخي « شنبرها » ويظهر بياض لحمها • ماذا تفعل لو اقتحم رجل دارها ؟ انها لن تستطيع شيئاً• ص ٨١ » •

انها رغبة خالصة في حدوث هذا الاقتحام • ولكنها كانت محبوسة بتأثير مفهوم الشرف في الريف ــ وبدلا من الاعلان عن هذه الرغبة بصورة صريحة، فانها تتخذ صورة العاجز الذي لا يستطيع أن يفعل أي شيء سوى قبول هذا الاقتحام •• والاستسلام اليه •

واذا كان علي عقلة قد أظهر موهبة في رسم هذه الصورة ، فانه **أظهر فطنة نادرة** باستعماله الجملة التالية :**ويظهر بياض لحمها** ــ

وليس أحمد الحسن هو الذي يقول ذلك ، وانما زينب نفسها : اذن تدرك أنها مشتهاة ••• وتدرك أن نظرات أحمد الحسن تتجه الى منطقة الاغراء هذه ــ وأكاد أقسم على أنها هي التي كانت ترخي « شنبرها » لتكشف عن لحمها الأبيض ، فيراه أحمد الحسن •

وهنا أعود الى **قناعة القارىء** ، والتي ناقشتها من قبل ، وهي عقدة الموضوع ــ واهتمامي يتركز حول نقطة وحيدة : **ما هي مشروعية تخيل الهرب** ؟

من الناحية النفسية ــ أقنعني المؤلف ، واقتنعت، بأن هذا التخيل ، هو : امتداد أو تعويض طبيعي لشعور الحرمان السابق ، من زوجها / نتيجة طبيعية لشعور الوحدة بعد اعلان فقدان الزواج/ نتيجة طبيعية لشعورها بالحاجة الى حماية خارجية •

من الناحية الحيوية ــ اقتنعت أيضاً بأن تخيل الهرب ، هو تعبير عن رغبة الأنثى ، أي أنثى ، في رجل •

من الناحية العقلية ــ يوجد ترابط سببي بين العلة والمعلول : الوضع الخارجي والداخلي ، وانبثاق التخيل / عدم وجود منفذ أمام زينب •

ولكنني لم أقتنع أبداً أن حلم اليقظة هذا ، يملك أي مشروعية أخلاقية ــ وحتى أزيد التعبير وضوحاً ، أقول : ان وجود مبررات لنشوء رغبة ما ••• لايعني بالضرورة مشروعية التنفيذ ــ وفي هذا الباب ، أذكر قصة عميقة المعنى : الخليفة عمر بن الخطاب ، رأى ابنه قادماً من سوق اللحم ،فسأله عما كان يفعل • فأجابه : **اشتهيت لحماً فاشتريت** ــ فقال له عمر بلهجة التأنيب : **أكلما اشتهيت اشتريت** ؟ !

واذن : لماذا فعل المؤلف ذلك ؟ فكرت طويلا في الأمر ••• ولكنني لم أعثر على جواب ــ ومن هنا ،فقد كان هذا الموضوع « قضية » بالنسبة لي•

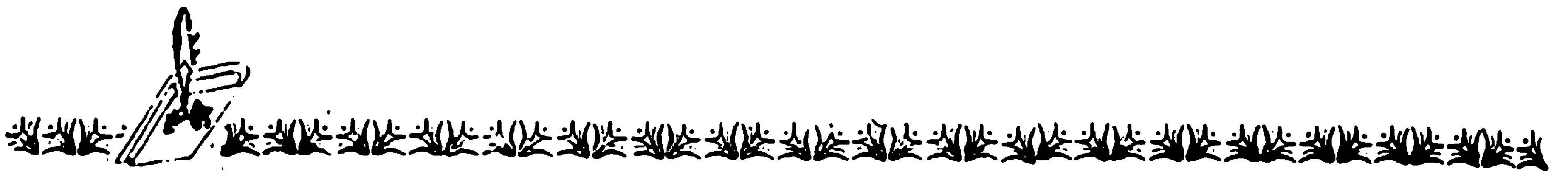
ومن هنا ، أقول : « **القناعة** » مفهوم مركَّب، يختلف من فرد الى آخر ، وحسب المعادلة الشخصية للفرد ــ انها وجهة نظر أساسية •• فلسفة المرء في الحياة •

لديَّ مثال من الرواية ، ويصلح كشاهد في هذا الباب :

المسعود، وزينب ، لهما ثلاثة أولاد ــ ولكنهما، من أول الرواية الى آخرها ، ولا حديث لهما الاعن البكر ، زيد : زيد •• زيد •• زيد ••• وكأن الآخرين ليس لهما وجود ، حتى أصابني الغيظ والدهشة ، وشعرت بشفقة قاتمة على الطفلين الآخرين •

حملت الرواية الى صديق متزوج ، وسألته أن يقرأ وزوجته ، الرواية ــ وفي الأسبوع التالي رأيتهما ••• وكان الجواب : الأمر طبيعي •البكر هو رب العائلة المنتظر •

وقالت الزوجة : أنا أحب ابني الصغير أكثر من اخوته ، ولكن هذا لايعني أنني لا أحب الآخرين ــ ثم استخدمت مثالا باللغة العامية ، وهو : يعني لبحبّ أمّو •• لازم يكره أبوه ؟



وقال الزوج : محمد ٠٠ آراؤك نظرية ،لأنه لا يوجد عندك أولاد ٠

ملاحظة صغيرة

المثال ، كما يلوح ، عليه الطابع الشخصي ، ولكنه ليس كذلك على الاطلاق ـ واذا نفر منه أصحاب النظريات ، فلا حيلة لي بذلك : فأناأتعلق بالجزئي ، ولا أحب المجردات ٠

القضية الرابعة ـعلاقةالمسعود بأحمدالحسن:

حيرتني هذه العلاقة ، وشغلتني ٠٠٠

حيرتني : لم أجد لها سبباً ، ولم أتمكن من تفسيرها الا مصادفة ٠

شغلتني : لأني ظللت عدة أشهر وأنا أفكر فيها ، وأقرأها ٠٠٠

والعلاقة بين الطرفين بسيطة جداً ، جداً : أحمد الحسن هذا ، صاحب دكان في القرية ، وهو جار محمد المسعود ٠ وفي أثناء غيابه في الكويت ، كنت زينب تستدين منه ، وتدفع له الحساب في آخر الشهر ، عندما يرسل لها زوجها المصروف ٠

هذه هي العلاقة بينهما ـ **الحادثة الوحيدة** التي وقعت بين الاثنين ٠ أن المسعود تأخر قليلا في احدى المرات عن ارسال المصروف ، فطالبهم أحمد الحسن بالحساب ٠

بشيء من المبالغة أسميتها « حادثة » ـ وما عداها لا يوجد أي شيء في الرواية ، يبرر ولوجزءاً من الحملة الشعواء التي شنها محمد المسعود على أحمد الحسن ٠

أقطع الحديث لأقول ما يلي : أنا لا أعتمد ، هنا ، على الاستنتاج ، ولا أستند الى شعوري الداخلي ، وانما أنطلق من الواقع الحياتي ٠٠٠ والذي يحدث مع كل الناس دون استثناء ـ سآخذ الحادثة نفسها ، وأفترض أنها وقعت معي :صاحب دكان في الحارة / أستدين منه / تأخرت في تسديد الحساب ٠٠٠ فطالبني ـ

في اليوم الأول أخبرت زملائي في المدرسة بالحادثة ـ وفي اليوم الثاني كررت الحديثبطريقة أخرى ٠ وفي اليوم الثالث ٠٠ والرابع ٠٠ وهكذا ٠٠٠ أخيراً يخرجون عن طورهم وعن حدود الزمالة

ويسالني أحدهم بدهشة : كل هذه الثورة لأنه طالبك بالحساب ؟ ! محمد ٠٠ لا بد أنه يوجدشيء خفي بينك وبين صاحب الدكان ٠

وهذا ، بالضبط ، ما فعله المسعود ـلنستمع اليه :

ـ « كنت أرسل اليهم كل شهر مصروفا لابأس به ، وكان أحمد الحسن يستقبلهم بالابتسام والترحيب ، يعرف أنه سيقبض حسابه كاملا فيآخر الشهر ٠ وأذكر أن زينب أخبرتني عندما عدت من الكويت بعد ولادة ابنتي فاطمة ٠٠ أن أحمدالحسن طالبهم بالحساب مرة ٠ وكنت قد تأخرت قليلاعن ارسال المصروف اليهم بسبب استعدادي للسفر ٠٠ فذهبت اليه والأرض لا تحملني من غيظي ،ودخلت دكانه دون سلام ، ووضعت على الدف الخشبيثلاث قطع من ذات المائة ٠٠ صحيحة ٠٠ تطقطق ٠٠٠ وقلت له : هات الحساب ٠ محمد المسعود ماهوشحاذ ولا هامل ٠ هات حسابك يا أحمد الحسن ٠ ص ١٨ » ٠

منطق أناني ٠ فيه الكثير من نكران الجميل ـ

على الرغم من ذلك ، فقد اعتذر له أحمد الحسن وأرسل له الوسطاء ـ ويقول المسعود : « خرجت من عنده مرفوع الراس ٠ ص ١٨ »

وعسى أن يكون القارىء الكريم معي في هذه الكلمات :**دخلت دكانه دون سلام ـ تطقطق ـ خرجت مرفوع الرأس** ٠

أهذه هي أصول التعامل بين الناس ؟

ـ « ووجدتني أشعر بالخندق يضيق ويضيق، حتى يصبح أكثر كآبة من اللحد ٠٠ ووجه أحمد الحسن فوقه بمواجهتي يحاصرني ، وأنا أصرخ به:

أنا يا أحمد الحسن ، أموت كل ساعة من أجلك ومن أجل غيرك ، لكي تطمئن على تجارتك وأرباحك وبيتك ٠ كيف تستطيع أن تنام براحة واطمئنان ، وأولادي بجوارك يتضورون من الجوع؟ لماذا تفعل ذلك يا أحمد الحسن ٠ لماذا ؟ لماذا تفعلون ذلك جميعكم ؟ ص ٢٣ ـ ٢٤ » ٠

يموت من أجله ومن أجل غيره ٠٠ **هذا كلام سليم** ـ ولكن لماذا يحمّل أحمد الحسن ، وحده ، المسؤولية ؟ وبأي حق يلزمه بأولاده ؟ أهوالمسؤول، شرعاً أو قانوناً ، عنهم ؟ لماذا لا تكون القرية كلها مسؤولة ٠٠ المختار ٠٠ جابر عم زينب ؟



في صفحة ٢٦ يتحدث محمد المسعود عن نفسه فيقول: «جاب طرقات قريته وقرى عديدة غيرها، وطرق أبواب المسؤولين في وطنه باحثاً عن فرصة عمل، فلم يوفق في الحصول عليها».

سؤالي اذن: على من تقع المسؤولية ... على أحمد الحسن أم على المسؤولين الذين لم يؤمنوا له العمل؟ لماذا اختار احمد الحسن ليصب غضبه عليه؟

أرباحك يا أحمد الحسن! أي أرباح هذه؟ صاحب دكان في قرية .. يبيع القهوة والسكر والشاي والقضامة والسكاكر للاولاد ..

يبدو لي أن المؤلف شعر بالمبالغة التي يرتكبها المسعود، فقام بنفسه بالدفاع عن أحمد الحسن: «أنا رجل مسكين، ضعيف الحال. اذا لم آخذ ثمن ما أبيع، فانني لا أستطيع أن أشتري ما أبيعه ثانية. ص ٢٤».

هذا هو المنطق السليم - فاذا كان الزبائن يستدينون ويؤجلون الدفع، فكيف تستقيم المعاملة بين الناس؟

- «ان العلاقة التي تربطني بتراب القرية ليست واهية ولا بسيطة .. وقد قدمت لها أكثر مما قدم أحمد الحسن بكثير. ص ٢٥».

- «وأستحضر صورة أحمد الحسن مرة ثانية .. وما أكاد أطلبها في خيالي حتى أشعر بها مجسمة وقد سدت منافذ الرؤية علي. وأنظر اليه هذه المرة بشيء من الكبرياء والعزة والتعالي وأنا أقول له: لولا وجودي هنا ما كنت لتشتري أو تبيع باطمئنان يا أحمد الحسن .. وانتظرت جواب أحمد الحسن لحظة .. ولكنه لم يقل شيئاً. كان رجلا بسيطاً، صاحب دكان في قرية ولا يملك الكثير ص ٢٧ - ٢٨».

كان رجلا بسيطاً، صاحب دكان في قرية .. لقد أحسن المؤلف، والله، في هذا الدفاع، وأعاد محمد المسعود الى المنطق الطبيعي السليم.

ظللت عدة أشهر وأنا أفكر في هذا الأمر: لماذا هذه الحملة الشعواء؟ وما الذي يؤرق المسعود في موضوع أحمد الحسن؟

لو كان المؤلف شخصاً غير علي عقلة عرسان، لما أوليت موضوع أحمد الحسن هذا الاهتمام على الاطلاق .. ولقلت ان المؤلف يلقي بلا سبب ولا روية هذا الكلام، ويريد، فقط، أن يملأ الصفحات أو يتاجر بالشعارات - **أما علي عقلة نفسه، فهذا مستحيل.**

بالطبع، لا أعني بتاتاً أن علي عقلة عبقرية خارقة، أو أنه في موهبة دوستويفسكي أو هوميروس - **اقصد، وحصراً**، ما يلي: علي عقلة مخرج مسرحي .. **ولغة المسرح** (كما قال لي) لا تحتمل الترهل والتداعي، وكل كلمة لها مقابل موضوعي - واذن: مؤلف بهذه الذهنية وبهذا الرصيد المسرحي، لا يمكن أن يكون قد أنطق المسعود بهذا الكلام كيفما اتفق. لا بد من سبب ... ولكن ما هو؟

كان أمامي:

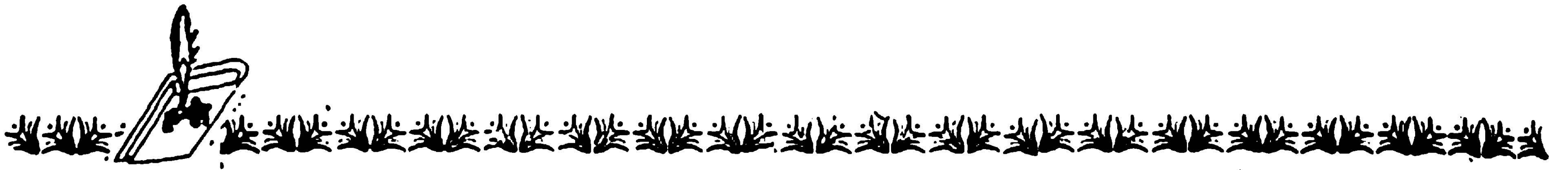
أولا - أن أقصي قضية أحمد الحسن وأنهي كتابة المقال. وهذا يعني أنني أتنازل عن جزء أساسي من رؤيتي للرواية / أو كأنني أكتب المقال لمجرد الحصول على التعويض المالي الذي تدفعه المجلات / أو كتعبير عن صداقتي للمؤلف /.

وفي أي حال، فان **القاسم المشترك** بين الاحتمالات الآنفة الذكر، هو: **عدم احترام الرواية**، وهذا، عندي، غير جائز تحت أي اعتبار.

صحيح أن مشاعر الصداقة تختلط بالرأي الأدبي، ولكنني بالوقت نفسه، وهذا توكيد قاطع: أحترم الرواية .. أحترم ما اقرأ وما أكتب - وقبل مشاعر الصداقة، **يجيء الاحترام للفكر.**

ثانياً - أن ألغي المقال كله ما دامت المشكلة لم تجد حلا ... وهو الذي نويت: فالمقال ليس «تسوية» وليس «تلفيقاً» بين أجزاء ... - انه رؤية متكاملة.

وفجأة لمع الحل في ذهني: فأنا أكتب الرواية أيضاً. وصادف أنني كنت أنقح أحد فصول رواية أكتبها ... فقمت بتغيير بعض ملامح الشخصية الرئيسية - وهنا جاءت الفكرة: لقد رسم المؤلف شخصية محمد المسعود، ولكنه خلال كتابة الرواية،



أو خلال التنقيح ، قام بتبديل بعض الملامح ،وقدم للقارىء محمد المسعود الذي رأيناه في الرواية • ولكن المسعود « الذي رسمه بالأصل » •• لم يختف نهائياً : رأينا جانباً من سلوكه فقط ، أماالأسباب فظلت كامنة ـ ومن هنا جاء الاشكال •••

وفي ضوء الرأي الآنف الذكر ، رجعت الى الرواية من جديد • رجعت الى وقائع مررت بها آنذاك دون أن أتوقف عندها طويلا ، لأنه لم يتبادر الى ذهني أنها دلالة على شخصية محمد المسعود :

١ ـ **نزار الشاوي** ، زميل المسعود في خندق القتال ، لا يعرف اسم زوجة المسعود ، ولا يعرف أن له أقارب •

قرأت هذه الواقعة في حينها ، فأثارت فينفسي سؤالا بسيطاً : غريب ! رفيقه في خندق القتال ،ولا يعرف اسم زوجته ! واكتفيت آنذاك بهذا الشعور•

٢ ـ **وأنتقل الآن الى زينب** : « لقد أحبت محمد منذ الصغر ، وترافقا على طرق القرية ، والتقيا في أفراحها ، وطالما تبادلا نظرات لها معان مختلفة عن تلك التي كانت لهما في الصبا •• لمحات صغيرة مرت بخاطر زينب وهي تعيش لحظاتها الحالمة تلك ، حين دفعه حبه الى حدود الغيرةالسوداء من كل من يتقدم لخطبتها ، واغترابه رغم قلبه ورغمها هي ليعمل من أجلهما • ٧٩ ـ ٨٠ »

الغيرة السوداء ••• !

٣ ـ **وهذا كلام أحمد الحسن عن زينب** : « لذعة نار قديمة في سويداء قلبه تركتها زينبمنذ الصبا ، وقد شبت الآن حريقاً بفعل ريح مواتية • كان ذلك حين رفضت زينب أن تصبح له زوجة •• رفضت حتى مناقشة طلبهحين أرسل اليها منيعرض عليها الأمر من طرف خفي •

وحمد الله على أن ذلك الخبر لم ينتشر بين الناس ، صحيح أنه بذل بعض المال وخضع لشيء من الابتزاز ، ولكن النتائج جاءت في صالحه تماماً ، والا لأصبح رفضها له على كل شفةولسان ••• ص ١١١ ـ ١١٢ » •

هذه الوقائع ، اكتسبت الآن مدلولاتجديدةـ
ـ زينب تحب المسعود وهو يحبها منذالصغر•
ـ غيرة المسعود السوداء •
ـ أحمد الحسن كان يحب زينب ورفضته •

القرية ضيقة ، ومحدودة ـ ومحمد المسعود يحب زينب ويغار عليها غيرة سوداء • واذن : يعرف أن أحمد الحسن يحب زينب ، **وأنها رفضته** • لذلك فانه يغار من أحمد الحسن ويحقد عليه • يضاف الى ذلك ، أن **المطالبة بحد ذاتها** ، تجعله مقصراً في نظر زينب •

لقد رسم علي عقلة شخصية محمد المسعود على هذا الأساس • ولكنه ، قبل الكتابة او خلالها، رأى تبديل الصورة ، فكتب عن محمد المسعود **الجديد** • ولكن محمد المسعود **القديم** ، ظل فيخيال علي عقلة ، وظل يحمل غيرته السوداء •••فالقى بها علي عقلة على سلوك المسعود ـ فاذا لم يكن الأمر على هذه الصورة ، فكيف نفهم هذه الحملة الشعواء على أحمد الحسن ، لمجرد أنه طالبزينب بتسديد الحساب ؟

★ ★ ★

يقول الأستاذ الهاشمي عن أحمد الحسن :
« أحمد الحسنبشخصيته الاستغلالية التيأفلح الكاتب في الكشف عن أبعادها ، انما هو صورة الاستغلال الذي يعاني منه البناء الاجتماعي » •

ويقوم السيد الهاشمي بتحليل هذه الشخصية ويعتمد في ذلك على علم الأنماط الشخصية ،الذي يحدد المقدمة المنطقية للشخصية الاستغلالية •

واني لأسأل الأستاذ الهاشمي: أين الاستغلال؟

مالياً ـ ماذا عند المسعود ليستغله ؟ وأحمد الحسن : أهو صاحب شركات ؟

معنوياً ـ ماذا فعلأحمدالحسن في هذاالسبيل؟ هل فعل منكراً بزينب ••• أو طلب منها منكرالقاء الاستدانة ؟ لم يفعل أي شيء من هذا القبيل •

شخصياً : وجدت أحمد الحسن مثال الوفاء ـ عاشق قديمـ ظل يحتفظ بحبه، حيأ ، عدةسنين• وعندما شاع خبر وفاة المسعود ، ظن أن بالامكان تحقيق حلمه بالزواج •

استدراك

غيرة المسعود السوداء على زوجته ، هي التي جعلته يخفي اسمها عن زميله في القتال ، نزار الشاوي ـ

★ ★ ★



☐ **الشخصيات :**

الوطن ـ شخصية معنوية / الشخصية الأولى وذلك من جهتين :

ـ كونه هدف الرواية ٠

ـ شخصية محمد المسعود ، اكتسبت معناها وسموها ، من التضحية في سبيله ٠

وقد حققت الرواية هدفها القومي بصورة ممتازة ، تبعث الرضا في النفس ٠

الأسرى في المعتقل ـ شخصية جماعية مرتبطة بالوطن ، كتجسيد للشعب ٠

محمد المسعود ـ شخصية محورية ، وذلك من جهة كون الحوادث تدور حوله ٠

ظل خاضعاً للارادة الاجتماعية العامة ، حتى وقوعه في الأسر ـ واذ ذاك ، اتخذ كياناً خاصاً به، واختار مصيره بارادته ٠

زينب ـ شخصية محورية ، باعتبارها كاشفاً لشخصية المسعود ، وعاملا أساسياً في سلوكه ٠

أحمد الحسن ـ شخصية رئيسية ، باعتباره جزءاً ضرورياً في بناء الرواية ، ومحرضاً لسلوك زينب ، ووسيلة لآراء المسعود السياسية والاجتماعية ٠

أم سليمان ـ شخصية « ثانوية ـ رئيسية » كحلقة اتصال ، **لا بد منها** ، بين زينب وأحمد الحسن : والمقصود بذلك ، أن علي عقلة (حسب اجتهادي) لم يضع في بنائه الروائي قيام اتصال مباشر بين زينب وأحمد الحسن ، لذلك كان لا بد من وجود أم سليمان ٠

☐ **كلمة أخيرة :**

١ ـ عندما أقارن بين «**زينب ـ الاجتماعية**» و « **زينب ـ الحرة** » يتجلى لي الفرق بين الاثنتين/ عندما أقارن بين محمد المسعود وهو يتحدث عن حياته الاجتماعية ٠٠٠ ومحمد المسعود وهو يتحدث عن شعوره الوطني خلال التعذيب ، يتجلى أيضاً لي الفرق : **جذبتني جداً** زينب الحرة ٠٠٠ **جذبني أكثر** محمد المسعود في المعتقل ٠

واني لأتساءل: كيف كان سيبدو أحمدالحسن لو تركه علي عقلة يعرب عن حبه لزينب ٠٠٠ عن شعوره وهي تجيء لتستدين منه ؟

٢ ـ عندما أعطى الأستاذ علي عقلة شخصياته شيئاً من الذاتية ، فان اللغة عنده ، ارتفعت الى منزلة الشعر ـ وليس الأمر من قبيل المصادفة، ولا هو بالابداع المفاجيء : لأن الاحتكاك بالواقع المادي ، يفرض اللغة الملائمة له ٠٠٠ لغة محدودة الايحاء ٠٠ خاضعة للمحسوس ـ

في حين أن عودة « الشخصية » الى ذاتها ، تستلزم لغة شفافة ٠٠ رقيقة ، لغة الشعر نفسه ٠

٣ ـ قد تكون آرائي صائبة ، أو خاطئة ، أو بين بين ـ ولكن هذا لايشكل مساساً بالحقيقة التالية: لقد جذبتني هذه الرواية ودفعتني الى التفكير زمناً طويلا : جذبتني زينب ٠٠ وجذبني أحمد الحسن ٠٠ حتى أم سليمان كان لها شيء من الجاذبية ولكن ظل محمد المسعود ، هو الذي يلازمني حتى الآن ٠



الاقتراب من ذاتية الأشياء والرحيل نحو الأبعد

دائرة الكسوف

لمصطفى يعلى

العربي بنجلون

أن تصبح ناطقا عن وعي وادراك ، تحمل عذابات الآخرين ·· ضاما بين جنبيك دفقات وشحنات قوية من الأحاسيس ، تلتهب في برهة مخاض فكري ··· خير من أن تغدو كتلة لحمية تدب بلا ألم ·· بلا اهتمامات مجتمعية ·· انسانية ·· متخمة القلب والفكر ، لا تملك نبضة عرق ، ولا خلجة نفس ، ولا ارتعاش بدن ·

واذا أردنا أن نتفق على ممثل شرعي من بين المبدعين للقصة المغربية الحديثة ، لحال المجتمع المتردية ، فان اجماعنا سيقع على القاص مصطفى يعلي ، الذي نلمس لديه حسا بالواقع الراهن لا يماثله فيه سوى قليل من الكتاب ·

ومصطفى يعلي من مواليد القصر الكبير سنة ١٩٤٥ ، تابع دراسته الابتدائية والطور الأول من الثانوي بنفس المدينة ، ثم درس السنتين الأخيرتين من التعليم الثانوي بالعرائش ، فحصل على الباكالوريا بتطوان عام ١٩٦٥ ، أما تعليمه الجامعي فتم بفاس ، حيث أحرز على الاجازة في الأدب سنة ١٩٦٨ ، كما نال شهادة استكمال الدروس بكلية الأدب بالرباط عام ١٩٧٥ ، ويحضر حاليا أطروحة جامعية عن الفن القصصي المغربي لنيل دبلوم الدراسات العليا ·

ـ دائرة الكسوف بين الشكل والمضمون :

الأدب مرآة ، والقصة تعكس حياتنا المجتمعية بما فيها من خلفيات اعتباطية ، توجز بنياتها في قدرة كاتبها على استبطان واستنباط الرؤى التحتية للانسان ، بحيث يقرن الواقع الذي يحياه بواقع آخر يتجلى في سراديب النفس ، وانبلاج الخيال، وصلابة الاستقراء ، وايراد الدهشة ، حينما ننتبه مع الضمير ، والكشف عن معاني النبل الانساني حينما تصطدم الرغبة الملحة بجدار الضمير الحي ، ومن هنا يمكننا أن ننطلق لنقول :

ان يعلي يصر على اعادة صياغة أبطاله بالانتكاس ، يدرك قضاياهم الأساسية ، لكنه لم يحمهم من المصير المحتوم ، فاتى شاحذاً لمفهومي اليأس والخيبة ، يعضد هذا الرأي الدكتور ابراهيم السولامي عند تحليل المجموعة الأولى : (··· كل هذه المواقف في السلبية والفرار من المجابهة وهي بذلك تمكن الناهبين والمرتشين والحالمين بالثورة العاجلة ، أمثال ـ بوغالب ، والشرطي والصديق من الغلوفي التسلط والاستنزاف ·)(١) ·

فضلا عن الرفيق أحمد بطا في ملاحظاته النقدية بجريدة البيان : (·· الا أن هذه النظرة المأساوية الشاملة في المجموعة ، قد بلغت حدتها ـ والتي كمايرى صاحب المقدمة ـ حين غدت عاملا هاما في خصوبة القصة القصيرة وثرائها ، فقد ظلت ذات رؤية أحادية الجانب من حيث الاحتكاك الفعلي



والواقع المتطور)(٢) فسمة الاحباط تتآلف في أسلوبه التأكيدي الذي تسربت من خلاله آراء وقيم فنية ومقومات تكنيكية ، أخصبت العمق القصصي فأبدعت بنائية ملتحمة ومنحى القصة ، الذي يوحي بضرورة التغيير ، ويبسط قيمة الخيال وقيمة الانسان في ثلاثية متراصة تركزت على العامل الأخير مرشحاً له كبطل منذراً به في توحد العوامل الثلاثة التي ناصرت بنائية القصة · بذلك يثبت يعلى بنيات القصة التي ليس عليها أن تصير معلماً بقدر ما عليها أن تطرح تساؤلات ذات جذور ، فأتت متناسقة والحجم الفني والدور العلمي لها ، من حيث انها تنأى على السطحية في تناول النص ، والتقريرية المهلوسة نابضة بالتوهج والاشتعال ·

وفي هذا الاتجاه ، تبرز المجموعة القصصية الثانية (دائرة الكسوف) مساراً يوفر لها رسوخاً ثابتاً تفتقر اليه تجارب حديثة لا تركن الى جذور ضاربة في العمق أو ترتكز على نوايا معلنة لخط القاص أو لتجديد الشكل الفني ، ولعل في صياغة المجموعة على الايقاع الكلاسيكي برهاناً آخر على لغة ما برحت قادرة على أن تكشف بنصاعة عن موضوعها ·

لهذا ، نرى يعلى يعبىء لمجموعته طاقة فنية وفكرية ، أحيت اللون الواقعي وأيضاً المحلي · في قصة (قراءة في كف الأحلام) تزدحم المشاغل بالأحلام المزمنة فيتمنى البطل لو يستطيع الضحك بصفاء ، وألا يرى التقطيب يخيم على الوجوه ، وأن يرى العصافير السجينة في الأقفاص تنعم بالحرية ، تغرد بيننا دون فزع أو نفور ، كما يتمنى لو انقرضت سباع العالم كالدناصير نهائياً .. وفجأة يلتقي برجل في السوق ، أخذ كفه عمداً ، أطلق عليه شلالا من الكلمات الكبيرة ، الحبلى بالسجايا والصفات التي يقطر لها لعاب كل أناني. فتلولب الضحك المر داخل صاحبنا : ···

(مر طفل في سن البراعم ، يحمل حقيبة خشبية سوداء · طالبني بذلة أن يلمع حذائي · أجبته أن لا ··· ماذا يقول هذا الرجل ؟ · أية وشيجة تربطني به حتى يعرف عني ما يدعيه ؟ · أنا وجه السعد والبركة ؟ · متى حصل ذلك ؟ ·

منذ فتحت عيني على العالم ، وأنا أجري وراء كسرة خبز بيضاء ، والى الآن لم أستطع تحقيق هذا الحلم · وكل يوم أبيع جزءاً من دماغي ، وعيني ويدي ورجلي، وكتفي وصدري وحلقي··· حتى أستطيع أن أؤمن لنفسي وأسرتي الخبز الأسود ، والغرفة السوداء واللباس الأسود ··· فأية ترهات يرددنا هذا الرجل الغريب)(٣) ·

ان القاص حينما يريد التعبير عن واقع معين أو بيئة معينة ، أو شخصية تسيرها قوى معينة ، فانه يطرح أشكالا فنية تتلازم وهذا الواقع وتلك البيئة وهذه الشخصية ونفسه كذلك ، عبر سياق قصصي لا يجنح الى التعقيد والغلو في الشكلية ، لأن المضمون الفكري واضح ، لا يفرض شكلا غريبا مقصوداً لذاته ·

وقصة (فيضان النهر الغاضب) ، صورة مصبوغة بسواد جنائزي ، اطارها الهيكلي يحمل أهازيج مناضل يعي الأخطار التي ترزح تحت كابوسها المدينة النائمة · يصفها الكاتب بعجوز مقامرة معتصرة تلعق الصديد والتفاهة والثرثرة والشعارات الفارغة · تمارس الخلاعة والمراوغة واللصوصية · تقتات أحشاءها وتحلم بألوان زاهية ··· (بينما النهر الغاضب حبل مشنقة في عنقها) · ويود البطل لو يستشر بين السكان الذين لا يبالون بمصير مدينتهم :

(ستهلكين أيتها المدينة اللعينة بعد قليل ستجرفك السيول الى قاع البحر) فاخذ يقرع أبواب المنازل ، شاهراً عقيرته للتحذير ، لكن ، على من تتلو دربوزك يا داود ؟

فقد برز سيل من الرجال الفظاظ وفي أيديهم عصي سميكة ··· يضعون في حسابهم مسألة حذف هذا الرجل ذي العقل المستيقظ لأنه عكر صفو سباتهم ، وأقلق راحتهم ، فشتموه ، طوقوه ، شجوا رأسه · غافلين عن النهر الذي تطاول على السطح فانطلق فيضاناً يعدو تجاه المدينة ·

ان حقيقة الحدث الذي بنيت عليه هذه القصة، ترمز بالرجل الى تطور الوعي من مرحلة التحذير الفردي الى مرحلة التكتل الجماهيري والمد الشعبي التقدمي اللذين محوا الاقطاعية بقيمها المهترئة ومعاييرها التي تغفل عن فئات تعاني من القهر والاستغلال ·



□ الطفـل ⋅⋅ الرمز :

أما قصة (الطفل الشرس) فتعرض نظـرة وموقفاً من العالم خلال سرد وقائع في حياة طفل ، ومن خلال رؤيـة العالم عبر عينيه ، مثلمـا تفعل فيرا بانوفاني سريوجا أود ومبادرةفي (رأي الشمس)، أو مثلما يفعل ساروبان في قصصه ⋅ وكونها عـن طفل ، لا يعني أنها تقدم وعياً طفولياً ساذجاً عـن العالم ، انها تقدم وعياً ناضجاً ، وتعيد بناء الزمن ، مثلما يفعل محمود دياب في (أحزان المدينة) فحياة الطفل في هذه الأعمال تكون استعارة مكبرة ⋅ في الطفل الشرس ، كانت هذه الاستعارة ترمز لبداية تفتح الوعي الرافض للطبقية ، ببداية تفتح وعي طفل يود لو يتحسس النجـوم ويربت على سـطح القمـر ، يأمل لو أن كل النجوم في حجم القمـر ⋅ يتساءل باستمرار ⋅⋅

— لماذا هي السماء بعيدة ؟

كما يفكر ⋅⋅ (انه هنا على تراب القريـة يحس بالتوحيد مع كل الموجودات ، قطعة هو مـن كل شيء، وكل شيء فلذة منه) ثم يحاور القمر⋅⋅⋅

(يا حصن الضياء ⋅⋅⋅ انزل الي ، احملني الى النجوم⋅⋅أريدان أعانقها⋅⋅ألثمها⋅⋅الاعبها⋅⋅ أقطفها ⋅⋅ لأوزعها على أصحابي) ⋅⋅

وحين يداهمه الجوع ، تقدم له أمه القليل من قبلهم ، خبز وزيتون ⋅⋅ يستفسرها ⋅⋅ والباقي لمن يا أماه ؟ فتجيبه/لأبيك ⋅⋅ الآباء أولا ، ثـم الأطفال ⋅⋅ قال الطفل لأبيه :

— من حقي أن آكل جيداً ، المعلـم قال ذلك ⋅⋅⋅

— ألم أقل انك شرس ؟

— ومن حقي أن أتمتع بجمال الطبيعة معلمي قال ذلك أيضاً ⋅⋅

— معلمك ، معلمـك يجب ألا يحشـر أنفه فيمـا لا يعنيه ⋅⋅ عليه أن يهتم بتحفيظك ما قاله الله ورسوله لا غير(٤) ⋅

ان رمزية الطفل كممثل للعامل الذي يناضل باصرار لكسر الحاجز بين الطبقتين الغنية والعاملة المعوزة ، تقابلها شبحية الأب المرعبة ، تمثله كأداة قمعية توكل لنفسها الهيمنة والتسلط على جهـل العامل وأمثاله من الكادحين ⋅

بالاضافة الى ذلكفان القصة تحمل ⋅ ـأيضاًـ معاني فلسفية هامة تبدي مدى دراسة عمل يعلـى القصصي في ضوء نظرية (الطبيعة هي الانسان) ، فليس من شيء خـارج الانسـان يختلف عنـه في الداخـل ⋅

في القصة يحس الطفل بالتوحيد مع الموجودات قطعة هو من كـل شيء وكل شيء فلذة منـه ⋅⋅ يتبادل الانتمـاء بينه وبين الأشجـار مثلا ، هـذه الأشجار معروفة لديه ، وهي كائنة من حيث هـي معروفة ، فوجودها يدخل في ملكة المعرفة المركبـة في الطفل ، ووجودها جزء منه ، ووجوده جزء منها ، فالطبيعة (الطوب ، السواقي ، النهر ، الغريـن الماشـية ، الـروث ، الطيـور ، سياجـات القصب والصبار ⋅⋅) هي النفس الموضوعية التي تواجـه النفس المدركة ⋅

وتأتي قصة (المشوه) لتمتاز بطريقة نسجها، ونمط الأحكام الخلقية التي تتضمنها ، وقد أتت في شكل منولوج داخلي يلائم عالـم الشخص الذي تتناول ، ذلك العالم الهوسي الدائر تحـدى الأنـا والآخرين ، انها أنموذج أول من نتاج يعلى لرجل طريد مشاعر الذنب والقرف لأنه تحدى الخيرين من الناس باستغلالهم ⋅

(التقم سيجارة جديدة، وسافر ذهنه في اعصار متاهتـه عبر خيوط الدخان الأفعوانيـة ⋅⋅⋅ ذق نصيبك مما يمر به غيرك باستمرار ⋅ آن لك أن تعرف ما في العجز من قوة ، وما في القوة من عجز ، كنت القوي الأقوى دائماً ⋅⋅ أو هكذا كنت تتوهم ، واللحظة ، هل تستطيع أن تميز أين العجز وأيـن القـوة) ⋅

— هل كنت قوياً حقاً ؟

ألا ترى أن الوقت قـد حـان لتضع الأشيـاء في أمكنتها الصحيحة ، وتسميها بأحق أسمائها ؟

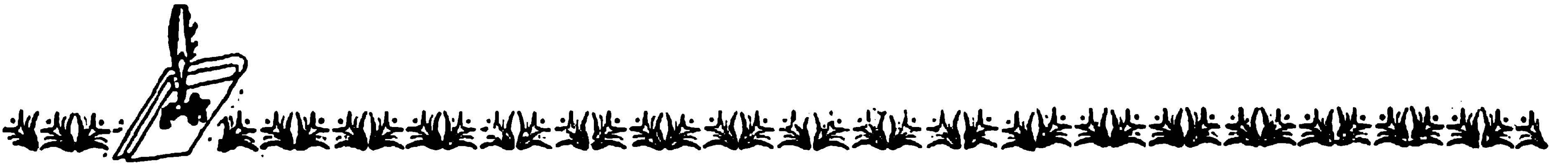
— عجيب أمرك ⋅⋅

— لماذا لم تفكر هكذا قبلا ؟

— لماذا لم تحسب لنوايا الزمان حسابها ؟

لم تغافلت عن تقلبات الدهر ؟

يوم لك ومئات عليك ⋅⋅⋅ حكمة مرعبـة ، أليس كذلك ؟ مر يومك ، اذن فاستعد لتحمل مرارة الأيـام ⋅⋅⋅ وليتك لم تسيء الى المئات ⋅⋅⋅ ليت



خصومك قلة ، ليت الله أغرق سفينة هؤلاء المنافسين المتكاثرين كالكلاب الضالة في الطرقات ، لم يبق لك غير أن توطن نفسك على تحمل هؤلاء شماتتهم) ، انه منعزل ٠٠ منسحق تحت تأثير الأحداث ٠٠ كأنه خشبة ينخر فيها صدأ الدهر والقدر ، ألم يقل جان بول سارتر :

« ان الذين يصابون بالندم هم هؤلاء الذين تنطوي نفوسهم على شعور بالذنب نتيجة لأعمال لم يقوموا بها اختياراً ؟ »

لكن ، هل يقصد الكاتب ذلك ؟

لا أعتقد ، فهو يحذر ـ فقط ـ الذين يتقبلون في كل ما ابتدعه ابليس من فنون الحرام ، غير مبالين بآلام الآخرين يحذرهم من ليل أسود آت ٠

وحتى في لحظة الانتكاس ، حيث يفترض التنوير ، تزداد المساحة عتمة فيأتي التفاعل مع شخصية القصة حالكاً وهي مختنقة في تجاويف صدرها ، اذ لا ترى في العالم الا الكمائن ، كلها موجهة ضدها لذا فهي تركض عبر التوسل :

(أعدكم بدخول الجنة ٠٠٠ سينالكم كل بر واحسان كما لم تجاوزوا من قبل سأوقع لكم شيكات بيضاء ٠٠ احدى المرضات تحت جفنها شامة مصطنعة ، رنت اليه بنظرة فاترة تقطر شهوانية ٠٠ لعنة الله عليك ٠٠ أفي مثل هذه الحال ؟

ولكنك لذيذة ٠٠٠ سوف أعمل على أكلك كالفرخة الطازجة أيتها الملعونة ٠٠

.... بعد أن يكون كل شيء قد مر بسلام ٠)

وكلما اجتازت كميناً أو متاهة ، وأيقنت ببلوغها آخر محطة ، لينتهي الصراع النفسي الحاد، يبدأ الركض في الزمن المنهوب حتى يصبح صنفاً من الألم السيزيفي :

(أنين زوجته يلوي أحشاءه ٠ مستعداً هو أن يؤدي أي ثمن ٠٠ المهم أن يمر كل شيء على ما يرام ٠٠ كثيرا ما هزأ بآلام غيره مبدؤه في الحياة ألا يضعف ٠٠٠ أن يواجه الآخرين بحق أو بغير حق ٠٠٠ يتحداهم بوقاحة كما يقولون عنه ٠٠ والحق أنه كان دائماً على استعداد لأن ينكس كل الفئران التي تقف في طريقه كما ينعتهم ، ولكي تستمر المأساة ، ويعجز سيزيفنا المغربي عن اغراء

(السماء الرحيمة ، والسحر العظيم ، والأطباء والمرضات والعلم ٠٠) ، كما يعجز سيزيف المتوسط(٥) عن الصعود بالصخرة العاتية الى قمة القمم ، يتواصل الى سمع البطل صدى واه لما يشبه صوت طفل ، الا أنه أقرب الى شهيق شيخ محتضر منه الى صراخ وليد ٠٠٠ ثم صر باب حجرة التوليد ، واندفعت من خلفه ممرضة ذات محيا يموج خوفاً وامتعاضاً ٠٠ سألها في لهفة نهمة ٠

ـ ذكـر ؟

ـ لا ٠٠٠٠

ـ أنثـى ؟

ـ لا ، لا ٠٠٠٠

ـ لا هذا ولا ذاك ٠٠٠٠

دخل حجرة التوليد ، شهقت المرضات دهشة وفزعاً ٠٠ بينما رددت القابلة مرعوبة ٠

ـ لنناد على الطبيب المختص بسرعة ٠٠ فقد خرج الوليد الى الحياة مشوهاً بشكل مخيف..(٦)

تعايش شخصية البطل ثلاثة أدوار ٠٠ الاحساس بالألم المريع ، فمحاولة التمرد لينقذ امرأته وطفله من الحتف ، الرضوخ والاستكانة للواقع المرير ورغم تداخل هذه الأدوار فانها مؤشر ذو دلالة جلية على المراحل المتعاقبة التي يمر منها الانسان المحبط ٠ والنموذج الخامس من كتابات يعلى ، نستلهمه من القصة المعنونة ب (دائرة الكسوف) ، لقد توارد في ذهني وأنا أهم بقراءتها للمرة الثانية رأي هيدجر بأن الانسان يستطيع أن يحيا بصورة ذات معنى بينما يتجه الى الموت ، فيعلى يصور في هذه القصة شيخاً يعلك الغيبة لأن الناس انفضوا عن حلقته ، مجرد تحلق الأطفال حوله كان كفيلا بأن يقود اليه الحشود المتدافعة ٠

(لعن الله الذي يسمونه السينما ، والتلفزيون والمدرسة ٠٠ آخر الزمان هذا ، التصوير حرام ، والمدرسة من رجس النصارى ومع ذلك ؟)

يا للعنة السماء ٠٠ فأين هذه من العنتريات ومن الكتاتيب المباركة ؟ ٠٠

وبمهارة وقدرة يجمع القاص كل ما يدور في البيئة المحلية المغلقة من أوهام ، وما يعتقدونه من خرافات ، وما يفسرون به كل أمر من أمور حياتهم ٠



(زفر الشيخ مرزوق ... توقف وتقدم من أبي الهاشمي المسترخي وراء عربته اللقيطة ·

ـ ماذا يا أبا الهاشمي ؟ ... الام يتطلع أولئك البلـه ؟

فذب بائع الحلوى عناقيد الذباب المتراكمـة على سلعته الرخيصة بمنشتـه ، وأخرج الجـواب متحشرجاً من حنجرته ..

ـ يقولون انهم يرقبون شيئاً اسمـه .. اسمه .. تذكرت ، اسمه الكسوف الكسوف .. اذن هـي الزلازل ، وهو الطوفان ، هو الخراب ...

ـ لماذا يا شيخ مـرزوق ؟ ... لا ترعبنـي ، أرجـوك ..

ـ في احدى حكاياتي ـ أن مثل هـذا كان في قديم الزمان ... كان قوم فجـار ، رماهم الله بالمـال والحسان وابتلاهم بالشيطان ·

ـ لعنة الله عليهم الى يوم الدين ...

ـ ... ففسـدوا في الأرض وعاثـوا .. وبذلك استحقوا لعنة السماء.. فكان أن جاءهم الكسوف والخسوف ·)

واذا كان لا بد لكل قصة من غاية تسعى الى تحقيقها ، وهذه الغاية هي الفكرة الصميمة التـي يدير الكاتب قصته حولها ، فان الكسوف يرمز الـى نهاية الشيخ مرزوق الذي لم يعد قادراً على التفاهم مع اليافعين الجدد ، ولقد أصاب سارتر في (الجدار) حين قال بيارلايف ..

(هناك جدار بيني وبينك، أنا أراك وأكلمك، لكنك في الجهة الأخرى ، والجهة الأخرى بالنسبـة للناشئة هي الآفاق المتزمتة التي تغلف الشيخ مرزوق وتعوق تغير الانسان خلال الزمن في عملية التطور الخـلاقـة ..

وتنتهي القصة بأن يبحث الشيخ عن جماعة المتقاعدين الذين لفظتهم الحياة كالحطام الزائد ، فيدرك أنهم توجهوا لتشييع جنازة (عبو الريـح) الـذي كان يحفظ ما يسمعه من حكـايات مرزوق ويرافعه فيهـا من حـين لآخر ويدلـه على نقطـة الاستئناف اذا استطرد وسها ·

« وخيل له أنه يسمع الجماعـة تهمس اليـه بالنـداء :

ـ تعال ... تعال ... تعال ... تعـ ..

وان عبو الريح أيضاً يدعوه بالحاح ·

ـ الشيخ مرزوق ... تعال ... أرجـوك تعال ...(٧)

فحمل سجادة الدوم المهترئة بيد رعيشة ... وتأبط كتاب (حمزة العـرب) · ثم أسرع ليلحـق بالجنازة ...

الخط التطوري في قصص يعلى

□ الحوار المتناقض :

لقد أحسست وأنا أنهي قـراءة آخر قصـة في « دائرة الكسوف » كأنني أقـرأ قصة واحـدة ، أو قصيدة شعرية متكاملة ، عـلى الرغـم من تنـوع الموضوعـات · فهي ذات نفس متقارب في الـرؤى والصياغـة ، تعتمـد الوصف بنوعيـه البـراني والجواني ، وتمتح من الحوار لتكسير رتابة السرد ، ولكن هذا الحوار يبدو رائعاً في قصة « قـراءة في كف الأحلام » ، لأنـه حوار متناقض ، يقول فيـه قارىء الكف شيئاً هو أحلام مضمخـة ، ويرد فيه المقروءة كفه بواقعيته المعيشة ·

ويتجلى هذا الحوار في مستويين : الأول حوار خارجي بين شخوص القصة ، والثاني داخلي يصبح فيه البطل سائلا ومجيباً في آن : « ـ اتركني أنظر كفك يا ولد الرضى ، بارك الله فيك ، لـن يخيب الله من ولدتك ·

ـ لمـــاذا ؟

ـ والله انك لابن سعد وسعود ، ووجه نعيـم ووعود ، و ...

ـ ظاهر ذلك ! ومن أين عرفت ؟

ـ كفك تقول ذلك .. بركة أجدادي ستقف معـك ...

تلولب الضحك المر داخلي · مر طفل في سن البراعـم ، يحمل حقيبة خشبيـة طالبني بذلة أن يلمع حذائي · أجبته أن لا .. مـاذا يقول هـذا الرجل ؟ أية وشيجة تربطني به حتى يعرف عنـي ما يدعيه ؟ أنا وجه السعد والبركة ؟ متى حصـل ذلك ؟ منذ فتحت عيني على العالم ، وأنا أجـري وراء كسرة خبز بيضاء .. »(٨)



□ لحظة التنوير :

من الواضح في هذه المجموعة ايثار يعلى ختم قصصه بلحظة تنوير ، تلقي شعاعاً فضياً على الجو العام للموضوع ، وهي وسيلة فنية تعزى الى موباسان وتلميذه محمود تيمور ، لكن هذه اللحظة التنويرية تبدو محبوكة وشفافة وموحية ، مثلا ، في قصة « حكاية الجفاف في السنوات العجاف » يوهمنا القاص أن عين الماء المسكونة ظلت راسخة في اعتقاد أهل القرية ، بل حتى في أذهان اللاحقين كجدة الراوي وأمه ، ولكنه ينهي القصة بقوله : « ·· ولم تذكر جدتي لأمي عن جداتها ماذا كان مصير القرية بعد ذلك · وظلت حقيقة (لا لا عين الرباح) تشغل ذهني وترعبني ·· ولما كبرت الححت على أمي ببعض الأسئلة عن أسرار تلك العين العجيبة · ولكنها لم تشف غليلي بأجوبتها ، وان كانت قد ذكرت لي في احدى المرات ، أن جدتها أشارت ذات يوم ، وهي تعيد عليها الحكاية للمرة الألف ، الى أن شيخ القرية ، كما حكوا ، كان يبدو أثناء تحذيره للأهالي شارد العينين مشرق الوجه ·· »(٩) ·

ومثل هذه النهاية التنويرية تقابلنا في أكثر من قصة ، أمثال « الطفل الشرس » و « دائرة الكسوف » و « المشوه » ·

□ الواقعي والمتخيل :

من المميزات الناصعة في المجموعة ، المزج بين الواقع والمتخيل · يقول في قصة « باب الاذكار في ما هو آت من الاخبار » : « ·· من جديد تدخل محمود وأكد : لقد انهد السدوخرج ياجوج وماجوج يا شيخنا · لقد رأيتهم بأم عيني · انهم أنواع ، منهم من يملك شبكة من قرون الاستشعار في الرأس والصدر والأطراف.ومنهم من يقفز على رجل واحدة فيطير · ومنهم من اكتسى بالشعر المعزي بحيث لا يظهر أي شيء آخر ·· وهم الوان ، البيض والشقر ، ومنهم السمر كذلك ، الا أنهم جميعاً في طول الشبر ·· »(١٠) ·

والأمر في هذا المثال لا يخلو من ترميز ، ويمكن العثور على أمثلة أخرى في باقي القصص ·

□ النزوع الى السخرية :

يضاف الى الخصائص السابقة ، الروح الساخرة ، وهي نفس مطلوب في الكتابة الجيدة ، وما أمثلة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وعبد العزيز البشري ، وعبد القادر المازني ، ويحيى حقي ، وسرفانتيز ، وموليير ، ومارك توين ··· وكثير غيرهم ، بغريبة عن دارسي الآداب العالمية ·· والمتأمل في حياة هؤلاء المبدعين الساخرين ، يجد غالبيتهم كابدوا آلاماً ممضة ، حتى لتنطبق عليهم قولة فولتير : «ان الناس ليسخرون تفادياً للانتحار» ، وبالنسبة لقاصنا ، فانه نشأ في بيئة محافظة ، يهيمن عليها التزمت ، وتسري في شرايينها الخرافات والأحاجي والاعتقادات البالية ، المدجنة للفرد ، والمعرقلة للتطور ، الشيء الذي دعاه الى التمرد على هذا الوسط الآسن عبر التفكه والسخرية الهادفين ، وقد برزت هذه الخاصية على لسان « هرنان الحكيم » بالخصوص :

« سأله أحد المارة من بعيد ، بصوت مرتفع :
– من سيلعب الأحد القادم يا هرنان ؟

فانطلق هرنان يتحدث عن ظهر قلب ، في سرعة المذيع الرياضي ، غير مبال بصاحب الدكان الذي ظل واقفاً أمامه يرعد ويزبد :

– في القسم الوطني الأول ، شطر الشمال وشطر الجنوب ، شطر الشرق وشطر الغرب ، شطر السماء وشطر الأرض ، مراكش مع كازا ، الرباط مع فاس ، القنيطرة مع وجدة · وفي القسم الوطني الثالث ، القصر الكبير مع أصيلا · أما في الخارج ، أمريكا مع روسيا ، مولاي بغداد مع خميس الزمامرة ·· وأنتم يا أبناء الكلاب ستظلون خارج الأقسام ، فكل لاعب منكم يريد أن يكون نجم الموسم ، وأخيراً ، سيلعب أبوك مع أمك على الفراش ·· »(١١) ·

□ الجانب المحلي :

تكتسي المجموعة – شكلا ومضموناً – صبغة بيئة أثقلتها التقاليد والعادات والخرافات ، كقضية الغول ، اله عين الرباح ، موسم سيدي هلال ، التسليم للرجال ، ضريح سيدي سليمان ، تقبيل الدربوز ، كائن وحشي من عالم المردة والغيلان ، له جلد معز ووجه ثعلب ، رفس الزجاج والشوك في المواسم ···



ويستعمل القاص في صياغة هذه القضايا الخرافية ، جملا مسجعة حتى تكون مطابقة في معناها ومبناها ، ومنسجمة مع الجو النفسي الذي يخيم بظلاله عليها ، من ذلك في « حكاية الجفاف في السنوات العجاف » : « وأصيبت الورود بالذبول ، وارتعشت سنابل الحقول ، فبرد الدم في شرايين البقول »(١٢) كما يضمن قصصه حكماً وأمثالا عامية مستمدة من البيئة ، نحو : « من ليس عنده فلوس ، كلامه مسوس ، من آلمته أضراسه ، فليبحث عن الكلاب • القضية في الشاشية • »

☐ **بين « دائرة الكسوف » و « أنياب طويلة •• » :**

عند موازنة المجموعتين « دائرة الكسوف » و « أنياب طويلة في وجه المدينة » ، اللتين تمتدان في حيز زمني يصل ما بين ١٩٦٨ و ١٩٧٨ ، يتجلى التطور في أمرين : أولهما ايجابية الأبطال ، وثانيهما الاهتمام الكبير بالجماعة بدل الأفراد •

فاذا كانت المجموعة الأولى قد صورت الصياد المقهور ، والمعلم السلبي أمام الارتشاء ، والفرد الهارب الى دفن همومه في الحشيش ، والمثقفين الثرثارين في المقاهي ، والسماسرة النهمين دون ردع • فان المجموعة الثانية صورت الطفل الواعي ، والمعلم المدرك لواقعه والدرويش المنتقم من خصومه ولو باللسان •

واذا كان الغني في الأولى يقيم حفلا بهيجاً لجمعه رصيداً هائلا من المال فان الغني في الثاني ينال عقابه المر لا من المجتمع ، ولكن من الاله الذي رزقه ذرية مشوهة ••

وفي « دائرة الكسوف » نلحظ وعي الجماعة المدنية واضحاً ، فالشيخ مرزوق وجماعة قليلة من أنصاره هم المتخلفون ، لكن ــ على النقيض ــ نلحظ الجماعة متخلفة في البادية ، والشيخ وحده الواعي المستغل ••

كذلك ، اذا كان وعي الفرد أحياناً مستغلا في المجموعة ، كما في « باب الاذكار •• » فهو وعي ناضج قريب من الزعامة التي تربأ بالنفس عن استغلال الظروف وركوب الموجة ، كما في قصته (السقوط في الأحجام الكبيرة) التي ضمتها المجموعة البكر •••

لكن الوعي في « دائرة الكسوف » ليس تفاؤلا رخيصاً ، يشي بالآمال الواهمة ففي قصة (عزي يفوز بالجائزة الكبرى) تتسم أن عزي المحظوظ بربحه للرهان ، كان يمر بنفس ما سيمر به ماسح الأحذية الصغير ، وكأن يعلى يخرجنا من دائرة التفاؤل المسرف ليقول : اذا فاز عزي فهو استثناء نادر ، لماذا ؟ لأن ملايين العزيين ما لبثوا مقهورين ، ولا أمل لهم في تحسين الحال •••

☐ **خصائص عامة :**

ان أبرز مزايا قصص يعلى ــ وهي مزايا كل فن جيد ــ المزاوجة بين الموقف الملتزم والامتاع الفني ، وهي مزية تعود الى الفهم الواعي المسؤول والى الطاقة الفنية ••

لكن الامتاع الفني لم يقده الى التيه في الأشكال الحديثة المغرقة في البحث والمغامرة ، بل ظل حريصاً على الرؤية الواضحة ، والتقنية المحكمة واللغة الصافية التي تعتبر « أساس بنية القصة لدى يعلى بما تمثله من اقتصاد في التعبير ومراعاة لجانب الموضوع »(١٣) •

☐ **هوامش :**

١ ــ ابراهيم السولامي/مقدمة (انياب طويلة في وجه المدينة) لمصطفى يعلى ص ٣ •
٢ ــ احمد بطا/البيان • ع • ١٥٧٦ • ص ٦ •
٣ ــ مصطفى يعلي/دائرة الكسوف ص • ٤٧ •
٤ ــ المصدر السابق/ص ١٧ •
٥ ــ نسبة الى البير كامو الملقب بكاتب البحر الأبيض المتوسط •
٦ ــ دائرة الكسوف • ص ٧٧ •
٧ ــ المصدر نفسه ص ٣٧ •
٨ ــ ص • ٤٧ •
٩ ــ ص • ٧٠ •
١٠ــ ص ١٠١ •
١١ــ ص • ٨٩ •
١٢ــ ص • ١٠٠ •
١٣ــ مقدمة (انياب طويلة) ص ٩ •

بين الوعي السلبي ودلالة العلاقات



صدوق نورالدين

ان اسكتناه الاطلاق الروائي لمحمد زفزاف (محاولة عيش) ، يقتضي استجلاء المكونات العلائقية لبنية النص ، ذلك أن (محاولة عيش) كطرح دلالي تعبيري عن نمط عيش يفترض اللهاث من أجل البقاء ، خاصة في ظل آنموذج رأسمالي ثالثي ، لن يستوفي احقيته المتوخاة الا بربط الشريحة المجتمعية المتحركة والمتفاعلة داخل بنية النص الدلالي بالموقع الثابت لها داخل المنظومة الاجتماعية ، ولئن كانت من الوجهة التاريخية قد استحقت موقع الفعل النضالي ، بالتالي ، تشريح اشكالية التواجد على المستوى الفردي داخل هذه الشريحة المجتمعية ، باعتبار أن مقياس الوعي الجمعي لا زال لم يستوف ممكنات التحقيق. من ثم فان كانت (قبور في الماء) تستهدف تأكيد نوع من الالتفاف داخل الحلقة الاجتماعية، فان (محاولة عيش) تجسيد لبعد الصراع الحاصل داخل هذه الحلقة ، ما دام على الصعيد الأسروي يتم التواكل على الفرد وليس الجماعة ، وهذا نمط اخفاق المسار الليبرالي في العالم الثالث ، اذ أن النمو الديمغرافي السريع ، بالتالي تخطيطات التبعية للنسق الغربي، المسببات الثاوية خلف هذا التواكل ،حيث العائلة الواحدة تعتمد على فرد واحد تستنزف قوته وتاكل من عرق أكتافه ، كما حدث لأسرة (حميد) ، بطل (محاولة عيش) حيث الأب لا يشتغل والأم كذلك ، مما اضطره للبحث عن ذاتيته المفقودة .

☐ اشكالية التواجد على المستوى الفردي :

تتجسد خيوط هذه الاشكالية ، من خلال الرغبة في اعلان الخروج من دائرة الوجود السلبي ، الى الوجود الحركي والفاعل في الآن نفسه . اذ آن(حميد كمعطى طبقي مسحوق لن يكتسب ممكنات ذاته الا باعلان هذه الذات نفسها في مجال الحركة والتفاعل . بيد أن هذا الاعلان جاء في تواجد نلمس من ثناياه الرفض لهذا الوجود الفاعل ، بالتالي سمة القمع ، ما دامت المؤهلات المعنوية غير متوفرة. فعملية بيع الصحف ممارسة تستهدف تأكيد الحضر على المستوى المجتمعي ، بالتالي الفردي الخلاصي لأسرة تمتاح رحيق الفقر والزاجة ، وبذلك فالمحاولة في العيش عسيرة وذات متطلبات لا بد من توفرها، اذ بغيرها يكون من العسير القفز خارج دائرة الفقر. وعلى الرغم من ذلك فان (حميد) حاول اعلان ذاته ، الا أنه في حلب هذا الاعلان وجد نفسه مرفوضا ، باعتبار الممارسة لمهنة بيع الصحف دلالة عن مستوى رديء للعيش كما يفهم الحقل المجتمعي المحيط (بحميد) ، لذلك كان الرفض السمة الكائنة



أثناء كل تحرك وتفاعل يستهدف من ورائه (حصيلة) اعلان ذاته للعالم ، وما ينطبق عليه كممارس لهذه المهنة يلازم الآخرين أيضاً ٠

(ألقى حارس الباخرة بقايا سندويش في وجه حميد ، وجرع دفعة واحدة علبة بيرة ، ثم طوح بها تجاهه لكنها لم تحبه ، تراجع حميد ٠ ليس هناك أية امكانية مع ذلك الوغد، مشى نحو رفاقه الثلاثة٠ كانوا قد انتهوا من الشجار ٠ جلسوا فوق أنبوب الخمر وأخذوا يتبادلون سيجارة واحدة) ٠

الم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتعرض فيها المضايقات ، ولم يكن هو وحده من بائعي الصحف يتعرض لذلك ٠ ان هؤلاء الحراس أجلاف ٠ كأنهم ولدوا وتربوا في مواخير ٠)

و (حميد) في عمق احساسه وقابليته لهذه المهنة ، لم يكن منطلقه الفكري سالماً ، بل محشواً بآراء مسبقة هدفها الخضوع ان لم أقل الاستسلام ،ذلك أن طبيعة المجتمع عودت الفرد في حالة تعامله مع شيء له رغبة فيه اضافة الى عقدة نقص وتطلعه نحو المستقبل الايجابي ، أن يخضع ولا يناقش ، لكأن الذي سيتعامل معه لا يمكن مناقشته ، ونقول هذا بالرغم من وضعية (حميد) التي في ممكناتها المعنوية تبقى سلبية نوعاً ما ٠ لذا وجد (حميد) نفسه مرفوضاً ، في نفس الآن ، لا يملك سلطة حتى في مهنته ، فهو يسير وفق الرأي المقترح ، وفق التعاليم التي يتلقاها من (الرئيس) ، من ثم افتقد حريته في عمله وظل رهين الشروط التي من المستوجب على كائن مثله الاحتذاء بها ٠ وبذلك تبقى سلطة (الرئيس) أداة لفرض الرأي وليس نقاشه ، وهو في نفس الآن ما يشعر هذه السلطة بقوتها وامتلاكها مفاتيح التعامل مع الآخرين الذين ليسوا في مستواها ، خاصة في ظل وضعية تحديدية لمصير مجهول ، كمصير عائلة (حميد) التي تنتظر منه أن يعولها ٠

(في الطريق ، أخذ حميد فكرة عن الرئيس ٠ عليه أن يكون مؤدباً أمامه ، أن يكون ساذجاً ، الرئيس لا يحب الأذكياء ذوي النظرات الحادة ،يحب المعتوهين والمغفلين ٠)

(ـ آه ، انها السن المناسبة ٠ هذه مهنة المستقبل ، عليك أن تكون جاداً اذا أردت أن تعول عائلتك ، هل تدخن ؟ ٠) وبذلك فان كانت علاقة (حميد) مع (الرئيس) علاقة يذوب فيها جليد الحرية ، فان تواصله مع أسرته (قبل المهنة كان يشكل علامة من علامات الاحتجاج على المطالة ، ولعل ذلك من دوافع تقبله للمهنة مهما كانت شروطها ، اذا ما المحنا لكون احساسه كان يزج به للابتعاد عن الكلمات النابية التي يسمعها من والده (العاطل أيضاً) ووالدته على السواء ٠ من ثم فان بيع الصحف خلاص لذاته ولعائلته أيضاً ٠

(الأب :

ـ كل يا بغل ٠ كتفاك مثل كتفي الجمل ٠ لاينفع فيك أكل ٠

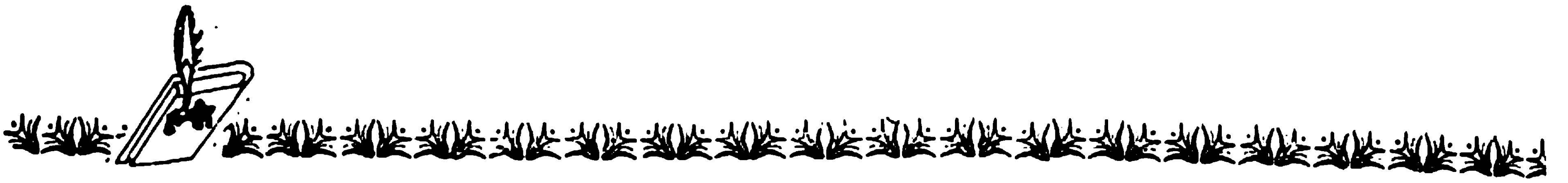
الأم :

ـ كل ، تأكل فيه سماً ٠

الأب :

ـ متى يتدبر هذا الحمار أمر نفسه ؟ هذا كثير علي ، كثير علي ٠)

وبذلك فاشكالية التواجد على المستوى الفردي ، تطرح قضايا عميقة خاصة بالنسبة لشخص في مستوى (حميد) ووضعيته المعقدة ، فهو يتواجد في ظل مناخ يرفضه ، بالتالي يفتقد فيه حريته ، مع احساسه بأن محاولته في العيش عسيرة ٠



□ دلالة الوعي السلبي :

السمة التي تطبع وعي (حميد) كونه وعيـاً ينمو اتجاهاً انحدارياً ، ذلك أن الرغبة في اكتساب ممكنات معنوية تمهد فرشة التغيير الذاتي منعدمة ،ليبقى بذلك المنطلق الفكري الذي شيد معماريتـه في (الأكواخ القصديرية) وحده السلوك الموروث، على الرغم من حركيته وتفاعله في وسط يعكس علاقة التضاد لمـا هو منتشـر هنالـك • وبذلـك(فالمدينة) بالنسبة له علامة للبحث عن الرزق أو العول ، وليس لفهم العالم وتغيير الذات • من ثم ،فالابقاء على ما هو كائن يزج (بحميد) نحو وعي سلبي ضيق الأفق • ولعل من أهم المسببات التـيأفلحت في اضفاء السلبية على سيرورة هذا الوعي ، الافتقار للممكنات المعنوية التي نجهل دوافعها ،بالتـالي طبيعـة التكويـن البيئي لحميد كمعطى طبقي مسحوق • فهو يرفض الدخول في نقاش يتعلقبالشرطة والدولة ، باعتبار أن الفقير مثله لا يمكن له ذلك ، اضافة الى نظرته السوداوية لما يتعلـقبمجالات السينمـا ، حيث أن مقيـاس اعتبـاره وتبريره ناتج عن الوعي الموروث وليس المتعلم •من ثم فهو يرفض أشياء قـد تساعده على الأقـل للتساؤل عن مفاتيح لفهم أشـياء أخرى ، وهـذاالرفض في عمقه ناتج عن احساسه بأنه لا شيء في الدائرة المجتمعية ، في معنى لا يعتبر أن لتواجـدهفعالية ايجابية ، في حين أن لتواجد الآخرين طابعه الدينامي ، وهذا يعود لاختلاف الأوضاع ، بالتاليلمسار المجتمع ذي الطبيعة الرأسمالية ، ولوضعيـة العامل في هذا المجتمع •

(ـ على كل حال ، أنا لم أفهم شيئاً من قصته، ولكن يبدو أنـه يريد أن يدخل في صـراع مـع الشرطة والدولة • عليه أن يعرف أن ذلك ليس فيمستطاع الفقراء أمثالنا • أنا شخصياً اذا رأيـت شرطياً أطلق رجلي للريح •)

(ـ يلعن أبوك ••• لقد كانت أمي تقول ليإذا دخنت فاني سأدعو الله أن يدخلك الى الجحيم • أنا أريد أن أدخل الى الجحيم مع بريجيت باردو ومارلين مونرو هل تعرفهما ؟

ـ لا ••

ـ يجب أن ترى كم هما جميلتان في السينما •انهما من الكفار الذين سيدخلون جهنم •

ـ انك كافر • وهذا مشومة عليك •)

وبذلك فان كان ثمة مرحلة ايجابية في حياة(حميد) ، فهي محاولته ادراك ما حوله (الأكواخ القصديرية) ، بالتالي الخروج من شرنقتها (البحثعن الرزق في المدينة)، على أن تحويل هذهالايجابية الى وعي يعمـل على التغيير لا يمكن ادخالهمـا فياعتباره • من ثم فعلاقته (بالضاوي) تبقى علاقـة غير متوازية ، (فحميد) ينحدر بوعيه ، في حين أن(الضاوي) ينحو اتجاهاً تصاعدياً ، ولئن كان هـذا الوعي متجسداً في (ـ لا تتعب نفسك • لا أحد يريدأن يقرأ •) أي يطرح اشكالات عويصة •

□ اشكالية التواجد على المستوى الجمعي :

يطرح انتماء (حميد الى واقع طبقي مسحوقدلالة صارمة على التباين الحاصل بين مستويـين للعيش ، مستوى (الأكواخ القصديرية ، في مقابلمستوى عيش (المدينة) كرمز الترف والغنى ، مع ضرورة الاشارة الى كون أنمـاط العيش داخـلالمجتمع المديني تختلف ذاتها ، ما دامت البورجوازية الصغيرة ليست هي البروليتاريا ، كما أن البورجوازية المتوسطة ليست هي البورجوازية الصغيرة • الا أنه وفوق كل اعتبار تبقى هذه التشكيلات دونالطبقة الكادحة ، طبقة (الأكواخ القصديريـة) وما سواها • (فحميد) في محاولته للعيش دل علىاشكالية التواصل المعيشي عـلى المستوى الفـردي وكونها غير ممكنة ، ما دامت على المستوى الجمعيكذلك ولكن العلاقة الحاصلة بين مجتمع (الأكواخ القصديريـة) المتخلف والمجتمـع المديني علاقـةاستغلال ليس غيره (وحميد) دلالة كفرد عما يحصل للجماعة ككل: ذلك أن مجتمع (الأكواخ القصديرية)تكريس أو محصلة آلية لخدمة المجتمع المديني مـن



ثم فالوجود الحق للمجتمع الأول غير ممكن الابكينونة الثاني ، من هنا يبرز الصراع الطبقي الحاصل في بنية المجتمعات الرأسمالية ، التي ترىأن سيرورة الحياة المجتمعية تنبني على علاقات استغلالية ·

(كل هذه الآلاف من الناس هي في خدمة سكانالمدينة · منهم الحفارون والخادمات واللصوص ومنهم الصباغون والجيارون والبائعون المتجولونوالمتسولون وكل شيء ، منهم كل شيء وكل شيء حتى بائعو الصحف ، من بائعي الصحف حميد ·)

على أن العلاقة بين مجتمع (الأكواخ القصديرية) والسلطة ، علاقة تستهدف وأد التحرك خوفا من الفاعلية ، اذ مهما اكتسب هذا المجتمع ممكناتمادية ومعنوية فقد ينافس المجتمع المديني · من ثم فالسلطة أداة لها خصوصيتها المتمثلة في أفرادهاالذين يتواجدون في ظل المجتمع (القصديري) · الا أن هؤلاء الأفراد وبحكم تواجدها في مجتمعاستغلالي/احتكاري ، فانهم يساهمون من موقعهم في الخريطة الاجتماعية ، وبأساليبهم المختلفة(الرشوة كنموذج) ، في اكساب ذاتيتهم امتيازها الخاص داخل المجتمع المديني ، لتبقى العلاقة ككل ،استغلالية نهبية/وصولية ، في حين يبقى مجتمع (الأكواخ القصديرية) في اشكالية الانعتاق الىالخروج من وضعه الكادح ·

(ـ ان هذا ليس مخبأ كما تقولين · انهابراكة بالفعل تتسع لأكثر من اثنين ، لا بد وأن يكون لها ترخيص · سوف أعود غداً أو بعد غدلأجدكم قد هدمتموها ·)

(ـ أنت تعرف أن هذا مصنوع ، لو علمالخليفة بذلك لأوقفني عن العمل · ولكنني أتحمل كل شيء من أجل ناس طيبين مثلك ، من اجلأصدقاء ·) ··

☐ الوجود الباهت :

ان مثار الصراع الطبقي التباين الحاصل فيأنماط العيش ، على أن هذا المثار نسق تبعي لتشكيل بعيد عن الهوية الوطنية · فاللهاث وراءدول رأسمالية لها وزنها دلالة عن انعدام القدرة في المشي ، ان لم يكن صعوبة التحقيق لتأكيد الذات· من ثم يحصل الارتباط الذي يفصح عن انعدام الانفصال ، في معنى أن التواجد المستقل في كينونتهباهت ، ما دام نفس المسار يتأكد وبفاعلية جديدة على مسرح الحياة السياسية · فدلالة حضور(أمريكا) في (محاولة عيش) اشارة لما أكدت سالفا· على أن هذا الحضور له امتيازاته وخاصياتهعلى السواء ، فهو بالنسبة (لحميد) كدلالة على المجتمع المغربي بكامله وليس مجتمع (الأكواخالقصديرية) وحسب، ما دام الذي يمكن أن يتعرض له (حميد) قد يحدث بالنسبة لأي فرد خاصة منطرف أجنبي ، يمثل واقعا فوقيا يدهشه في لحظة مواجهته له ، باعتبار أنه بالنسبة للأمريكان لا يساوي شيئا ، بل عرضة ان أمكن للبيع وبطرق وكيفيات بشعة ·

(ضحك الأمريكي وضرب المرأة من الخلف ·صرخت المرأة دون أن تلتفت اليه : « أي ، دعني ألعب ، سأربح هذه الدورة ، كم ستدفع اذا هزمتأيها السكير · »

قال الرجل :

ـ سأدفع لك حياتي ··

التفت الى حميد وهو يتعتع :

ـ وحياة هذا العربي الصغير ·)

وهكذا فالانسان العربي لديهم لا يساويشيئا ، اذ أنهم في تواجدهم يلمحون أنه دون (فوقيتهم) ، من ثم فعلاقاتهم به ، علاقات استغلال/هتك الكرامة ، بالتالي الموت ان أمكن ، وأمريكا فوق هذه الاعتبارات جميعها تدعي انتشال العاطلمن معمعة الفقر ، كما تدعي مقدرتها في الريادة



انطلاقاً من الدفاع عن حقوق الانسان العربي المهضومة ، ولئن كانت الحقيقة المرة الهروب من احداث فائض اقتصادي يؤدي حتماً لانهيار الأسعار وتراكم السلع ، ولنتذكر جيداً (الأزمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩) : والانسان العربي من خلال كل هذا يواجه وعياً يخضع له ، بالاندهاش والانبهار ، وأحياناً الاستسلام ، ما دامت مقدرة الممكنات المعنوية للحوار والنقاش مفقودة ٠

الجنود الأمريكيون بالخصوص ، يدوسون كثيراً من الخادمات المغربيات والسكارى بسياراتهم الطويلة والعريضة ٠ ، أمريكا تصافح هذا العاطل المسلول ، ان الرئيس الأمريكي يصافح كل عاطل في هذه البراريك ، ويبتسم لكل مسلول أو مشلول ، وأيضاً يلقون نفايات القاعدة الجوية ، فيتسارع اليها كل ساكني البراريك ليلتقطوا الأجبان المدودة وبقايا المعبرات القارة ، وقطع الخبز المبللة بسوائل لا يدري أحد ما هي ، ويلتهمون كل ذلك بنهم ، وهكذا تلتقي الكف بالكف فتتصافحان ، ويبتسم الرئيس الأمريكي لكل عاطل ومسلول ومشلول وأجرب ٠٠٠ الخ ٠ ،

□ التحول :

ان (حميد) وكدلالة كما أكدت في بداية هذا التحليل ، فرد من شريحة اجتماعية عاطلة ٠ من ثم فهو بالنسبة لها رمز الخلاص والانعتاق من دائرة الفقر ، بالتالي ومن خلال هذا الخلاص يحدث الارتباط الوثيق بهذه الشريحة ٠ الا آن دخول المرأة عالمه الحياتي أخفى نوعية التغيير والتحول في أعماق هذه الحياة ٠ ذلك أن الارتباط العائلي تضاءل مقياسه ليتحول الى شبه انفعال ، خاصة في لحظة مواجهة (حميد) (لغنو) النموذج الأنثوي الفاسد ، بناء على علاقات الارتباط والعهارة الخارجية ، التي تحمل في النص دلالة البحث عن الرزق ، أيضاً النموذج الأنثوي المثالي بناء على علاقة الزاجة والفاقة (بحميد) كفصيلة كدحية ٠ وهكذا فالاتصال (بغنو) وربط علاقة جنسية معها تحول الى ألفة ومساعدة ، اذا ما المحنا لكون (حميد) يعي أن لها اتصالات خارجية ، ومع ذلك سيرتبط بها ، بعد أن أصبح يعيش مرحلة من النمو العاطفي الصادق ، كذا بالنسبة اليها ما دامت تفتقد الانسان الأوحد في حياتها ، الا أن هذا التحول والشبه انفصال ، سيكون مدعاة الشريحة الاجتماعية للتساؤل عن كينونة (حميد/الخلاص) ، ليحدث التفكير في تزويجه (بفيطونة) ، هذا الزواج الذي ستساعده فيه (غنو) كانسانة مثالية ٠

(لم تفهم أمه شيئاً في هذا التغيير الذي حصل لحميد ٠ لم يعد يخشاها ٠ في السابق لم يكن يستطيع أن يرد عليها ٠ دائماً كان يقول نعم ، أذهب الى الجحيم ٠) ٠

(شعر حميد أن هنالك دموعاً تريد أن تتسرب من عينيه ٠ قاوم كثيراً ، لكن دمعتين تدفقتا من عينيه ، وعندما رأت غنو ذلك أجهشت ببكاء حقيقي ٠ وضعت كفيها على عينيها ٠ ثم وقفت وهرولت مسرعة الى المطبخ ٠ ظلت هناك فترة قصيرة ٠ في حين بقي حميد يتأمل السوار ينظر في جدار الغرفة ٠ ينظر الى النافذة الصغيرة فوق الباب ، كم هي طيبة هذه الفتاة ! كم هي صادقة ! ليست من ذلك النوع الذي يحدثه عنه زملاؤه في العمل ٠)

و (فيطونة) كما أعتقد سالفاً انسانة بريئة عاطفياً ٠ الا أنها في لحظة الزفاف أكدت النقيض ، ليصبح (حميد) دلالة عن معاناة معقدة ، تبتدىء من البحث عن خلاصه وعائلته من الفقر ، بالتالي ارتباطه (بغنو) كدلالة عن عاطفة أولية نمت واكتسبت حجم المساعدة (وقد تتحول الى زواج بعد الفشل الأول وهو مالا يضيفه النص) ، أيضاً فان تدعيم الوعي السياسي يتأكد عن طريق (الخمرة) كدلالة أخيرة للهروب من المعاناة المتشابكة ٠

□ استنتاجات :

ان (محاولة عيش) في تركيبها الجمالي شكلت نوعاً من الحديث الحاضر/الماضي بطريقة استهدفت (بعثرة) الصور ، لكن ليس على طريقة (الربيعي) في (الوشم) ، وانما يحدث الاسترجاع لحظة التساؤل الجوهري عن ماضي البطل ، هذا الاسترجاع الذي يأتي في شكل سرد ، وأحياناً في شكل حوار ، تماماً كما حدث في (قبور في الماء) : لذا أمكن اختزال النص في هذا الجدول بكيفية تنامية ٠

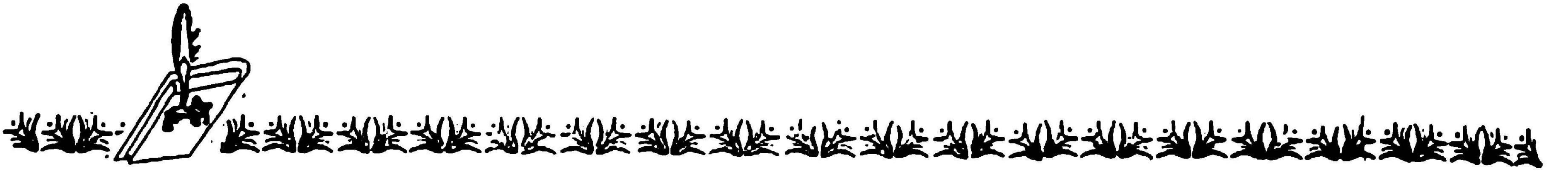


البطل	المراحل التنامية للنص
حميد الماضي ← عاطل الحاضر ← بائع صحف	**المرحلة الأولى :** حميد ← العائلة = عطالة + غضب · حميد ← الضاوي = خلاص + وعي دون الايجابية · حميد ← الرئيس = فقر + قتل الحرية · **المرحلة الثانية :** حميد ← العائلة = رزق + اطمئنان ورضا · العائلة ← السلطة = فقر + رشوة · حميد ← الأمريكان = وعي سالب + تبعية · **المرحلة الثالثة :** حميد ← غنو = حب + مساعدة وحب · العائلة ← حميد = رغبة في التزويج + قلق وحب · حميد ← فيطونة = حب + حياة زوجية فاشلة · **المرحلة الرابعة :** حميد ← غنو

أيضاً نلمح غياب الاعتماد الزماني/المكاني ،وهي ظاهرة تأكدت على السواء في (الأفعى والبحر)، الا أن النص يشي في العمق بدلالة يمكن استنتاجهابمجرد الفراغ من قراءته ، ذلك أن الزمن زمن تواجد القواعد الجوية الأمريكية بالمغرب ، والمكانمسقط رأس الروائي محمد زفزاف (القنيطرة) ، باعتبارها احدى المدن التي تمركز الأمريكيونبقلبها ، و (أعتقد) أن البطل (حميد) تقمص من حياة زفزاف مرحلة زمنية هامة ، وكل كتابة بالأساس تحمل منطلقات ذاتية محضة · و (محاولة عيش) من خلال المحيط الانساني الذي أكدته ، تكاد تدلبمجموع شخصياتها على تطلعات لا تستهدف سوى العيش من أجل اعلان الوجود الحياتي ·

□ لماذا الوعي السلبي ؟

أكدت سالفاً بأن (حميد) شخصية تعاني منسلبية وعيها ، وهذه السلبية لا تنحصر في (محاولة عيش) كابداع روائي لزفزاف وحسب ، وانماتتأكد في بعض قصصه القصيرة ، وكذلك روايته (الأفعى والبحر) ، على الرغم من أن (سليمان)أنموذج لشريحة مثقفة · ولعل مرد هذه السلبية يعود الى حجم الواقع الذي يواجهه المبدع ، بالتاليتعقيده وتشابكه ، كما أنه قد يعود للرؤية التي ترى بأن الأدب لا يمكن أن يضبط مفتاحاً تفاؤلياًما دامت الحلول ليست من خصوصيات التبعية الأدبي · والظاهر أن زفزاف يساهم في تقييموتاريخ الوعي الزمني لمرحلة معينة في حياة المجتمع



المغربي ، بغية التأكيد على نمطية الوعي السائد ،أقول اشكالية هذا الوعي المتمحور في الهوة الفاصلة بين النخبة المثقفة والشريحة الكادحة ، بين الوعي واللاوعي ، لتبقى الكلمة حاملة التنوير دائرة في فلك خاص ، ولئن كان هذا الفلك قد شيد معمارهامن أجل (الآخر) اللاواعي ، وبذلك فالعلاقة بين الأديب والكادح علاقة انفصام وليس تجاوب وتفاعل ، ولا حتى ممارسة ، باعتبار أن المبدع دلالة على عطاء ، في حين أن المتلقي رمز لممارسة فاعلة ٠ تقول الناقدة (يمنى العيد) : (والكلمة تمارس بواسطة الجماهير عندما تحمل الوعي اليهم٠ اذن فعلاقة التعامل بين الأدب والجمهور كعلاقة تطورية ، لا تتم بمعزل عن علاقة أخرى علاقة الجمهور بواقعه الاجتماعي ٠) ٠

وبذلك فالحديث عن المجتمع في اطار واقعي ،لن يكتسب ممكنات الفعالية الا حينما يعي هذا المجتمع الوعي الكامن داخل الابداع ، ولعل تلك المرحلة أشد المراحل صعوبة وتعقيداً ، ما دامت مرحلة الخروج من الوعي السلبي ٠٠



□ هوامش :

١ ـ نشرت رواية (محاولة عيش) لمحمد زفزاف ، ضمن ملف للأدب المغربي بمجلة (الأقلام) العراقية عدد ٢/١٩٨٠ ٠

٢ ـ كتاب (ممارسات في النقد الأدبي) ليمنى العيد ٠

تصويب

وقع سهواً خطأ في العدد الرابع صفحة ١٠٨ باسم كاتب موضوع (أبعاد الصراع العربي الصهيوني ومستقبله) للأستاذ يحيى خلف والصواب يحيى يخلف ٠

فالمجلة تعتذر عن هذا الخطأ ٠

المسرح العربي في المغرب

بين التقاليد والتجديد

عبدالله أبوهيف

- ١ -

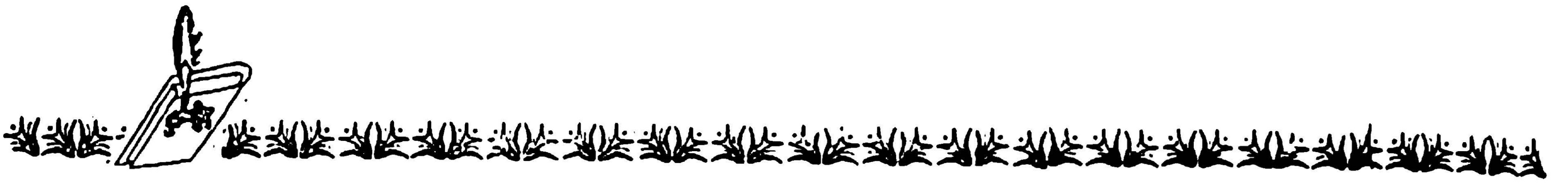
يحتل المسرح في المغرب مكانة خاصة في مجمل الحركة المسرحية العربية ، ويجري باستمرار تقدير جهد الفنانين المغاربة وهم يتقدمون المسرح العربي بحثاً وتجديداً وبخاصة في الممارسة المسرحية حيث يتوفر على المسرح المغربي رجال مشهود لهم في التأليف والاخراج . لقد فتق هؤلاء المسرحيون مكامن المسرحية وأضاؤوا ـ حيثما حلوا ـ مكانا مظلما يخرج منه جمهور كبير يرضى وينتفع . ويروي لنا من عايش مغامرة المسرح في المغرب ـ أمثال الدكتور سلمان قطاية ـ حكايات طويلة عن صلابة الارادة وقوة الانتماء من أجل بناء مسرحي شاهق باعتباره اسهاماً حضارياً بالدرجة الأولى . وقد أجاب هؤلاء المسرحيون على بعض أسئلة المسرح العربي مبكرين : استمداد عراقة الماضي ورؤيا المستقبل وهذا كله لا يخفى على عشاق المسرح .

فقد شاهدنا عروضاً مغربية للطيب الصديقي وأحمد الطيب العلج وعبدالكريم برشيد وغيرهم ، وشاهدنا أيضاً عروضاً محلية لبعض المسرحيات المغربية مثل (السعد) و (حليب الضيوف) ،وكان استقبال الجمهور لها في المرات جميعها باعثاً على الاعجاب والتقدير حتى غدا المسرح المغربي ماثلا للعيان حين يدور الحديث عن جديد أو نفيس في المسرح العربي . فهل هي صورة ناصعة حقاً ، أن تتقدم الحركة المسرحية في المغرب العربي على مثيلاتها ؟

ان الاجابة السريعة تفضي بنا الى حقيقة مفادها أن المسرح في المغرب ، مثله مثل المسرح العربي عموماً ، مشغول بدواعي نهوضه ، ولا يزال يعاني من المشكلات نفسها ، وهو ما يكشف عنه كتابان حديثان عن المسرح المغربي ، الأول لأديب السلاوي بعنوان « المسرح المغربي ، من أين والى أين »(١) ، والثاني لعبدالرحمن بن زيدان بعنوان : « من قضايا المسرح المغربي » (٢) ، والكاتبان من المغرب العربي ، وقد طبع الكتاب الأول بدمشق ، بينما طبع الثاني في مكناس ، وستكون لنا وقفة ، من منظور بحثنا ، مع هذين الكتابين للتعرف على واقع المسرح المغربي عن كثب ، لأنهما الأحدث في معالجة تطور المسرح المغربي(٣) ، على أن نستكمل مناقشة بقية الآراء، لنستخلص من ذلك كله قضية المسرح العربي في المغرب بين التقليد والتجديد(٤) .

- ٢ -

يفتتح السلاوي كتابه باقرار مشكلات لاتزال تؤرق العاملين في المسرح العربي ، وفي مقدمتهم رجال المسرح المغاربة ، فيؤكد أن تاريخ المسرح العربي لا يتعدى قرناً من الزمن ، ثم يقرر أن « هذه حقيقة لاجدال فيها » مما يلقي بعض الظلال



على دراسته ، والا متى أصبحت هذه المسألة حقيقة ولا جدال فيها أيضاً ؟ انه يقرر هذا كله في السطر الأول من الكتاب ، ثم يقرر حقائق أخرى كثيرة لا تزال موضع نقاش · هكذا ببساطة ، يصادر الباحث أفكار المتلقي عن فكرة المسرح العربي باعتباره هو مرجعاً لا يرقى اليه الشك أو مجرد الجدال أو المناقشة أو الحوار ، وهو أمر يجافي البحث العلمي ، عندما نعرف أن المسرح العربي لا يزال ــ في أحسن أحواله ــ نبتاً مهملاً في التاريخ، وفي الواقع ، يحتاج الى عون ورعاية القائمين عليه، والى غيرة محبيه ممن هم على الخشبة أو بين صفوف الصالة · لذا ، لن نفاجأ قط أمام أحكام المؤلف القاطعة ، وهي غالباً أحكام قيمة بشان المسرحيات والمسرحيين في المغرب العربي ، بينما النقد يسعى في مسعى آخر ·

والحق، أن هذه الآراء تشير الى طوابع الكتابة النقدية في المغرب ، ولا نستغرب في هذا المجال تباين الرأي الواسع في تقويم « وجه » أو « اتجاه » أو « الحركة المسرحية » بعد ذلك ·

يوزع أديب السلاوي كتابه الى الفصول التالية : ماذا نريد من المسرح ، مسرح الهواة في تجربة المسرح ، المسرح الاحترافي : ما له وماعليه، التاليف المسرحي في المغرب ، اطلالة على اتجاهات الكتابة المسرحية ، اتجاهات الاخراج المسرحي بين التراث والمعاصرة ، ماهو مستقبل المسرح في بلادنا، الوضعية المسرحية ··· بديلها · وهناك فاتحة ، ربط فيها بين موضوعه بواقع المسرح العربي ، فتحدث عن النهوض المسرحي العربي في القرن التاسع عشر وانتقل الى رافد آخر لهذه « المسيرة المظفرة» مسيرة المسرح العربي ، ويتمثل هذا الرافد بظهور مجموعة من الفرق المسرحية الشرقية وبتاليف فرق وطنية عام ١٩٢٣ ، من قدماء تلاميذ مدينة فاس وسلا والرباط بتشجيع من العلماء والأدباء ، والوجهاء الذين رأوا في المسرح خدمة للغة العربية، وتهذيباً للذوق الجميل » · (ص ٨)

واليوم أصبح للحركة المسرحية في المغرب « أعلامها وروادها ، وتقوم على فرق هاوية ومحترفة ، ومراكز للتخصيص المسرحي ، وكتاب ونقاد ومختصين في الاخراج والانارة والديكور والملابس ، ومسارح وقاعات ومسؤولين » · ثم يطرح السلاوي السؤال التالي :

« هذه الحركة ، هل تحتاج الى تقييم ، والى وقفة تاريخية للنقد الذاتي ، ولتركيزه ؟ »

ويجيب : « فان البحث في أغوارها ،وتقييمها من الداخل أضحى مسؤولية تاريخية يتحملها النقاد قبل غيرهم من الأدباء والمفكرين » (ص ١١) · فكان هذا الكتاب هادفاً ــ كما يرى مؤلفه ــ الى خلق حوار جديد ورؤية جديدة لهذه الحركة ولمفعوليتها التاريخية والفكرية بين رجال المسرح والنقاد من جهة وبين جمهور المسرح وروداه من جهة أخرى ·

يؤكد السلاوي على مصاعب البداية المسرحية العربية من خلال التفاعل والتأثير المبكر بين المشرق والمغرب ، فالمسرح ابن أواخر القرن الفائت وأوائل هذا القرن ، ويؤكد في الوقت نفسه على حاجة المسرح العربي في المغرب الى حوار الماضي والحاضر·

يكرس السلاوي غالبية صفحات كتابه للتنظير على حساب التحليل والتطبيق والمراجعة ، وهذا الولع بالتنظير لا ينير الحركة المسرحية ، ولاسيما مكرور القول دون تمحيص كاف لأفق الممارسة المسرحية كما هو الحال عند السلاوي ·

ان فصل « ماذا نريد من المسرح » يعيد صياغة أسئلة الموسم المسرحي ويستطرد ، وهي أسئلة مبثوثة في ثنايا الفصول الأخرى تعكس تعلق المؤلف بالكلمات الكبيرة واصدار الأحكام القاطعة كما هو الحال في قوله : ان مسرحنا يتحرك في اتجاهات ثلاثة :

- **اتجاه يهدف الى ارضاء الجمهور الكبير ،فيعمل على اضحاكه ، وضياع وقته بما لا علاقة له بالمسرح ومفهومه ·**
- **واتجاه ، يقلد موجة التجديد التي تعم العالم الغربي ، فيفلسف الأشياء أو يشكلها بلغة بعيدة عن جماهيرنا، وعن قضاياها، ونضالاتها·**
- **واتجاه ثالث : يعمل على تزييف الواقع المغربي وتقديم صور مشوهة عنه ، لا تمت له ولقضاياه ولواقعه بصلة ·**

من هنا ، من خلال هذه الحصيلة التي تكررت خلال سنوات طوال ، تتضح لنا صورة الأزمة التي يعيشها مسرحنا » · (ص ١٧) · ولعل في هذه الكلمات الكبيرة والأحكام القاطعة تشخيصاً للظاهرة: الولع بالتجديد على حساب التقاليد ، فهناك تقليد

للمسرح في الغرب ، وتجاهل مطلق لرؤى الواقع والتغيير ، لذلك كانت صرخة السلاوي : « هل يكون من الضروري أن يقوم أحد باقناع كتابنا المسرحيين بمسؤوليتهم ؟ أعتقد جازما أنه ليس من الضروري اليوم وغداً ، من وضع منبه على دماغ بعض المؤلفين والكتاب المسرحيين الذين لا ينفكون يتشدقون بالتقدمية والوعي ، وهم عن هذه المفاهيم بعيدون ورجعيون » ويضيف على سجيته أو هكذا عفو الخاطر :

« ان بداية عصور الانحطاط العربية ترجع الى فقدان الالتزام ، ثم ليس ثمة تعارض بين حرية الكاتب ـ مسرحياً كان أو روائياً أو قصصياً ـ وبين التزامه ، لأن حرية الكاتب جزء من حرية الوطن والمواطن ... الخ » (ص ٢٦) .

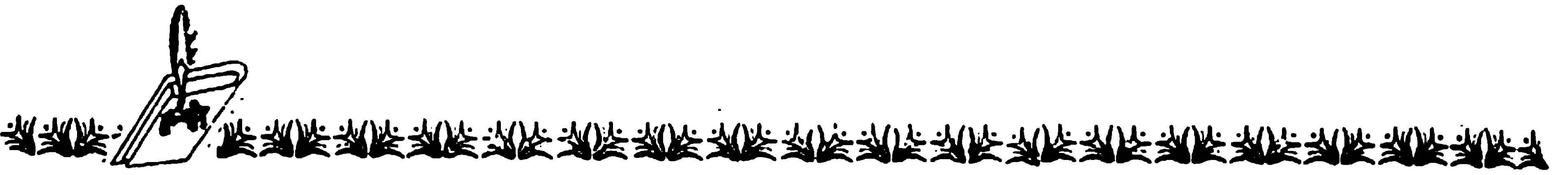
ولا شك ، أن منطلقات كهذه لا توفر للنقد حدوده في التعامل مع موضوع البحث ، لأنها كتابة تغفل عن معطيات المسرح المغربي في واقعه وفي مستقبله وفي انتمائه للمسرح العربي ، وتؤثر في الوقت نفسه الانصياع للمزاج السياسي أو الشخصي ، لأن هناك شواهد عديدة في التأليف والعرض وفي تطور الحركة المسرحية المغربية تنفي هذه الأحكام وتؤكد حقيقة التقدم الذي يشهده المسرح المغربي وحقيقة النضال الذي يخوضه الفنانون المغاربة من أجل مسرح عربي .

ان أهمية كتابة السلاوي تكمن في ملامستها المبكرة لمشكلات المسرح الغربي في المغرب ، فقد يسرت له فيما بعد ـ كما سنرى ـ سبل محاورة الحركة المسرحية .

ـ ٣ ـ

بينما يرى عبدالرحمن بن زيدان أن كتابه « من قضايا المسرح المغربي » محاولة نقدية تهدف ـ في أقصى غاياتها ـ الى ارجاع الحركة المسرحية المغربية الى مصادرها الموضوعية في حركة التاريخ والمجتمع . انه يلفت النظر الى عطاءات رجالات المسرح في المغرب وما تثيره من اشكالات نقدية ولا سيما بحث هؤلاء المسرحيين الدائم والمستمر عن هوية قومية لمسرح عربي أصيل يتغلب على معوقات مسيرته ، وينتزع ـ على حد تعبير المؤلف ـ الاعتراف بشرعيته ، متجاوزاً حلقات التطويق التي أرادت تكبيله لتعوق بذلك انطلاقته وتحرره . وهنا يفترق عبدالرحمن بن زيدان عن أديب السلاوي ، فقد زاوج السلاوي بين مهمتين الأولى التأريخ ، والثانية التنظير المشبوب بعاطفة تنصاع للمزاج السياسي حيناً ، وللمزاج الشخصي حيناً آخر ، أما ابن زيدان فيجمع مقالات مكتوبة في فترات متقاربة خلال سنوات السبعينات ليقول فكرة أو يثير رأياً حول واقع المسرح المغربي قاصداً الى اعتبار الثقافة، والمسرح جهاز ثقافي ، أحد القوانين الأساسية من أجل التغيير ، أي الاهتمام بوظيفة المسرح في انضاج الوعي ، وهكذا كانت اثارته لمشكلات الممارسة المسرحية ، واغفاله لنسق تاريخي معين في اختيار المسرحيات التي جرى تحليلها ، وسنلاحظ أيضاً ، مدى انطباق هذه الطريقة على كتابته النقدية : سلامة المنهج في تحديد الاطار الاجتماعي والتاريخي والتعامل مع المسرحيات من الداخل لبلورة بعدها الدلالي والمعرفي . في الكتاب فصول كثيرة حول مسرحيات ومسرحيين وبعض الظواهر والقضايا ، ومن الملاحظ أنها جميعاً مقالات أو مراجعات أو متابعات في أحسن الأحوال . ولكنها على الرغم من طابعها السريع في استخلاص الاحكام، تقدم صورة طيبة عن وضع المسرح المغربي اليوم : استطلاع أبرز الأعمال ورؤيتها في تركيب يجمع الملاحظة على الملاحظة ليكون بعد ذلك كله تعريف بالمسرح المغربي في مشكلاته الراهنة : صراع مستمر بين التأصيل والتجديد ، مع تركيز واضح على نبرات التجديد المسرحية لدى أبرز وجوه السبعينات على وجه الخصوص . الا أن هذا لا يعفينا من الاقرار بأن رؤية عبدالرحمن بن زيدان غائمة وعناصر تركيبها متباعدة ، فلا ينتج في ظلها الا تعريف لا يفي بالحاجة و لا يسعف الغرض .

في « اطلالة على هموم المسرح المغربي » ، ثمة مقالة حول تنشيط المسرح والحركة النقدية حيث يؤكد المؤلف ظاهرة « فقدان يقين ايديولوجي وشكل جمالي متقدم » (ص ٩) . في الحركة المسرحية المغربية . وفي الوقت نفسه ، لا يفسر هذه الظاهرة أو يعللها من خلال المشهد المسرحي . وهذا شأن المؤلف في غالبية مقالاته ، فهو يبدي ملاحظات ولا يدعمها وضوح الفكرة أو دقة الرأي ، ولا تستند الى تفاصيل واقعية . في حديثه عن « ظاهرة الاقتباس في المسرح المغربي » يذكر نوعين من المسرح ، النوع الأول المسرح الذي يعيش على



هامش المشكلات الحياتية عندنا ، أما النوع الثاني فهو الذي يتطرق الى عرض المشكلات بجدية وعمق ويمثل هذا النوع فرق الهواة ، ومن الواضح أن هذا التصنيف لا علاقة له بالاقتباس • ومن جهة أخرى، يؤكد المؤلف في صفحات تالية ، أن الاقتباس أمر آخر يختلف عن تشخيص موضوع هذين النوعين من المسرح ، » فالمشكل ليس مشكل اقتباس وكفى ، انه بالضرورة التعبير عن عصر ، عن مجتمع ، عن ظروف • مشكل ارتباط بالتراث ومحاولة اكتشاف ما هو انساني وجديد ، وليس الاكتفاء بتحقيقه •• وما الاهتمام بالفنون الشعبية التي اهتم السيد الطيب الصديقي باحيائها ونفض الغبار عنها ، واغناء المسرح بها الا من قبيل التقدير لقيمة التراث المسرحي عند الشعب العربي » (ص ٢٣)

لقد عاد ابن زيدان في تقليبه لمشكل المسرح الى الهم المشترك للمسرحيين المغاربة : الأصالة أو التراث على وجه التحديد ، فلا تقاليد خارج تراث أو أصالة • ويضيف المؤلف : « فعملية الاقتباس الجيدة ، تعتبر محاولة لتطعيم مسرحنا باتجاهات جديدة وبدماء جديدة متحررة من قيود الكلاسيكية، ومن التأطيرات المتقولبة في الأفكار المغلقة المتقوقعة• ان هذه العملية تحاول أن تؤقلم الأعمال العالمية مع مفهوم مغربي • وهنا نذكر السيد الصديقي الذي يمتاز بخاصية الاقتباس الناجح : (محجوبة) ، (في انتظار مبروك) (مذكرات أحمق) حيث يظل وفياً للمحتوى الغوغولي للمسرحية ، خلافاً لما هو مألوف في النوع الأول الذي يضم الفولكلور والأساليب المبتذلة ، واللغة التي لا تؤدي الى أي وحدة تسهل فهم المحتوى » (ص ٢٣) •

وحين يدرس ظاهرة الهواة يكرس المؤلف صفحات مقالته للعروض عموماً ، ولاطروحاتها الفكرية خصوصاً ، بينما تستدعي دراسة هذه الظاهرة البحث في أساليب تنظيم عمل فرق الهواة وطبيعة البرامج التي تقدمها موسمياً ومكانه ذلك كله في المسرح المغربي •

يقول المؤلف : لكن الذي يمكن أن يؤخذ على أغلب الفرق المشاركة هو وضعها بعض الحلول النهائية للمسرحيات •• ونحن نعرف أن المسرح الآن يعتمد على طرح التساؤلات ليترك المجال للمتفرج لاتخاذ قرارات تكون على ضوء التعرية للواقع كما أن المسرح وقبل أن يكون عطاء فنياً وشريحة لمجتمع هو دراسة تكون على ضوء حاجيات المجتمع والانسان اذا نحن أردنا منه أن يكون ظاهرة فنية تخدم الوعي الشعبي بل ويكسب لنا جمهوراً نعتبره شريكاً للممثل في المسرحية »(ص ٣٣) •

وفي مقالة « **حول التركيب النظري للمسرح المغربي** »، يواجه ابن زيدان المشكل صراحة ويرصد الجهود الدائمة للبحث عن الهوية ، « فقد جرب المسرح المغربي عدة أشكال تعبيرية بقصد البحث عن هوية متميزة وشخصية متكاملة خصوصاً بعد أن لمس رجالاته فراغاً مهولا تشتكي منه الحياة الثقافية على هذه الواجهة » (ص ٨١) •

ان عبدالرحمن بن زيدان يضع يده على بعض الحقائق ، ولعل أبرزها انفصال الوعي السياسي عن الوعي الفني ، أولا • ارساء وسائل تعبيرية ثانياً ، غلبة طابع الاخراج الايطالي (الكوميديا ديلارتي) ثالثاً ، تبني فكرة مسرح الاحتفال ، وهو في جوهره احياء تراثي في اطار التجديد ، رابعاً • انتعاش الأشكال التجريبية ، خامساً • وعلى الرغم من هذه الحالات التي تشير الى وضعيات مختلفة ، فانها تمتزج بتطورات المسرح العربي في المغرب ، وتسهم الى حد كبير في تكوين مسرح وطني •

وعن « المصادر الفكرية للمسرح الاحتفالي »، يربط المؤلف الاحتفال بالظاهرة المسرحية أساساً كما تتجلى لدى المسرحي عبدالكريم برشيد حيث السعي لتحقيق تركيب نظري ليس فقط لعدد من المسائل التي يشتمل عليها موضوع بحثه ، وانما ادخال فكرة ـ وحدة الشعور ـ أي وحدة الشعور بين المشهد والمشاهدين ، بين الرمز المسرحي وحجمه ومساحته ، في اطار الكشف عن مأساة الانسان والصراع الذي يدور بينه وبين براندللو • « ان المسرح الاحتفالي هو في أساسه مسرح شامل ولذلك فهو بالضرورة يفترض جمهوراً شاملا (؟) ولقد توسل العمل الدرامي الى ذلك عن طريق ايجاد قواعد وجسور تربطه بالجمهور ، وتمثيل هذه القواعد في توظيف مجموعة من الاحتفالات الشعبية المحملة بأهازيج وتقاليد مختلفة » (ص ١٠٢) •

من الملاحظ ، أن السلاوي وابن زيدان لا يختلفان كثيراً في تشخيص الوضعية المسرحية في المغرب ، فلا يزال هناك تناقض بين الواقع والرجاء مما لا يفضي الى تركيب ناجز فيه هوية واضحة •



- ٤ -

نستطيع أن نتلمس عناصر الواقع وملامح التغيير في المواقف التالية :

١ ـ الموقف من التراث أو التأصيل •

٢ ـ الموقف من الغرب أو التجديد •

٣ ـ الموقف من التجربة كما تمثلها معطيات المشهد الثقافي كالتاليف والاقتباس أو الاحتراف والهواية •

لا شك أن بداية المسرح العربي الحديثة واحدة في المشرق والمغرب ، وتكاد كلمة علي الراعي تلخص مشكلات البداية المستمرة ، فقد قال في معرض حديثه عن المسرح المغربي : « رغم تنوع وغنى الفولكلور المغربي في ميدان الظواهر المسرحية •••• وهي مسرح الحلقة ومسرح البساط واحتفال سلطان الطلبة ، فان المسرح بدأ في عشرينات القرن الحالي بالطريقة ذاتها التي بدأ بها في الأقطار العربية الأخرى » (٥) والنتيجة هي :

أن المسرح العربي يدير ظهره للتراث ويعتمد الصيغة الغربية للمسرح ، وتتكرر البدايات ،وهو يردد ما يشكو منه العديد من الفنانين والباحثين ، فهناك قلة النصوص العربية المؤلفة ، وظاهرة العودة الى البداية بعد كل نهضة مسرحية ،فالمسرح العربي ـ في رأي عبدالله شقرون ـ ينهض ويزدهر ثم لا يلبث أن يخبو فيعود الى نقطة الصفر من جديد » •(٦) •

- ٥ -

يردد عدد من الباحثين ببساطة أن « المسرح المغربي تراث واقتباسات وتنسيق وأخيراً تأليف »(٧) أي أن جهده الأساسي موروث موصول بالغرب ، وهذا واضح أيضاً في طرق الأداء المكتوب ،وأشكال التجسيد الفني •

أجل ، ان النتيجة هي احياء الأشكال التراثية في التشخيص أو المشاركة الجماعية ضمن أضواء الغرب في اطار مفهوم « المثاقفة » اياه ، فكأننا نجتلب المسرح الى أرديتنا وقلوبنا وعواطفنا اجتلاباً دون تمييز بين استمداد مفهوم ، أو دربة حرفة ، أو اتقان تقنية ، أو معرفة خبرة ، فكانت المزاوجة بين موروث وتجديد طلباً للتقاليد • وقد أوضح حسن المنيعي هذه المعضلة لدى تقويمه لفن الطيب الصديقي في قوله : « فمن الأكيد أنه أول من أتخمنا بفرجات عديدة ، وجعلنا نساير مغامراته وتجاربه التي تستلهم تقنيات الغرب وأشكاله الدرامية (المسرح العبثي والوثائقي والاستعراضي •• الخ) ، وتوظف عناصر التراث (الحلقة ـ البساط ـ المقامات) •

ثم يستدرك :

« ومع ذلك فاننا نؤاخذه نظراً لما ينطوي عليه مسرحه من « مغالطة » ، لأنه لا يتعدى جانب الابهار الفني ، ولا يبدو سوى متعة جمالية كثيراً ماتخلو من التنوير الفكري والمضامين الاجتماعية التي تنتقد الأوضاع ، وتتلفظ بجوهر القضية » •

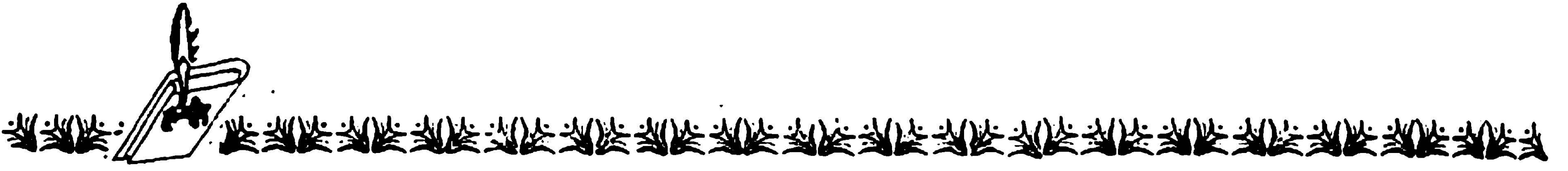
انه السقوط في وهدة المستوى الشعاري ، اذ يصير المسرح الى مجانبة الطبيعة الفنية فلايستوعب الأداء أو التجسيد أكثر من ذلك التوجه المباشر للخطاب السياسي والاجتماعي • هو التناقض بين تقليد وتجديد • في تاريخ موجز ، المسرح يتلفع بالجديد ولا يفلح • وقد ذكر باحث أخر أن المشكلة في الانطلاقة ، « فليس مصادفة في شيء أن ينطلق المسرح في المشرق العربي من موليير ، ثم بعدها بمائة عام ، يتبع المسرح المغربي النهج نفسه ليعود اليه مرة أخرى خلال الموسم الأخير » •

ويضيف فاضل يوسف :

« تاريخ المسرح التقليدي بالمغرب ، لا يمكن الاشارة اليه الا عبر بعض الأسماء وبعض الأسماء التي تشكل تحولا من أي نوع بقدر ما كانت علامة على استمرار نمط معين من الانتاج المسرحي •

لقد كتب العلج ، على سبيل المثال ـ عشرات المسرحيات ، اما عن موليير أو عن غيره ، واما على المنوال نفسه ، وقدم البدوي عشرات المسرحيات ، اما عن موليير أيضاً أو غيره واما على النسق نفسه »(٩)

هكذا تؤكد تجربة المسرح الغربي في المغرب أن التقاليد هي وعي الممارسة المسرحية في بيئتها ومجتمعها مستندة الى خصوبة التعامل مع الأصيل والراهن ، ما دام التطور سبيل المسرح شأنه شأن النشاطات الانسانية الأخرى ، بينما لا يزال



التناقض قائماً لدى نقاد هذه التجربة بين النظرية والتطبيق ، مما يضاف الى التناقض الحاصل بين التقليد والتجديد • يصوغ السلاوي رأيه على نحو نظري ممتزج بشهوة الخطاب السياسي : « ان المسرح عندنا لايستطيع أن يسمو لنفسه الآن بتقليد مسارح التجربة في فرنسا ، ولا مسارح « الحدوث » في أمريكا ، لأن هذه الأنماط من المسرح ما تزال تبحث عن لون تتبناه لنفسها ، فليست لها بعد تقاليد ، ولا فلسفة ولا هدف ، بينما نحن في مرحلتنا هذه نحتاج الى مسرح له تقاليد ثابتة ، وفلسفة واضحة ، وأهداف بعيدة » •

ولكنه ، لدى التطبيق على تجربة المسرح الاحتفالي يبتعد عما رسمه ويختلف :

« من هنا ، نرى أن المسرح الاحتفالي العربي لا بد له من هدم الادراك الفولكلوري واستلابه وتحويله الى ادراك جديد ، يقوم على أرضية المشاركة الوجدانية للانسان العربي المعاصر ، وهذا لا يتأتى دون الاستفادة من تراث الانسانية وتجاربها في الميدان المسرحي»(١٠) فكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا • وتبقى الأسئلة مرتفعة : التلقي أم المشاركة ؟ الايهام أم نفيه ؟ التراث أم ادراكه ؟

انه الارتماء في وهدة المستوى الشعاري الذي يحوّل التجربة الى مجرد صياغة لفظية بمعزل عن ممارستها على خشبة المسرح ، وبين جماهيره •

ان الموقف من التراث يتبدى على النحو التالي:

أولا — استمداد نظري واسع من أشكال التراث المختلفة ، ولا سيما الشعبي ، على نحو انتقائي حيناً ، وتزييني حيناً آخر ، وباسم الاتصال بالجماهير حيناً ثالثاً •

وقد اختلف المسرحيون في تسمية هذا الاستمداد ، فهو استلهام للتراث حيناً ، واعادة للتقاليد حيناً آخر ، واقتباس حيناً ثالثاً • بذا ، لا نقع على استعادة للظاهرة المسرحية ، فضلا عن صعوبة تحديد مفهومها وتباين النظر الى استخدامها في المسرح الحديث • ثمة حيرة بادية بين التراث بوصفه حاضن التقاليد من جهة ، والتجديد من جهة أخرى • لقد استفاد هؤلاء المسرحيون من جوانب الاحتفالية والمشاركة ، واللغة وأسلوب التناول ، ولكنهم لم يبلغوا الشاو المرجو في صياغة شخصية فنية مستقلة هي السبيل للهوية المسرحية •

ولقد اتهم عدد كبير من النقاد والباحثين عبدالكريم برشيد ، وهو الكاتب الأبرز في اتجاه الاحتفالية ، بالتعامل الفج مع التراث لغلبة الاقتباس (الأخذ من الغرب) أولا ، والوقوف عند حدود « الفرجة » ثانياً • وفي بحث للمسناوي أحمد ثمة عرض لمثل هذه الفجاجة في قوله : « انبهر العالم الغربي بتنظيرات بريخت المسرحية وانطلقنا نردد الصدى ، ونلهث وراء عملية تجريبية أخرى متعلقين بجماليات الشكل المسرحي • ورغم أن برشيد يحسن استغلال الأشكال الجديدة ، وبناء الحدث الدرامي في مسرحه الاحتفالي كبديل لغياب مسرح مغربي جاد المحتوى ، رغم ذلك تبقى طروحاته فجة ، ويظل تعامله مع التراث لا يخدم طبيعة المرحلة التي تتحدانا »(١١) •

والسبب هو أن احتفالية بريختية (فكرة التواصل — تكسير الايهام — مفهوم الاغتراب — اعادة عنصر الدهشة) ومن يوسف ادريس (المسرح — احتفال — مهرجان — اجتماع كبير) ، فهو اذن مجرد توفيق لنظرة متواترة هي الجمع الشكلاني بين الأصالة والمعاصرة ، بينما تبدو الحاجة شديدة لنقد الأشكال المسرحية الأوربية ، والاستيعاب الجيد للتراث • « ان هذا التعامل الفج مع التراث ، لا يساهم في تطوير وتأصيل الفن المسرحي عندنا • ولا يخدم طبيعة المرحلة الحضارية الدقيقة التي تجتازها أمتنا العربية »(١٢) •

ويلخص السلاوي في دراسة أخرى هذه الحيرة بين ماض وحاضر ، بين اقتباس الماضي ، واقتباس الحاضر (الغرب) :

« ولا نشك في أن تلك الاحتفالات ، بما تمتاز به من أصالة ومن فنية ، وحبكة ، ودراماتيكية ، تستحق من المسرح المغربي وقفة طويلة ، لا لكونها احتفالات شعبية ، ولكن لأنها فنون درامية أصيلة متجددة ، على هذا المسرح أن يعانقها ويمسرحها بالمفهوم المعاصر لكلمة مسرح » •

ومن الواضح ، أن السلاوي لا يبتعد عن مجمل النظر الى قضية التراث الذي يطمح الى استعادة ، ولكنه لا يظفر بأكثر من اعادة لبعض الظاهرة أو



الظاهرة كلها ثم لا يكون من الاعادة مشهدية أو مسرحاً ، لذلك يضيف السلاوي مسوغاً العجز عن الانجاز ، ومردداً لرغبة الطموح القائم : « ان المسرح المغربي ، كالمسرح العربي ، ولد من النقل والاقتباس ، ولذلك فعلينا أن نحافظ على شكل هذا المسرح (يريد المقتبس) ، أما روحه وأسسه، فعلينا أن ننقله من تراثنا المتواصل المتواجد ، الذي لا يخلو من العنصر الدرامي المتحرك الذي يشكل الصورة النهائية للمسرح الحديث »(١٣) ٠

ولا شك ، أن هؤلاء المسرحيين يمتحون من معين مكرور القول حول النداء القديم الجديد نحو الطريق الى الهوية المسرحية ، ويقضي النداء بايلاء العناية للروافد الفنية القديمة ما دامت الهوية المسرحية من الهوية القومية بعد ذلك ٠ ولنتذكر في هذا المجال كلمة علي الراعي التي اختتم بها بحثه عن المسرح المغربي في اطار المسرح العربي :

« وأول هذا الطريق وآخره أن نجد لمسرحنا هوية عربية حقاً ٠ وأن نكف عن النظر اليه على أنه أدب مسرحي في المحل الأول ٠ بل نعتبره امتداداً في الحاضر لروافد فنية أو حكائية وتمثيلية بدأت من قرون وقوبلت بما لاتستحق من احتقار ٠روافد اعتمدت الفرجة أساساً ، وتوجهت الى الشعب أولا وآخراً ، واعترفت به سيداً وأميراً ومالكاً للعرض، وممولا له ٠ ثم سعت الى جانب امتاعه والترفيه عنه الى تهذيبه ونصحه أيضاً ، والى اشاعة الأمل في نفوس أبنائه ، فهل نحن فاعلون »(١٤) ٠

ثانياً ــ التوكيد على حاجة النهوض المسرحي للتراث مع الاقرار بالتنازع في تحديد مفهومه ومظانه ومكانته في انعاش المسرحية المغربية هناك حرص واضح على استلهام التراث أو اقتباسه أو اعتماده في أساس العمل المسرحي ، وربما كان اتجاه « الاحتفالية » ذروة استعادة التراث بعد محاولات متعددة للصديقي والعلج والبدوي وسواهم ٠ وفي بحثه عن المسرح العربي بين الاحتفالية والتراث ٠ يرى السلاوي أن التراث حاضن للتقاليد التي لا بد منها في النهوض المسرحي ، وربما كان اتجاه « الاحتفالية » ذروة استعادة التراث بعد محاولات متعددة للصديقي والعلج والبدوي وسواهم ٠ وفي بحثه عن المسرح العربي بين الاحتفالية والتراث، يرى السلاوي أن التراث حاضن للتقاليد التي لابد منها في النهوض المسرحي على الرغم من التجربة المرة والصعبة ، ويذكر هذه العلامات لكي يكون المسرح ذا صلة بماضيه وأرضه :

١ ــ من التحقيق المسرحي البديل ، فلا بد لنا من الاستفادة من التراث العربي ٠

٢ ــ ولا بد لنا من اعادة تقويمنا لهذا التراث ، وتعميق مفاهيمنا لأسس الفكر العربي ومنطلقاته (التراث المدون والفولكلور الشعبي والمكتوب) ٠

٣ ــ ولا محيد من توظيف مختلف الظواهر المسرحية التي تزخر بها فنوننا الشعبية ٠

٤ ــ ولا بد لنا من النظر الى هذه الظواهر على اعتبار أنها جزء من الوجدان العربي ، والمسرح الذي لا يعتمدها مقتبس ودخيل ،ولا صلة له بالروح العربية ٠

٥ ــ ولا بد أن يزاوج بين التراثين الانساني والعربي »(١٥) ٠

ــ ٧ ــ

وفي الموقف من الغرب ، نلاحظ ما يلي :

أولا ــ ارتباط مفهوم « المثاقفة » بحضور تراثي مدهش ، فلا يستطيع المسرحيون أن ينظروا الى الغرب ، مصدر المسرح الحديث ومعماره وتقنياته ، بمعزل عن معاينة الذات الثقافية ٠لقد اختلط مفهوم « المثاقفة » بمفاهيم التأثر والتأثير والتبادل الثقافي ، ولم يعد مقتصراً على علاقة ثقافة أرفع بثقافة أدنى ، أو ثقافة الغازي بثقافة المغزو٠ على أن التصدي لهذا المفهوم لا يستند الى تواضع عامر أو انجاز معلوم ، بل ينغمر بمفاخر ذاتية ، ومماحكات ثقافية مطلقة أحياناً ٠

وفي مناقشات « الاحتفالية » الكثيرة ، يدافع باحث هو أحمد سعود عن « المثاقفة » باعتبارها خصوصية واقعية في مرحلة من مراحل التطور التاريخي ، ويقول :

« تظهر لنا أهمية التعامل مع الأشكال المسرحية التي تتميز بالطابع الجدي الهادف ، وتظهر لنا كذلك خصوصية الواقع المغربي الذي يطرح امكانية المجاوزة ، هذه الخصوصية التي تجعل من مسرحنا مسرحاً مخالفاً بعد تعديل تلك الأشكال وتطويعها لتتلاءم وخصوصية الواقع المغربي (١٦)٠



لعل الكاتب يرى الاحتفالية بشكلها المنسوب الى عبدالكريم برشيد وكأنها تريد القيام على أساس انتقاد البريشتية ، فتطرح نفسهاكبديل لها. ولكن الردود جدالية مترفة لا توافي منطلق العمل المسرحي كخصوصية فنية الا بوصفه عملا اجتماعيا مباشرا ضمن صيرورة تاريخية معينة ، بينما للفن زمنه الخاص .

ان واقع المسرح العربي في المغرب يؤكد التأزم : وضع الغرب كمنارة ، والتصدي لمفهومه فحسب ، ولو افترق المفهوم عن تجلياته في واقع الحال . ان وعي « المثاقفة » يسبق شؤون الكشف عن أقنعته الكثيرة .

ثانياً : تبدو ملاحقة التجديد مهمة يائسة ، اذ ينبغي للتجديد أن ينبع من التطور النوعي لمسار المسرح ، لأن النقل سهل . وهكذا، لا نحصل على التقليد الذي يميت الابداع، ويمنع المسرح من ممارسة تأثيره الجماهيري . أما التقاليد فهي أزهى علامات الثقافة والتحضر الدالة على حقيقة قومية وتاريخية ، وقد حافظت على تأثيرها الحي والمضطرد .

لقد رأى المسرحيون أن المسرح المغربي ـ بتعبير آخر ـ هو نتاج الاقتباس من الغرب بحجة التجديد والانتفاع بالحداثة . ولدى دراسته للنص المسرحي في المغرب ، يقول السلاوي :

« اننا بالرجوع الى تلك الأعمال ، لا يمكن أن نقول سوى أنها محاولات في ميدان مطابقة النص، هي أقرب الى التشويه والتحوير منها الى المطابقة الصحيحة ، اذ أن أغلب « المقتبسين » أخذوا فكرة المسرحية ، وبعض شخصياتها وألبسوها فكرة مغربية مشوهة ولغة رثة .

ان احصائية بسيطة عن الانتاج المسرحي الذي قدمته المسارح المغربية بعد الاستقلال تؤكد أن ستين في المائة من هذا الانتاج مقتبس ، فهل ينبؤنا هذا بالخطر على ملكة الخلق »(١٧) .

وعند تقويم الكتابة المسرحية في المغرب ، أشارت ندوة أقامها اتحاد كتاب المغرب (شارك فيها أحمد الطيب العلج ، وأحمد العراقي ، وعبدالله شقرون ، وأحمد بدري وأدارها محمد برادة) الى اتجاهين هما :

١ ـ اتجاه كلاسيكي عاش على موائد المقتبسات والمغربات (نسبة الى الغرب) .

٢ ـ اتجاه حديث ظهر مع بداية السبعينات ، وهو الذي وقع الولادة الحقيقية للنص المغربي ، وما يجري الرهان عليه اليوم »(١٨) .

ان الحديث عن التجديد ملتبس بالغرب ، بالمثاقفة ، وبشهوة التعبير السياسي المباشر ، على أنه يظل تعبيراً غامضاً يحتاج الى موقف واضح فكرة وممارسة مما ينتظم في نشاط انساني وفعالية عامة وتقاليد قومية راسخة .

- ٨ -

أما الموقف من تجربة العمل المسرحي كما تمثلها معطيات المشهد الثقافي كالتأليف والاقتباس، أو الاحتراف والهواية ، فنوجزه فيما يلي :

أولا : يغلب الاقتباس على النص المسرحي ، وفي هذا يتساوى المحترفون والهواة ، لأن رجل المسرح هو الذي يتقدم الحركة المسرحية فالكاتب مخرج وممثل وفني أحياناً كما هو الحال مع أبرز المسرحيين ، ولأن المسرح المحترف وحركة الهواة تستندان الى مبدأ عمل الفرقة التي تؤلف عرضاً على سبيل الاعداد أو الاقتباس . أما التأليف الخالص أو الترجمة الخالصة لنصوص المسرح العالمي فهي قليلة . وهذا ما دعا المسرحيون والنقاد الى مواصلة الحوار المستمر حول الاقتباس أولا ، والهواة ثانياً، ازاء اختلاط المفاهيم والممارسة معاً.

ثانياً : يبرز الخلاف حول مصطلح الاقتباس بالدرجة الأولى ، فهو يعني الأخذ عن النصوص الغربية حيناً ، ويعني الأخذ عن التراث حيناً آخر، الا أن المرء يستخلص من الحوار الدائر أن «الكتابة المسرحية » تقابل « توليف النص » ، لأن الكاتب أو المسرحي يعيد انتاج الأدب المكتوب أو الشفهي أو المنقول أو المعرب ليناسب حاجات العرض في الواقع .

ان السلاوي ، على سبيل المثال ، يستنتج من بحثه للنص المسرحي في المغرب ، أن كتاب المسرح ما زالوا يميلون الى السهولة واليسر ، بل ما زال بعضهم عاجزاً عن خلق عمل مسرحي أصيل ،وليد



حضارة المغرب وثقافته ومجتمعه في القاعدة ، ومستوف لمتطلبات الكتابة المسرحية في الآفاق ٠ واذا استثنينا بعض الانتاجات التي قدمتها فرق الهواة ، فسنجد أن أغلب ما قدمته الخشبة للفرق الرسمية ، أو لفرق المحترفين ، انتاجات ضعيفة من الناحية الأدبية ، ولو أن معظمها كتب بلغة دارجة سلسة ، وبأسلوب بسيط خفيف »(٢٠) ٠

ثالثا : وهناك خلاف واضح أيضا حول مصطلح الهواة ، ومكانة حركة الهواة في مسار المسرح العربي في المغرب ٠ يقول عبدالكريم برشيد :

« ان هذه التسمية لا تعني شيئاً لأنها تمس الشكل دون الجوهر ، فهناك حقاً فرق بين المسرح الرسمي وهذا الاتجاه، ولكنه فرق في نوعية الرؤية، وفي الزاوية المتميزة ، وفي المضامين الجديدة ، وفي الأشكال المسرحية المتطورة والمواكبة لهذه المضامين »(٢١) ٠

بينما يرى البدوي ، في ندوة حول « الآفاق الممكنة أمام المسرح المغربي » ، أن ليس هناك احتراف بالمعنى الصحيح للكلمة ، كما أنه أيضا ليس هناك هواية (٢٢) ٠

ويلاحظ باحث آخر هو اكويندي سالم أن النصية أو الشكلية ليست اشكالية مسرح الهواة الأساسية ، بقدر ما هي عدم الوعي الصحيح لمحدداته وضوابطه الاجتماعية (٢٣) ٠

وفي رأي باحث آخر ، أن ثمة التباسا في الممارسة المسرحية يقود الى خلاف في المصطلح ، فلكي تكون الانطلاقة صحيحة ، ينبغي أن نقول « مسرح رسمي » عوض « مسرح محترف » ، و « مسرح جماهيري » عوض « مسرح الهواة » بغية اعطاء الصراع القائم أبعاده الحقيقية ، ورسم وظيفة الفن انطلاقا من هذا الوضوح ٠

ويستفيض الباحث في نقده للوضعية المسرحية، فيوزع المسرح الى مستلب ونخبوي ونموذجي ، كأن تضخم الانارة عند الصديقي لهدف أساسي هو تحطيم المعنوية النفسية للمتفرج ، حتى لا نستطيع فرز الخشبة عن الحانة ، وتأكيداً للعبة الايديولوجية كما هو الحال عند الكغاط وورده على سبيل المثال للنوع الأول (هكذا !) ٠ أو أن تتطرق لموضوعات هامة ، ولكنها لا تعي لمن تكتب فيغلب عليها طابع التعقيد اللغوي والرموز الصارخة التي لا تفهمها الا النخبة ، أما الأغلبية الساحقة فتخرج ساخطة كما هو الحال عند برشيد والكغاط أيضا على سبيل المثال للنوع الثاني ، أو أن تنشغل بالتنفيس عن الكرب الجماهيري ، وتشتم الانظمة ، واعتماد المنهج البريشتي وتعديله، ومهمة نشر الوعي بين الجماهير، على سبيل تعريف النوع الثالث الذي يراه مطمحاً٠ لنلاحظ هنا الجمع بين الصفات المتناقضة ، ولكننا لا نريد التعليق على مثل هذه الكتابة النقدية التي تخلط بين الأدب والانتماء السياسي لكاتبه ، لأن المطلوب هو أن نقيس الفن على قامة الموقف من الكاتب ، بينما يكون النقد على قامة الفن ٠ ثم ما فائدة هذا الكلام في تشخيص الظاهرة المسرحية أو توجيهها : « وضع خط فاصل بين المسرح التهريجي واقامة مسرح المناقشة والكلمة والفعل ، أي تحويل قاعة المسرح الى برلمان تطرح فيه قضية الجماهير عامة »(٢٣) ٠

أما النقد الأغلب الموجه لمسرح الهواة فهو عجزه عن الابداع ٠ أنه محاولات مستعجلة للتأثير على الجمهور طلباً لعملية العرض والاستهلاك ٠ ثم « أن ـ كما يقول قاوتي محمد ـ جميع المؤشرات الحالية لا تفيد أننا متجهون نحو تأصيل المسرح في بلادنا وخلق عادة مسرحية »(٢٤) ٠

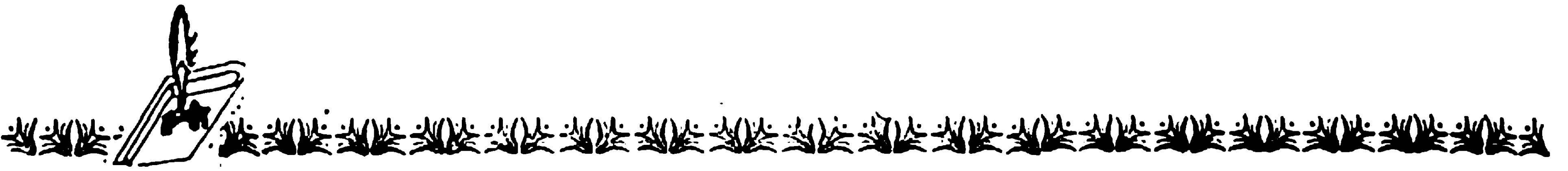
أي أن المسرح العربي في المغرب ـ كما يؤكد البحث في واقعه ونقده ـ لا يزال يبحث عن تقاليده وسط مشكلات كثيرة ٠

هوامش :

١ ـ المسرح المغربي ـ من أين والى أين ؟ ـ تاليف محمد اديب السلاوي ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ـ ١٩٧٥ ٠

٢ ـ من قضايا المسرح المغربي ـ تاليف عبدالرحمن بن زيدان ـ مطبعة صوت مكناس ١٩٧٨ ٠

٣ ـ ذكر د٠ حسن المنيعي في ثبت المسرحيات والدراسات :المسرحية المنشور في نهاية بحثه « حول المسرح المغربي » ان الدراسات في المسرح المغربي تقتصر على اربعة كتب هي :



- أبحاث في المسرح المغربي - تاليف حسن المنيعي .

- المجتمع الأهيلي (؟) والمسرح - تاليه مصطفى المهماه .

من قضايا المسرح المغربي - تاليف عبدالرحمن بن زيدان .

- المسرح المغربي - تاليف أديب السلاوي .

٤ - يعتبر هذا البحث استكمالا لبحثي السابق حول « التقاليد والتجديد في المسرح العربي المعاصر » . انظر : « الموقف الأدبي » الدمشقية - ع ١٣٤ حزيران ١٩٨٢ - ص ٤٤ وما بعدها .

٥ - المسرح في الوطن العربي - تاليف د. علي الراعي - سلسلة « عالم المعرفة » رقم ٢٥ - الكويت . كانون الثاني ١٩٨٠ . ص ٥٥٢ .

٦ - نفسه - ص ٥٧٦ - ٥٧٧ .

٧ - نشأة المسرح المغربي واسهامات الطيب الصديقي . خراف محمد . « الأقلام » بغداد - س ١٥ - ع ٦ - آذار ١٩٨٠ ص ٧ .

٨ - نفسه . حول المسرح المغربي - د. حسن المنيعي - ص ٢٦ .

٩ - مقالات في المسرح المغربي - ٢ - المسرح التقليدي :

عناصره الفكرية والجمالية - فاضل يوسف - « الثقافة الجديدة » - المحمدية - س ٥ - ع ٢٠ - ١٩٨٠ ص ٩٦ .

١٠ - الاحتفالية المسرحية بين آفاق المستقبل والاشكالية التراثية - محمد أديب السلاوي - « الحياة المسرحية » دمشق - ع ١٠ خريف ١٩٧٩ - ص ٢٣ .

١١ - البطل في المسرح التراثي العربي من خلال نموذجين - المسناوي أحمد - « الأقلام » - س ١٥ - ع ٥ - ٦ دجنبر ١٩٨٠ - ص ١٠٥ - ١١٤ .

١٢ - يواجه عبدالكريم برشيد نقدا لاذعا في الفترة الأخيرة بعد تأييد واسع . وكنت ناقشت مثل هذا النقد في عدة مقالات تحت عنوان « الواقعية الاحتفالية والرأي الآخر » انظر : جريدة « البعث » دمشق :

- ع ٥٥٣٠ - تاريخ ١٩٨١/٣/١٠
- ع ٥٧٢٥ - تاريخ ١٩٨١/١١/٨
- ع ٥٧٣١ - تاريخ ١٩٨١/١١/١٥

١٣ - اطلالة على التراث المسرحي للمغرب : الاحتفالية أو ما قبل المسرحية - محمد أديب السلاوي - « الأقلام » بغداد ع ٦ - آذار ١٩٨٠ - ص ٢٣ - ٢٤ .

١٤ - مصدر سابق - ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

١٥ - انظر : مسرحنا العربي بين الاحتفالية والتراث . محمد أديب السلاوي - « الأقلام » بغداد - س ١٥ - العدد ٢ تشرين الثاني ١٩٩٧ - ص ٦١ - ٦٢ .

١٦ - انظر : من منطلق الرد على الاحتفالية في انتقاداتها المبريشتية . أحمد سعود . « أقلام » - المغرب - السلسلة الجديدة - عدد ٣ ابريل ١٩٧٨ . ص ٨٢ .

١٧ - انظر : النص المسرحي في المغرب - محمد أديب السلاوي - « الحياة المسرحية » دمشق - ع ٢ - خريف ٩١٧٧ ص ٨٩

١٨ - انظر : واقع الحركة المسرحية بالمغرب - عبدالكريم برشيد - « الثقافة الجديدة » - المحمدية - س ٢ - ع ٧ - ربيع ١٩٧٧ - ص ١٧٠ .

١٩ - مصدر سابق - ص ٨٩ - ٩١ .

٢٠ - مصدر سابق - ص ١٦٦ .

٢١ - نفسه - ص ١٧١ .

٢٢ - انظر : التركة والاستئناف في مسرح الهواة - اكويندي سالم - « المدينة » الدار البيضاء - ع ٤ - ٥ حزيران ١٩٧٩ - ص ١٣٦ .

٢٣ - انظر : ملاحظات أولية حول ما يسمى بمسرح « الهواة » بالمغرب - أحمد سعود - « أقلام » المغربية - السلسلة الجديدة - ع ٦ سبتمبر ١٩٧٧ ص ١٠٤ .

٢٤ - مصدر سابق - ص ١١٣ .

أيها الرائي

« ما هو التوافق ؟ هو المهندس البناء للكائن ، والحيوية الداخلية التي تعطيه شكله • هو نظام الموجات التي تنقل الى اهتمام الآخرين التعبير الصافي للقوة الجوهرية • التوافق، هو الصدمة ذات الذبذبات، هو القوة التي عن طريق الحواس تربطنا بجذور الوجود •

انه بواسطة رقية العالم المتوافقة ، يمكن أن يستحضر الساحر القوة الجوهرية ، ومعنى هذا هنا ، هو الاشتراك في الجوهر العالمي ، خلال الجنس ، في معناه الأساسي غير العقيم ، على خلاف التأمل التقليدي في الشرق والغرب • •

« ليوبولد سنغور »

بقلم :
محمد عز الدين التازي

يحاولون أن يقتحموا بعيونهم ، ويتقدموا •
الخطى يقودها السواد ، سوادهم •

الساحة •

هامات البشر تلتقي وتتباعد ، تتحرك في اتجاهات متقاطعة ، تتوزع على فضائها الصاخب بالأجساد والعطور ودخان السجائر • العيون تلتقي ، تشكل نقط تراجع ونقط بداية ، تشابكات من الخطوط الوهمية التي تتهشم وتتلاشى ، ثم تعاود نسيجها في فضاء الساحة الصاخب • العطور النسوية الفواحة تختلط بالهواء ، تأتي الى الأنوف وتوقظ الدهشة، بعض الأجساد بالحرائق •

الساحة •

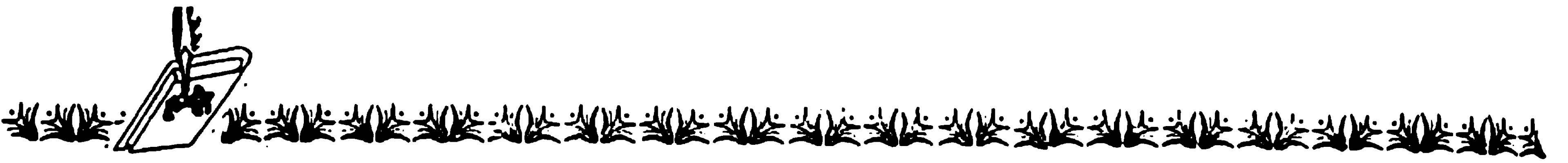
هنا نستيقظ ، وهنا نضيع ، ونبدأ المعاودة • من هنا جئنا قبل وقت ما ، والى هنا نعود، تبتلعنا دروب وأقبية ورواقات تعرض مبيعاتها النفيسة ، ثم نعود الى الساحة •

الصمت •

هذا خرسنا• نموت في الصمت • نرى ولا نتكلم • الأجساد الأخرى تستريح على أرصفة المقاهي ، تفتح عيونها لترى ، وألسنتها لتمارس شهوة الدفقة ، الكلام الذي نراه حركة في الشفتين واللسان • لا نتكلم • عاصفة الضحكات تأتينا من بين الدروب ، رنات ممطوطة تمتد وتلتوي لتخترق بعض الجدران ، وترشق واجهات المتاجر • رنة ، اهتزاز جسد ، كشف عن أسنان ذهبية ، افترار ثغر ، رنة واهتزاز صدر أنثوي بالرعونة والحرارة • لا نضحك • نحن والضحكة لا نلتقي أبداً •

العيون مشرعة على البياض •

يجرون الخطى نحو المجهول • من الساحة ينشطر الضوء ، يتوزع في الحنايا ، ثم يمضي نحو وجهته من هذه النقطة الى منطقة



أخرى يقف وراءها البحر ، يبعث الارساليات ، ويفيق الذكرى ، ويصبح ضوء في العيون • هكذا الضوء يعلمهم ما كان مجهولا • يرون المرئيات ولا تصبح وجوداً لهم ، يرونها عدة مرات ، وتزداد الغربة ، لكن الضوء يفتنهم ، يمسك بالعيون ، ويقودها من الدروب الى الساحة •

الدهشة •

الوجوه بيضاء • الأيادي بيضاء • ألوان الحرير والمخمل تغرينا • لا نبتعد كثيراً • هذا ضوؤنا • بالضوء نرى • نتقدم أو نتأخر • نمضي جهة الحديقة ، نزرع ضوءنا هناك • نستيقظ • تفاجيء يقظتنا ساعة العشائش التي تحرك عقربيها • المقاعد لا تجذبنا • نتيه بين الأشجار • نتوزع • نرى بعضنا بين الأشجار • لقد ولدنا ، تحررنا من العطور والأرداف والضحكات المعدنية ، بامكاننا أن نتذكر أدغالنا • نسمع الصرخة • صرختنا تأتي من الداخل • نتوجع ، ننهض بين الأدغال ، نريق بعضاً من دمنا ، وربما نحترق • هذه أحراشنا ولا بد من الصراخ ودقات الطبول • الأشجار غير الأشجار • لا نصرخ • يهددنا القائد بالبوليس ان صرخنا • النهر غابت في جوفه الحيتان والأرواح والمزروعات • لا نهر • هذه ليست أحراشاً • نرى الساعة ، والرجال المؤنقين يختالون بتأمل ظاهري • لن تكبر الحرائق بين هذه الأشجار ، لأنها لم تصر أرواحاً • هذه ليست أشجارنا • نعود الى الساحة •

التمثال واقف في الوسط ، جسده هائل أخضر، مرتفع الى الفضاء • الرداء الأخضر على الكتفين ، ينحدر الى حدود قدميه • الحذاء عسكري • ذاك الرداء مشدود الى حركة الريح ، نحو اتجاه ما ، الجسد نافر ، والعينان آمرتان• هذا زعيم قبيلتهم• القبعة العسكرية على الرأس • العينان ترسلان نظرتهما الآمرة • منتصب في الوسط ، يسمع الضحكات ، يشم العطر من نهود الأوانس ، يشتهي أن تمتد حركته الى الدروب ، يلتقط بعض الكلمات ويخزر ، يغوص في صمته ، يتوجع ، يحاول أن يخترق الساحة ولا يستطيع ، يبقى في الوسط ، عينا رائية تامر ، ولا تعرف كيف تتصرف تلك الأوامر الى العيون •

ليست في أنفه خرزة ولا في اصبعه خاتم • ممسوخ قائد هذه القبيلة ، وهو لا يستطيع أن يطير الى مجمع الأرواح ، ولن يصير بومة أو ثعباناً أو شجراً • هكذا مسخوا الزعيم العسكري ، وأبقوه على لباسه وحذائه واقفاً دون أن يريحوا الجسد الى أمه الأرض •

ظل واقفاً كما كان •

أكلوا أحشاءه والبتيه وراحوا مع الطيور الليلية •

قلبه الروحاني مأكول هذا الزعيم ، ولذلك يبقى الجسد واقفاً وربما يسير في الطرقات بلا روح ولا قلب • سلبوهما من هذا الزعيم • حتى الرداء سلبوا منه حركة الريح وأبقوه معلقاً في الهواء ، ذاهباً لا يؤوب •

العساكر ليسوا أبطالا • أجدادنا الذين عرفوا الحكمة هم الأبطال ، ولنا أن نجعل منهم آلهة • يستحق هذا العسكري أن يصبح مسخاً • هكذا أرادت قبيلته وهكذا أيضاً نريد • لن يطلق أحد سراحه ، سيظل واقفاً بين الموت والحياة ، كما ظل الذين سحرهم السحرة ، بين الموت والحياة •

الطرقات •

المدينة تفتح أبوابها والدهشة في العيون •
السواد يقودهم
من هنا نمضي ، يقول السواد •

الى أين ؟ تقول الخطى الضائعة وسط حقول الرؤية العجيبة •

تطوف الشوارع ، واجهات المتاجر ، الأضواء ، الملابس المعروضة ، الحلويات ، العطور، الضحكات، الدجاج المشوي ، أكواب النبيذ ، القدود الناهدة البيضاء ، طوافاً حذراً يتلمس حد المنزلق • يتأرجح ذاك الطواف قليلا عبر مسافات زاهية مفروشة بالعطر ، وامتدادات للضوء والرائحة ينزلق نحو الساحة •

الرؤية •
الدهشة •
الجوع •
التيه •
المجهول •

اللعبة تمسكنا خيوطها السحرية • تتشابك العيون • تتقاطع الأجساد • الأضواء والروائح



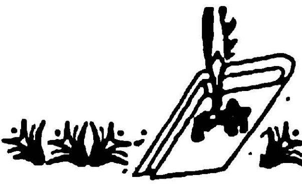
والأصوات . أين نحن الآن ؟ هذا كرنفال يقيمه الدخلاء في شوارع مدننا ، يدقون الأرض وينشرون رائحتي الخمر والعطر ، صباياهم البيضاوات يرقصن ضاحكات ويخاصرن القدود العسكرية . الدواء هو الدم ، سحرنا الدموي ، به نستطيع أن نكسر انسجام هذا الكرنفال . احتفالنا طقوسي ، مسيرة نحو حقول يسكنها جسد الاله المتوحش المعبود ، منها يخرج ، ويرقص رقصة الموت حتى يعطينا الحياة، يبصق في الآبار ويقطر دمه في الأنهار، يجري وراء الظلال السلالية المتوارية خلف شجر الأحراش ، ويسائلها ما تشاء ، قبل أن يعطيها القدسية ويعطينا جفاف الأرض والضرع وينسل فينا المرض والضمور والموت . الهنا وحشي ولذلك يفعل هكذا ، ونحن وحشيون في تلك البراري التي أطلقتنا فيها الحياة . يعطينا الاله « اليام » و «الكسافا» والضوء في العيون . يعطينا العشيرة والدم الناغل في العروق . يعطينا صيد الأدغال وصيد النهر ويُرقد أرواحنا فوق جباه الأحجار . يعطينا السحرة والعرافين ، المبشرين بالرب والهادين الى الله ، ويدق طبولنا بهدوء صاخب يباعد بيننا وبين الموت .

هذه أرض ينتشر فيها البياض ونحن نرتد .

لا عودة بعد الانطلاق ونحن نرتد . لم تجتث جذورنا بعد . ما زالت أرضنا في العين والذكرى . ماذا رأينا ؟ الرقصة، داءنا ودواءنا، لباس الريش، الرؤوس الحليقة ، الحركات الرعناء . نحن نرتد . هذا العالم يستعيدنا الى دفقته الأولى التي حملناها في عيوننا ، منذ رأينا الضوء . هناك الخيمة، وجسد الاله ، وصحن « الكسافا » الكبير ، والدور . متى نصل الى لقمة « الكسافا » ؟ متى نرشف من مرق الضحية ، اليد المطبوخة بالزيت والتوابل في قاع الطست الكبير ؟ هذه يد مطبوخة مع المرق . كف وأصابع ، لم نرها بعد ، لكننا نتصورها يداً سوداء كأيدينا . نرتعش . ننسى الرعشة التي أصبحت عادة من عاداتنا . نصرخ . نرقص . نرفع أصواتنا بالغناء . الأشجار تحضننا ، والخيمة ، وجسد الاله . التراتيل والدعوات . عقيرة الصوت . الكسافا . المرق . اليد المطبوخة في الطست . العيون البيضاء ترى . الأجساد السوداء تهتز . الرقصة . الغناء . الدائرة . التقاء الصفوف وافتراقها . الأشجار . الخيمة . النهر . الدموع . الحيتان الوحشية .

أبعدنا الأطفال وجلسنا ننتظر . جاء شيوخنا واقتربوا . كشفوا عن أسنانهم المقلوعة . صرخوا صراخهم الحاد الذي شق الفضاء ومضى نحو جهة ما . استمعوا الى التجاوب الذي كان يأتي من تلك الجهة ، مع صراخهم ، واعتبروا أن وجود الآلهة على وشك أن يتحقق . أرسلوا الأصوات مرات أخرى وتلقوا أصواتاً من دواخلهم . نظروا الى الجسد الواقف للتضحية . نظر الجسد اليهم . استراح . ملأ عينيه بالرؤية التي سوف تغيب عنه بعد مدة ، وان تركوا عينيه ، محفوظتين في كأس بها ماء ، فسوف يستطيع أن يرى بهما كل شيء . ضحك الجسد ، تصلب في وقوفه ، رأى الأشجار والرؤوس الكبيرة الصلعاء وصحن الكسافا والخيمة، نظر الى السماء ، تجاهل أن يرى الساطور ، أخفى دمه في عينيه ، ورحل به بعيداً ، الى أرض يسكنها الآلهة . انهار الجسد ، جثا دمه قرب خيمة الاله . توزع الدم وشربته الأرض ، تناثر مع الهواء .

بقي جسد الضحية أمامنا ، بقيت عروق يده النافرة ، بعد أن قطعتها السكين . رأينا اليد والجسد ، كانا أسودين مثل أيدينا وأجسادنا . صحن الكسافا . الطست . الخيمة . يد الضحية كانت تلمس الملامس في عذوبتها وخشونتها القاسية ، كانت حرارة وتورداً ، أصبحت شلوا ، قطعوها بعد أن قدم الضحية جسده قرباناً للاله ، طبخوها بالزيت والتوابل . نشرب المرق . صفنا طويل وخطانا ثقيلة . نحلم باليد وبجسد الاله . نسمع الصرخة . الأدغال تردد . الطبل يدوي في الأرجاء . تقدموا . اشربوا مرق اليد المقطوعة ، وكلوا من كويرات الكسافا الصغيرة ، بللوها بالمرق في أفواهكم ، وابتلعوها بلذة واستمتاع . هذا جسد الاله يدعو لكم ، يقسو في عيونكم ويستيقظ . سوف ترسل السماء ماءها . لن تخافوا حيتان النهر الوحشية . يعطيكم النهر أسماكه والسماء أمطارها والأرض اليام والكسافا ويبعد الآله عن أجسادكم مرض الضمور الذي يعني أن الجسد قد سرقت أعضاءه الساحرات . لا تخافوا . تذكروا . هكذا آباؤكم رقصوا في الأدغال وجثوا أمام الخيمة . صار الأسلاف آلهة ، انهم أبطال القرية، واذا عجزوا عن دفع الشرور عنها عاقبناهم بالنسيان . انسوا .



انهاروا من ألم الرقصة. افرحوا. انسوا وافرحوا. تفرقوا . توزعوا بين الأشجار ثم تجمعوا صفاً طويلا أمام طست المرق الالهي .

الصرخـة .

سمعنـا .

ضحكة رجل يغازل امـرأة بفجور نسـوي . امراة رجل ، الضوء في عينيه ، شرابه اللذيذ . رأينا الخمارة ، الأكواب المصفوفة . لم نضحك ، ولـم نتكلم . الخرس يلجمنا .

نتفتح . نرى . نشتهي الحلوى والقشـدة المثلجة وملابس الحرير . أعطونا . من سيعطينا ؟ القائد ؟ يقول هذه الساحة محطة في رحلة . أنتم لم تصلوا بعد الى نقطة اليقظة . هناك ستستيقظون ، وتحطمون أجسادكم ، وتنسون أن تروا . احلموا الآن . رؤى . تمتعوا بالرؤية كما يتمتع السـياح الأثرياء . احملوا معكم في العيون بعضاً مما ترون. انظر ولا تلمس . هذا هو قانونكم ، وان خرقتموه فعين البوليس لا تنام . اشتهوا ولا تلمسوا شيئاً . تمتعوا. رؤى. تجولوا بين الشوارع ، وسنمضي في الرحلة . أرسلوا بعضاً مما ترون الى ذويـكم بين الأحراش . أعطوهم ما ترون . أرواحهـم تتلقى من أرواحكم الارساليات . أنا لا أرسل شيئاً للأرواح ولا أومن بالعلائق العلوية . أكسب من عملـي في تسويقكم الى الغـرب الـذي يرغب في أياديـكم وأجسادكم ولا تهمه الأشياء الأخرى التي تخصكم . كل أسلافي قد ماتوا ، ولم يصبحوا آلهة . عظمـة الترقوة التي تخفيهـا آمـي في صندوق خشـبي ، لا أصدق أنها قد توارثتها عن جدها السابع ، وقد تكون لحمار أو عجل ، ثم أوهموها أنها عظمة جدها السابع . العظام وشعر الموتى والخواتم والخرزات لا تدفع شـراً . الساحـرات لا يصـرن بومـات أو ثعابين . لا مجمع للأرواح . هناك الفناء . القلوب لا تعود الى أجسادها . العيون المسمولة لا ترى . لا شيء لا شيء لا شيء . هذا تيهنا .

يدير وجهه عنا . ينظر الى عيون الأوانس الفرحات بعيون عشاقهن . يفتـح أنفه جيـداً . يشم رائحة العطر . يهـدىء من جنونه المشتهـى ويتذكر خادمة الفندق العجوز . سوف يأتيها من كل الأماكن . سيمزقها . سوف يأكل لحمها الأعجف ، أمام أنظارنا . لا عطر . رائحة القذف المنوي . الاله والشكوى . دموع الالتذاذ والألم . اختراق جسد شبيه بالموت . يؤجل ذلك الآن . يطلب دخينة من آحد المارة . هو الآخر لا يعرف لغة الناس هنا ، يستعمل الاشـارات ، ويلثغ ببعض الكلمـات التي التقطها من الشارع ، أو في الفندق ، خلال رحلاته المتكررة ، يذيب آصواتهـا في صوته ويحـاول أن يتكلم ، تفاجئه العيون بالدهشة والغرابة ، تقول له ماذا تريد ؟ يشير بأصابعه ويديه . لا يخجـل . يكرر اشاراته بصفاقة وتحد. تفهم العيون ما يريد، وتعطيه الدخينة . لماذا يطلب السجائر من المارة ، ولديه المال ليشتريها ؟ انه راحل ، ولا بد أن يحتاط للرحلة ، وأن يدخر المـال ، ليعـود الى مدينتـه بمشروع تجاري . لا يخجل . يدعي أن لا مال له . نفتش في الليل جيوبه ، ونكتشف كثيراً من الأوراق النقدية ، لكننا لا نعرف قيمتها ، ولذلك لا نستطيع أن نصدقه آو نكذبه .

يدخـن .

الاشارات لغتنا وطريقنا . نشير ، أي نتكلم . الأصابع والسحنات لا تطاوعنا . تكممت الألسن . لا بد أن نشير بأصابعنا. هذه هي اللغة التي نتكلمها مع البياض . بعض الرجال في مدننا يتكلمون لغة البياض ، ويخدمون في سلك الحكومة ، يستعلون على أبناء قبيلتهم ، يصبحون عسـاكر ويخالفـون أوامر القبيلة ، لكنهم يتيهون ، تبعدهم عنا أرواح الخير ، ولا يعودون أبداً .

نطلق سـراح الألسـنة ، ونجعلها تتحـاور ، لنحطم العزلـة التي قامت بيننـا بعد أن تهنـا في المتاهة . ماذا نقول لبعضنا ؟ عندما نتكلم ، يظـن القائد أننا نتآمر ، ويمنعنا من الكلام. يقول كلامنا يخيف المارة، وهم يعتقدون أننا من أولئك السحرة، الذين يمتصون دماء الأجساد بالرؤية ، فيظل الجسد ميتاً في حياته بغير دم . لسنا سحرة ، وليتنا كنا . الساحرات نساء ، ويكفي الرجل أن يكـون عرافاً ، وربما يصير بطل القرية أو الهاً . لسنا شيئاً مـن هذا . التيه يقودنا نحو مرابع لا نعرف عنها شيئاً . أنت القائد أيها السواد .

نتكلم . نسأل بعض الأسئلة التي ليس لهـا جواب . ندعو بعضنا للرؤية . نتذكر ونحكي . نحمل في لغتنـا الذكريات . نشـكو لبعضنا هـذا الاجتثاث هنا . مجتثون ، نحمـل معنا الجـذور



ولا ندري الى أين سوف نمضي بها • يقودنا السواد ويمنعنا من الكلام والاشارة ، ويستأثر وحده بهما معاً ، يقول أنا أقودكم ولا حاجة بكم الى أن تكلموا هذا البياض ، ستكلمونه في يوم من الأيام القادمة ، عندما تستيقظون من الدهشة ، على دهشة أخرى ، وفي نقطة الوصول ، سوف تتعلمون لغة البياض ، لا تتسرعوا الآن ، انظروا ، امشوا في الشوارع ، اشتهوا وتمتعوا بالرؤية دون أن تلمسوا شيئاً ، نحن الآن في منتصف الرحلة •

يدخن • تختلط رائحة الدخان برائحة العطر في أنوفنا • نشير الى المارة اشارات تشبه اشارته • ينهرنا • تحمر عيناه • يوقفنا عن المشي ، وينظر الى عيوننا بغضب • مـاذا تريدون ؟ هـل شبعت بطونكم ولم يبق لكـم الا أن تدخنوا السـجائر ؟ أنتم وحوش اكتشفت طريقها الى هذه المدينة • لا تقلقوا راحة المارة • اذا رآكم البوليس تفعلون ذلك • فسيرمون بكم الى أرض لاأعرف كيف أقودكم فيها • لا تنسوا أنكم لا تحملون جوازات أو بطاقات الهوية • حيوانات أنتم • تهـدأوا • تعلمـوا أن تروا • هؤلاء البيض هنا لا يستطيعون أن يتصوروا أجسادكم الا عارية ، يرون دم الأحياء على شفاهكم الغليظة • أنا مثلكم ، لكني تهدأت • تهدأوا ، حتى نستطيع أن نكمل الرحلة • هيا •

استمعنا الى كلامه القاسي • احمرت عيوننا •

نمشي • الجسد مرهق بالمشي • طوال النهار والليل نمشي • كللنا المشي ولم نمـل ما نراه في الشوارع الزاخرة بالمعروضات • الأوانس • النساء البيضاوات المعطرات • الأرداف اللحماء • هـذه عيوننا ترى ، نقتلعها ونرمي بها واجهات المتاجر • نمضي بغير عيون • نعـود الى المكان الذي ألقينـا اليه بعيوننا ونلتقطها لنرى بها مرة أخرى • العين التي في كأس الزجاج ترى • عين القناع المحفورة في الخشب رائية • رأينا المقاهي والحوانيت والمطاعم والحانات • هذا تيهنـا • نمشي وسط الأجساد البيضاء المعطرة ، ولا نضيع في الازدحام • السواد علامتنا • البياض ينظر الى السواد • غـرباء راحلون عن أحراشهم الى مدن البنايات الشاهقـة وضجيج الآلات • السـواد ينظر الى البيـاض • تائهون وسط عطور النساء • ماذا نحـن ؟ اسألوا القائد ، وحده يعرف الى أين سوف نمضي • لسان القائد أطول من ألسنتنا ، لذلك فهو يلثغ بعض الكلمات ، ويشير بأصابعه طالباً سجائر المارة ، أما نحن ، فقد تركنا ألسنتنا واشاراتنا في الأدغال قرب خيمـة الاله •

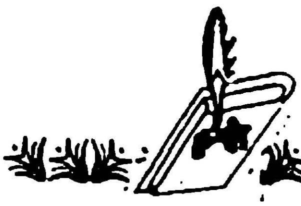
البحر أزرق صاف رقـراق ، منبسط عـلى مساحة تمتد أمامنا • رأينا البحر بعد أن قادتنـا الخطا الى هذه السطحية • البواخر • الحمالون • الحقائب الكبيرة • وجوه أتعبها السفر • الرافعات • رجال الدرك • دخلنا هذه المدينة من أحـد أبواب البحر • ليس هذا هو الباب الذي دخلنا منه • لم نر رجال الجمارك • تحاشى القائد دخولنا من هذا الباب لأنهم سوف يمنعوننا من الدخـول ما دمنـا لا نملك الجوازات • قال القائد أنتم مهربون ، وأنا أهرّبكم • لم تكن لدينا سلع أو ممنوعات ، كنا نهرب بجلدنا ، والقائد يهربنا •

من الأدغال مضينا الى الساحل ، ومنه ركبنا باخرة تجارية الى الجزيرة ، ومنها ركبنا الزورق الى هنا ، ومن أحد أبواب البحر السرية دخلنا •

هذا هو البحر أزرق صاف يرتفع أمامنا ونحن هنا فوق هذه السطحية • الشمس • نسمة هواء • سكون الموج عند رصيف الميناء • رجال الجمارك • الشـارات والمسـدسـات • ممـرات التفتيش • الحقائب • الوجوه المرهقة بالسفر • رأينا بعض السود مثلنا • دمنا يرحل ، يبتعد عن أرضه ويتيه في المتاهة • دمنا يتوزع ، يقطـع البحار ، بعضـه يخرج من باب البحر المحروس برجال الجمارك ، ويدلي بالجوازات وأوراق النقد ، وبعضه الآخـر يخرج سراً ويدخل من أبواب البحر السرية • البحر يعرف أبوابه ويعرفنا • توزع الدم وهو لا يلتقي • لغات نحن ، بطانات وعشائر ، أديان و مستعمرات لجنسيات متعددة بيضاء • انهار دم السواد لكنـه سوف ينهض ، وعندما سوف ينهض ، ستبدأ الأدغال في ولادة نارها ولن تلد الأدغال غير النار •

انظروا الى الدم كيف يتجه في الهجرة ، ويبدأ خطوه نحو المجهول • اخترقنا زمناً ، وكان القائد يخترقه بنا • القائد ابن عشيرتنا ، رحل وعـرف الرحلة ، ودعانا الى الرحيل • أجسادكم قويـة ، تعالوا للعمل في الخارج ، قال لنا ، وتبعناه •

تتسع الساحة • الشوارع • تمرق سـيارات فخمة • القناطر • يصعدون ويهبطون • قناطـر



بعضها فوق بعض • السماء فوقنا عارية زرقاء • نتوقف أمام باب كبير نرى بداخله الخضر واللحوم والأجبان والورد • نرى • في الأزقة رأينا الدجاج المشوي يدور في أفران الزجاج ، نريد الآن أن نرى اللحوم والأسماك • أين الموز والمانغو ؟ أين اليام والكسافا ؟ هل هناك جوز في هـذا المكان ؟ اللحم النيىء ، لا يمكن أن نأكلـه الا في بعض الطقوس العشائرية ، وعندما يأمرنا الاله بنزع الشر عـن جسد بشري ، فنحن نأكله ، ويحتفظ الاله بالعظام، بينما تعود الروح الى جسدهـا وقد تلتقي بـه في مكان ما • عجول وخنازير مسلوخة • لحوم مكتنزة حمراء • لا سبيل الى أن نأكل • السمك • هـذه أسماك تشبه أسماكنا التي نصطادها من النهر ، بعد أن نخاطـب روح شعب المياه الحاكـم في تلك المنطقة من النهر • للماء أرواحه التي لا تعطي الا اذا رضيت • نتوقف • نرى الموز والتفاح • ثمار الموز كبيرة ناضجة ، تذكرنا بارضنا ، وبالجزيرة التي كانت مرحلة في رحلتنـا فاكلنا من موزهـا اللذيذ • ألا نأكل من هذا الموز ؟ نهجم على العنقود، نقطف منه الثمار ونزدردها بالتذاذ ، حتى القشور لذيذة ، نحن جوعى • ماذا يقول القائد ؟ سيقذف بكم البوليس خارج هذه الأرض ، وستفسدون خطة الرحلة • ماذا تقول بطوننا الجائعة ؟ ننقض على عنقود الموز ؟ هذه عيوننا تسرح بين الأحراش • نتسلق الأشجـار • نقطف الثمـر ، نأكلـه فـوق الشجرة • سيقاننا متدلية في الهواء • ليس هنـاك بوليس يمنعنا من تسلق الأشجار وقطف الثمر • البوليس ؟ الآلهة تحمينا منهم • انهم لا يقتربون • كل الذين أسقطوا ثناياهم والذين لم يسقطوهـا يستطيعون أن يحاربوا بالقوس والنبل • الشيوخ يقتربون من الاله ، هو يأمر ، وهم ينقلون الأوامر الى الذين يحاربون ، وربما يستدعون العرافـين والسحرة • تعرف الحكومة هذا وجيشها لا يقترب• نحن بين أدغالنا لا يحكمنا غير الآلهة •

لم نسقط ثنايانا ، لكننا نصرخ ونرقص ، ونقف في ذلك الصف الطويل أمام طست المـرق • نحتفظ بالخرزة ، والخاتـم النحاسي ، وقواقـع عظام الموتى ، وشعرات من مفارق الساحـرات • نصرخ • تحمر عيوننا ، ونحاول أن نلتقي بنقطة انبثاق القوة الجوهرية الكامنة في مكان ما • نصرخ، وندق الطبول • الاله الراقص يعطينا • ندق لـه الطبل وهو يعطينا ، يدفع عنـا الذبول والاعيـاء والمرض ، وربمـا يبعد الجفـاف عن أرضنا فتذر السماء ماء • نأكـل ما نصطاد • نسمع عـن بعض أبناء جلدتنا في المدن ، الذين يعملون في الادارات أو يعلمون في المدارس ، انهم ليسوا جوعى مثلنا ، واذا جاءوا يشترون المؤونة من حوانيت المـدن • قال لنا القائد اتبعـوني ، وسـوف تصيرون مثـل أولئك ، تكسبون النقود وتشترون ما تشاؤون ، وأيضاً ترسلون بعضاً منها الى ذويكم ، فتبعناه •

رأينا من باب السوق المركزي الموز والتفاح واللحوم والأسماك والأجبان • توقفت خطواتنا • رجعنا اللحظة • نهرنا القـائـد • تعالوا • هيا • طريقنا من هنا • أضحكنا صوته الآمر وهو يستعمل لغة الأحراش • احمرت عيناه • كان قد مارس معنا شهوته في الكلام • سمع صوته وأسمعنا صوتاً من أرضنا • لا بأس • ليكلمنا من حين لآخر حتى يسمع صوته ونسمع صوتاً من أرضنا • لا يستطيـع أن يبتعد عنا كثـيراً ، لأنه لا شيء بدونتـا ، لا شيء تماماً • افتقادنا يعني بالنسبة اليه ، العودة الـى العشيرة، لاصطياد أجساد أخرى في مثل قوة أجسادنا، يغريها بالرحلة ، وربما لا يجد من يطوعه الاغراء • سوف تخسرنا اذا احمرت عيناك مرة أخرى ، واذا خسرتنا فقد خسرت الرحلة • ماذا نفعل بأنفسنا هنا بغير هذا القائد ؟ خرس نحـن هنا ، جوعـى تائهـون ، مفتونون بالرؤيـة ، عرفنـا الساحـة والشوارع ، والتمثال المنتصب والقناطر المرفوعة فوق بعض ، ولم نعـرف في أية نقطة نحن في هـذه الرحلة • بدون القائد ، لا نستطيع أن نكون شيئاً ، لندعه يصعد دمه الى عينيه ، لا مفر لنا من طريقه، سوف يوصلنا ويعود ، وسنبدأ طريقاً آخر بأنفسنا •

العطر • الشعور المشطة المسترسلة عـلى الأكتاف • شعر كالحرير • وجنات محمرة بيضاء • معاطف وسراويل قصيرة• نساء يدخن في الشوارع• أرصفة المقاهي • الكراسي والطاولات المعدنية • بريق ذلك المعدن الأخاذ • أكل هذا ذهب وفضة ؟ المشروبات • ماء رقراق يتدفـق من الفسقيـة ، ويتصاعـد من النافـورات • رذاذ عـذب يرشـق المارة • رائحة الماء • للماء رائحة تشبه الخروج من الخيام الى العراء والوقـوف بين الأشجـار النقاوة • السماء زرقـاء • المـاء يرش رذاذه • الحمائم تستحم ، تميل بأجنحتهـا على الماء • كـل هذا يغري بالعري • الرقص هنا يوقظ في الجسد



لحظته المفقودة • المكان يستعيد الجسد ماضيه ، ينطلق به نحو حد المنزلق ، الذي فيه الجسد جسده ، ويغدو سديماً أو بحثاً عن المحال ، تدفعه الصرخات ودقات الطبول •

ـ أصرخ •
ـ لن أصرخ • اذا صرخنا هنا سوف يحاصرنا البوليس •
ـ تعرَّ •
ـ تركنا لباس الريش في الخيمة • اذا تعرينا هنا فسوف يرموننا بالرصاص •
ـ ارقص •
ـ هذه ليست أدغالا • بين الأدغال نتعرى ،

يتعرى السواد ليصرخ أو يرقص • ضاعت لحظتنا وربما لن نستعيدها أبداً •

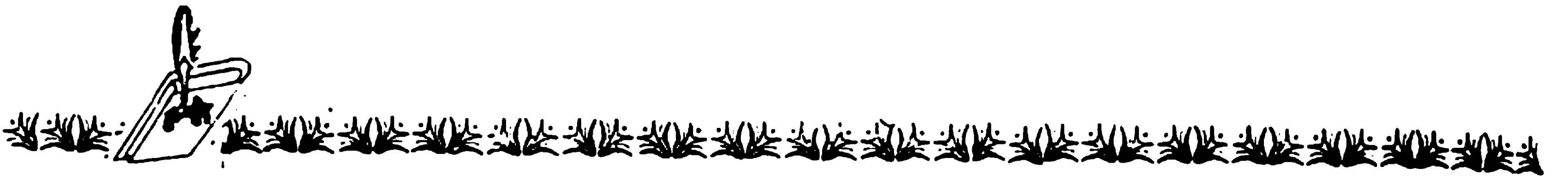
السراويل القصيرة • الأحذية ذات الكعوب • السيقان البيضاء • الأرداف الثقيلة • العطر • الضحكة • التمثال المنتصب في الوسط ، الآمر العينين ، مرة أخرى • طفنا ورجعنا • مضت بنا الدروب وعادت ، أرجعتنا الى الساحة • في هذا الدرب توجد واجهات الحلويات ، في آخره تطل امرأة الشباك الأخضر ، بنهديها العاريين • من هنا نذهب الى الحديقة ، وهذا طريق البريد، وذاك يؤدي الى الساحة ، والآخر يذهب بنا الى القناطر ، وهذا الطريق يتجه نحو باب البحر الذي يقف عليه رجال الجمارك • نحن الآن هنا • رائحة خمر • قرنبيط مشوي • سردين وقلوب عصافير • أكباد الدجاج تطل من بسطة داخل الحانة • الجمة • أكواب وقوارير• أفواه تفتح وتغلق • صوت غناء• احتراق سجائر • اكتظاظ بشر يتسارعون نحو الكأس • لم نذق من هذه القوارير • تركنا خمر البلح في أرضنا • براميل نسقى منها في اجتماعات القرية ، وبعض الاحتفالات • هذه قوارير شفافة تعرق من برودتها الكأس ، وتتقاطر الحبات البيضاء الصغيرة ، على حافته • قالوا لنا انها تغيب العقل• هؤلاء الرجال واقفون لم تغب عقولهم ، فرحون ، يضحكون ويمارسون شهوة الكلام • لماذا كذبوا علينا ؟ أبناء جلدتنا الذين ذهبوا الى المدن ، رأوا فيها أناساً يشربون من هذه القوارير ، وقالوا لنا انها تغيِّب العقل ، وتجعل من الرجل امرأة ، ومن المرأة طائراً أو أفعى أو تمساحاً يفترس، صدقناهم، واختلط علينا أمر هذه القوارير بسحرنا الأسود ، قلنا هي السحر لا ما تفعله الساحرات • هؤلاء الرجال يشربون من تلك القوارير ، ويظل الرجل رجلا ، والمرأة امرأة • لماذا كذبوا علينا ؟

رائحة القرنبيط المشوي • الدجاج داخل تنانير النار المتوهجة • العطر • احراق السجائر • الضحكات • الأصوات التي تشبه الكلام • العيون الفرحة • الملابس ذات الألوان العجيبة • النساء الجميلات ذوات الشعور الحريرية المسترسلة على الأكتاف • حدثونا عن الملائكة ، قالوا انهم في السماء • هؤلاء ملائكة • في هذه الأرض ملائكة يضحكون ، يأكلون القرنبيط والكاكاو ، يرسلون رائحة عطورهم مع الهواء ، تكشف أثاثهم صدورهن للعيون المتلذذة بالرؤية • أهؤلاء هم الملائكة ؟ ماذا تقول أيها القائد ؟ لم تقل أنك سوف تقودنا الى أرض الملائكة • كيف عرفت طريقك الى هذه الأرض ؟ من ساقك اليها ؟ عرفنا الآن لماذا قلت اننا سوف ننسى أهلنا • نحمل معنا الجذور لكننا بدأنا ننسى • هذه حقول للرؤية العجيبة ، أنهار ضوء ، ولادات حلم قادم نحو العين • سنعطيك نقوداً أيها القائد عندما نحصل عليها ، لقد قدتنا الى أرض الملائكة •

نسينا الريش في الخيمة • نريد الآن أن نرقص مع الملائكة رقصتهم الملائكية • سنأكل القرنبيط وقلوب العصافير ونشرب من تلك الأكواب • لننس أشجار الجوز• لننس لباس الريش وخيمة الاله• لننس اليد التي في مثل سوادنا وطست مرق الضحية • لن ننسى الرقصة والعراء والصرخة • لن ننسى أرضنا • بين ما سننساه وما لن ننساه سوف تولد المسافة •

كيف نعود الى أرضنا ؟ ربما لن نعود ، لأننا لا نعرف طريق العودة • لقد أضعنا الطريق نحو الأرض التي أنبتت أجسادنا حتى ضربت فيها الجذور • هذا الطريق يمر من الأدغال ، الى فيافي الأفاعي والغيلان ومراتع الساحرات، الى الساحل ، هناك في الساحل شعب المياه ، الحاكم يعطيك اشارة المرور ، أو تلقمك التماسيح والحيتان ، والحاكم يتأله ، اذا لم تعرفه ، ولم تدع له الدعوات الضرورية ، فقد صرت لقمة في بطن حوت جائع يطعم الأحياء بأوامر الاله •

من الساحل رأينا البحر • غمر الماء أغرق



انظارنا • هل سوف نركب كل هذا الماء ؟ لم نأت للصيد وانما جئنا لركوب هذا البحر الى ساحل آخر لا ندري ما سوف نصادف فيه من العجائب • معنا القائد ، هو يركبنا ، ويكلم أرباب سفينة النقل التجاري • نتستر • من الباب السري دخلنا البحر ، وعلينا أن نخرج من باب سري آخر • الريح توجه السفين ونسأم رؤية الماء ونتدثر بملاءات الصوف التي حملناها معنا • أكلّ هذا بحر ؟ ما يفعل الناس بكل هذا الماء الغاضب ؟ غضب الساحرات في غضب هذا الماء • تيه القبيلة في ضياع السفين • كيف يعرفون الاتجاه وسط كل هذا الماء ؟ لقد ضعنا • سينتهي زاد السفر ونبقى جوعى فوق هذا الماء • كفّوا عن الأسئلة ، ولا تخافوا ، سوف نصل الى الساحل الآخر • قال لنا القائد ضاحكاً ، واستمر في حديثه مع بعض البحارة •

ساحلنا كان جزيرة ، رأينا فيها ثمر الموز ، وأكلناه • سمعنا الضحكات، وشممنا روائح العطور في الشوارع • للبحر أبواب لا نعرفها • هل علينا أن ننسى ، وهل نستطيع أن ننسى ؟ لن ننسى أبداً•

الفسقية • الماء رذاذ• أجنحة الحمائم تقترب، تميل وتتباعد ، يرشها ذلك الرذاذ وهي تداعبه باشتهاء ، تنحني قليلا وتستحم بنشوتها السحرية ، ثم تعود الى الأوكار • يجذبها الماء مرة ثانية فتأتي، وتنقره بمناقيرها الدقيقة ، تتوزع ، تميل بفرحة ، تنقر الماء ، تميل له أجنحتها البيضاء ، ترق وتغدو كالأرواح الهائمة • القائد لا يراها ، يدخن سيجارة من علبة رأيناه يشتريها ، يرى امرأة تعبر الطريق، تحمر عيناه ، يلاحق المرأة بهما ، تمضي وتتبعهما عيناه ، تدخل حانوتاً ، تشتري لها عيناه هدية ، تذهب الى السوق المركزي ، تشتري لها عيناه خمراً ولحماً وجبناً وفواكه ، تقصد دارها وتفتح الباب بالمفتاح ، تضيء لها عيناه الردهة قبل أن تشعل النور ، تضع المشتريات في المطبخ ، تساعدها عيناه على تحضير الطعام والشراب ، تجلس في غرفة الاستقبال ، تحدثها عيناه عن الشوق ، تنتقل الى غرفة النوم ، تخترق جسدها عيناه وتمزقان اللحم وتعضان الصدر وتريقان الدم ثم تهربان الى الشارع وقد نسيتا السروال والقميص في غرفة النوم • هذا هو عري العينين في الشارع • يرى رجال البوليس هذا العري ويتجاهلونه ، يتظاهرون بالانشغال بأمور أخرى ، يصطادون السيارات التي خالفت اشارات المرور ، يتعقبون أشباه اللصوص ، ويتجاهلون العينين العاريتين •

الحديقة • الأوانس • العشاق • العطر والدفء والحنين • نشرع عيوننا على قبلة بين عاشقين • نرى العاشق يطعم معشوقته حبات الفستق ، يحنو عليها ، يداعب شعرها باستغراق وغيبوبة ، تغيم عيناها في مكان ما ، تعود اليه الحمامة ، يصبح ماء ويرشقها في الجناح ، تلتذ ، يبتل الجناح وتطير الحمامة ، يتبعها الطائر بين الأشجار ، يداعب شعرها ، يهيم وينسى لحظة وجوده في مكان ما ، يبدأ المعاودة، بأصابعه الرقيقة البيضاء يلمس صدرها ، يقابل عينيها بعينيه ، يخترقها وتخترقه ، يطعمها حبة الفستق ، تطعمه حبة أخرى، يتضاحكان ، ينهاران على المقعد الخشبي •

أهذا هو العشق الأبيض ؟

تهنا بين الحمامة وبين الماء، بين الشفة والشفة•

وقفنا • نهرنا القائد • لا تنظروا اليهما هكذا ، سيفزعان منكم • تعالوا • طريقنا من هنا• تحمر عيناه ، تكونان الآن في مطبخ المرأة التي تبعتا خطواتها في الشارع • فجأة تعود العينان الينا محمرتين • يعدُّنا القائد • تسعة نحن •

سايدو •
ايزا •
طامزير •
نازي •
مامادو •
أوسبا •
مونغو •
طوطو •
بوبو •

هذه أسماؤنا • الأرض أنبتت أسماءنا بعد أن زرعتها في رحمها خيمة الاله • يعدنا القائد كي لا نضيع وسط حدائق الرؤية ، يخشى أن يضيع أحدنا في هذه الطرقات ، أو تغويه امرأة ، أو يتستر خلف جدار كي يغير على حانوت للمأكولات • طامزير المأفون ، ربما يهرب ، أو يلطم رأسه مع واجهة دكان لبيع الدجاج المشوي ، احرسوه ، راقبوه باستمرار ، اذا فعل فاعلة فأنتم المسؤولون ، وسوف تضيع الرحلة ، ويلقي البوليس بكم خارج هذه الأرض • تكلم القائد ، وفرح بكلامه ، يجد الآن في هذه الأرض من يفهم لغته ، هذا



يسعده، رغم احمرار عينيه، وسبقه لخطواتنا · اذا ضاع منك أحدنا فسوف تخسر ما تلقاه مقابله من أجر · أنت تتجر بنا ، تبيعنا الى من سوف يشغلوننا · اذا ضاعت الرحلة ، خسرت ما أنفقته علينا في البحر وفي الجزيرة· كلانا لا يريد أن يخسر شيئاً · نحن أضعنا الطريق الى أرضنا ، ونريد الوصول الى أرض الخيرات كما وعدتنا ، وأنت تريد أن تتخلص من هذه الرحلة ، لتبدأ رحلة أخرى · نلتقي في الرحلة ، وقد لا نلتقي أبداً ·

غابت عنا عيناه ، ذهبتا الى مطبخ تلك المرأة التي تبعتاها في الشارع ، واشترتا لها الخمر والجبن واللحم والفواكه · تنظران الى النار في الموقد ، تصفان الأكواب على البسطة المعدنية ، تهيئان السلاطة ، وتحلمان بالجسد الأبيض ·

طامزير يسمع دقات الطبول ·

سايدو يحمل القوس والنبل ويخرج للصيد ·

أين يلتقيان ؟ ربما في الجوع أو في نقطة ما من السماء · يتوحشان · سروالان من ملابس المستعملات الأمريكية ، يستران نصفي جسديهما · الصدران عاريان ، عليهما بعض الخدوش والجروح الصغيرة · حافيان يخرجان · ضاع الصندل البلاستيكي في ترعة ما · السماء رائعة · أشجار النخيل · النهر ينساب هادئاً · الأشجار المتكاثفة القصيرة · منحدرات · القوس والنبل · العينان مفتوحتان ، تبحثان عن طائر أو حيوان صغير · الانحناء · الكمون · الرصد · الانتظار · سايدو ، تعال من هنا ، اخط خطوة نحو ذلك الدغل · الطيور الملونة ، أسرابها تتجه نحو الماء · أنت تريد أن تلقم هذا الطائر الملون حياً، وتجعله يغني في بطنك· جوعان يا طامزير · الطيور الملونة لا تشبع ·

ـ متى يأتي موسم حصاد اليام ؟
ـ احتفالنا القديم بالحصاد لم يبدأ ·

ـ لم نعد نحصل على طعامنا من « الفوفو » العادي ·

ـ سئمنا « الكسافا » ·
ـ أحياناً لا نجدها أيضاً ·

ـ أيدينا لم تعد تمتد لتقطع أجزاء من عجين « اليام » اللبني المتماسك ، لنغمسها في وعاء طبيخ الحريف ·

ـ جفت أيدينا يا طامزير ·
ـ أهو الجفاف ؟
ـ أو لعله سحر الساحرات ·
ـ تعال اصطد معي ·
ـ الاله يصطاد معنا ·

ـ لا تنسى أن تلقي أول طريدة الى روح الاله ، فدية ، اطرحها على الأرض · قل له : هذا لك ، وسيعطينا الكثير ·

الأكواخ المسقفة بالجريد والقصب تنتظر صيدنا · الضمور في الأجساد والعيون حولاء مائلة نحو جهة ما · الأطفال عراة : سابحون في برك الطين يأكلون التراب وينظرون الى السماء · القرية مسحورة ، ولذلك تحول عنها الغيم ولم تسقها الأمطار · أهو الجفاف أم السحر الذي صنعته الساحرات ؟ أكل الشر القلوب والأعضاء التناسلية، ومضى النسر نحو سمائه · أطفال بلا قلوب ، ماتت قلوبهم روحياً ، أكلتها الساحرات · المعدات الجائعة يملأها التراب · لا شيء سوى التراب ·

ـ قد تخرج النمور والثعابين ·

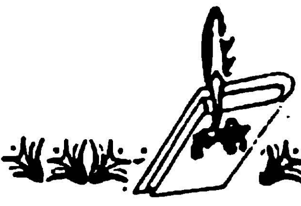
ـ افتح عينيك يا سايدو ، قبل أن تسقط في حفرة ·

ـ الحفر عميقة ، بحيرات الطين العجيني تمتص الأجساد وتبتلعها تماماً ·

ـ حذار أن تتبع طريدة الى حافة احدى البحيرات الطينية ، قد تكون تلك الأرنب التي تصطادها ، هي جدتك ، أو عمك الميت · اقترب واحذر · اياك أن تصطاد روح أحد أجدادك ·

ـ سأحاول أن أعرف ان كان الحيوان روحاً قبل أن أطلق السهم ·

« اليام » ، لن نأكله قبل شهور · مفاتيح مخازن « الكسافا » في جيوب بعض الناس ، وقد سافروا الى المدن · قال لنا بعض الذين سافروا الى المدن ، رأوهم يشربون في الحانات مع الضباط ورجال الحكومة · نحن جوعى· الأطفال يضمرون· قال الكاهن أرواح أبطال القرية غاضبة منكم، وقال ان الجفاف من شر الساحرات ، وقال ان النسور الروحانية قد أكلت كثيراً من قلوب الأطفال وأعضاء



الرجال التناسلية ، وقال وقال وقال • نحن جوعى والجفاف توالى لثلاث من السنوات •

– ته في هذه الأحراش يا طامزير •
– أنا وأنت نتيه •
– هذا خير لنا من أن نموت جوعاً •

الماء العكر • البحيرات الآسنة كثيراً ما نقترب منها ونصاب بالحمى • الأشواك • جذوع الأشجار المكسورة نتخطاها • العيون على الأرض وبين الأشجار • نحاول أن نعثر على شيء يصاد • هذا زمن الأرانب • الوعول تتجول أسرابها قرب البحيرات ، سارحة ، تنظر الى الماء ، تحدق في السماء ، تقضم من أوراق الشجر والحشائش • وعل صغير يرى • لا يتحرك • يمشي قليلا • يعود الى وقوفه الهادىء • يرحل بعينيه الى حقول الرؤية • غائب هذا الوعل ، مثلنا ، أحياناً نقف في وسط الأدغال ، نحدق في نقطة ما ، ننسى كل شيء ، تغيم عيوننا ، نرى ذلك الصحن الذي خبأت فيه الأم قلب ابنتها ، وتلك الجرة التي خبأت فيها الجارة مهبل الجارة • نسمع الطبول • نرى أصابع الموتى • نحن وذاك الوعل الصغير سواء • نافر هو الآن ، يتجه ، يتيه في مكانه وينسى سربه ولا يريد أن يرجع من مكان لمكان •

– لن نقتنصه أبداً •
– هذا النبل مصوب في قوسه ولا نقطة للرماية •
– ارم •
– أنت الرامي يا طامزير •
– لا شيء يرمى •

السماء انقلبت • شعلة ودخان • خيام متقاربة • لقد عدنا •

– أين نفرتما أيها الوعلان ؟

لا ينظران اليه • تحمر عيناه •

– هيا من هنا •

ينظر مثلنا الى الواجهات • عادت عيناه من مطبخ السيدة ، بعد أن هيأ السلاطة ، وصف الأكواب والقوارير • العطر فواح • الخمر • السجائر • الدجاج المشوي • القرنبيط • العيون • الأيادي • الأجساد البيضاء • أريد أن ألمس جسداً أبيض • لا يمدون لنا أيديهم للتحية ، خوفاً من أن يلمسوا سوادنا • اذا لمستنا يد بيضاء ، احترقنا وأحرقناها • تعالي لأمسك يدك لحظة أيتها الآنسة• الدم يصعد الى العيون • البياض السكري • بياض الشمع أو الرخام • بياض الجسد• كل هذا البياض يؤكل • ماذا تقول أيها القائد ؟ الخبز الأبيض • السحر الأسود • الدموع • الحنين يخترق كل شيء• هذا حنيننا •

ساعته في اليد ، ينظر اليها • لا نملك ساعات ، ولا نعرف الزمن بواسطتها • نقيس الوقت بالنظر الى السماء • من السماء هبط الاله وخاطب البشر ، ثم استقر على الجبال الخمس • استقر الاله على الجبال ثم وزع كل مهامه في الأرض على أبطال القرية ، وشعب المياه ، والأرواح الذكية ، واستراح تماماً • انه يرانا • أين هو الآن ؟ لقد تركناه في الخيمة ، وجئنا الى هذه الأرض حيث نبقى بلا اله • ما أقسى أن يترك الانسان الهه فوق الجبل ، ويبتعد عن ذلك الجبل مثل هذه المسافة التي ركبناها فوق الماء • مرة أخرى ينظر الى الساعة ، ربما يحاول أن يعرف هل حان الوقت الذي سيوزع علينا فيه قطع الخبز اللذيذة البيضاء ، الطويلة ، كأنها العصي ، نبتلعها بسرعة ونظل جوعى • يشتري عشر خبزات طويلة يوزعها علينا وهو ينظر الى أيادينا الوسخة ، والى عيوننا • قبل أن يعطي الخبز ينظر الى عيوننا ليرى ما فيها من رغبة ، واستعداد للانحناء أمامه • يعتد باطعامنا • اذا منع أحدنا من خبزته يقتله ، ربما ، أو يصدم رأسه بواجهة متجر للحلي والجواهر • لا يستطيع أن يمنع الخبز عنا ، لكنه يذلنا بالنظر الى عيوننا الجائعة ، ويذلنا أيضاً، عندما يعطينا الخبز وحده ، ويحشو خبزته بالجبن والمحمصات ، وأحياناً يحشوها بشريحة لحم ، مع البطاطس المقلي ، أو فخذ دجاجة • نراه في بعض الأوقات يستسيغ طعامه بشراب ذهبي ذي زبد يفيض على شفتيه ، ونشم من فمه نفس الروائح التي تأتي الينا من الحانة أو الشارع ، وأحياناً يشتري علبة سجائر ، ويدخن ، دون أن يعطينا •

لا نعرف كم في جيبه من أوراق النقد ، ولا نعرف طريقنا بدونه ، ولو عرفنا ذلك ، لقتلناه •

نأكل الخبز • ننظر الى الدجاج في التنانير الزجاجية يشوى ويريق دسمه اللذيذ • لو قطرة من ذلك الدسم مع ذلك الخبز • نمزج لقم الخبز برائحة



القرنبيط ، والجعة ، والنبيذ ، والعطر ، والتبغ ، والبياض ورائحة الفرح • يتكوم الخبز الطويل في بطوننا ، يأخذ شكل المعدة، بعد أن نمضغه ونبتلعه، لكننا نحس بتلك العصا تستقيم في بطوننا ، تملأ منها جانباً ، ونبقى جوعى •

قال القائد :

ـ أنا أطعمكم من جيبي ، وأنتم لا تشبعون •

قال له أوسبا :

ـ ليس عندنا مال • أنت تعرف كل شيء •

احمرت عيناه •

ـ سوف أسترد منكم نقودي ، بعد أن تحصلوا على الشغل •

قال نازي :

ـ متى نصل الى مكان الشغل ؟

قال :

ـ عندما تنتهي الرحلة •

عيناه بيضاوان ، ترحلان في عيون النساء ، وتمضيان بعيداً • كنا لا نراه أحياناً ، تنسى أن عيونه على النساء وعلينا ، تحرساننا من الفرار ، وتحلمان بمناطق الزغبوالحرارة والعرق• سبقتنا خطواته • وقفنا في وسط الساحة • نظر الينا مامادو ، قال :

ـ لماذا لا يشتري لنا الجبن والموز ، ويقتطع ذلك من أجرنا بعد أن نعمل ؟

اتسعت أحداقنا • فرحنا • قال ايزا :

ـ قل له ذلك يا مامادو •

قال مونغو :

ـ حذار أن يسمعنا •

قال ايزا :

ـ قل له يا مامادو أن يشتري لنا السجائر ، أو يسمح لنا بطلبها من المارة ، وقل له أن يعطينا النقود لندخل دار المرأة ذات النهدين المطلين •

ضحك سايدو • تظاهر بوبو بأنه ينظر الى واجهة • كان قد استدار نحونا ورآنا نقف على شكل تآمري • قال لنا :

ـ هيا ، تعالوا •

تهنا بين الطرقات • السوق المركزي •

الورد • الدجاج • الأسماك • التفاح والأجاص والموز • العطر • الكحل في الأهداب • الخدود الموردة البيضاء • الأرداف اللحماء • السيارات مارقة • الواجهة • الضحكات الرنانة • البياض يتكلم • الأصوات تتبعثر حولنا • ضحك وأصوات نسوية رقيقة • البياض يضحك • اكتظاظ الشوارع بالأجساد البيضاء • هنا ضاع القائد ، بحثنا عنه بعيوننا بين الأجساد ، فعرفنا أنه الآن في مطبخ السيدة ، يضاحك بياضه ويصف الأكواب والقوارير والسلاطة والجبن على البسطة المعدنية • البياض يضاحكه ، الغدان محمران • الوجه ساحر والعينان آمرتان • خضوع القائد ينسيه الأوامر التي يتلقاها حول اعداد المائدة • ينسى أن يضع الوردة الحمراء في المزهرية • يدرك أن هذه السلاطة تؤكل بالملاعق، والأخرى بالشوكات • ينظف الشوكات والملاعق • ينظر الى جدران المطبخ الزاهية برفوف المعلبات• يفتح المثلجة ويخرج بعض الأشياء التي تؤكل باردة • تقول له السيدة ليس هذا أوان الأكل ، سنشرب الساعة ، وبعدها سوف نفكر في رجل الخنزير التي تشوى في تنور البوطاغاز • ضع هذا الجبن هنا • هذه الصلصلة تناسب هذا الطبيخ • اللوز والجوز يرتبان هكذا • اشو هذه اللحمة ، وقطعها قطعاً صغيرة • هذه قلوب الطير تؤكل مقلية• هذا الكاكاو المقلي في قشوره • ألا يكفي هذا للسهرة ، قل لي ، أليس هذا كافياً ؟ تضحك العينان البيضاوان للعينين السوداوين • يبدو أن الضحك قد خان احداهما • تعال أيها الرجل الذي قاده الحظ الى هذه السهرة ، البس هذا اللباس الأبيض ، تبيض بلباسك أمامي ، لا تصرخ ولا تضرب على الطبل ، واياك أن تكون منكوداً ، فتفسد السهرة ، سيكون معنا رجل خطير هذه الليلة ، أنت تصلح خادماً ، واياك أن تكون من أولئك السود السحرة ، الذين يمتصون دماء البشر ، وهم واقفون ، اذا عرفنا ذلك في الوقت المناسب ، سيرميك رجلي الخطير بالرصاص ، قبل أن تفعل شيئاً ، احذر ، انه عصبي المزاج • أعطه السلاطة في وقتها المناسب ، وقلوب العصافير في وقتها المناسب، وكذلك القرنبيط وقطع اللحم المشوية والجبن واللوز في وقتها المناسب ، ولا تظهر أمامه الا في الوقت المناسب • كم اشتهيت أن يكون عندي رجل مثلك لهذه الأوقات المناسبة ، أسود في لباس أبيض ، هذا ينسجم مع رغبات الرجال الخطيرين •



العينان الحمراوان تنظران الى مقتل هذا البياض الأنثوي · لست قواداً ولا خادماً أيتها السيدة · في المطبخ ـ سكاكين ومدى كثيرة · ماتت اليد ، بردت ، تثلجت ، ولم تستطع سوى أن تسقط البسطة المعدنية على الأرض · لن يحتقر سوادي ، أنا قائد قافلة للعمال المتوجهين الى بلد مجاور ، لست رجلا خطيراً ، معي نقود تكفي للانفاق على هذه السهرة ، خذي جسدي ، دثريه بهذا البياض الأنثوي ، أعطه السرة والصدر والشفة ، اقتليه بهذه الطريقة اذا شئت ، اخترقيه ودمريه ، واذا رميته الى الشارع قبل أن يتدمر ، فسوف يختار أحد سكين في هذا المطبخ · لست خادماً ولا قواداً · لست رجلا خطيراً ·

الشوارع · الفرحة · حركات خفيفة كأنها تتم في الهواء · أرصفة المقاهي · الراحة والمرح · الكلام · تقاطع الأصوات ، تداخلها يأتي الى أسماعنا ضاجاً صاخباً يحمل الرائحة · سوادنا أبكم ، يكلم سواده ثم يغرق في ضياع الكلمات ، وتبعثرها · خرس نحن ، نسمع الكلمات المعطرة ، ثم لا تنفذ الى دواخلنا ·

هذا تيه ·

الحديقة · الحقائب الثقيلة السوداء · الوجوه التي أرهقها السفر · كانوا يتناولون طعامهم هنا ، بين الأشجار ، على مقاعد الحجر· يثرثرون بلغتهم· راحلون مثلنا · نحن هنا في نقطة ما من الرحلة ، مثلهم مثلنا · أجساد قوية ، طوال القامة ، أكتاف عريضة ، مقبلون على أن يعرضوا أجسادهم للرياح وحمل الأثقال · يحلمون بأن يأكلوا حتى الشبع ، وأن يحصلوا على رغبتهم في الطعام ، كل أيامهم لا شيء سوى الطعام ، لهم ولذويهم الذين خلفوهم وراءهم · يحلمون بأن يقطفوا ثمار الأوانس البيضاوات · بيض هم ، ولكنهم مثلنا في التيه والغربة · أحببناهم · اقترب منهم القائد · تحدث معهم بلغة غير لغتنا وغير لغتهم ، ولعلها لغة تلك الأرض التي سوف نذهب اليها · أعطاه أحدهم دخينة ، وتفاحتين · أكل تفاحة وألقى الى بوبو بالأخرى ، من مكانه البعيد · تلقف بوبو التفاحة ، وقضمها ، انتزعها منه مونغو ، وقضم قطعة كبيرة · حاصرناه · أخذها طوطو وقضم الباقي · نظر الغرباء الينا · انشغلوا مع القائد بالحديث · ماذا يقولون عنا ؟ ماذا في الحقائب ؟ لا حقائب لنا · من هو قائدهم ؟ ربما هو ذلك الأسمر العريض الكتفين ·

التلمظ ·

ظلت رائحة التفاح في فم من أكلوه ، وشم الآخرون الرائحة من أفواههم · أعطانا أحد الرجال علبة سجائر كاملة · اختطفها نازي · فتح العلبة بخشونة ، وخفنا أن يمزق السجائر · وزعها علينا· لا كبريت · ذهب طوطو الى أحد الرجال وأشعل سيجارته ، جاء الينا وأشعلنا جميعاً من سيجارته · هكذا نأتي بالنار من خيمة لأخرى · خيامنا مسقفة بعيدان القصب · اذهب يا مونغو وأحضر ناراً من تلك الخيمة · كل الخيام تستعير النار اذا أرادت أن تستضيء بما حولها أو تطهو الطبيخ · تنتقل النار بين الخيام ، وتبقى بعض الخيام دون نار ، نارها في العيون ·

يتحدثون · القائد يتكلم ، وهم يسمعون · يتكلمون قليلا · يشير الينا · يروي حكايتنا · انهم يستطيعون أن ينظروا الينا ويفهموا كل شيء · أنت تتاجر بحكايتنا أيها القائد ، بها تتسول الطعام والسجائر ، وفي جيبك ما يكفي من النقود · كل يوم تمر بنا الى مكتب البريد ، ولا تسمح لنا بأن ننتظرك في الحديقة ، تخشى أن نهرب ، تقول انك تنتظر حوالة من رب عملنا ، لكي نستمر في الرحلة، وفي جيبك ما يكفي من النقود ، لماذا اذن تتظاهر بالبؤس ، وتجعلنا بؤساء في أعين الناس ، جوعنا يستدر اشفاقهم ، لماذا ؟ ما الذي يعطيه الغريب للغريب ؟ أنت تستلذ بهذه الحكاية ، ولهذا تكررها على المسامع· يشير أحياناً الى جهاتفي هذه المدينة· اشاراته تعني أنه يصف لهم ما رأيناه ، أو يدلهم على وجود شيء في مكان ما ·

رأيناهم ·

توزعنا في الحديقة ، ندخن ، وظللنا نراهم ·

كانوا أربعة ، والقائد ·

المعاطف · البشرات السمراء · الأيادي القوية · الحقائب · مشى القائد وتبعناه · الدروب · السيارات · الألوان · الأغراس الخضراء على الشرفات والنوافذ والجدران · وجه يطل · نهدان عاريان متدليان من الشرفة · أسنان من ذهب · وقفنا · غمزت لنا المرأة · ظلت رؤوسنا



مرفوعة الى الشرفة • ضحكت • لم نضحك • لم نغمز • تجمدنا • توهج الدم في عيوننا • نهرنا القائد • ليست عندكم نقود ، قال لنا ، هيا اذهبوا من هنا قبل أن يراكم البوليس تقفون هكذا • قال أوسبا :

– ولماذا البوليس ؟

قال :

– قد يظنون أنكم تصطادون زبناء هذه المرأة لتسرقوا نقودهم •

احمرت العيون • اتقد الدم في العروق• كانت تنظر الينا وتضحك • صعد الدم من العينين الى النهدين العاريين المطلين من الشرفة • غمزت المرأة • التصقت الأقدام بالأرض • تجمدنا •

– تعالوا من هنا •

صدر ممتلىء أبيض • عينان كحيلتان • عنق مكتنز • حنكان محمران • نموت هنا • يسقط الينا الصدر • نقضمه • نتقاتل من أجل عضة في ذلك النهد• يختطفه مونغو، ويذهب به بعيداً• نتبعه• نضربه بقوة الى البطن • نشج رأسه • يأخذ ايزا النهد ويعضه عضاً لذيذاً دافئاً رقيقاً ، يمتصه ويعطيه لسايدو • يملأ سايدو منه شفتيه ، يدخله في فمه • نخاف أن يضيع النهد • تحمر عيوننا • يصبح سايدو أكثر جنوناً واستعداداً للموت • نترك له النهد لحظة حتى يهدأ • يتفرج القائد ، ولا ينهرنا فهو يعرف أن اللحظة دموية • يبتعد عنا قليلا • ينظر الى النهد بين شدقي سايدو ، والى المرأة المطلة من الشرفة التي ظلت بنهد واحد • يهرب النهد من سايدو ويعود الى الشرفة ، ليطل علينا ، لقد تألم كثيراً ، وعليه الآن أن يطل علينا ويرتاح على الصدر • لا يهدأ جنون سايدو ، تحمر عيناه ، ويرتخي ، جسده ، ترتعد ركبتاه ، وهو ينظر الى النهد على الشرفة ، عارياً •

– تعالوا من هنا • ألا تخافون البوليس ؟

قال أوسبا :

– دعنا نرى ما لم نره في الحياة •

– سوف تضيع الرحلة ، وأخسر ما أنفقته عليكم •

– لماذا ؟

– اذا جاء البوليس سيرمونكم خارج هذه الأرض •

– ولماذا ؟

– أنتم لا تملكون نقوداً ، ولا تتوفرون على جوازات •

انتفخت عروق سايدو • ارتعد • كاد أن يخر على الأرض • أخذه بوبو من ذراعه وساقة أمامه • ظلت عيناه معلقتين بالنهد ، وهو يمضي ، مستديراً برأسه الى الشرفة ، والمرأة تغمز له ، وتضحك بصوت رقيق ممطوط ، وهو لا يرى الغمزة ولا يسمع الضحكة ويرى النهد •

ترقرق الماء منساباً على السطح ، في حركة نحسها ولا نراها •

البحر •

سقطنا في لون الماء الذي أحسسناه •

دخلنا الماء بعيوننا •

نقط الضوء تتبعثر على صفحة عاكسة ضاعت حدودها في الظلام • أضواء في الممرات المحروسة برجال الجمارك • الأبواب الكبيرة • الحمالون • نفير باخرة يرتفع ، يمزق الصمت • ساحة صغيرة مضاءة • سيارات التاكسي • الليل • الحقائب • التعب • الضوء في عيون بعض الرجال ، يخرجون أوراقهم المالية ويدفعون للحمالين وسائقي سيارات التاكسي • الظلام • أشجار منتصبة في العراء • البرد • في ذاك الاتجاه شوارع الضوء والمطر والأشربة • اتجهوا الى هناك ، لتروا مثل ما رأيناه، ولتدخلوا في ازدحام الحانات ، وتحتسوا من تلك القوارير ، وتأكلوا القرنبيط وقلوب العصافير • الضوء في أعينكم ، والظلام في أعيننا • نحن هنا حتى يأمرنا القائد بالرحيل •

مشينا بحذاء باب الميناء • الظلام • أرض قفر تمتد على حدود الماء • اقترب منا أحد الرجال ، تفحصنا بعينيه • اعتقد أننا قد خرجنا من الميناء • مد الينا يده ببعض الأوراق • كان يتكلم • البكم في أفواهنا • أتى نحوه القائد • تكلم • خرس نحن • ماذا يقولان ؟ أعطى الرجل القائد كتباً صغيرة ملونة • كان يضع على كتفيه رداء أحمر • ظننا أن تمثال الساحة قد غيَّر رداءه الأخضر ، وخرج ليتجول قرب الميناء ، ويكلم الناس ويعطيهم كتبه • لم نلاحظ القبعة والحذاء العسكريين • حرك الرجل



يده اليمنى بين رأسه وصدره وكتفيه • طلب من القائد أن يفعل مثل هذه الاشارة • وسط الظلام رأينا يد القائد تتحرك ، وتضيع اتجاهها • فانوس صغير يرسل شعاعاً وحيداً ، وذلك الشعاع يلامس الوجوه ، وحركة يد القائد • كرر الرجل الاشارة أمام عيني القائد • دعانا لنرى • اقتربنا • اقترب من الرجل رجلان آخران • صاروا ثلاثة • نحن تسعة والقائد ، وهم ثلاثة • تفرقت أجسادنا وسط هذه الساحة الصغيرة • تناظر السواد مع البياض • تبادل الثلاثة الدور حول الكلام • البياض يتكلم• عيون زرق • شعور شقراء منسدلة على الجباه • الأردية الحمراء • الاشارة باليد على الرأس والكتفين والصدر • الكتب • أخذ القائد الكتب • أعطونا كتبهم • أمسكناها ببرود ونحن نتطلع الى ما سوف نفعل بها • قال أوسبا :

– كيف يعطوننا الكتب ونحن لا نعرف القراءة ؟

أجاب القائد :

– توسدوها تحت الوسائد • هذه تمائم تدفع الشر •

قال مونغو :

– أين الوسائد ؟

قال طوطو

– انهم عندما يطردوننا من الفندق ، فنحن نتوسد الحجارة •

مزق طامزير المأفون كتابه• كمش المزق ورمى بها جهة الأشجار • هذه الكتب لا علاقة لها بنا • أمي تحتفظ تحت وسادتها بأظافر جدها السابع عشر ، وأنا لا أفهم ما في هذه الأوراق • عندنا الشعر وقلوب الأطفال والأرواح التي في الحجارة والطير والشجر ، وبها ندفع الشر عنا • آه تركنا كل شيء وراء الماء ، حتى الآلهة تركناها •

غضب الرجال الثلاثة • أشاروا اليه وكلموا القائد • نظروا الى السماء • اقتربوا من طامزير وابتسموا أمام عينيه بطريقة سحرية فيها كثير من الجهد لاخفاء الغضب واظهار الفرحة • أشار أحدهم الى صدره ، في مكان القلب ، والى السماء ، ورسم اشاراته بين الرأس والصدر والكتفين • لم يفهم طامزير شيئاً • ابتسم اليه الرجل مرة أخرى • أشار اليه والى نفسه ، وحك سبابتيه واحداً مع الآخر •

– أنا وأنت اخوة ، يقول الرجل •

قال القائد • نظرنا اليهم• تذكر طامزير أخاه الغائب بين الأحراش • ماذا يفعل ذلك الأخ الآن ؟ أهذا الرجل أخي ؟ البياض والسواد لا يلتقيان • البياض يكرهنا ، ويدعي أنه يمتاز على سوادنا • البياض يستعمر مدننا • جاء المبشرون الينا ، وقالوا سوف يعلموننا العبادة ، وطلبوا منا أن نغمض أعيننا لنتعبد ، وعندما فتحناها ، وجدنا كتابهم في يدنا ، ووجدنا أراضينا قد اغتصبت • جاء الينا رصاصهم • دربوا أبناء القبائل الأخرى على الرصاص ، وبهم قاتلونا واغتصبوا الأرض • أهذا هو البياض ؟ نحن لا ننسى آلهة افريقيا العظام ، وأبطال القرية • « جوجو » يدعونا اليهم • ماذا تريد منا هذه الأردية الحمراء ؟ كيف يكون هذا الرجل أخي لمجرد أن أعطاني كتابه ؟ هل شرب من مرق الضحية ؟ وهل اصطاد بالقوس والنبل ، وأحس بالجوع ، واحتفل بال « آوا » و حصد « اليام » وأكل « الكسافا » ؟ هل احتقره الأبيض لأنه أسود ؟ كاذب هذا الرجل ، وكتابه مسموم ولا شك ، انه كذلك الكتاب الذي وجدناه بين أيدينا بعد أن فتحنا أعيننا ، ولو أغمضناها الآن ، فسوف نجد الكتاب بين الأيدي ، وأيضاً سوف نجد شيئاً قد اغتصب منا ، كما اغتصب البياض أرضنا • لن نغمض العيون ، ولن نضع كتاباً من هذه الكتب بين أيدينا • لماذا يشير الى السماء ؟ هل هناك عاصفة رعدية سوف تقصفنا ؟ ابتعد طامزير ، اقترب من مزق الكتاب ، جمعها بين يديه، وأعادها للرجل • أخذها الرجل وأعطاه كتاباً آخر، ملوناً • نظر طامزير الى الرجل • فتح عينيه جيداً ، ولم يفهم شيئاً • كيف يدفع هذا الكتاب الشر عنا ؟ هل هناك شر سوف يعترضنا في الرحلة ؟ لمس سايدو خاتمه النحاسي • تحسس مونغو شيئاً في جيب سرواله • نظر ايزا الى صورة وهمية استحضرها في ذهنه • آه نسينا الشعر والأضراس وعظام الموتى ، نسينا العقيق والأصداف وقلوب الأطفال والقرن السحري ، نسينا آلهتنا وأضعنا الطريق • سيلاحقنا الشر في هذا التيه ولم نجد ما نحمي به أنفسنا • ألا نحصل على شغل ؟ هل سيرمينا البوليس خارج هذه الأرض ؟ ربما سوف يضيع منا القائد ،



أو يقتلنا ذلك النهد السحري العاري المتدلي من شرفة المرأة ، وربما لن تصل الحوالة التي ينتظرها القائد ، أو تضربنا عاصفة وتقذفنا في أرض يباب، أو يأتي الينا من سحرتهم من يأخذ روحياً أعضاءنا التناسلية ، أو قلوبنا وأرواحنا ، فنبقى أجساداً هائمة محكوماً عليها بالتيه والضمور الدائم . أهذا هو الشر الذي سوف يلحقنا ؟ لن يحمينا هذا الكتاب مما سوف نتيه بعد أن تركنا جذورنا بين الأدغال ، وحملنا جزء منها في الذاكرة . هل سنموت ؟ لا شيء أقسى من الموت . عذابنا أن نظل حيارى بين هذه الدروب والساحات . بامكاننا أن نسرق طعامنا ، وأيضاً نستطيع أن ندخل غرفة المرأة ذات النهدين المطلين ولا ندفع لها شيئاً . سوف نطلب السجائر من المارة ، واذا افتقدنا غرفتنا في الفندق فسوف ننام في العراء ، على السطحية المطلة على البحر . اذهب أيها القائد . خذوا أيها الرجال تمائمكم . اننا لن نموت .

صرخ طامزير .

طامزير يطلق لسانه ليتكلم . اقترب منه القائد . لا نريد مشاجرة أمام هؤلاء الرجال الذين أعطونا الكتب . صرخ طامزير بكلماته من جديد أمام نظرات القائد . هذا تحد . ضحك طامزير . علا ضحكه هذا الصمت الذي حولنا ، ضحك أسود حاد يخترق المسافات ، قاس كالموت . طامزير يرتعد ويضحك ، جسده مسكون برعدة واهتزاز عصبي . اقترب منه الرجال الثلاثة . ابتسموا ابتسامتهم الاصطناعية . أعطاه أحدهم سيجارة . أخرج الثاني من جراب يحمله تفاحة وأعطاه اياها . قدم اليه الثالث قطعة جبن . هذا لك . الأيدي الثلاثة تمتد نحو طامزير . السيجارة . الجبن . التفاحة . ينظر الى الواحد منهم ثم ينظر الى الآخر ، ولا يقترب . هذا لك . خذ . لا يقترب ليأخذ . عيناه تصيران كعيني نمر . هذه مصيدة . هذا فخ . ان أخذت هداياكم فلا بد أن أفقد شيئاً . أنتم تعطون الشيء لتأخذوا ما هو أهم منه وأخطر . ماذا تريدون أن تأخذوا مني ؟ أنا وعل نافر بجسدي في الغاب . أنتم الطلقة . لن أقترب . ظل مشدوهاً . قال القائد :

ـ خذ هدايا هؤلاء الرجال ، انها ليست من عندهم .

فتح طامزير عينيه جيداً . قال :

ـ ومن عند من تكون اذن ؟

قال القائد :

ـ من عند الرب ، كما يقولون .
ـ الرب ؟
ـ نعم .
ـ ولماذا لا تكون من عند آلهتنا ؟
ـ اسكت . انهم لا يؤمنون بها ويؤمنون بالرب .
ـ وأنا أفضل آلهتي على هذا الرب .
ـ الآلهة تعطي الماء والصيد والكسافا واليام، والرب يعطي الجبن والتفاح .
ـ لن آخذ .
ـ لماذا ؟
ـ الآلهة خير من الرب .
ـ لا ترفض . خذ الهدايا وكل ودخن ، ولا تسأل .

جمع طامزير في احدى يديه التفاحة والسيجارة وقطعة الجبن . بدا حزيناً ، ساقطاً من أعلى جبل . ظننا أنه سيذيقنا قضمة من تفاحته . ظل ينظر اليها ، والى السيجارة وقطعة الجبن . عيناه أسيانتان . شفتاه متدليتان . رمى كل ما في يده على الأرض ، في المكان الذي رمى فيه مزق الكتاب . ابتهج . بدا فرحاً باسماً لنا . رفس الجبن بقدمه . التقط نازي التفاحة . أخذ بوبو الجبن المرفوس من الأرض ، التهمه . نظر الرجال الينا . فقدوا ابتسامتهم البلهاء ، أضاعوها في النظر الينا ، ولم يستطيعوا أن يبتسموا بتلك الطريقة مرة أخرى . أشار أحدهم الى بطنه وفمه ، وأشار الينا . رفعنا رؤوسنا في حركات متتالية . تكلموا مع القائد . قال لنا :

ـ هيا من هنا .

مشينا . مشت معنا الأردية الحمراء . ساحة التمثال هادئة الآن ، مضاءة . راحت الأجساد التي أتعبها الاختيال وبقيت روائح العطور . خلت الساحة . التمثال ينظر الينا . أصبحنا ثلاثة عشر. اختلط البياض بالسواد . ضحك التمثال . نزل عن قاعدته . أحسسنا أنه يسير خلفنا . استدرنا . رأيناه يرانا من عليانه رغم نزوله عن القاعدة



الحجرية ، ويضحك ، عيناه آمرتان ، تأمران وهما تضحكان • لم نعرف بماذا كانتا تأمران • تبعنا القائد والرجال الثلاثة البيض • التوت بنا الدروب• مررنا بشرفة المرأة ذات النهدين المطلين •

قال مونغو :

ـ ألا يعطينا الرب صدر هذه المرأة ؟

قال مامادو :

ـ الرب يحرم ذلك •

قال مونغو :

ـ ولماذا خلقه ما دام قد حرمه ؟

قال مامادو :

ـ اسأل ذلك الرداء الأحمر •

لم تكن المرأة موجودة في الشرفة • رائحتها تصعد من بين فخذي رجل • شممنا الرائحة من بين فخذيها • السرير يطقطق ، يهتز ، والرائحة تختلط بالعطر والسجائر والنبيذ • أهذا ما كان يسمعه ويشمه التمثال؟ بماذا يأمر اذن ، ولماذا يسيرخلفنا ؟ استدرنا مع أحد الدروب ، ولم نعد نراه •

القائد يضحك • يثرثر • يرسم الاشارة بين رأسه وكتفيه وصدره • الرجال ذوو الأردية الحمراء يبتسمون • نستدير الى الخلف لنرقب التمثال هل سوف يأتي من ورائنا • الواجهات مضاءة • البطاطس المقلي • الصلصلة الطماطمية • الدجاج الدائر بين نيران التنانير • الجعة • قبعات الحرير • الأحذية الأنيقة • ننظر الى أقدامنا الغليظة السوداء • الى أين سوف نمضي ؟ قال القائد تعالوا من هنا وتبعناه • تائهون مثلنا يملأون الدروب • حقائب ضخمة • وجوه أتعبها السفر • لقد عرفوا طريقهم • بنات عاريات الأفخاذ • الدانتيل اللامع على الأكتاف • الصدور ناهدة • الأغراب يتيهون ، ولا يجرأون على الكلام•

وصلنا باباً كبيرة ذات أعمدة ، وانحنينا لكي ندخل •

الأيقونة •

المذبح •

الصليب الكبير •

كرسي الاعتراف •

صور زجاجية ملونة على الجدران •

شموع •

المصلوب •

الرداء الأحمر •

ـ تعالوا من هنا •

مررنا بين صفوف الكراسي ، ودخلنا سرداباً مضاء بالشموع • الصمت • لا رائحة • هذا ليل السراديب الكنسية • الرداء الأحمر يكلم الرجال الثلاثة ذوي الأردية الحمراء ، لحيته بيضاء ، أشقر مثلهم ، أكبر منهم سناً ، في وقاره ينحني بتأدب • غرفة حجرية بيضاء • طاولة في الوسط • صحن تفاح وقارورة خمر ، شرائح لحم ، خبز وخضر •

ـ تعالوا •

أقبلنا على المائدة • التهمنا الطعام وشربنا الشراب • طامزير لا يقترب • ظل واقفاً متكئاً على الجدار ، يرقبنا بعينيه الحمراوين ، يبدو غائباً يتأمل في مكان بعيد • نسيناه ونحن نلتهم اللحم والخبز ، ونشرب من القارورة • سكاكين وشوكات ظلت نظيفة كما كانت ، لم نتعود أن نستعملها • الرداء الأحمر ينظر الينا • الشموع تضيء • الرجال الثلاثة يراقبوننا ، ويبتسمون ابتسامتهم الاصطناعية • القائد لا يأكل معنا ، يحدث الرجال ، ويشير الينا من حين لآخر ، لعله يحكي حكايتنا مرة أخرى ، ليستدر عطف هذه الأردية الحمراء • لابد أن يعطيهم حكايتنا حتى يعطونا ، وربما أخذوا منا شيئاً آخر • ربهم يعطي ويأخذ ، وهكذا هم يفعلون •

أشاروا الينا أن نأتي • دخلنا القاعة الكبيرة ذات الزجاج الملون على الجدران • مررنا بين صفوف الكراسي • هناك كرسي كبير ، في جانب • تقدم الرداء الأحمر • نظر الينا • تكلم • كلماته ممطوطة طويلة ، ترتفع قليلا ثم تنخفض وتصبح رقيقة في عذوبة الماء ، ثم يمطها ويضغط على بعض الحروف حتى تظهر أسنانه الكبيرة الشوهاء • يبدو أنه يحفظ الكلمات • الفم يفتح ويغلق • العنق السمين لا يتحرك • العينان الزرقاوان تنظران جهة الصليب • تشعان وتبيضان • تنفتحان حتى تريا ذاك الصليب يأتي اليهما ويحط صغيراً دافئاً على الصدر ، لامعاً ومتوهجاً • هكذا رأيناه •

جاء الى أرضنا مثل هؤلاء · سكنوا الجبال الى جانب آلهتنا العظام ، يدعون للرب ، وانتصرت الآلهة ، لأنهم أخذوا الأرض ولم يأخذوا قلوبنا · قلوبنا مع الآلهة العظام · ماذا أخذوا وماذا أعطوا ؟ أخذوا كل شيء ، أرضنا ، وأعطونا كذباً جميلا وكتاباً وحكايا عن المصلوب لم تصدقها أذهاننا · جاء الصليب الى ذلك الفلاح ، ابن أرضنا ، وقال له :

– انظر كيف أعطاك الرب الأسماك في النهر ،

والماعز في الحظيرة والغلال في الحقل ·

قال له الفلاح

– الأسماك لا تأتي الي من النهر اذا لم أذهب لصيدها ، والماعز يخرج من بطون أمهاته ، أما الحقل ، فليتك كنت تراه قبل أن أبدأ عملي فيه ، عندما كان يحرسه الرب وحيداً ، وما عمل فيه من قحولة ويباس ·

هكذا ، عبَّر ذلك الفلاح عن حكمتنا : لا غلال ولا صيد دون أن نعمل · ما الذي يريده الرداء الأحمر الآن ؟ لا شيء تأخذه منا أيها الرداء الأحمر ، لقد أكلنا وشبعنا ، ونريد أن ننصرف الى الدروب والساحة ، الى تيهنا ·

تعال يا طامزير · لماذا لم تأكل ؟ أي شيء يغضبك الآن ؟ أما زلت ترفض هدية الرب ؟ لا بد أن تأكل يا طامزير · لا تخف · سيعطيك الرب طعامه ولن يأخذ منك شيئاً · خذ هذه القارورة ، وصحن اللحم والخبز هذا ، لك وحدك ، وافرح بهما ولا تخف · افرح يا طامزير بهدية الرب ·

أكل طامزير · شرب نصف القارورة دفعة واحدة · أحس فرحة غامرة تتسرب الى حناياه · نظر الى القائد · نظرنا اليه كيف يأكل اللحم بنهم، يده تريدأن تسبق ما في فمه الى الصحن ، وهو يلهج اللحم ويبتلعه دون مضغ ، يشرب جرعات دافئة من القارورة ، وقد غاب عنا تماماً ·

طامزير · تعال · قف هنا · اجلس على هذا الكرسي الكبير الذي في الجانب · أفعل مثلي · اليد اليمنى تشير الى الرأس ، وتتجه نحو الكتفين والصدر · افعل هكذا · هذا شكر للرب على ما أعطاك · تخطىء يد طامزير طريقها · أعد · هكذا · لا يعيد الاشارة طامزير ، يظل مشدوهاً ، عيناه حمراوان · ماذا تريدون ؟ نريد أن نعود الى الساحة ، أو نتيه بين الشوارع · اذهب أيها الرداء الأحمر ، توزع ، دعني أحلم بنهدين صغيرين أبيضين يؤكلان بالأظافر ، أو أحلم بسمك القرش الذي لم يهدىء من غضبه « شعب الماء » · قتلنا ذلك الاله الذي اسمه شعب الماء · اصطدنا سمك القرش وعصرنا دمه وألقيناه في ماء البئر ، وشربنا من الماء جميعاً ، فلم يعد القرش يفترسنا ويمنعنا من الصيد · قتلنا شر الاله · ماذا تقول ؟ هذا هو الكرسي · دعه يتكلم· نعم · الكرسي· الاعتراف · الأمهات · الشعر · السحر بأطراف الجسد · فاكهة الجسد التي بها نسحر ونسحر · الأظافر · من يأكل القلب ؟ كلي قلب ابنتك أيتها الأم · أكلنا الأطراف والجذع ، كلي أنت القلب · قالت حفظته في آنية كي أعيده الى ابنتي المريضة بعد أن أشفيتم جسدها من الضمور والهزال والألم · قلن متى تعيدين لها القلب ؟ قالت في أحد الأيام القادمة ، لا يمكن أن تعود الي ابنتي وتبقى بدون قلب ، سوف أعيد لها قلبها · قال طامزير :

– والمهبل ؟

قالت المرأة :

– ذاك مهبل جارتي ، سوف أعيده الى مكانه في جسدها ، عندما تزورني ·

– ولماذا ؟

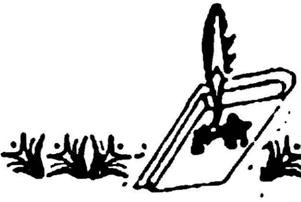
– لا يمكن أن تبقى بدون مهبل ، والا فكيف تنجب الأطفال ، وتمارس لذتها ؟

– لقد أكلوها ·

– لكنها حية ، وسوف تحتاج ذات يوم الى مهبلها ·

نعم · استمر يا طامزير · هذا هو الكرسي · أنت جالس · انظر بعيداً ولا تنظر الينا · لا تخف · استمر · قل كل شيء · قل كل شيء ·

احمرت عيناه · اتقد الجمر في رأسه · ضوؤه في عينيه · لا بأس · لم أكن ماهراً في الرقص ودق الطبول ، ولا متعبداً يصنع مشيئته عند الآلهة ، ولهذا ، لم تعطني الآلهة شيئاً · دخلت القوة جسدي ، وقلت لها قبل ذلك : مصير الانسان ، هو ما قاله قبل



ان يأتي • علمني ذلك قصاص القرية ، حاكي أيامها • كان لا يخطيء في كلمة ، وهو يسرد معانيه ، متسلسلة • نضحك عندما يخطيء ، نبعد عنه شرابه ، ونستدعي قصاصاً آخر• لا أنهض للرقص • مفلول جسدي• لن أنهض• أنا متربع على الأرض • الرداء الأحمر يراني • ضاعت جلستي أمام الحلبة• أنا جالس على كرسي • غاب الرفاق • القائد والرداء الأحمر يتآمران • لماذا أضعتم جلستي ؟ رأيت قصاص القرية الذي قال لي : مصير الانسان هو ما قاله قبل أن يأتي • أضعت وجوه أبناء العشيرة • أين أنا الآن ؟ القائد يقول لي :

– استمر يا طامزير •

أنا صنعت الهاً ليساعدني • الاله ليس مسيحياً • قتلته حين لم يساعدني • أحرقت النبات • شربت الماء • خرجت الى القمر • لبست الريش • اقتنصت بيض الثعابين كي أذهب به الى أمي • العظام تفنى • لدى أمي ترقوة وعظمة ساعد • اذا شاءت تدق قطعة صغيرة من العظمة ، وتأكل منها • المهبل في الآنية • شعور رجال ونساء من الموتى في الوسائد • الرقص في الجسد • في الأذن دقات الطبل • الماء في الرأس • الأدغال والطيور الملونة في العينين • الوعل الصغير هائم بين الأشجار ، يتأمل ويسافر ، يتطلع الى سمائه الكاذبة ، ويحذر الطلقة التي قد تأتيه وهو يسافر • انظروا الى الوعل كيف يلتذ بالتيه ، ويتألم ، ويبكي صامتاً ، ويأكل من أوراق الشجر، لكن طلقة الغدر تأتيه وهو ضاحك يفرح بسمائه الزاهية الزرقاء ، هكذا طلقة الغدر تأتي • نعم • اذا كنتم تخافون هذه الطلقة ، فالمسوا خواتم النحاس التي في أصابعكم • بيوت من عيدان الخيزران ، ومنازل من عروش الشجر • الضحكة • الصيد • القمر • صوت النار وصوت الماء • صوت الأحراش التي تشعل النار وصوت الخشب الذي يئن • صوت العاصفة • صوت الحجر وأصوات الظلام • الموتى في الحشائش أو في الصخور أو في ضحكة الطفل وليسوا تحت التراب • الأسنان نحفظها في القوارير ، وتعود الى الأفواه • من قتل طامزير ؟ من يريد أن يختطف روحه ؟ روح طامزير قائمة في أحد الأماكن • ابتعدوا عني واتركوا جسدي يستريح •

آه أين غابوا وبقيت مع هذا البياض ؟ تركوني وراحوا ••

– ايزا ، أوسبا ، طوطو ، سايدو • أين أنتم ؟

نهض عن الكرسي • عيناه الحمراوان تنظران بين الكراسي والمذبح والدهاليز • عادوا جميعاً • التقت العيون • قال الرداء الأحمر للقائد ان عليهم أن يرسموا الاشارة وينصرفوا • دعاهم القائد الى الرؤية • نظروا جهة الرداء الأحمر• أشار اشارته• حاولوا أن يشيروها وقد تبعثرت الحركات • قال الرداء الأحمر للقائد ان جاءوا مرة أخرى فليأتوا الى بيت الرب ، وهو يطعمهم • خرجوا •

الليل • البرد • الأضواء المتناثرة • الخطى المتشابكة • صفير حاد يأتي من جهة ما • ترنح طامزير ، أسكرته خمر القارورة ، رأى حمرة عينيه على الأضواء والواجهات • تاه في حمرة عينيه وفي ضوئهما • حلم بالرقصة بالطبل بالصيد في الأحراش بالموت بالأكل والمأكول بالغناء والحكايا بالسهر والجنون والجوع والكسافا وأسماك البحيرة بالرياح وبيوت القصب بالنهار الوضيء بالجذور بالبياض بالسواد بالصدر العاري المطل من الشرفة بالخبز الأبيض بالازدحام والقرنبيط ورائحة الخمر بالدجاج المشوي بالموت على قارعة الطريق بالنار التي تلدها الأدغال بالقائد والدم بالدم والقائد بدم القائد ثم توقف عن الحلم لحظة واستراح على جدار وعيناه تدوران مع السيارات التي تختل علاقاتها وهي تتقافز فوق الأرصفة وتصطدم بطاولات المقاهي أو تنزلق الى حوض الماء لتشرب حتى تغرق ولا تقوى على نهوضها من الماء يضحك يضحكون تلقي المرأة ذات الصدر العاري بنهديها يسقطان تحت عجلتي سيارة يضحك والسيارة تسحق النهدين تحيلهما زبداً ينحني طامزير على الاسفلت ويعلق الزبد اللذيذ ويأكله مع الخبز الأبيض وهو يضحك ويرى السماء الليلية الزرقاء والوجوه المستبشرة البيضاء• هذا طعام الرب والرب في الأرض وفي السماء وطامزير يترك أرضه ويتيه في زبد النساء والطلقة لا تصيب الوعل والوعل نافر بين أدغاله يغني أغنية ويشرب ماء النهر ويرعى عشبه والمرأة تعطيه الرؤية والعين الحمراء تذيب بياض النهد في وهج النار وتحترق أنيناً• جرح الوعل في عينيه عين الوعل في جرحه والوعل بين الجرح والعين يمرح سارحاً ويتيه عبر امتداد الضوء يأكل لحم الضحية أو يغازل عري النساء يروح ويفتني



بين الشوك والنخل والطير يقتنص الفراغ هـذا ريشه وقناعه يعطي الفراغ يوزع ما يعطى وهما · قد يخرج الآن للاحتفال قد يريق دماءه في البئر ان طلع النهار. توجع الجسد المدمر بالعذاب ها طلقة السهم ها الوعل ينفر ها النهار وها العواصف ها الجـذور ·

اغتال عينيه ضوء الواجهات ·

زحزحوا الجسد عن جداره وغدوا به جهـة الفندق وهو يترنح ·

الباب الحديدية الكبيرة ، الشبيهة بباب سجن أو مرآب للسيارات ، يقف عندها بعض البيض ، يخزرون ، يتذمرون من مجيئنـا في هذه الساعـة المتأخـرة مـن الليـل · يتقدم القـائد · شـباك الاستقبال · هات المفتاح ، يشـير بيده · هـات النقود ، يشير الرجل من وراء الشباك · غـداً ، يشير القائد · يغضب الرجـل الواقف من خـلف الشباك · لعله يشتم · اذا لـم تدفعوا غـداً ، لن تدخلوا هذا الفندق · يتظاهر القـائد بالفهـم · يتهدأ · يشير برأسه بالموافقة · ألفنا تجربة الطرد من الفنادق · توسدنا الحجارة في العراء · قابلنا البحر · عدنا الى جذورنا · غطتنا السماء وافترشنا الأرض · في النهار نتيه وفي الليل ننام في العراء · فهمنا حركات ذلك الوجـه السـمين ، المطـل من الشباك · القائد لا يدفـع أجر الفنـدق ، وهـم يطردوننا بعد أيام · لم يطردونا في هذه الليلة · يقول لهم انه ينتظر حوالة من بلد قريب ، وربما تصل صباح الغد · كل صباح يقودنا نحو البريد · ننتظره · يخرج غاضبـاً · نقودي نفدت · كيـف أطعمكم ؟ كلوا طعـام الرب وناموا في العـراء · لا تزعجوا المارة · لا نريـد اثارة الشـغب · اذا سرقتـم شيئاً ، أو اعتديتم عـلى امرأة ، فسـوف يرميكم البوليس خارج هذه الأرض · سوف تأكلون وتشربون ، وتأتي النساء البيضاوات اليكم : بعد أن يكتشفن ما في جيوبكم من نقود · رب العمـل سيطعمكم ، وسيعطيكم نقوداً ، فاختاروا بـين أن ترسلوها لذويكم ، أو تدفعوها للنساء البيضاوات · لن تجوعوا ، ولن تناموا في العراء · اصبـروا ، حتى تنتهي الرحلة ·

قد تكون هذه هي الليلة الأخيرة في الفندق ، مع النساء · صعدنا الأدراج · أطل طوطو عـلى باحة مظلمة ، تخيل العجيزة الكبيرة البيضاء التي تتحرك ، ذهاباً واياباً ، أمام حوض الغسيل ، كان قد رآهـا في الصبـاح · في الممـر ، وجدنا آنيـة الشورباء · حملها نازي ، ودخل بها الغرفة · ثلاثة في كل سرير ، ينامون بالعرض · ثلاثة أسرة لتسعة رجال · القائد يضطجع في فراش صغير في الزاوية ، يستأثر به وحده · الشفاه الغليظة الحمراء ، ترشف من حافة آنية الشورباء · الأيدي تتلقف الآنية · الأيدي تصعد الى الأفواه بقطع الجزر والطماطـم والبطاطس · نفرح · النساء أعطيننا · هن طبخن ونحن نأكل · هذا طبيخ امرأة بيضاء ، امرأة عجوز ولكنها بيضاء ، شعرها أشيب ، لو شعرة من مفرقها لأمي ، ربما سوف تستطيع بها أن تدفع الشـر · لا يمكن · صدرها جاف وثدياها متهدلان · رأينا القائد يمسكهما ويدعكهما بعنف ، والمرأة تتأوه ، وتضحك ضحكاً عجيباً ، تغيب عيناها ، يقعدها في الفراش ، يحوط كتفيها ، تنظر اليه ، تحاول أن تنهض ، وتخرج من الغرفـة ، تقول سوف تأتـي بالجبن ، يمسكها ، ينيمها فوق فراشه ، يعتليها ، تستسلم ، ترفع رأسها المحاط بهالة من شيب وتنظر الينا ، تتراجع ، يلجمها القائد ، تتكتم أنفاسها ، تستسلم ، يشخر ، يتصاعد شخيره ، ثم يهدأ تماماً · نجن ، نأتي بصور من تلك المرأة ، ونتيمها تحتنا · تتوزع العيون · تنمو حولنا الأشجار · يأتي النهر الى الغرفة · نفكر في الحيتان ، وفي شعب المياه ، يصيبنا الذعر ، نتراجع ، نكتشف الوهم تحتنا ·

تحتنا وهم وتحت القائد امرأة ·

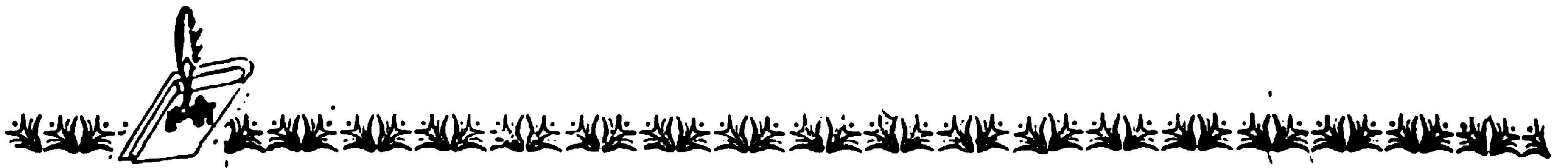
يقبل خديها · تقبل صدره · تتأوه · يمسد شعرها · تتعنقد الدموع حـول مؤقيها · يمسـح القائد دموعها بفرح · يرق · يكاد يبكي هو الآخر · يتوجع · تمسد صدره وساعديه · ينظر جهتنا · تحمر عيناه · يقول لنا :

ــ أطفئوا النور ·

لا نتحرك · خذلنا الوهم الذي رأيناه ثم غاب من تحتنا · نهضت المرأة · خرجت الى الممـر · عادت بقطعة جبن مستديرة قطعتهـا قطعاً وزعتهـا علينا · التهمنا الجبن مثل لبان الأشجار · لذيـذ لكنـه لا يدوم في الفم ، يذوب بسـرعة ، نبتلعـه ولا يبقى شيء ·

حفلة الاشارات ·

المرأة تشير ، والقائد يشير · سمعنا أصواتاً ،



ولم نفهم شيئاً . القائد أخرس مثلنا ، لا يستطيع أن يتكلم ، أصم أيضاً ، يسمع ولا يسمع شيئاً ، يغضب ، يعيد الاشارة ، يشير ، تتوجع ، تدمع عيناها ، تشير الى النهدين والبطن ، وتشير بعيداً . أبناؤها راحوا . راحوا أين ؟ يقطع القائد شريط الاشارات . يصرخ :

– أطفئوا النور .

قال أوسبا :

– اذا أطفأنا النور فلن ترى اشاراتها ، ولن تعرف ما تريد أن تقول .

قال القائد :

– هذا لا يهمك . يهمني الجسد ولا أريد أن أعرف شيئاً من هذه الاشارات البلهاء .

ضحكنا . قال نازي :

– ونحن ؟

قال القائد :

– حاولوا أن تناموا .

قال نازي :

– واذا لم نستطع ؟

قال القائد :

– الطموا رؤوسكم مع الجدران .

نتكوم فوق الفرش . ارهاق المشي يهد أجسادنا . آتنا بالنساء العجائز الخادمات في هذا الفندق أيها القائد . لماذا تستأثر بالمرأة ؟ رأينا نساء أخريات يغسلن الأواني وينظفن الغرف ، آتنا بهن . لن نطفىء النور . نريد أن نرى الدمع ونسمع الآه ، ونرى انتفاضة الجسد وهو يرقص ذبيحاً في ألمه اللذيذ . هل تمنعنا ؟ دعنا نرى أيها القائد كل شيء . اذا أطفأنا النور رأينا الأوهام تضاجعنا ، وجئنا لأنفسنا بأجمل الصبايا اللواتي رأيناهن في الشوارع . أنا سأختار تلك التي كانت تطعم حبيبها الفستق ، وتنظر الى الحمائم . أنا سوف آتي لنفسي بذات العطر الفواح . أنا سوف أمزج بين ما رأيت ، آخذ من هذه العين ، ومن تلك الجفن ، ومن الأخرى النهد ، ومن واحدة خصرها المشدود الرشيق ، ومن واحدة ضحكتها البهية .

أنا سوف أختصر الجسد الى حوض ، حوض فقط ، لا أريد غيره . أنا سأسمع الضحكة ، الضحكات ، وأشم روائح العطر ، ومنها سوف أختار امرأتي . اذن نلتقي في البياض . هذا البياض يفزعنا . هل ستطلب منا أن نطفىء النور أيها القائد ؟ سوف نطفئه كي نتوهم ما نشاء ، ونكون أكثر قدرة على استحضار ما نشاء ، في ظلام هذه الغرفة . لن نحسدك . أمامك نهدان عجفاوان ، وعجيزة متيبسة ، وأمامنا العطر والضحكات . لن نعطيك اذا لم تعطنا . تعال نتقاسم . نعطيك الوهم وأعطنا الحقيقة . خذ حقيقتنا وأعطنا الوهم الذي تراه . كلانا واهم ، نحن وأنت أيها القائد .

أهذا عشق ؟

الوعل نافر بين أدغاله لا يخشى الطلقة . لا ترعبه أيها القائد . أطلقه . أطلق وعلك أيها القائد . لن نخشى النار ، فبها نحترق، ولقد تعودنا نارنا . الأدغال تلد نارها وتلدنا . الفيحاء والنار يتحدان . هذا دمنا . نار وفيحاء . شمس واخضرار ومياه نهر . حجر . غابة . تيه . أسماك ووعول . الاله جسد . النار شمس . دقات الطبل . هادىء ذلك النقر ، متتال ، غارق في صوته وهو يستمع الى الدقات الغائبة بعيداً ، يتصادى مع الأشجار ، يعلو قليلا ، يصنع تتاليه من دفقة اليد ، يعنف ، يرتفع وسط الصمت .

الطبل صوت .

الصوت طبل .

الدقات تتتابع رقيقة كالماء ، هادئة تداعب الأشجار . الصراخ . حفلة الأصوات . تخترق الصرخة ذات المجال الهادىء في صمته لتوقظ أرواحاً ذاهبة آيبة تتوزع وتحوم لكنها تأتي . الأقدام العارية . دقات سوداء على الطبل تتأرجح باتزان وهدوء . تتوافق الدقات مع صراخ الأطفال وجهير الرجال وأنات النساء . حاضرون بالأشكال والنوايا . راقصون . صارخون . محلقون في سماء الأرواح . مبعدون عن مجالهم يسافرون في رحلة تريد أن تقترب من القوة الخفية . العيون تحمر . الشفاه الغليظة ترتخي وتتدلى . الأجساد غائبة مع أنها متهاوية ساقطة الى أقصى درجات الهبوط الأرضي . نحن هنا . من غاب منكم ؟ بعد حين سوف يخرج الاله . التحلق . التفرج . نساء

خلف جدار من زجاج

محمد برادة

نافذة مغلق زجاجها ، بل جدار من زجاج لغرفة مربعة تخترقه قضبان خشبية رفيعة والضوء الصباحي ينهمر من سماء مضيّعة تنثال عليها مزق سحب داكنة يفرزها خريف متردد.. ترى كل شيء فجأة وأنت تفتح العينين بهدوء بعد نوم ليلة مديدة بأحلامها . الزجاج الشفاف المضيء يستحيل الى زجاجية كنائسية مختلطة الألوان ، فتغدو مضيّعاً أنت الآخر في فضاء ومدى مشرعين ، باحثاً عن نقطة وصل بينك وبين هذا العالم المتجدد المكرور .. تنثال الى ذهنك الكلمات والذكريات مترددة كمزق السحب الرمادية الخريفية ، فتلتقط في ضجعتك الخادرة نتف كلمات متقطعة تتناهى اليك من مكان لا تبذل جهداً لتحديده :

« زعما بحال بحال .. إيلا مامشيناش ليوم نمشيو غداً ... ماشي بحال بحال ماشي بحال دخول الحمام بحال خروجو ... إيوا اللي ظهر لك ... » .

لم تكد تصدق أول الأمر ، لكن لم تعد هناك ظلال شك فهو نفسه الذي يتكلم ، وهو

« أن ما يمكن تخيله لا بد أن يكون من القصص »
« نيتشه »

أبعد ما يكون عن المزاح وتقرقيب الناب . كان جدياً ، رجلاً مشموراً كما قيل ويقال . لا يعرف بالضبط ما يريد ولكنه يبحث عن دوره ، أدواره ، بحماس ومثابرة ؛ يلتقط رأس الخيط وينطلق في الحكي والنسج مثل دودة قزّ . وعندما يفجأه شيء أو يكتشف متأخراً ما يعرفه الآخرون ، لا يتوقف عن مسابقة الريح في التسريح خشاة أن تنفلت اللحظات أو يحدث شيء أثناء ذلك يضيع عليه فرصة أن يكون حاضراً واجداً متابعاً معلقاً مرشداً موجهاً ناصحاً . كان جدياً فيما يقول محاولاً من خلال مخاطبتك أن يقنع نفسه قبل أن يقنعك :

« هذا هو كلام المعقول اذا أردت أن تفتح أذنيك يجب أن ندعو الشباب الى الزواج ليعيشوا أزواجاً أزواجاً أزواجاً يؤجرون شققاً عصرية يؤثثونها بالكنبات وطاولات البلاستيك وأطباق البلاستيك وأزهار من بلاستيك حمراء صفراء خضراء والموكيت وجهاز تلفزيون ملون



وملصقات تروي سيرة عنتر الهمام وجهاد علي الإمام، وانطلاقة الثورات وصور الشهداء • ولا بأس من نسخة للوحة لاجوكاند تخفف بابتسامتها المناخ المشحون، لا تهز رأسك ساخراً مستغرباً ولا تضرب يداً في يد فأنت غائب عن الدنيا لا تنتبه الى ما يجري حولك تظن أن الأشياء ستكون كما تتخيل وتشاء • افتح عينيك لترَ الزمان كيف يطير بسرعة كالمهر الجامح • لا تقل انها أقفاص يطل ساكنوها من خلفها هامدين جامدين متفرجين على ضوضاء الشارع وكتله البشرية • لا بد أن نشجعهم على الزواج وفبركة الأولاد والبنات وأن ننصحهم بتعليمهم اللغات ، اللغات الحية لا الميتة حتى لا تأكلهم القطط السمينة ، اللغات الحية تنجي الفئران النحيلة من مخالب القطط فيما رواه الثقات ••• » •

ينقرض صوته وكلماته وجديته وضغطه على الحروف • ينقرض صوته وتنجذب أنت نحو المشاهد المحفورة في صفحاتك الداخلية ، نحو الأصوات والضحكات وما يتبقى من مفاتن اللحظات المتميزة • تتمتم هامساً :

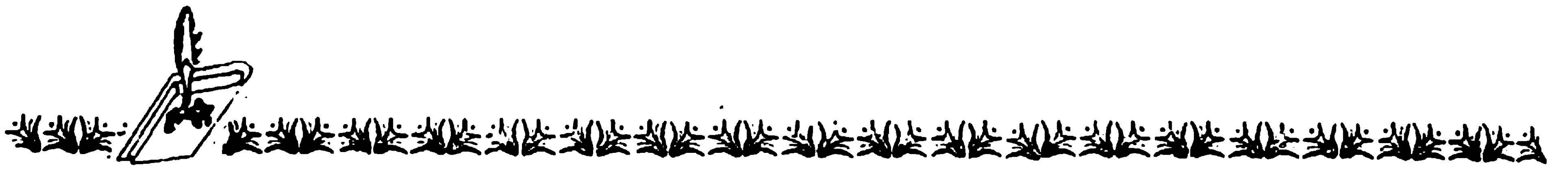
« كنت أغني بتلقائية الطفولة مستلذا لعبة الطفل المدسوس في مجتمع النساء ، نساء من كل الأعمار وبنات عواتق وأنا ضائع بين أفخاذهن وهنَّ في حالة اشتعال يغنين ويرقصن:

ربيعة يا ربيعة
حلّي لي باب الدار

النهارْ طلع عليّا
وانا راسي عريان

ربيعة ، لالّة ربيعة أجملهن تقول لي ذاكرة القلب والطفولة ، عيناها لوزتان حراميتان مشعتان عارفتان بالأسرار التي لا تعرفها البنات العواتق ، متزوجة وجميلة رقصتها مثيرة ، تضحك ، تدير عينيها في كل اتجاه ، الأخريات يتابعن حركاتها باعجاب ، يعشقنها ، يعشقن زوجها من خلالها ، يضاجعنها بعيونهن ، يلقين الكلمات الجريئة عندما تتلوى ببطنها الصغير أمام أنوفهن ، تتحرر الألسنة وتشمخ الأجساد «بن الكافَر حب يعافر ، بن الكافَر حب يعافر» الى أن تتعب السواعد والأكف والحلوق ، يتوقف البندير والتعريجة فتهجم عليَّ لالة ربيعة لتقبّل قفاي متمتمة « لَفريزي يتحمق يا البنات » فتتسابق البنات نحو قفاي ، لَفريزي موضة جديدة آنذاك وزوجها وكل الرجال الكبار شعر رؤوسهم محلوق وجماجمهم بيضاء ناصعة •••

« في بداية مراهقتي تعودت أن أطوف حول بيت لالة ربيعة وأن أغني أغنيتها، لم تكن تسمعني وبابها لا ينفتح فأبقى على العتبة أنسل الخيالات والكلمات والأشواق ، يمنعني الحياء أن أدخل الى المنزل الكبير ذي الباحة الواسعة والجيران المتعددين ، وعندما ألمح زوجها الخراز آتياً أتلبد وراء الباب يدلف واضعاً قبة على رأسه صائحاً قبل أن يجتاز العتبة الثانية من السطوان : « اعملوا الطريق ما كاين حد ؟ ندوز ؟ » يرتفع صوت نسوي من الداخل : « دوز » ، أتنهد وأعود من حيث أتيت ، عبر متاهة الأزقة الملتوية الصاعدة النازلة وأتصورني طفلاً ما أزال أنتظر متلهفاً ساعة العصر لتتحلق النسوة والبنات ويبدأ الغناء والرقص وتشطح لالة ربيعة ضاحكة بعينيها اللوزيتين ناظرة نحوي فأشعر بقشعريرة مخدرة فوق قفاي تنتشر لتكهرب الجسد الصغير وتحفر فيه لغة النشوة المبكرة ••• » •



كل الأصوات تختلط متسابقة الى ذهنك لتعيد اليك صلتك بهـذا العالم وأنت في ساعة الاستيقاظ البطيء .. ويتأتيـك صوته الواثق بكيفية تنتزع منك ابتسامة ساخرة :

« الصيف مـدورة ، ماكاينشي مشاكـل بزّاف ، أجّرنا بيتاً مشتركاً في الوليدية ، كنا أربـع عائلات ، وكان النشاط والراحة وتفراق اللغـا ، الأولاد كانوا يتابعـون المسلسـلات التلفزيونية، الضباب، الخيمة ، الحاسة العاشرة، واحنـا كنـا نلعب طروح دا الكارتا شاخدة ، وطواجين بالزيتون والحامض والكباب المغدور والدّلاح الفاعـل التـارك ...

الحراميـة ومنـين جـاك الـدلاح
ولـد عمـي جـابـو ليـّـا وراح

آحْ .. آحْ .. آح ، تصيـح المـرأة العمياء مساعدة المغني الأعمى في سـاحة الغنا وتحرك رأسها الى خلف وأمام في عصبية رشيقة وأصابعها النحيلة المسلوتة توقع على الدربوكة بسرعة : جابو ليـا وراح آح .. آح .. آح وحـق الله المعبـود صاحبي لا فلتو ... » .

« قلت للالة ربيعة مرة بعـد أن عشّتْ العشـية وانتهت التقيولة التي استدعت لهـا صديقاتها بمناسبة أيام الربيـع : « قولي لمراة حبيبي تخلينى نبات معـاكم انا نبغي تنعس في شونك » ضحكت (مـن يذكر الضحكة غـير الذي انكوى بهـا ؟) « حتى لنهار آخر ألغزال ديالي » قالت وهي تلاطف قفاي ولم يأت ذلك اليوم لم ينعم جسدي الصغير بدفء فراش لالة زبيعة ، كبرت فجأة ، انغمرت في لعبة الحومات وفترات الحرب والسلم والتراشق بالحجـارة والأحزمة والمـاء الساخن والفلفلة السوداني .

هـل كنت أفعل ذلك لأقنـع لالة ربيعة برجولتي المبكرة ؟ » .

هـذا السيد ، على الأقل ، كان يضحك وهو يقول ما يعتقده ويطبقـه : « المهم أسيدنا هو توصل ... بالحلال بالحرام ما شي مهم . كيفما كان . أولاّ ألالة ربيعة ؟ » كانت زوجته ممتلئة الوجه محتقنة الخدين تتدلدل الحلقات الذهبية مـن أذنيها ، وتتجـاوب الدماليج في معصميها ، وشعرها مصفوف خارج للتوّ مـن تحت غطاء الميز أونبلي » ، وهي تضحك كالوزة المحشية . قالت مغتبطـة بما ستقول : « اللي ما عندو فلوس كلامو مسّوس » .

وأنت تتـابع الزوج والزوجـة بنظراتك حائراً متحيراً لا تعرف ما تقول وهو يمـد لك كـأس أتاي ويتـابـع :

– برضي عليك ألالة ربيعـة .. الفلوس هنا كل شيء ، أنا عبد الفلوس ، راه عاد وصيت لك على الڤيديو ، صاحبي « البيتشو » غادي يجيبو لنا من سبتة ونبداو تنفرجو على الأفلام اللي تنعجبنـا .. ما بقى أمان في هـذا الوقت الواحد يمشي للسينما يلقـاها عامرة بالزوفريا والرهوط ... » .

أينما توجهت تلاحقك نفس اللغـة وأثاث البلاستيك واللهفـة على الامتلاك والصعود . وفي الشوارع تتزاحم الأجسـاد والبنطلونات الضيقة تبرز قسمات الفتيان والفتيات : « عندك بلاك .. عندها ما تقول .. لا سـماحة لذاك السروال » وتلتفت فتلمحها على يمينك جالسة وراء مقود سيارة صغيرة . هي لا أحد غيرها ، المبتذلة المعروفـة تنتقم مـن الكساد وتستعيد



زمنها مع زبائن الخليج الذهبي • جسمها يملأ الفراغ في القصارة واللي سعى ما يخيب •• »•

اشرب اذن ، أو ابلع ما يدوخك ويزيل عنك الهم والغم • اشرب لتنس المسوخ وزمان النحس • لتنس الذين اذا حارت بهم السبل وتقودت أناهم اللزجة حكّوا إستهم وقالوا جئناكم بالبدائل ! اشرب قبل أن تصنع أولاداً تعلمهم اللغات الحية أو ترميهم في الأزقة المظلمة ليكرعوا عصير الجوارب ، اشرب وقل هذا حال الدنيا وما هياش حال تفرح •••

قف تحت الماء وحرك عضلاتك • دندن بالأغنية الشائعة : استعرض ما عليك أن تنجزه في هذا النهار الرمادي المشابه لأيام طويلة ماضية عشتها من غير حماس مترقباً لحظات الفرح والأسى مترقباً ما يضحك، خاصة ما يضحك: « يا ناس وما أنتما ناس•• يا المعاونين••» وجسدك الآن يستعيد موقعه ، يغادر الأصوات والمختزنات والتوهمات• يتحرر من النافذة الزجاجية المغرية• يلامس فنجان القهوة والخبز المحمر وصفحات الجريدة • يشرع المسام ثم يتمطى نافضاً بقايا الليل وتتف لغات الذاكرة •

الرباط ٢/٢/١٩٨١



قصة قصيرة

اعتبارات اليوم الأخير

المصطفى اجماهري

الوقت قبل الغروب .
والمكان تبوث يمارس نشوة دائمة .. والناس انتظار .
في الخارج بدايات طقس مختنق .. وماكينات تستهلك طاقة سمراء .
وفي الداخل ، عبر المسام ينفذ هواء خبيث حتى العظام ،
وانت .. جسد مهيض .. تحسب الوقت الى لحظة حاسمة بعد فناء النهار .

فلول الناس امامك تعلو وجوههم البسمات .. يتحركون ببطء مسرحي .. رميت ببقاياك وعلى ناظريك غشاوة ثقيلة .. الى الخلف القيت جمجمتك وتأوهت الصعداء .. تتفرج على مهرجان الوان .. ومزاج عطر في القاعة الفسيحة يدق خياشيمك المذكومة بصدا الحديد وغبار الكهوف .. في الحقيقة لم تكن تتفرج على احد الا على نفسك .. والدك الذي حصد سنوات فوق الثمانين ، لا تدري أن مات ام ما زال فيه القلب يكابر .. ماكينات الغربة عصرت منك اللحم .. وبالعظام تفضلت عليك .

جحظت عيناك .. وضامرة ، برزت عظام فكيك .. كما لو توا جئت من القبر بدوت .. شابان نعتا وجهتك .. وبينهما نرى : « هذا دراكيلا الجائع منذ اعوام » وضحكا .. ضحكا عليك .. وفي مآقيك دماء تفور .

تذكرها « كريستين » ليلة الوداع ..

« اسمعني اخبارك من جديد .. انت اطيب مخلوق عرفته في الأرض .. اشكرك على طيبوبتك » .

تذكرها « كريستين » على حفرة خدك علقت آخر قبلة .. ببساطة تناقض تراجيديا الوداع .. ستصطاد لنفسها اسمآ آخر ... لتشهد بطيبوبته ليلة الوداع .

رجلاك ارتختا .. وعارمة شعرت بها رغبة في النوم على المقعد الوثير . كانوا جالسين على

تعريف بالكاتب

الاسم ـ المصطفى اجماهيري .
السن ـ ٣٠ عاما .
- خريج معهد الادارة .
- صحفي سابق بالاذاعة والتلفزة المغربية .
- يكتب القصة القصيرة والمقالة الأدبية منذ بداية السبعينات في الصحافة المغربية والعربية
- اصدر مجموعة قصصية بعنوان « امواج » سنة ١٩٧٨ .
- شارك في اعداد خاصة بالأدب المغربي ، آخرها العدد الخاص الذي اصدرته مجلة الثقافة السورية .

المقاعد ما تمددوا ابداً .. وخشيت سهام التشفي فلم تتمدد .

الشوة الضوئية ، تنبىء باهبة طائرة « اير فرانس » للاقلاع نحو الدار البيضاء ودكار وابيدجان.. صوت المضيفة بلغات العالم ينبعث من مناكب القاعة :

« يرجى من السادة المسافرين الى المدن الافريقية ، التفضل بتقديم تذاكرهم وجوازاتهم الى المراقبة .. شكراً » منغوماً ، صوت المضيفة كان وعذباً .. وراء رقته اخفى صوتاً آخر .. صوت الماكينات الأخطبوطية ، اكالة اللحم ، شرابة الدم .. صوت التي بلا دمعة ودعتك : كريستين .

عائلة اوربية وصلت .. عائلة نموذجية : ذكر وانثى والوليد .. يحمل الرجل كيساً بلاستيكياً اشهارياً .. وهدايا تحملها المراة ومرطبات.. تذوقا حلويات .. واحتفلا بالتقاط صور لحظية .

وانت .. صورتك الأولى غابت مع قهر السنوات العجاف .. عيناك السوداوان خفت فيهما البريق .. بقع بيضاء زحفت مع حداد شعرك الأكرت .. دكنت سحنتك .. ومنكباك العريضان لم يبق منهما الا العمودان .. وياما حملا جشع العبودية الفرنسية !

تذكره ؛ « المسيو فيليب » يوم الوداع ..

آه، « المسيو فيليب » اثنى عليك لما ودعك في استقبال بالمناسبة .. ولما اثنى عليك ، لأول مرة صافحك بيد دافئة بحرارة جسدك ماداً لك تذكرة سفر نهائي .. كان شامخاً امامك .. وكنت امامه محدودب الظهر يابس الوجه كقرد .

« اليوم ينتهي امد العقدة التي ابرمناها معك.. ادارة الماكينة تعبر لك عن شكرها العميق .. لقد كانت استقامتك محط تقديرنا » .

انها فرنسا الثانية .. فرنسا اليوم الأخير .. فرنسا القناع البهيج الذي يحتال عليك ليرميك في دواليب الماكينة .. فرنسا /المطار/ المضيفة الناصعة الأسنان .. السماوية العينين.

خارج المدينة ، المطار ؛ كقلعة مريخية .. يستقبل الصور الأصل ويعيد الى اهلها الصور المرفوضة .. مكباً ، مشيت ، على وجهك اليه .. فالفرنكات القليلة التي جمعتها أبيت صرفها في سيارة تحملك كيلو مترات قليلة .. واجف الفؤاد لملمت اشياءك ، وحنين الهروب مغناطيس يجذبك بذكريات حبيبة .

مررت بقرى صغيرة ، نهضت من مساحات مشجّرة .. وحقول مزروعة .. كانا عجوزين فرنسيين ، يقطعان عناقيد العنب الأبيض .. نظرا اليك بشفقة .. عرقانا ، ساعة رايتهما طلبت ماء .. كان العجوز صخرة مقددة .. ومنحني الظهر كنت .. شربت ، وباستغراب صدق انك عربي .. كان يقرأ ويسمع ويحكي عن العرب من آل « مرسيليا » و « نيس » و « كان » و « باريس » .. انصرفت .. بعيداً في الأتوروت انصرفت .. رفضته ان تقول له انك مغربي ، فقير الجيب كبير النفس رفضت ، اذ عربي انت رغم الفروقات .

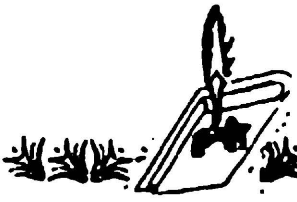
استوقفك بباب المطار.. مسؤول، بسطت امامه رزمة اوراق : بطاقة تعريف .. جواز .. شهادة اقامة .. وصفة تلقيح .. بطاقة ضمان اجتماعي .. تذكرة سفر عودة .. قدار ادارة الماكينة باحالتك على الأهل .. لوحة شرف .. واوراق ثبوتية اخرى .

«اختر منها اللائق ، فانا اجهل القراءة» .

مسؤول المطار ابتسم .. مهاجر مثالي ، قال عنك .. مهاجر في وضعية قانونية صحيحة .. شكرك بدوره .

رافقتك مرشدة اجانب شمال افريقية : اسنان ناصعة كمرايا .. ورموش مغرية من «موديل» مسجّل .. تساقط عليك ابتساماتها تملايين الفراشات .. تخلصت منك في القاعة الواسعة .. شارحة بحركات مدربة : الطائرة تقلع في الساعة السادسة وعشر دقائق وثانيتين . وشكرتك لأنك اخترت التحليق بواسطة « اير فرانس » .

حظيت بشكرهم في اول يوم ، وآخر يوم ...وكنت منذ سنين بلا اعتبار .. ترددت وقلتها ... قلت لها انك في حاجة الى فرنكات بدل الشكر .. اذ لا يعري الشكر ولا يكسو ..



مبهوتة لم تفهم قصدك .. عضت شفتها السفلى عضة لوم. وردت عليك ببسمة بواحة.

قاعة المطار ثقب مفتوح على العالم .. .. معرض يومي للسحنات والبشرات .. المهاجرون في سبيل الرغيف المصادر سرحوا بأعين خائفة مشنوقة الأحلام .. اما هواة الرقص والقمار والسيقان فقد كانت فرنسا وطناً لهم ثانياً .

سمعت الطائرات تهبط بصفير مسموع يفتت الصمت .. وللصمت المفتت حساب على الأعصاب .. الأصوات الرقيقة بالألسنة السبع تأتي عبر واصل الصوت تخبر باوقات الرحيل .. الألوان والعطور تتراقص على الزجاج المرشوش بالضوء والأرض اللامعة .. كؤوس النبيذ في الأيدي المرصعة بالخواتيم ، والمعجنات تقضمها رؤوس الأسنان المغسولة.. تعلن ان العالم هنا بلا مشاكل .

وعيت انك نشازاً ، لا تتلاءم وديكورات الردهة .. فانت ابن القرية المتربة الرابضة على تخوم مدينة منسية وراء المضيق .

اردت ان تغتسل وابى عليك النهوض .. مرات حاولت بدون فلاح .. خانتك اعصاب رجليك .. وانت غريب ولا عزيز .

جاءت جماعة في سحنتك تستقصيك عن خبز ابيض — قيل لهم — في المناجم السوداء.. حذرتهم من غدر الماكينة الكافرة بالانسان .. وغدر عبدة الأوثان .. و ..

تعجبوا من كلامك ، وسمعتهم يقولون : هذا عجوز مريض يهذي .. المتطفلون حواليك ذباب يتوالد .. صقر بأجنحة بيضاء — قالوا انه الطبيب — انقض عليك .. وجاءت افعى تبتسم ، تتلوى ، ترمش .. قالوا انها المضيفة .. رايت انيابها الذهبية تكبر، تطول ، يساقط منها السم الزعاف .. ولسانها حاد ، رفراف، وفحيح .. تشوكت وصحت « .. ستأكلني .. انها افعى .. تمتص العرق .. انها افعى .. هذه .. افعى » .

* * *

الوقت بعد الغروب ..

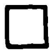
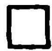
والمكان صياح يمزق تداعيات الضوء والالوان .. والناس استفسار .

في الخارج اختنق الطقس .. وماكينات نفذ ، وقودها من العرق .

في الداخل افاعي تهدىء روع سمر يبكون..

وهو.. صدر يهتز ، يرتجف .. يلهج.. يلهج .. رهن الموت ، رهن الحياة ..

المصطفى اجماهيري
ص.ب : ٧٣
الجديدة — المغرب

فصل من رواية :

طيور المساء

مبارك الدريبي

في سماء البلدة ، كانت ، الطيور العائدة من سفرها البعيد، تحلق • الشمس تنحدر الى مخدعها • الدور البعيدة والأكواخ التي تحيط بها الأزبال ورمال الأزقة ، ساهمة ، مسرورة ومتواضعة • برأس الزقاق ، كانت ، كلبتي تطارد كلبا • أطلقت صفيرا • التفتت هي • قفزت بعيدا من أنياب الكلب الراقد على ظهره • وقفت على قدميها ، رفعت يديها وألقت بثقلها على الكلب ، عضته في عنقه • كانت كمشة غبار تحجبهما عني • هرب الكلب وهو يعوي من الألم وعادت كلبتي ، منتصرة ، تقفز وتنبح في وجهي • انتصرت على كلب ، كان يطاردها ويتحداها • كان يقطن بكوخ قرب الغدير • وهي ، ها هنا ، بكوخي بمنعطف طريق الحرية • أسراب الطيور تحوم على شكل غمامة • السماء زرقاء وداكنة في بعض الأماكن • انتصرت كلبتي • كنت مسرورا • مسحت ظهرها • أنا أجري وهي تقفز من ورائي • نظرت الي ، نبحت وهي ترفع رأسها الى السماء • مال سرب الطيور وانحدر الى زاوية الغروب •

أبي سافر الى مكناس برفقة مسيو بيتاي ذهبت أمي الى ضريح سيدي موسى • هناك ، بقامته البسيطة ، خجولا وسط الأكواخ المجاورة • الأشجار تتعانق مع سياج القصب والأخشاب والقصدير • المساء ينحدر على زقاقنا • مرضعتي مريم توقد النار بباب كوخها • ألقت علي نظرة حنان وابتسمت • كرت كلبتي اليها ووضعت قدميها الأماميتين على ظهرها • مرضعتي تنفخ على النار بفيها • ظهرها يصعد ويهبط • والكلبة كبحار يصارع العاصفة على ظهر باخرة مجنونة ، تفتح فمها وينزنز ذيلها • ضحكت بكل شوق • هرشت شعر رأسي • أطلقت صفيرا • نبحت لويزة (ماري لويس) ، عادت تسير بجانبي وهي تلهث • حدقة عينها اليسرى ضيقة وسط بقعة سوداء • كانت عينها تدمع كأنها تبكي على حبيب •

كانت ، كلبتي ، صغيرة وضعيفة البنية ، عندما أتى بها أخي الى كوخنا في يوم ممطر • كانت المسكينة تجري بالغاب وتنبح • كان أخي يلعب بالكرة مع رفاقه • كانت الكلبة تتبعه من زقاق الى زقاق • كانوا يسخرون منها • كانت المسكينة مريضة ولم تأكل منذ أيام • بباب الكوخ تعلقت بأخي • تفرس في وجهها وقال لها :

– اذهبي الى سلمان ، انه يحب الكلاب ••

التفتت الي ، تفحصتني بقوة ، فتحت فمها واقتربت مني برشاقة • جعلت رأسها تحت يدي – ذكية – مسحت ظهرها • كانت



تخبني بقوة • أحببتها بقوة • كانت جميلة وبسيطة • أصبحنا صديقين • صداقتنا قديمة وقوية • كان أبي يكرهها • أبي لا يحب الكلاب • أطعمتها ، أكلت ونامت قرب موقدنا •

غابت الشمس وراء الأكواخ وترامت الظلال ثقيلة على حينا • المزبلة بهادجاجات.. مريم تعبث بالقاذورات • نبحت كلبتي ، قفزت وطاردت الدجاجات • خرجت مريم من باب كوخها ، تدفع جسمها القصير المكتنز • على رأسها عمامة طويلة الذيل • كانت غاضبة • ثيابها بيضاء ونظيفة • أخذت عصا وهمت بضرب كلبتي • كنت واقفاً أنتظر • رأتني ، ابتسمت ورمت العصا ، ضمتني الى صدرها • كانت بثيابها رائحة الطيب • كوخها نظيف • موقد النار عليه مقلاة بها سمك • شجرة قصيرة الساق بساحة الكوخ • الحبق قرب باب كوخها بأوراقه القصيرة المزدحمة ، ساكن في هذا المساء • عدت الى كوخنا • كانت دجاجتي القرعاء ترتعش ، انكمشت على نفسها تحت جذع الشجرة العجوز • المساء والزقاق المترب الضيق والسهر يثقل الجفن • أمي لم تأت ، بعد • كان صياح الجندي الأقرع ، يرتفع كصوت حمار كلما نام مع زوجه على الفراش. كانت زوجه تخجل من تهكمات الجارات ونظراتهن • باب كوخنا مفتوح كأنه ينتظر أحداً • أمي بضريح سيدي موسى • أخي بمزارع ميمونة ببادية بلادي • الكوخ وحيد بين الأكواخ • لا أخاف اللصوص ، بكوخنا أكياس فارغة نفترشها كلما نزل الليل ، وغطاء صوفي قديم وصندوق كبير به السكر وبعض الأمتعة • مرضعتي مريم ، كأمي ، طيبة ، كثيراً ما تحميني عندما يهم أحد من أفراد عائلتي بضربي • زوجها حارس الزوارق بالنادي العسكري • أسمر الوجه ، غائر النظرات يرتدي الجلباب (صباغة الرحمن) ويسير بخطوات طويلة • كل مساء ، كان يحمل الي البطاطس اللذيذ • أحب بطاطس البحارة • كنت أنتظره برأس الزقاق • الشوق بقلبي ونظراتي تتعلق بكل قامة طويلة • تطل قامته ، فاجري بكل قوتي وقلبي يدق وابتسامتي على شفتي • يقبل خدي ويمسح شعري الطويل بيده • كنت آخذ منه البطاطس بفرحة كبيرة ، وأجري الى كوخنا ، أقضم بفرحة شابة وأسنان حادة وشهية نهمة • أطعم كلبتي والدجاجة ، بساحة الكوخ •

رميت لكلبتي قطعة خبز لم تشعر بها • أغمضت عينيها • كان صياح الأطفال ، قرب الفرن قوياً • نفير السيارات العسكرية ونباح الكلاب • المساء جميل وأنا في حرية تامة برفقة كلبتي • لا مدرسة • لا ثياب الا ثيابي الممزقة والقديمة • رفضت أن أقص شعري الطويل ، فطردوني من المدرسة • لا أم بالكوخ • الأب بمدينة مكناس • تقول عن هذه المدينة ، صديقتي وردية : (انها مدينة سحرية تنام على رؤوس الجبال ••) • كان وجه المدينة ــ مكناس ــ يتراءى الي جميلا كأحلام هذا المساء في خاطري • مرضعتي مريم ، خرجت لسقي الماء ، من الساقية التي تربض ، هناك برأس الزقاق المتعرج • نامت الكلبة بجانب الموقد • خرجت أجري الى عرض الزقاق • كان نسيم المساء دافئاً • جسمي خفيف وينحدر شعري الطويل كموجة على خدي وكتفي • كنت مسروراً • في سماء بلدتي ، كان، قمر تلك الليلة مسروراً ولطيفاً كوجه صديقتي كلثوم التي ماتت بالحمى • بالساحة ذات الأحجار الصلبة التي تنام أمام فرن مولاي الهادي ، تسابقت مع رفاقي • أحرزت الرهان من يدي زهور • كانت جميلة وخجولة • قبلتها في غفلة من الرفاق • ضحكت واختبأت وسط البنات • كانت الدكاكين الخشبية ، ساهمة ، لا تنير واجهاتها الا قناديل زيتية ، ضئيلة النور • كان العم موحى الشلح ، مسنداً ذقنه الى يديه وعيناه تنظران الينا وابتسامة على وجهه القديم • المارة ، الأزار والجلباب ، ينسلخ من ظلام الزقاق الى ضوء القناديل الزيتية ، أمام الدكاكين المزدحمة المريضة بالبرد ، تذوب بالمنعطف المؤدي الى فرن الدغوغية • في الأحياء الأخرى يصيح الرفاق الصغار • كان سعد يحادث السعدية • كانت جميلة تحت ضوء القمر • كومات الرماد المهملة بالقرب من الفرن ،



تنام بلا يقظة . أقدامنا وسخة بما علق بهـا من رماد الفرن وتراب الزقاق .

قال سعد وهو يرمي كومات الرماد بحجر

ـ كوخكم مظلم .. ؟؟

ـ لا أحـد بـه .

ـ أمك .. ؟؟

ـ بضريح سيدي موسى .

ـ مع أمي .. ؟؟

ـ لا يهـم .

ـ بكوخنا أختي فطين ، نتعشى وننام جميعـاً .

يده في يدي . خطواتنا كانفاس المساء . كانت السماء داكنة ومقمرة . فطين لحظة في عمري ـ هذا الطويل ـ من عهد الطفولة . نلعب معاً ، نأكل الحلوى وأحبها وتحبني . بكوخ المعلم صالـح (الهمومار) الحمـال ، ترنيمة العود (الكنبري) ساحرة كوجه المساء. ضحك سعد وأشعة القمر تتراقص على شفتيه الكبيرتين ووجهه الأسمر .

ـ ربما معه امرأة .. ؟؟

ـ انـه جارنا .

ـ ننظر من شقوق الباب .

ـ عيـب .

ـ تعـال .

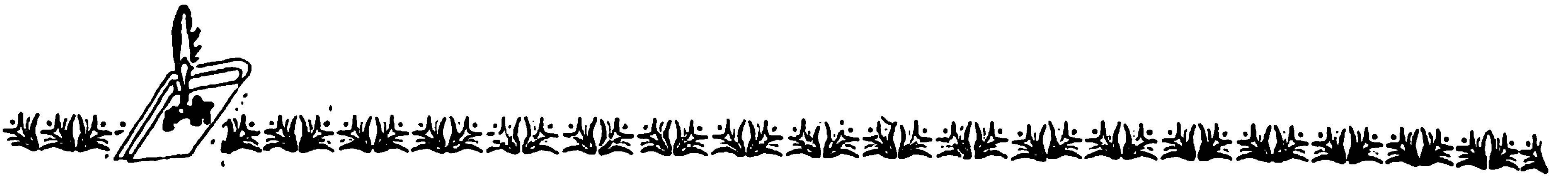
كانت معه امـرأة . الكنبري بيديـه ، وجهه الأسمر ، كان حزيناً وهو يعزف . المرأة تسكب الشاي في الكأس . مزهرية الحبق على المائدة الصغيرة . الموقد وجرة الماء البارد . المعلم صالح يحترمه ساكنو الزقاق . يقضي يومه بالميناء ، على الرصيف ، يحمل الأكياس والصناديق . جسمه أسمر وقصير . ما غازل امرأة من حينا ، قط . يحبنا ونحن الأطفال نحبه كثيراً . ابتعدت عن باب الكوخ . كان قلبي يدق من شيء كريه رأيته . كان سعد يضحك مسروراً . الزقـاق مترب وضيـق .

القمر يغلف بأشعته سيقان الأشجار الطويلة . فطين تغسل آوانـي الأكـل بساحة الكـوخ المتربة . شعرها الطويل يرتمي على ظهرها . نبحت كلبتي من وراء سـياج القصب ، انتحبـت وجاءت تتمسح بي من ثقب ، كان ، بالسياج . أقعت بجانبي على الحصير . الليل طويـل . القنديل على رف من الخشب ، قرب الباب . ظلالنا تتمايل كلما حركة شعلة القنـديل ، نسيمات الليل . من ترعة البوشتيين ، كانت الضفـادع تعـزف نقيقـاً خافتاً ورتيبـاً . الصراصير زغردت بسـياج القصب المحيـط بساحة الكوخ . من نافذة كوخ فطين ، كان ، كوخنا مغلقاً على السكون والشجرة الكبـيرة تسهر بمفردها . ربما نامت مريم . أكلنـا فولا وخبز شعير . نام سعد على الحصـير . غمغمت كلبتي الصغيرة في نومها وابتسمت من البقعـة السوداء . فطـين تتأملني من بـين رموشها . شعرها الطويل يدغـدغ الشوق في أعصابي . مسحت شعرها بيدها الجميلة ، رمت الأغطية وهي تضحك . تمددت أنا على الفراش البسيط. تكومت كلبتي تحت السرير الخشبي . كنبري المعلم صالح (الهومـار) يناجي الليل الهائم على نفسه فوق المدينـة والأكـواخ . كـان يغني : (الليـل يطـول يا غزالة ..) . تخيلت غزالة تجري بالغاب ، يطاردها الصيادون والكلاب ، تقطر الشمس أشعتها على وجه الغـدران . تمايلت علـى السرير. الأغطية نظيفة بعض الشيء. هربت كلبتي ونبحت بقوة . استيقظ سعد ، نظـر حوله بعينين سكنهما الفزع .

ـ لا تتكلم ..

تكومت على نفسي ولم أتكلم .

نامت الكلبة ونام سعد . أشعة القمـر الساهر بصدر السماء ، انحدرت على جيـد فطين الجميل . كان شعرها طويلا وخصلاتـه مجنونـة في يـدي . نامت فطـين . نقيـق الضفادع ، هو الآخر ، يسهر في هذا الليل . الكبار يسهرون . نجوم الليل ، كانت ، حزينة وشاحبة . في الصيف كنت أرافق الأصدقـاء الى نهر سبو للصيد والسباحة . سرت برودة



الليل الى داخل الكوخ • قبلت رموشي أنفاس الليـل •

كان أبي يطارد الضفادع ـ في الحلم ـ ومن فوق ضريح سيدي موسى ، كان ، يطير الحمام ••

ذهب سعد ، مبكراً ، الى الميناء • فطين بساحة الكوخ • الشمس تشرق بفرح ساخنـة وغاضبة • أمي لم تأت ، بعد • شربت كأس قهوة • طاردت كلبتي دجاج فطين • فطـين تبتسم • خرجت أنا • بالقرب من المزبلـة وبالكوخ المهجور ، كان ، خلافة يغني • آخوه عمارة بالفرن • وقف خلافة أمام باب كوخه• السماء صافية كعين حبيبتي كلثوم التي ماتت بالعمى •أشعل النار بالمـوقد ثم دخـل الى كوخه • بساحة كوخ مريم ، تمددت كلبتـي وهي ترمق بطرف خفي دجاجاتها • شربـت كأس شاي ساخـن ومشطت مرضعتـي شعري الطويـل بالزيت •

ـ أبـوك •• ؟؟

ـ بمكنـاس •

ـ أمـك •• ؟؟

ـ بضريح سيدي موسى •

ـ نفعنا الله ببركته •

قبلت يدها • سوت عمامتها •

ـ اخرج لتلعب •

ـ حاضر ، يا أماه •

الشمس بصدر السماء تلعب طروبة ، وانتشرت خيوط المزبلـة لتخنق الأنـوف • وردية تلعب مع رفيقاتها بباب الفرن • خلافة جالس القرفصاء قرب موقد النار • على رأس المزبلة تلعب لويزة كأنها في ساحة صيد • تقف ، تبتعد ، تلتفت الى الوراء ، تجري لتعـود الى المزبلة • ابتسمت وردية • كان صدرها ناهداً • ابتسمت أنا وعيني على صدرهـا البكر وقوامها النحيل • أطلقت صفيراً • الحر ودخان الفرن ، أسندت ظهري جدار الى جدار حمام مولاي الهادي • ابتسمت وردية• تمنيت لو رافقتني ، مرة ، وردية الى الحمام ليلا • ضحكت وأطلقت صفيراً • ضحكت هي • كانت رنة صوتها لذيذة في صدري • ذهبت وردية وبعطفة الزقاق ، التفتت وابتسمت • أطلقت صفيراً ، فجاءت كلبتي تجزي • كانت وردية تنظر الي من فتحة باب كوخهـا • ابتسمنـا لبعضنا • دخلنا الى كوخنا • تمددت عـلى حصير مقطع وقديم ، تحت الشجرة • تكومت كلبتي ونامت • لا أنام أنا • الكوخ فارغ ، متى يعود أبي من مكناس ••؟؟•• متى آنام وآكل بشهية •• ؟؟

صفق باب الكوخ • فتحت لويزة عينـا واحدة • آه ، أمي ، هرولت اليها •

كانت متعبة :

ـ صباح الخير أماه ••

ـ هل طبخت طعامـاً •• ؟؟

ـ •••

ـ تكلم •• ؟؟

ـ لا طعام بالكوخ •

ـ السكر والشاي •• ؟؟

ـ أسرع ، جهز كأس شاي •

ـ نعـم •

ـ ما أجملها من ليلة قضيتها بضريـح سيدي موسى ، نفعنا الله ببركته •

ـ آمـين •

ـ أسـرع •

ـ نعـم •

ـ كيف قضيت ليلتك •• ؟؟

ـ نمت بكوخ سعد •

ـ أسـرع •

ـ نعـم •

أكلنا خبزاً يابساً وشربنا الشاي الأصفر كوجه المرض • السماء صافية • نامت الكلبة الصغيرة • نامت والدتي ولم أنم •

وعاد المساء ينحدر رقيقاً كخد صديقتي فطين • جاء أبي بقامته القصيرة الممتلئة بعض الشيء • عمامته بيضاء تلوح من رأس الزقاق المترب • بيده كيس وعلى كتفه كيس آخر • وجهه شديد الحمرة • الحر في السماء والأرض •

عيناه كعيني نسر في متحف • نظرتهما قاسية ، كسيف سيضرب • شارب طويل وناصية عريضة • صدر واسع • ضحكة مجلجلة وقوية ، كثيراً ما هزت أرجاء الكوخ والساحة • كنت أجري كفراشة صغيرة شاهدت النور وسط الظلمة • احتميت بصدره ، استمعت لدقات قلبه الكبير • احتميت به من شيء مبهم ومخيف • بداخلي نار شوق وسرور تحرقني • سروري كبير جداً • رمال الزقاق ساخنة • لم أشعر بشيء • كنت أتأمل وجه أبي المبتسم في حياء ورزانة • قبلني ، ضمني اليه بقوة • حملت الكيس ومشيت •

كان متعباً ، سعل •• سيتكلم •

ـ أمك •• ؟؟

ـ بخير ••

ـ هل غادرت الكوخ •• ؟؟

ـ لا ، لم تفعل •

ـ لا تكذب •• ؟؟

ـ أبداً يا أبي •

فتحت أمي باب الكوخ • كان وجهها مشرقاً بابتسامة عريضة • الأسفار تأخذ منا أبي نصف سنة كاملة • انه متعب • يرمي عمامته بعيداً ، يمسح رأسه ، يفتح ياقة قميصه الوسخ • يرمي الحذاء ويتمدد على الحصير في ظل الكوخ • تهب نسمة المساء ، فينام أبي • كلما نام أبي ، استيقظ مذعوراً ، دائماً تسقط أمي آنية ما من يدها ، أو تصيح علي بصوت كالرعد ، أو تنقر دجاجتي رأسه • تشاغلت بما في الكيس من خضر ولحم وزيت وثياب جديدة لنا • أوقدت أمي النار • جهزت الشاي المنعنع كما يحبه أبي • كان أبي يبتسم في نومه • بعطفة الزقاق ، تعالى أذان الصلاة • كان صوت سيدي حياً دافئاً • جاء في الصيف الماضي الى زقاقنا مع زوج فاتنة وبدوية • في الليل ، شتائمه توقظ الزقاق •

كان صوت المؤذن قوياً •

استيقظ أبي :

ـ الله ، الله ، طال نومي • أين أمك ، آه ، الشاي •

شربنا الشاي • أكل أبي بشهية • كانت أمي غاضبة • قال أبي من تحت شاربه الطويل •

ـ ايه ، قولي •• ؟؟

ـ تتجاهلني ••

ـ أبداً ••

ـ تتجاهلني ••

ـ عندما أعود من آزرو ، سآتيك بالصوف والثياب الجميلة •

غضبت أمي أكثر :

ـ لا أنسج الصوف • انك تحتقرني •

ـ أعوذ بالله •

ـ انك تحتقرني •

ـ غزل الصوف بركة •

ـ وتسبني كذلك •• ؟؟

ـ لم أقل ذلك •

ـ قله اذن ••

ـ العفو يا امرأة ••

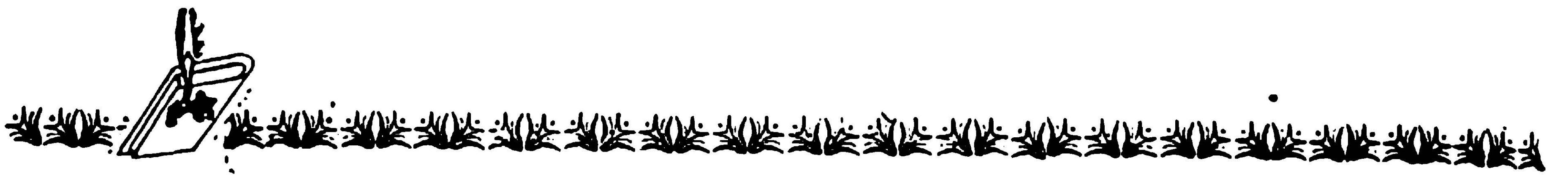
ـ انك تحتقرني •

ـ الله يهديك ••

ـ سأذهب الى بيت أبي •

ـ اسمع يا سلمان ، اسمع •• ؟؟

ـ اسمع يا سلمان ، لا زوج ، لا ثياب وتحتقرني يا خماس •• ؟؟



كان أبي خماساً ببادية الغرب الكريمة • هناك ينام نهرنا الكبير ، يروي المزارع الحنونة بكل تواضع •

كان أبي في صحة الشباب لا يملك شيئاً • يرعى دواب غيره ويحرث أرضهم • كانت أمي تساعد نساء الغير ، تحلب البقر ، تكنس الحظيرة • أبي بالمزارع البعيدة وأمي ببيوت الغير • كانت حياتهما شاقة وقاسية • كان ذلك في يوم بعيد ، اقترحت أمي على أبي الذهاب الى المدينة • في الليل ، رحلا عن الأرض الطيبة والمزارع المشمسة ، الطافحة بالخير والسكينة ، كلصين ، تحت جناح الليل الأسود ، نقلتهما شاحنة ، كانت ، قادمة الى المدينة • وكلما تذكر أبي الأرض الطيبة ، كان ، يبكي • كان يحب الأرض ، أبي • وتتجاهل أمي حب أبي للمزارع المشمسة والدواب • أبي قلب قريب من الأرض •

الأرض ونهر سبو العظيم ، يطفح عطاؤهما بكل تواضع •

كنت غاضباً • وقف أبي وهو يبتسم • ألقى على أمي شبه نظرة • زمجرت والدتي ونهضت ، سوت عمامتها على رأسها بعصبية • ركلت كلبتي النائمة • نظراتي حزينة • كلبتي تصيح وتئن ، المسكينة تتألم ، تداخلت في جلدها تحت جذع الشجرة • كانت تنظر الي وهي خائفة ترتعش ، تسألني حناناً •

كنت حزيناً • مسحت ظهرها ، ترتعش ، تئن • كنت حزيناً •

بباب الكوخ ، قال أبي :

– مساء الخير ، خلافة ••

– مساء الخير •

– أين عمارة •• ؟؟

– بالفرن •

– والمزبلة ؟؟

– والله ، ستقتلني هذه الكلبة •

– أبعد كوخك عنها •

– لا أستطيع •

– لم •• ؟؟

– أشياء تربطني بها •

ضحك أبي وسار الى مسجد الخبازات • خلافة والمزبلة توأمان • لا يبتعد عنها الا لشراء بعض اللوازم من دكان موحى الشلح • عمارة أخوه أصبح قطعة من الفرن • عمارة صامت لا يتكلم ، لا يضحك الا مرة في السنة ، يوم العيد • خلافة تعرفه حفلات الزفاف والختان • يرقص بجنون ويغني • كان خلافة لا يطيق الابتعاد عن أخيه عمارة قبل موت والدتهما • كان ذلك في نهار بلا شمس وبلا رغبة في الخروج من دفء الفراش والكوخ • في صباح كان مطره غزيراً لا ينقطع وكان قارس البرودة • خرج الرجال بجثتها على محمل خشبي ، يكون عادة ، بجانب المسجد • عاد عمارة الى الكوخ • رافق خلافة أمه الى قبرها • ذهب الرجال وبقي وحيداً • كان القبر ممدداً أمامه • المطر القارس يغلفه بثوب بارد • لم يرافقه عمارة • كان خلافة وحيداً • مات حبيبه •

المساء حزين كوجوه ساكني حينا • الكلبة نائمة • الأكل لذيذ • كان أبي يصلي بساحة الكوخ الضيقة • ومن الغدير ، كان ، نقيق الضفادع ساهراً في هذا الليل كصخور نهرنا الكبير •

القنيطرة : مبارك الدريبي

* * *

قصة قصيرة

الرجل الذي تسلق قالب سكر فتحول إلى نملة بجناحين ؟!

عبد الرحيم مودن

اشتهرت مدينة (النمل الغربية) ـ وهي من أنشط مدن الأقليم ـ بصناعة السكر . سكر مقولب ومربع ومكعب... أهلها يلعبون بالسكر . عماراتها من مربعات سكر ملون « تسر الناظرين » . رملها مسحوق سكر ناعم لا يخدش الأقدام العارية . اقترح رجل من أعيان المدينة بناء قبة ضخمة من السكر تقاوم الحرارة والبرودة وتخلد المدينة في أسفار التاريخ . السكر في كل مكان . يقدمه السكان لخيول السباق وينتظرون نتائج يوم الأحد . البعض منهم يقدمه للقطط المدللة كما يفعل الأجانب . والبعض الآخر يفضل أن يتنازل عن نصيبه من السكر لصالح مدن الأقليم الأخرى كما يحدث في الدول المتقدمة . أما الذي تجاوزت أريحيته حداً لا يوصف فانه يضم صوته لدعاة جلب العملة الصعبة كما يحدث في الدول المتحضرة ، وهذا ليس عيباً . فالتمرة كافية لتحلية دواوير بأكملها . ولماذا السكر بالذات كلمة طيبة تستطيع أن تفعل فعل السحر ، فهي حلوة أكثر من الشهد . والدنيا زائلة . فلنملأ قلوبنا بالقناعة .

(العربي) مواطن من مدينة النمل الغربية . يستيقظ كل صباح كما تستيقظ النملة . لا حس ولا حركة . وقت دقيق . عمل متقن . لا يهم تحديد العمل ، فالعمل عند معشر النمل واجب وضرورة . والنمل لا يسأل عن عمله . يعمل في كل مكان .. في الحفر والمجاري ودورات المياه ، فوق الأرض وتحتها . عيب أن تسأل الرجل منا عن عمله . الرجل لا يعيبه الا الجلوس مثل النساء . دعك من النقابات والضمان الاجتماعي وتعويض الأطفال وسلم الأجور ... لا وجود لذلك في مدينة النمل الغربية . كل ذلك مجلبة للهم . والنمل لا هم له . فهو بذلك سعيد . وأهل المدينة لا هموم لهم . فهم بذلك سعداء . وسعادة العربي اكتملت بزواجه الجديد . قريبة ظريفة كالنملة . خفيفة الروح والجسد . تزوجا وولدت له سرباً صغيراً من الذكور والأناث كأسراب النمل . الخبزة لم تعد خبزة . والشاي تخطفه الأيدي قبل أن يصل الى الفم ، والمرق يغور قبل سكبه وكأنك تسكب الماء في الرمل ، وقالب السكر ينهار بهشاشة في طرفة عين ، وأيام البون أرحم لما كانت التمرة تحلي دواراً ! ألم أقل لكم ذلك ؟ وعندما يكون الانسان سعيداً مثل (العربي النملة) ، فان أشد ما يخيفه هذا الزمان الغدار ! والزمن الغدار عند العربي هو ابن آدم . والمرأة تقود ابن آدم الى حتفه . لعبت الجارات بعقل نملته الظريفة فقالت : « من قالب السكر ولدت » . في البداية اعتقد أنه الرحم . ولكن لماذا قالب السكر بالذات ؟ كيف سيكون هذا الطفل ؟ صاروخ ؟!

لعن الشيطان ووضع قدمه في الحارة . مازال الغبش يعم المكان . حيته يافطة كرتونية عند مدخل الزقاق ، ووضعت ساقاً



فوق ساق ، فبدت مائلة الى اليمين وكأنها معلقة بمسمار . ولما أحست بتجاهل العربي قالت بصوت خفيض :

ـ هنا يباع قالب السكر (الطلق ممنوع والرزق على الله) .

وضع العربي سبابته على شفتيه وكأنه يريد اسكات اليافطة الكرتونية محاذراً أن تسمع زوجته ذلك . لعن الشيطان مرة أخرى وتذكر أنه كان قد غادر المنزل منذ مدة قصيرة.

سمع قالب السكر نعيق الزوجة، وهمس الزوج ، واطمأن لوعيد اليافطة الكرتونية ، وتأكد أخيراً من أهميته في النفوس . طوق القالب دائرة حمراء مذهبة الحواشي ، وغنى بصوت خفيض أهزوجة رددها الأطفال فيما بعد ببراءة : (شهرتي تفوق شهرة النمر والأسد . يالالان . لالان) .

أخرج النمر والأسد رأسيهما من اطار الدائرة الحمراء المذهبة وقال بتسليم :

ـ نحن نياشين ميتة . هذه اللفافة الزرقاء كفننا الدائم .

خشخش سير الكتان اللفافة الزرقاء ، وتمنى شنق هذا الرأس الأصلع المتعجرف .

قال العربي : ـ أنا نملة مثل باقي النمل وأرض الله واسعة . ثم أضاف بحماس (والذي يمتلك باباً واحداً فليغلقه الله عليه).

جمع العربي اللفافات الزرق وفرشها على الأرض منادياً على بضاعته : دواء للزكام . قليل من الزعتر . صلوا على النبي لفافة مثل الدخينة . تماماً . أشعل ودخن . بالشفاء ان شاء الله .

أشعل العربي الدخينة أمام المتحلقين وجذب نفساً طويلاً فانتابته نوبة سعال أسلمته الى خلاء عريض . نادى بصوت مخنوق وهو يطرد سحب الدخان الأزرق بيده : (دواء للزكام ، دواء ضد العين) .

العربي نملة مثل باقي النمل ، والنملة لا تعرف الكلل . جمع العربي الدوائر المذهبة واشترى دبابيس معدنية صغيرة ، وطار مع المواسم ، ورقص في الأعراس وكأنه صاحب العرس (نيشان بريال . نيشان الحرب العالمية الأولى . نيشان الحرب الثانية . نيشان هتلر . نيشان الحرب الثالثة .

يقفز برشاقة ويشبك النيشان الأحمر الذهبي على صدر أحد الأطفال. ينزع الطفل النيشان الورقي ويقذف به بعيداً . يستقر عند قدميه . يرفسه . يأخذ الأطفال في الرقص على ايقاع قدميه وهم يشيعون العربي بحركات ساخرة من أيديهم .

العربي نملة مثل باقي النمل . والنملة تحسن السباحة في المياه ، وتتسلق أعالي الجبال ، تخترق باطن الأرض ... دخن العربي اللفافات الزرق وعلق النياشين الحمراء المذهبة على صدور الأطفال ، وعرض خيوط الكتان على الغادي والرائح ، وجمع ريالات قليلة دفع بها الى بائع الزقاق . تأرجحت اليافطة الكرتونية على مدخل الحانوت واهتزت بنشيج ساخر .

قال البائع : تريد القاعدة أم الرأس ؟

قال العربي : أريد نصف قالب سليم .

قال البائع : الرأس بأربعة دراهم . القاعدة « بخمسة دراهم » . النصف الأيمن بدرهمين . الأيسر بدرهمين ونصف .

قال العربي : اعطني الرأس .

قال البائع : رأس النمر «بأربعة دراهم» ورأس الأسد « بخمسة دراهم » .

قال العربي : أريد رأساً سليماً .

نظر البائع الى القطع المعدنية الصغيرة وفركها بابهامه مثل لاعب شطرنج .

ـ مسحوق سكر نظيف بدرهم ونصف للكأس . مسحوق سكر بتبن بدرهم للكأس .

خاطب العربي نفسه فقال : عندما تعز فيك هذه الدنيا الظالمة نصف قالب سكر فليجعلني الله ، نملة بجناحين .

طار في السماء فسخرت منه الطيور والهوام . حط على الأرض فعجز عن السير. تسرب من شقوق الحوانيت وثقوب المخازن ومسام صناديق السلع فطاردته المبيدات الخانقة . انقض على قالب سكر عاري الجسد فقهقه هذا الأخير متلذذاً بهذه الدغدغة ، وكاد يسحقه لو لم يكن نملة بجناحين .

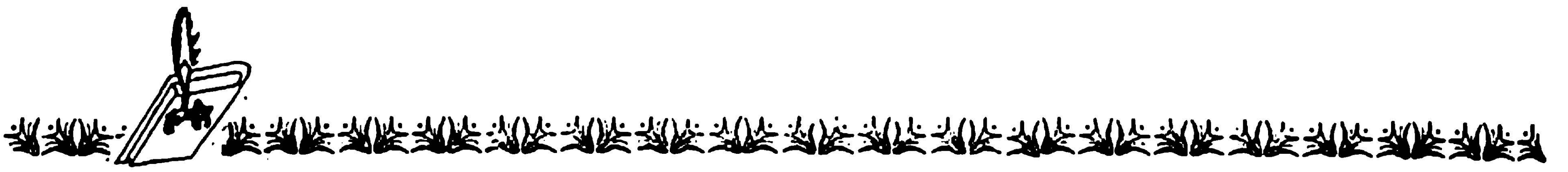
قالت نملة لجارتها : انظري .. «عندما يريد الله أن يعذب نملة يخلق لها جناحين » .

سمع قالب السكر ذلك وتأكد من أهميته في نفوس سكان مدينة النمل الغريبة .

سيّدة المرايا

عبد الجبّار السحيمي

قبل أن أدخل بيته ، كان بيتـه أسطورة حكايات · هو الآن يستند بمرفقيـه خلـف « البار » ، وزوجته السمراء العاليـة كنخلة تقدم الشراب (بالمـاء ؟ قليلا مـن الثلج ، ثانكيو) · أثقلها الفراغ ، هي الجميلة حد الدهشة · شغلها البيت قليلا،وكانت مستثارة في لعبة التأثيث العجائبية ، غيرت ألوانه ثلاث مرات ، ومع الألوان كان كل الطاقم يتغير ، وهي حريصة دائماً ، أن يكـون بيتاً خرافياً يعطي الدهشة · وليس لأنها اجتماعية كانت تملأ ليالي البيت سهرات وموسيقا ، بل لأنها أيضاً كانت تحب أن تستعرض ذوقها وتحفها وكل عجائبيات بيتها · وفي كل صباح كانت ترفع سماعة الهاتف لتفرح بعلامات الدهشة المعجبة من ضيوف الأمس · الفراغ قاتل في المدينة الكبيرة التي تعيش على حافتي عالمين لا يلتقيـان ، لا يعرف أحدهما الآخـر ولا يعترف بـه ، وكلام السماعات يملأ أصباحاً كثيرة · لا أحد من كبراء المدينة لم يكن هناك، في سهرة أو أخرى · وزوجهـا عادة ، يقف أنيقاً وراء « البار » الأسطواني (لماذا لا تجرب الكولسنترو اكسلانس) ، يمـلأ الكؤوس ، لكنه يستمر أكثر الوقت بعيداً ، وكانت هي ، ملكة كل السهرات ، تضبط بوصلة الريـح الاجتماعية · حين كان رجـل السلطة نجماً ملأت بهم البيت · سهر هنا كثير مـن رجال العهد ، أيضاً كثير من الضباط · كانت مفتونة بنياشينهم ، وكان زوجها الأنيق كأنه مشجب، يقول لهـا بعد كل سهرة : (ألا تلاحظـين ، شيري ، أنهم يشربون كثيراً) كانت تتثاءب ، وهي تعلـق « ومغازلاتهم مفضوحـة · ألم تلاحظ ؟ » وجاء المحامون · كانوا فئة جديدة لم تملأ مكاتبها شقق المدينـة بعد ، وكانوا يطرقون ، هم أيضاً ، الحياة والأضواء · وكان الجميع يتبادل ملء الفراغ، يسهرون ويشربون، يشربون ويثرثرون ، (كأسك فارغة ميتر ، ماذا يشغلك مون كولونيل) والموسيقا هادئة تنبع من مكان بعيد ، كان بيتهوفن وموزارت وكورساكوف يتبادلون الأدوار ، وجاء عهـد أم كلثوم ، على آهاتها المتوجعة تكسر برود السهرات ، وهي بينهم تمايل رأسها ،وتطلق « الآه » مدروسة منغومة كأنها دعوة ، لكن الحاجة الحمداوية ، أخيراً ، هي التي أمكنها أن تطرد بقايا الثلج المتجمد ، تعرى الجميع، وفي اليد كأس ، والعيطات تسقط مبحوحـة عارية ، وهم يصاحبون الغنـاء (وحق الله المعبود صاحبي لافلتو ، آه يانا) ، وتضحـك سعيدة بسكرهم ، تضحك كثيراً وتتوجع ضحكاً، تضحك كل ليلة ، حتى وجدت نفسهـا ذات صباح ، وقد سقطت ثانية في الفراغ الثقيل· سافرت الى أوروبا ، دخلت كل المتـاحـف ، حضرت عروض أزياء، وبعض الحفلات،وحين عادت آخـر الصيف ، كان مشروعهـا جاهزاً لتقتل الفراغ · ولتكون في الأضواء · لم تكن



هي التي اكتشفته ، لكنها عرفت أن تلتقط الاشارات :

– سأفتح قاعة للعرض ٠٠

حين كان زوجها عائداً بها من المطار ، كانت متوترة ومستثارة وهي تتحدث عن مشروعها :

– تصور ، مدينة كبيرة بلا قاعة جيدة للعرض٠في كل زاوية في أوربا قاعةوعروض، لوحات ، ملصقات ، نحت ٠٠

قال لها :

– ما رأيك في دار أزياء ٠٠

– لا (أعلنتها سريعاً وبحزم) انني لا أريد أن أتاجر ، وفي كل أوربا لا حديث الا عن الفن والثقافة ، سأفتح قاعة ،وستكون مغايرة لكل القاعات الصغيرة البئيسة هنا ٠٠ هذا عالم جديد يطرق الأبواب ٠ كلهم فيأوربا يقولون اننا نعيش في عصر الفن والثقافة ٠ امتلأت نهاراتها بالحركة ٠ دفعت كثيراً ، بلا أي تردد ، من أجل قاعة لائقة وسط المدينة ٠ وقفت لحظة بعد لحظة مع العمال يشتغلون ، كلفت مهندساً صديقاً ومكتب ديكورات معاً ، لتوزيع الأضواء والمفروشات ، واعداد الزوايا والفراغات والجدران ، استعملت أحد رسامي المدينة ، مستشاراً خاصاً٠٠٠ وأعطت تصريحاً للصحافة ، كتبها لها أحد المثقفين ، كان مسحوراً بقامتها وسمرتها ، حين قدمت له كاس ويسكي ، وجلست قبالته ، تضغط ساقيها ، وتضغط بفمها سيجارة (بال مال) طويلة ٠ كان يتذكر ، هل كان لينين أم خروشوف الذي قال (احذروا أبهة الأماكن)، كان ساقطاً ، بانبهار ، في الأريكة الواسعة الملساء ، وهي تتحدث اليه عن التصريح الذي سيكتبه ، ولم يكن يعي تماماً خليط كلماتها ، فقد كان عطرها ، خليط الحقل والبحر والجسد الأنثوي ، يصيبه بالخدر ٠ لكنه في اليوم التالي، وأمامه كاس الويسكي ، استطاع أن يجعلها مشدودة الى كلمات التصريح الذي كتبه لها ، وستوزعه قبل الافتتاح الأول على الصحافة :

(ان معطيات الحضارة تكاملية فيماهي تصادمية ، أنماط الانتاج المعاصرة تقلب المفاهيم التقليدية ، وفي البدء كان الفن وما يزال ٠٠٠ و) ٠ استوقفته كثيراً لتسأل عن الكلمات ٠ كان العالم الذي تدخله جديداً عليها ، لا بيتهوفن هنا ولا الحاجة الحمداوية؟ (آشبلاني بيك حتى بليتني آلهواوى) ٠ لكنها كانت مفتونة باللعبة ٠٠

قبل أن أدخل بيته ، بيتها ، كانأسطورة خرافات ٠٠٠ وفوق بقايا آثار رجال العهد والضباط والأطباءوالمحامين تراكمتالأجساد. كان افتتاحاً ناجحاً ٠ الضوء من كل زوايا الشارع يلمع (قاعة المرآة للفنون المعاصرة)، حضرت كاميرات السينما والتلفزيون ، سيارة الاذاعة مجهزة باستوديو ، مصورونللصحافة، وكثير من المثقفين والنقاد ٠ كانت لوحات الشرقاوي تفتتح الموسم الثاني لقاعة المرآة ٠ وحده الشرقاوي كان مصلوباً على الجدرانفي القاعة ، وغائباً عن البيت ٠ في القاعةاقتربت منه ، كان مسمراً أمام لوحة (القناع) حين استثاره عطرها قادماً من الخلف ، التفت ليلتقي بها عالية سمراء بعيون واسعة ٠ أحدهم (ربما كان مستشارها الرسام) أرشدها اليه :

– انك ضيفنا على العشاء هذه الليلة، هل معك سيارة ؟

– نعم ٠٠٠

– يمكن أن تتركها أمام القاعة ، تعال معي في سيارتي ٠٠

كان الشرقاوي الذي جعله يسافر ، وليست دعوتها الخاصة ٠ وصلته منها دعوات سابقة ، حين افتتحت القاعة للمرة الأولى ، ثم حين قدمت معرضاً مشتركاً لرسامين فرنسيين لكنه لم يتحرك الا للشرقاوي ٠

– هل أعجبك المعرض ٠٠ ؟

– لكن حفلات الافتتاح لا تساعد كثيراً، وعالم الشرقاوي ضد النظرة العجلى ٠٠

– خذ كل وقتك ، استمر معنا يومين آخرين ٠٠٠



لم تكن قد قرأت له، حتماً، لكن مستشارها الخاص ، دلها على اسمه ، وعلى كل الأسماء التي ستملأ باسمها الصفحات ..

التقطتنا واحداً بعد الآخر .

لم يكن هنا غير عطرها ، وضحكتها ، والغيوان ، وجيلالة والكؤوس :

ـ ادريس ، لماذا لا تشرب كأسك ؟

هي الآن ، وزوجها على البار ، يتأملان وجوهاً مختلفة . « انه عصر الثقافة والفن»، قالت لزوجها تقنعه . اختفى رجال السلطة، كبار الضباط والمحامون والأطباء المعروفون بالمدينة ، ودخلت البيت ، مع مشروع القاعة، فئة مغايرة : نقاد وتشكيليون وقصاصون وشعراء .

قال ادريس ، وقد امتلأ بالبيرة في مقهى الميناء :

ـ أريد الروج ... أنا لا أحب الويسكي . علق ابراهيم ، بانتهازيته ، وكان قد شرب كؤوساً متتالية :

ـ الروج مشروب الشعب، يحيا الشعب، أنا مشتاق للويسكي ، فالروج في اليد دائماً .

في زاوية ثانية من الصالون، كان موضوع آخر يثار :

ـ رغم الحضور العميق للفنون التشكيلية في الحياة الشعبية ، يستمر التشكيل المعاصر سجين عقلية الصالونات ، والعروض للنخبة .

لم يكن السكر قد ملأ الرؤوس بعد .

ـ هذا دوركم أنتم الكتاب ورجال الصحافة .

علق زوجها ، الأنيق كمشجب .

ـ دورنا ، كيف ؟ ان ثلاثة أرباع الشعب لا تقرأ ، وباقي الشعب منشغل بخبزه اليومي .

قال حمادي ، ثم وضع في فمه حبة لوز .

قال أدريس : الآن بدأ التنظير .

ضحك ابراهيم ، ولم يكن الآخرون قد سمعوا .

استمر الزوج : لا يمكن فصل الفن عن القضية الاجتماعية ، وهما معاً نتاج التوجه السياسي .

ـ هذا صحيح (علق ادريس ما بين جاد وساخر) .

ـ في صحتكم .

رفعت السيدة كأسها ترشف منه . أفرغوا كؤوسهم دفعة واحدة يستجيبون لها .

ـ انني جائع (همس حمادي) ، قال ادريس : كل اللوز والجبن ، العشاء سيتأخر حتى يملآنا بالمحاضرات . هذه فرصتهما فينا . انفعلوا ، كل جماعة كانت مهتمة بموضوع، لكن الزوج ، وقد أخذته الحماسة لمشروع زوجته ، وللعالم العجائبي الجديد الذي يتوالد في المجتمع مع أساتذة الجامعة والمثقفين والصحفيين ، كان يعيدهم اليه قليلا وهو يخدمهم

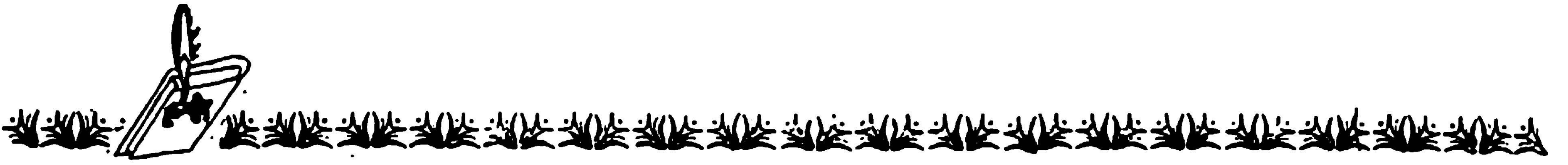
ـ صحيح أن الفن علامة حضارية ،لكن البطن الجائعة ستبحث عن الخبز أولا

ـ قال ادريس ، جاداً ساخراً :واذن ؟

قال الزوج : واذن ، ولعل الاشتراكية تحمل الحل ، للخبز والفن معاً .

همس ابراهيم لجاره : باب ما جاء في التقدمية .

كانوا يشربون ويتحدثون ، يتحدثون ويشربون ، انتشوا قليلا ، سكروا قليلا ، كانوا في أعماقهم يعرفون أن المرأة والرجل يلتهيان بهم ، ويفتحان نافذة على هذا العالم الجديد ، الموضة ، المثقفين والثقافة ،الفنانين والفن . لكن التنظير ، في سهرة سكر ، في بيت جميل ، مع صوت الغيوان لم يكن محتملا .



ـ هناك أشياء كثيرة ليست واضحة في البلد، وليست جيدة، البلد في حاجة الى تغيير.

سكت الزوج ينتظر ردود الفعل .كانوا مقفلين على عالمهم ، وهو يبحث عن ثغرة يمر منها اليهم . وكان البار برفوفه المنقوشة وزجاجاته الملونة ، والسجادات الايرانية ، والأرائك الفخمة . تزيدهم انغلاقاً .

ـ أنت اذن تؤمن بالحل الاشتراكي ؟

تساءل الأمين .

قالت المرأة ، وهي تحرك كأس الشيري وتحرك يدها وعينيها :

ـ نحن نؤمن بالحرية وبالديمقراطية. أنظر الى أمريكا ، انها متقدمة جداً وغنية جدا بفضل الحرية والديمقراطية .

وحده ادريس ، لم يتمالك نفسه ، وقد ركبته عدائيته وعريه حين يشرب ، فاطلق ضحكته المتفجرة العربيدة الساخرة . نهره حمادي ، خوفاً من تماديه . لكن ادريس وكان قد امتلأ بالسكر على الجوع كعادته ، فتح فمه يقيء البيرة والنبيذ الأحمر .

انزعجت السيدة ، اختفى ظرف الزوج، وهو يرى أن هناك عالماً صعباً لا ينفتح على زجاجات الويسكي . سارعت الخادمة على نداء السيدة . وحمل ادريس كأسه :

ـ في صحة الفن والصالونات والتقدمية .

وبدأت الاستعدادات عجلى لتقديم العشاء .

عبدالجبار السحيمي



ريشة بيضاء في جناحه

مبارك ربيع

المقطع الأول من أغنية أجنبية :

حبيبي أعرفـــه
في ظلمة السجن وضوء الفجـــر
حبيبـــي أعرفـــه
في شمس اللهيب ونار التعب
في الغابات الموحشة ، وزوايا الغـدر
في حبـــات العـــرق
في ندوب الجلـد وزأرة السجان
في رعشة الموت من أجل الحياة
حبيبـــي أعرفـــك

حركة الشفاه الآلية فيما يسمى الكلام، الحديث ، تقلص السحنات فيما يسمى ضحكاً، ابتساماً ، ارتماءات الأيدي فيما يدعى بهجة وفرحة ومرحاً ··· حملقة الأبصار ،تحديقها فيما أريد له أن يكون فرجة وملهى ···

يجرب (أحدهـم) أن ينصت ، أحـس بالسمع يخونه فليس ما يجري أكثر من أصوات ناشزة تتقاطع متداخلـة متنافرة تتخللهـا انفجارات كتتالي رعد أو قصف مدفعي بعيد، الأفضل أن يتكلم ، خانه الصوت ، خانه اللفظ والمعنى · قال ان بطولة كرة القدم ·· وآخر الأفلام ··· وبدأ يحكي أخبار صديقهم (س) ·· آخر الأفلام ··· انتهى الكلام ، انتهى الحوار · الأصوات عديمة المعنى واللفظ ، تتقاطع متداخلة يتخللها قصف الرعد ··· جرب أن يتنبأ بسريان الحديث ومنعرجاته : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ·· خمسة وثلاثون ·· الآن ينتهـي موضوع الكـرة ، ويبدأ موضوع آخر ماذا يكون ؟ أخبار صديقة صديقهم (م) · صديقه (ر) يتحدث عن صديقتها (م) · نفس ما قاله منذ لحظة في حق صديقهم (س) ، وكان يكفي تحويـل علامات التذكير في حديثه الى علامات تأنيث ليتطابق الحديث ··· يذكره ذلك بتمارين النحو والصرف السهلة البغيضة في الابتدائي ··· ثلاثة وأربعون ، أربعة وأربعون،خمسة ··· و ··· يعود الآن حديث عن آخر فيلم· فكاهي ؟ مأساوي ؟ لا · اجتماعي ، أي غرامي سخيف ··· أحدهم يأخذ الآن بزاوية جديدة من الحديث عن فيلم علمي ، يعني جنسـي فاحش فاضح وتجاري لكنه علمي كاجتماعية الفيلم الآخر · يتقاطع قصف الرعد مع هدير انفجارات متقاطعة ··· واحد ··· اثنان·· ستة عشر ··· خمسة وعشـرون ·· ستعود الدورة ويبدأ الحديث عن بطولة كرة القدم المحلية والعالمية ·· ينصرف الآن عما لا فائدة فيه ، عن السمع والفهم والكلام · الدائرة محصورة ضيقة · ليجرب أن يتفرج · الفرجة رقص · الرقص خطو محدود محسوب محصور



٠٠ أو الحلبة نفسها محصورة ، النغم نفسه محصور داخل الحلبة وداخل نفسه ٠٠ ويمكنك أن تعد من واحد الى عشرة ٠٠ خمسة عشرة، تقريباً لتكرر كل حركة نفسها ، كل نغمة تعود من حيث بدأت ٠ جرب أن يشاهد شاشة مضيئة ٠٠ كل شيء يتكرر ٠ الكون كله معدود محسوب ٠ تكرار يولده التكرار ، وتراكم ٠ لا بد أن ينهض ، ونهض ٠ الهواء نفسه تكرار ٠ وعلى الأقل يمكن تجديد التكرارات بتجديد المكان والزمان ٠ في الشارع مربعات الاسفلت الصغيرة تتجاور في تقطيعات تعاد وتعاد ٠ ضربات الخطو نفسها ، والملصقات ودوائر البصاق ، وألوان الزينة على وجوه النساء ٠٠٠ البنطلونات الفيلية الضيقة والصدور العارية ، وأنصاف العارية ، والنظارات الملونة الدائرية والمربعة ، والبطء والعجلة ، وهذا المتسول المشوه الخلقة وبائع الصحف والمجلات ٠٠ دوامة الشرق الأوسط ، دوامة لبنان ، الديمقراطية الحقيقية ٠٠٠ مبادؤنا ومبادئهم ٠٠٠ ويمكن التنبؤ بسائر العناوين الداخلية والخارجية لصحف لم يقرأها ، وربما لم تخلق بعد ٠ في لمح البصر نفدت كومة مجلات لماعة ذات صور مغرية للاشهار ، سحبتها على التوالي نواعم سواعد فغمت أنفه عطورها البحرية المنعشة ، ووجد متعة عابرة في أن يتتبع احداهن وهي تنفح البائع ثمن المجلة ، وتسير مولية ظهرها ، تتنبأ باشهارات المجلة التي تحمل ، ووجد نفسه في الحال يتذكر صاحبته (ع) ٠ طالما تصفح معها عندها نفس المجلة ، كما تصفحا ذاتيهما ثنية ثنية وسطراً سطراً ٠ ماذا يمكن أن تجد فيه صاحبته من جديد بعد الكشف الأول والثاني ، أما هو فقتله فيها التكرار ٠ الجديد الذي يتكرر فيصبح قاتلا ثقيلا ٠ من المرأة يعود الى صف الصحف ٠ مجلات وجرائد ٠ يتابع تنبؤاته بالألفاظ والمضامين ٠ وقال في نفسه ، وفي حمية ما يقال له حماس ذاتي ، أو صدق أو ما شابه ذلك : لو كنت زعيماً برلمانياً لطالبت باقامة الرقابة الشديدة على الصحف ، وأشد رقابة ممكنة ٠ يعارضون ، يثورون ضدك ، يصفونك بما يشاؤون ٠٠ لا يهم ٠ المهم أن يجد فرصة ليقول : تحت أشد رقابة ممكنة على الحرف ، سنجد بين المبالغات والأكاذيب والتحريفات والرموز وغيرها مما يطفح به الاحتراف الصحافي والسياسي ، نجد حتماً هنا وهناك حروفاً تطل بفلتات سياسية مغذية ٠ الآن ، كان الرقيب ، وأشد رقيب سكن شغاف كل قلب من الداخل ، فضبط ايقاع النبض ضبطاً تكرارياً محكماً ٠

الحركة الآلية للشفاه ، للأطراف للسمع والفهم ، للاستجابة والرد ٠٠٠ واحد ٠٠٠ اثنان ٠٠ ثلاثة ٠٠ ماذا عن كرة القدم ؟ واحد اثنان ٠٠ آخر فيلم ٠٠ آخر نكتة ؟آخر خبر ؟ قائمة الموضوعات اليوم تتضمن ضيفاً جديداً لم يتكرر لأكثر من أسبوع بعد : موت فنان أو زواجه فهما سيان ٠ واحد ، اثنان ، ثلاثة ٠٠ الآن جاءت الدورة ليتساءلوا وأين صديقهم (أ) ؟ لماذا لم يحضر منذ أيام؟وكيف يخرج عن عادته؟ جماعته ؟ وأين هو ؟ تسألهم عنه جديد الآن ، جديد غداً يتكرر ويتكرر ليأخذ مكانه في الدورة ٠٠ ثلاثة وثلاثون : الكرة ، الفيلم ، النكتة ، مربعات البلاط المرصوفة في الشارع ودوائر البصاق ، والصديق (أ) ٠٠ ثلاثة وأربعون ، أربعة وأربعون : الكرة ٠٠ الفيلم ، النكتة مربعات ٠٠٠٠

المقطع الأخير من أغنية بلدية :

والى ماج الموج ٠ غامت الأفلاك
وهاجت رياحو
طيري ما يخفى ما يغيب ٠
حبيبــــي ٠
ريشة بيضاء في جناحو ٠

نشيد صغير

لأطفال يوم السبت

عبد الرفيع جواهري

- ١ -

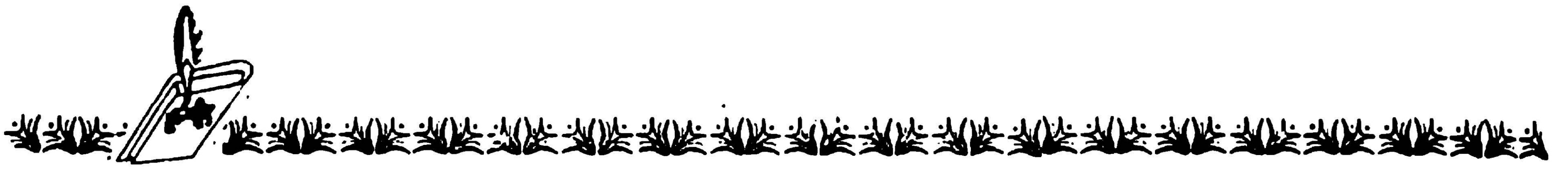
لكل استدارة وجه صغير رصاصه
لكل العيون الصغيرة
كل يد رسمت لاءها وتهجت
رصاصه
لكل الشفاه الصغيرة
للبرعم المغربي الجميل رصاصه

- ٢ -

تلال الأيادي الصغيره
تلال الرؤوس الصغيره
أصابع فوق الرصيف
وصوت خديجة تحت الرصاص
وصوت خديجة فوق الرصاص
خديجة بلبلة تستغيث
تطاردها قبعات الحديد

- ٣ -

رصاص .. رصاص .. رصاص
ووقع خطى من حديد
غزاة يجيئون من كل صوب
وجوه حديدية ، صوت وحش أجش :
قفوا
قبرات صغيره
وأجنحة يتنفس فيها الربيع
تحلق فوق الغزاة
تغني / تغني / تغني /
وجوه صغيره
شفاه صغيره
تغني نشيداً صغيراً
قفوا
يجيئون من كل صوب
قفوا
يغنون ملء الدروب
وملء الأزقة
لا شيء يوقف هذا النشيد
قفوا
رصاص .. رصاص .. رصاص
ترفرف في دمها القبرات
ولكن أغنية تتصاعد لبلابة في الفضاء



- ٤ -

يجيء الغـزاةُ صباحـــاً
يجيء الغـزاة مســاء
وجـوهٌ حديديـةٌ توزّع في كلّ دار
بريـدَ اغتيـــال .
بريد لكـل الوجـوه الصغـيره
بريد لكـل الأيـادي الصغـيره
وأمـي التـي هيّـأتْ
معطفاً لخديجةَ تبحث عـن طفلةٍ كالقمـرْ
خديجةُ في ثوبها الأبيض اليومَ ينفجر الوردُ
ترفـع منديلهـــا
مُلوحـةً لحـزيـرانَ .. للبحـرِ
للبسمـاتِ الصغـيره
خديجـــةُ .. أيـن خديجـــةُ
هـا هـيَ نيِ :
طلقـــةٌ .. طلقـــةٌ .. طلقـــةٌ
قطـرةٌ .... قطرتــــان
غصونُ دمٍ وارتعاشةُ نجـمٍ صغـيرٍ
تألّـمَ ثـمّ هَـــوى

- ٥ -

هُـو السَّبتُ
يبتـدىء المـوتُ سبتــا
ثُقـوبٌ صغـــيرهْ
لكـلِّ الجبــاهِ الصغـيره
ريـاحٌ مـن الشـوكِ
صـوتُ غـــرابْ
جنــاح غـــرابْ
علـى كـل دار
وشمسُ حزيـرانَ بقعـةُ دمْ
هُـوَ السَّبتُ
كـلُّ الغــزاةِ هنـــا
جسَدٌ أبيضٌ تحت أقدامهمْ
مَطـرٌ من دمٍ فاملئوا قدحاً .. قدحـاً
واشربـوا ... واشربـــوا
هـــوَ السَّبتُ
يبتـدىء الشربُ سبتـــاً
نبيـذٌ لكلِّ الغــزاهْ
فاشـــربـــوا .....
لكُم كاسكـم ولنـــا يومُنـــا
هُـــوَ السَّبتُ
يبتـدىء المـوتُ .. لا ...
انـــه العِشـــقُ
يبتدىءُ العشـــقُ سبتـــاً
ولا ينتهـــي

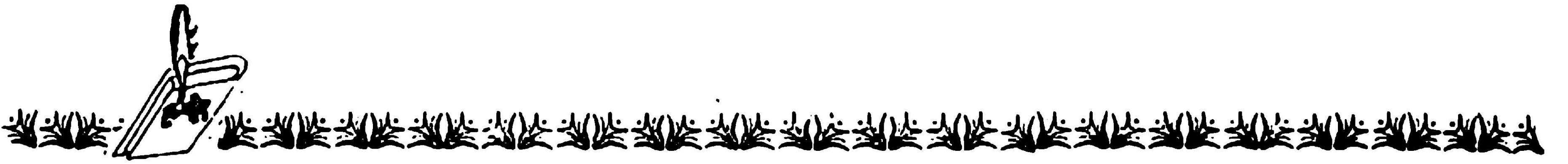
مراكش في ٨٢/٢/١٠



شعاع غزّة الجميل

محمد الاشعري

هادئاً يتحول هذا الشعاع الى رجة
وتحول استماتته بينه واحتضار الشظايا
يتقدم نحو المدى المتفسخ عبر انسداد المساء
ويوقد فرحته ، كما توقد السفن المشتهاة مصابيحها
هادئاً يتوغل هذا الشعاع بعيداً
وتهوي نضارته مطراً فوق أجنحة البرتقال
فوق أديم الجبال المرصع بالمعدن الأبدي
ويوغل في صمته
راحة تتلقى اخضرار الحقول
وتنشره في امتلاء الشرايين
جسداً مشرعاً لامتثال المرايا
فسحة لاختمار العلاقة والوطن المر
يتجزأ نبضي ،
يصير سنابل مثقلة تتقاطع سيقانها
وتسافر في رحم الأرض موصولة باللقاح المدمر
ألتقي في مساري بقافلة تتغذى بثقل التساؤل
فأشعل أطرافي اليابسة
وأسفح خمري وأغنيتي : قرى للعبور الجميل
وفاتحة لاغتصاب الكلام
يقول الدليل : اتبع الشجر المر حتى مشارف غزة



وها أنذا أسأل العابرين متى اشتعلت بنواصي المآذن أنجمها :
كيف أعبر نحو مداها الفسيح عصور المماليك
وأغسل وجهي بملمسها المستحيل ؟
هادئاً يتحول هذا الشعاع الى لجة
أتأمل مندهشاً رعشات البروق الجميلة
وأقاوم ذعري بفاكهة الأمل المتدفق بين دم مطفأ
ودم يتقدم نحو اشتعال العصافير
لجة لتناسل أجنحة السمك المتغرب
وامتلاء الفضاءات بالعشب والثلج
وبزوغ القوارب خلف لهيب الشروق
أتأمل مندهشاً فرحاً يتقدم نحوي
أرى ريشه الأرجواني منتشراً فوق حزن الخرائب
وأرى في هبوب تضاريسه شاطئاً ونخيلا وسرباً من الخيل
فلا أتذكر حيفا
لأن الخرائط لا تتوقد في الذاكرة
لأن الذين أحبوا شوارعها أشعلوا للعبور سواعدهم ثم راحوا
ولكنني أتذكر أغنية تتحدث عن برتقال ودار مرممة ونوافذ
تسرق من جسد البحر زرقته
وها أنذا أشتهي نخلة من أماسي الصعيد
أشتهي لحظة خلف نافذة بزقاق بغزة ينتظر الفجر
وأحلم أن السواقي تجيء الي بغبطة بيروت
يا جبلا يسكن الأرز قامته
مد صوتك للنرجس المتفجر
وامنح له شهرة السنوات العجاف
وبعض نضارة قتلاك
راعشاً يتقدم هذا الشعاع
ووجهته شاطىء أو نداء
وصهوته شجر لا يشيخ
وقافلة للعبور الجميل ٠

★ ★ ★

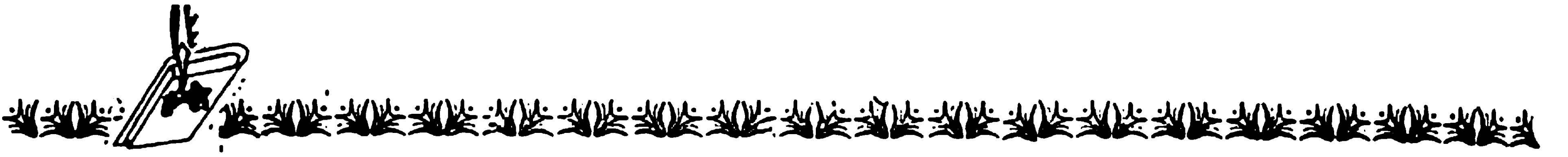


بسـام يورق حـزننـا
لا شيء يوقـد حبنـا مثـل انهمار الثكل !
واقـول دعني أكسـر حاجز الكلمـات والادمـان
دعنـي أزف لك ابتهـاجـي
أسـابـق نحـوك الطعنـات
وأرسـم وجهك الفضـي فـوق ملامـح الأحبـاب
وأقول هذا وجهنا المنقوع في صـدأ المسافة ينتشي بنداك
ليس أرحب منـك ذاكـرة سوى حيطـان حيـك
والنهـر الذي يمشـي على قدميـك ،و الأشـجار
ليس أينـع من يديـك سـوى زهـور البرتقـال
ووجـه صبيـة خرجـت لترقص تحـت أمطـار الشهادة ٠

★ ★ ★

لسحـابهم صـوت كنبض القلب
لنهوضهـم لـون البنفسـج والبحـيرات الولودة
لسـقوطهـم طعـم الافاقـة
لدموعهـم ثمر ، لبسمتهـم شواطـيء مشمسة
تتآكـل الأرض الصبـورة تحت أعينهـم
فينخـرطـون في أشـلائها
ويقتسـمون بين دمائهم موت التراب
لنستطيـع على امتداد رمالنا الصفـراء رؤية واحـة تطفـو
فنـزحـف نحـو خضرتهـا
وننحت من تشـققنا طريقـاً للقـاء
لسحابهـم صـوت كنبض القلب
صوت ارتطام دمائنـا بتصـدع من ألف عـام
صـوت استعادة سمعنا في غابة الكلمات والأحجـام

★ ★ ★



يومض من خلال احتراقك البركاني ، وجه تفيض مآقيه حدائق وأنهاراً • أقرأ على ضوئه ألواحنا المهربة • في فاتحة الكلمات يوجد اسمك ، تتناسل حروفه جداول لاخصاب اللغات • غزة كأن تقول الأرض أو الشمس أو القمر • جزء من كل وكل لا جزء له جزء مفصول عن كله ومندمج فيه • غزة كأن تقول تتشكل الشيء ونقيضه ، تفجر النبع وميلاد الصحراء • تشكل البسمة من ملح الدمع • أقرأ في ألواحنا المدفونة نشيداً عن عريك الغابوي • أتهجى خضرتك القادمة من رماد المعارك المنسية ، تلك التي تتجه نحونا كالهواء وتوقظ حبنا للحياة وتمنحنا الشجاعة على التحديق في عيون أطفالنا ، ثم أغرق في بحيرة حروفك الخضراء أستنشق عبير دمك الواقف بيننا وبينك ، وأقول : كيف ستعبرين الينا ونحن بلا شرايين ؟ ثم أقول هذه مدننا تمتد كتلاً بيضاء كالغمام البعيد ، تسعل أكواخها كل مساء حتى يأتي الفجر فتمسح خطوات العمال دمها وتقضي اليوم شاردة تسند تنفسها المبحوح بالتماع عيونها الزرقاء •

هل لك شيئاً يائساً ؟

معذرة لخصبك القاهر • ان بياض الأرض يجعلني أرتعش حزناً • ليس لأني لا أومن بالماء • ولكن لأنهم قلة هؤلاء الذين يخترقون اليه الصخر •

* * *

صوتك الآن سنبلة تتلاقح سيقانها الدموية
عبر رحيل السحاب
هي ذي غيمة تتوقف فوق أزقتنا المغربية
تأخذ شكل صبابة فاس
وشوق الحسيمة باحثة عن صداها البعيد
تقول : لغزة أغنية تتساقط غيثاً ولاتنتهي
تقول : الي بحرقتكم اذ تجيء الرسائل مثقلة بالشذى
وتودون لو يحدث المستحيل
صوتك الآن سنبلة تتحول حباتها جسداً
يتقاسم أجزاءه حملك الأبدي وشهوة هذي الرمال
واذ يتقاطر غيثك ملتحماً بنشيد المخاض
يصير العبور اليك انخراطاً بطقس الولادة •

محمد الأشعري

(مارس/أبريل ١٩٨٢)